علي يحيى معمر

الإباضية في موكب التاريخ

الحلقة الرابعة

الإباضية في الجزائر

الجزء الثاني

صححه
الأستاذ أحمد عمر أوبكه

1286/4
ق2

ملك جمعية
أبي إسحاق إبراهيم اطفيش
لخدمة التراث

1286 - 2

علي يحيى معمر

الإباضية في موكب التاريخ

الحلقة الرابعة

الإباضية في الجزائر

الجزء الثاني

صححه

الأستاذ أحمد عمر أوبكة

كتب هذا الفصل من الكتاب
سنة 1386 هـ
معلومة لبطاقة المعاينة
(284 ص)

- حقوق الطبع محفوظة -

﴿ بسم الله الرّحمن الرّحيم ﴾

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستغفره ونتوب اليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له .

« وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

« أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحثكم على طاعة الله ، وأستفتح بالذي هو خير .

« أيها الناس : إنما المؤمنون إخوة فلا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفسه . ألا هل بلغت . اللهم فاشهد ، فلا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض . فاني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا : كتاب الله وسنتي ... ألا هل بلغت . اللهم فاشهد .

« أيها الناس : إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت . قالوا نعم . قال : فليبلغ الشاهد منكم الغائب » .

(أجزاء من خطبته صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع) .

الباب الثالث

صور مختلفات عـن :

مشهد واحد

عزيزي القارئ :

في هذا الباب رأيت أن ألتقط صورا مختلفة ومن زوايا متعددة أضمها ضمن إطار واحد ، ينتقل فيها النظر من صورة إلى صورة ، وتلك الصورة في مجموعها تكوّن مشهدا واحدا إذا نسقت مع بعضها البعض وتعطي كل منها منظرا مستقلا إذا فصل بعضها عن بعض .

وهي عند جمعها تنسجم انسجاما كاملا ، وتتسق اتساقا تاما مع الصورة الكاملة التي وضع الكتاب من أجلها وهي ولا شك تملأ منه فراغات، وتسد فيه فجوات ربما كانت فيه بين بعض الفصول أو أثناء الفصول .

ومهما كان الأمر فإن الصورة الكاملة الواضحة في ذهني التي أردت أن أعرضها على القارئ الكريم بوضعي هذا الكتاب لا تتم إلا بهذا الوضع .

الإباضية في الجزائر

قد كنت وجهت إلى شيخنا الفاضل أبي النهضة الجزائرية وشيخ صحافتها السؤال الآتي :

ما هي المواطن التي كانت عامرة بالإباضية في عهد الدولة الرستمية وما بعده ؟

وقد أجابني رحمه الله إجابة مسهبة ، وذكر مواطن الإباضية في كل من ليبيا وتونس والجزائر . وخلاصة ما ذكره عن الإباضية في الجزائر ما يلي :

« أما في عهد الدولة الرستمية فإن الخريطة التي وضعها الأستاذ محمد علي دبوز كافية في بيان الغرض ، وأما فيما بعد ففيما يلي :

1 ـ وادي سوف .
2 ـ وادي أريغ .
3 ـ وادي ميزاب .
4 ـ باغاي .
5 ـ جبل أوراس .
6 ـ الزاب .
7 ـ وارجلان .

وقد وجهت نفس السؤال إلى شيخنا الفاضل الشاعر الأديب باكلي عبد الرحمن بن عمر فأجابني إجابة مسهبة فيها كثير من التفصيل وخلاصة ما ذكره :

« المواطن التي كانت آهلة بالإباضية في القطر الجزائري هي :

1 ـ الزاب .
2 ـ وادي أريغ .
3 ـ وادي سوف .
4 ـ تاجديت .
5 ـ وارجلان .
6 ـ آجلو .

7 ـ الرمال وهو موطن لا يبعد كثيرا عن سوف .
8 ـ جبال بني مصعب .
9 ـ متليلي .
10 ـ الأغواط .
11 ـ المنيعة (أو القليعة) » .

هذا خلاصة ما قاله الشيخان المؤرخان الكبيران . ولا شك أن الكاتب الذي يريد أن يترسم خط الإباضية في الجزائر ، ويتتبع آثارهم من حيث العلم والخلق والدين ، يجد آثارا منها في كل ناحية من نواحي الجزائر فقد كانوا منتشرين في جميع المغرب الإسلامي وفي الأندلس أيضا .

غير أنهم اضمحلوا في بعض الجهات بسرعة ، واستقروا في جهات أخرى لعوامل سياسية غالبا . كما أنهم كانوا يكونون كل السكان أو أغلب السكان في بعض الجهات . ويكونون أقليات أو أفرادا في جهات أخرى ولا شك أن الأعداد الوفيرة منهم إنما كانت تستقر في المناطق الوسطى الأقرب إلى الجنوب في تونس والجزائر والمغرب . ورغم أن التكتل الكبير لهم إنما كان في تاهرت حيث أسسوا الدولة الرستمية وهي في الجانب الغربي الشمالي من الجزائر إلا أن هذا التكتل لم يطل به الأمد بعد انقراض الدولة الرستمية سنة 296 فقد جد حكام الدولة العبيدية في القضاء على جميع من يتبع المذهب الإباضي وينتسب اليه لأنهم يرون أن الاباضية أشد فرق الأمة معارضة لبدعهم ، ونقدا لتصرفهم وغلوهم وإظهارا لانحرافاتهم . وتحت ضغط أولئك الحكام وقسوتهم تفرق الإباضية من تلك المنطقة ، وشردوا إلى جميع الجهات وقد كان اتجاههم إلى الجنوب الشرقي أكثر من اتجاههم إلى النواحي الأخرى .

وبهذا السبب تكتل الإباضية في الواحات مثل وارجلان وسدراتة ووادي أريغ ووادي سوف وغيرها من الواحات الواقعة في خطها مثل بغاي وجبال أوراس والزاب ووادي ميزاب ثم في بلاد قصطيلية في القطر التونسي وما والاها إلى الشرق والشمال .

وعاش الإباضية في جميع هذه الأمكنة دون أن يكونوا لأنفسهم كيانا سياسيا أي(دولة) أويدعوا إلى تكوينه . وإنما كانوا يعيشون تحت نظام العزابة الذي تحدثنا عنه في فصول سابقة . ويحمل هذا النظام جميع مزايا الحكم الشوري الإسلامي ما عدا منصب الخليفة أو الإمام . والأحكام الخاصة به والتي لا يحق لغيره أن يقوم بها . على أن الأحكام الخاصة بالخليفة نفسها كثيرا ما يقوم بها مجلس العزابة . ويكلف شيخ الحلقة بتنفيذها أو ينفذها أعضاء المجلس أنفسهم . كإجراء بعض العقوبات التي لا تبلغ الحدود كالأدب والنكال والتعزير وكإصدار الأوامر وقيادة الجموع في حالات الدفاع وكعقد الاتفاقيات ، وذلك عندما لا يكونون تحت سلطان دولة مسلمة . ويكون قيام مجلس العزابة بمثل هذه المهام أيسر عليهم حين تكون بلادهم غير خاضعة لدولة قائمة أو تابعة لها سياسيا . فهي في تلك الأحوال تشبه أن تكون جمهورية مستقلة رئاستها العليا بيد مجلس العزابة وقد بلغ من المجلس في بعض الأحيان إلى أن صدر له عملة نقدية خاصة . (1)

ولكنه في جميع الأوقات لا يعلن عن نفسه كدولة ، ولا يدعيها ، ولا يقبل هذا الوصف ممن يسبغه عليه ، ولا يباشر الأحكام التي يباشرها باسم الحكام وإنما باسم مجلس العزابة .

أما القوة التي استطاع بها هذا المجلس أن يقود المجتمع بنجاح وأن يفرض بها طاعته على الناس ، وأن يكسب احترامهم لأحكامه فهي :

(1) أخبرني بذلك أستاذنا الفاضل الشيخ باكلي عبد الرحمن وكفى به حجة .

1 ـ استقامة أعضاء المجلس ونزاهتهم وحسن سيرتهم وسلوكهم ومحافظتهم على الدين محافظة كاملة في جميع الأحوال .

2 ـ قوة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي كان من ثمرتها الولاية والبراءة الشخصيتان ـ حسب قواعد المذهب الإباضي ـ وبحكم البراءة هذا استطاعوا أن يغلوا أيدي الناس عن ارتكاب المحظور ، وتجاوزوا المحظور الشرعي إلى المحظور العرفي . وبذلك استطاعوا أن يحافظوا فوق محافظتهم على الدين وأحكامه وآدابه على مجموعة من العادات الحسنة وأنواع السلوك الذي يتمشى مع روح الإسلام وإن لم تضبطه نصوص ، وأن يحافظوا على الروابط المتينة بين الناس ، وعلى ما تعارفوا عليه من الآداب والسير في جميع مرافق الحياة . وأن يحولوا دون تسرب العادات السيئة من المجتمعات الأخرى إليهم .

3 ـ الإسراع في علاج المشاكل عند ثورانها وعدم تركها حتى تستفحل ، ثم المساواة بين جميع الناس مهما اختلفت أقدارهم في إجراء الأحكام فلا أحد يطمع في أن يرتكب ما تجب به البراءة ثم ينجو من الموقف الصارم إزاءه . كما أنه لا أحد يطمع أن يرتكب ما تجب به الخطة أو الهجران ثم ينجو من الموقف الصارم إزاءه . والبراءة لا تكون إلا على ارتكاب المعصية التي تسقط بها الولاية .

أما الخطة والهجران فقد توقعان على من يخالف العرف العام للبلد أو الاتفاقات المعمول بها تحت رعاية العزابة . أو مخالفة السلوك المتبع في قضية من القضايا وبهذه الاعتبارات فإن الهجران نال كثيرا حتى من كبار العلماء .

أما البراءة فلا تقع إلا على من سقطت ولايته بارتكاب كبيرة .

ولا شك أن هذا النظام - ما بين سنة 286 تاريخ الهزيمة التي استوحى منها العالمان الكبيران : البغطوري والونزير في أصول هذا النظام متمثلة في الإعراض عن الجوانب السياسية الظاهرة والاهتمام بالجوانب الداخلية التعليمية والسلوكية . وبين سنة 1386 وهو تاريخ كتابة هذا الفصل - قد تطور تطورات كثيرة . فقد كان في مبدإ الأمر فكرة ثم سيرة ، ثم عرفا . ولا شك أن الإمام الجليل أبا مسور يسجا قد عرف هذا الاتجاه من علماء الجبل عندما كان يدرس في مدينة شروس على أستاذه العظيم أبي معروف فلما رجع إلى جربة وقد كان الإباضية بها أقلية ضئيلة وأكثر السكان إما خلفية وإما نكارا (1)

جد في التعليم والدعوة حتى اقتنع أكثر الناس بما يدعو إليه وانصرفوا عن التفكير في موضوع السياسة إلى التفكير الجدي في تنظيم يكفل لهم سعادة الآخرة وكان ولده أبو زكرياء فصيل - وقد أصبح قدوة وإماما لجميع الإباضية في الجنوب التونسي - قد شغل فكره بصياغة مواد ذلك التنظيم في وثيقة مكتوبة يمكن أن توزع على جميع مناطق الإباضية في المغرب ولكنه مع ذلك لم يخرج هذا العمل من حيز الفكرة إلى حيز التطبيق فلما جاء أبو عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي لاستكمال دراسته - وكان قد عرف هذا الاتجاه عند علماء الجبل وهو يتلقى العلم عن مشائخ بلده فرسطاء

(1) قال أبو العباس الدرجيني في كتابه (الطبقات) : وقد كانت الجزيرة حينئذ - أي حين كان أبو مسور يدرس في الجبل - ليس فيها أحد إلا على مذهب خلف بن السمح ، غير نفر قليل قد تقدم ذكرهم ، فدعاهم أبو مسور إلى مذهب الوهبية ، فأجابه منهم من أراد الله به خيرا . وكان بها حينئذ رجل من زواغة نكاري يقال له خلف بن أحمد ، وكان ذا مال كثير ، وكان متكرما ، فكان يصنع الطعام ويدعو إليه الناس ويدعوهم إلى مذهبه فكل من أجاب أبا مسور كان وهبيا ومن أجاب خلفا كان نكاريا ، حتى لم يبق في الجزيرة أحد على مذهب ابن الشيخ بل صارت كلها تبعا لأبي مسور ، أو لخلف بن أحمد . فأقام في الجزيرة تجتمع إليه الجماعات لطلب العلم وأخذ السير وانتهاج الطريق ، انتهى كلام الدرجيني قلت : وطلب العلم وأخذ السير وانتهاج الطريق هي الخطوط العريضة لأصول نظام العزابة .

ومنهم والده الذي قال عنه أبو العباس الشماخي في السير صفحة 384 ما يلي :

«ومنهم الشيخ الإمام المتقن بكر بن أبي بكر النفوسي الفرسطائي أخذ العلم من ابن ماطوس سليمان وقد تقدم التنبيه علي بعض أخباره مع أستاذه ابن ماطوس ويأتي تمام التعريف به في التعريف بابنه إذ هو أشهر وإن كان هذا أقدم » .

وقال في صفحة 392 في ترجمة ابنه محمد ما يلي :

« ودارهم معدن العلم قديما من أبيه وجده ، وجد جده على ما أظن وقد تقدم أبوه ولكنهم دونه في الشهرة » .

عندما جاء أبو عبد الله إلى جربة تدارس الموضوع مع أستاذه أبي زكرياء فصيل وحددا - فيما نظن - بنوده ولكن مع ذلك لم يتم تنسيقه في جربة فلما انتقل أبو عبد الله إلى مناطق أريغ أرسل أبو زكرياء إليه ولديه للتعليم ثم للتحريض على إنجاز المهمة وعكف أبو عبد الله فترة من الزمن على تحريره حتى أخرجه في الصورة المعروفة المنقولة تحت اسم (نظام الحلقة) قال الدرجيني في الطبقات ما يلي :

« وسبب ذلك ومبدأه أن الشيخ أبا زكرياء ، وجه ولديه زكرياء ويونس وابن أخيه أبا بكر بن يحي وغيرهم من أقاربه في جماعة وقال لهم : اطلبوا أبا عبد الله فحيثما وجدتموه فلازموه واقرأوا عليه وحيثما كان فكونوا معه ولو في شغل دنياه » .

وقال بعد سطور :

« فلما وصلوا تقبوس وافق وصولهم إليها قدومه من القيروان وقد حصل ما كان يفتقر إليه من علم اللسان » .

وقال بعد أسطر :

« فلما ألف الله شملهم بأبي عبد الله ، أعلموه بما جاءوا في طلبه وألقوا إليه ما فارقوا عليه جزيرة جربة ، وما وصاهم عليه الشيخ أبو زكرياء ، وأكد عليهم في أن يكون ، ورغبوا إليه في أن يجلس لهم ويرتب لهم الحلقة » .

وقال بعد سطور :

« ثم انتقل أبو عبد الله وتلاميذته إلى «تينيسلي » فرتب بها الحلقة وشيد من كريم البنيان ما يتشبث به العزابة ويتشبهون به الآن ، وإن كان الناس قد فسدوا ، وفسد الزمان .

فهذا سبب قعود الحلقة المباركة ، الصادرة عن أكرم مشاركة بين الشجرتين الطيبتين : المسورية والبكرية بخطبة وإجابة كانتا في الله فتولدت بينهما هذه الأنوار البهية ، فلنذكر لمعا من الآداب التي جعلها قوانين . وصيرها جميعا مسالك سبل العلم والدين . وكان انتقال الشيخ أبي عبد الله إلى أريغ سنة 409 ، (تسع وأربعمائة) ولذلك يسمى الغار الأول المذكور «التسعري » (1) نسبة إلى هذه السنة .

ولم يبق النظام على ما سطره الإمام أبو عبد الله بن بكر ولا على ما حرره تلميذه أبو الربيع سليمان بن يخلف وإنما تطور مع الزمن فكانت تضاف إليه من حين إلى آخر تنظيمات جديدة وصلاحيات جديدة ، وتخصصات محددة لكل قسم من أقسام الحلقة كتخصصات مجلس العزابة وتخصصات التلاميذ (إيروان) وتخصصات المساعدين (إمصوردان) على النمط الحالي الذي يجري به العمل في وادي ميزاب ووارجلان ، وقد حرص الإباضية

(1) كلمة التسعري مأخوذة من (تسعة وأربعمائة) على غرار قولهم : عبدري في النسبة إلى عبد الدار وعبشمي في النسبة إلى عبد شمس .

في المغرب الإسلامي على تطبيق نظام العزابة بشيء من الدقة والمنافسة منذ وضعه الإمام أبو عبد الله بن بكر بل لقد حرص الإمام نفسه على تنفيذ النظام وذلك هو السبب في كثرة رحلاته وتنقلاته حتى يرى بعينيه مدى تطبيق النظام والنتائج المترتبة عليه ، على أنهم في تطبيقه ساروا على أساليب مختلفة اختلافات بسيطة بين جهة وأخرى وفي الإمكان إيضاح ذلك فيما يلي :

1 - في كل من جبل نفوسة وزوارة كان يتكون مجلس العزابة - كامل الأعضاء - في كل قرية أو مدينة ولكل مجلس شيخ ومن مشائخ جميع المجالس يتكون المجلس الأعلى للعزابة . ومقر اجتماع المجلس الأعلى للعزابة - في الجبل - هو مدينة جادو وقد اختيرت لتوسطها بين مناطق الاباضية في الجبل ولأجل اختيارها مقرا للحكم بني فيها مسجد « إمصراتن » باشتراك أهل الجبل جميعا في بنائه حتى تتم فيه الاجتماعات وتنعقد فيه مجالس الشورى عقب الصلوات ، وقد اشترط على جميع من اشترك في بنائه أن يعتمد على نفسه في نفقاته وأن لا يقبل ضيافة أحد مدة اشتغاله بالعمل حتى يكون عمله كله لله لا تدخله أية شبهة .

وهذا المجلس الأعلى هو الذي يتولى جميع الشئون الداخلية والخارجية ، وشيخ هذا المجلس يطلق عليه شيخ الجبل ، أو حاكم الجبل ، ووصف في فترات قصيرة بالأمير ، وبأي وصف من الأوصاف السابقة فهو الذي يتولى تنفيذ جميع قرارات المجلس وإعلان أحكامه ، وعليه أن يتخذ قرارات سريعة في الأحداث المستعجلة التي لا يمكن أن تنتظر إن أمكن باستشارة من حضر من عزابة قريته أو غيرهم ، او حتى بدون الرجوع إليهم إذا كان في الأمر ما يستدعي الإسراع ويتحتم عليه أن يقيم في جادو مدة ما هو حاكم للجبل ، ولا يسمح له إلا بزيارات محدودة لا تؤثر على سير العمل إلى موطنه الأصلي ، وفي فترات متقطعة .

2 ـ في جربة : كان مجلس العزابة فيها أيضا يتولى جميع الشئون الدينية والإجتماعية للجزيرة ، وكان للجزيرة مجلس واحد ، ولكن طبيعة الجزيرة في كونها تشبه أن تكون مدينة كبيرة جدا ذات ضواحي متعددة كانت تقتضي أن يكون أعضاء المجلس غير محدودين بالعدد المعروف لمجلس العزابة ، فقد كان توزيع المساجد يقتضي أن يتعدد الأئمة والمؤذنون والمدرسون ، وهذه الوظائف حيوية في مجلس العزابة ولذلك فقد كان عدد أعضاء مجلس العزابة يتغير تبعا للمصلحة واحتياج الناس ويصل في بعض الأحيان إلى ضعف عدده الأصلي أو أكثر من ذلك ، ولكنه في جميع تلك الأحوال لا يكون له إلا شيخ واحد هو شيخ العزابة . كما أن مكان الاجتماع غير محدد فكان ينعقد غالبا في المسجد الذي يصلي فيه الشيخ عادة بعد صلاة العصر ، وقد ينعقد في بيته أو في بعض المساجد الأخرى حسب الظروف والأحوال .

وفي جربة كان يوجد إلى جانب شيخ العزابة شيخ آخر يسمى شيخ الحكم وهو يستند في جميع أموره على مجلس العزابة . وقد يستبد أحيانا فتصاب الجزيرة بأفدح النكبات . (1) .

وعلى هذا ففي الجزيرة شيخان ، أحدهما هو شيخ العزابة ويتولى جميع الشئون الدينية والاجتماعية باسم مجلس العزابة ، والثاني هو شيخ الحكم ويتولى الشئون الإدارية والسياسية والعلاقات الخارجية للجزيرة باستشارة مجلس العزابة أو شيخه غالبا . وفي هذه الحال يحرص المؤرخون عندما يتحدثون عن الشيخ الأخير أن يصفوه بالحكم فيقولون : « شيخ الحكم » حتى لا يشتبه على القارئ فيظنه شيخ العزابة ، وقد تجتمع المشيختان في النادر عند شخص واحد وحينئذ تكون جربة على أهنإ الأحوال .

(1) راجع الإباضية في تونس : فصل المجامع العلمية .

3 ـ في وادي ميزاب طبق نفس النظام الذي طبق في جبل نفوسة مع تقليل بسيط في صلاحية شيخ الوادي أو شيخ العزابة ، وإن كانت اختصاصات المجلس الأعلى للعزابة في الجبل وكل ما هنالك من فرق أن شيخ العزابة في الجبل يطلق عليه في كثير من الأحيان اسم حاكم الجبل ، وقد يتخذ إجراء أو يصدر آراء في شأن من الشئون المستعجلة دون أن ينعقد المجلس أو يدعوه إلى الانعقاد ، وذلك غالبا في الأحداث الطارئة ولا سيما في قضايا الدفاع ورد العدوان .

أما شيخ المجلس في الوادي فهو يعلن الاتفاقات التي صدرت في المجلس وليس له أن يصدر أمرا إلى جميع سكان الوادي دون الرجوع إلى انعقاد المجلس واتخاذ القرار فيه . وقد يعود هذا فيما يبدو إلى طبيعة البلاد فانعقاد المجلس في الجبل تكتنفه صعوبات كثيرة كبعد المسافة ووعورة الطريق ويحتاج انعقاد المجلس إلى ما لايقل عن أسبوع من التحضير والذهاب والإياب . ولذلك فإن الامور التي لا تحتمل التأخير يصدر فيها حاكم الجبل أمره ويتصرف حسبما تقتضيه المصلحة العامة مع استشارة أهل العلم والرأي ممن حوله ، أما طبيعة وادي ميزاب لا سيما قبل القرارة وبريان فهي تشبه أن تكون مدينة واحدة ذات ضواح ، والاجتماع فيها سهل يتم بيسر وفي مدة قريبة ، وقد فضل أهل الوادي أن يكون اجتماع المجلس في مسجد أبي عبد الرحمن الكرثي ثم انتقل إلى مسجد عمي سعيد الخيرى الجربي .

4 ـ في بقية بلاد الإباضية من المغرب الإسلامي كان مجلس العزابة يطبق على طريقة فردية أي أن كل قرية أو مدينة لها مجلسها الخاص بها والذي لا يرتبط في كل مشاكله بمجموعة من المجالس المتقاربة أو المرتبطة .

ويتضح من هذا أنه كان ارتباط مجالس العزابة في كل من

جبل نفوسة وجربة ووادي ميزاب لمجلس أعلى له الكلمة النافذة على جميع المجالس وشيخ واحد يتولى تنفيذ قرارات المجلس مع اختلاف بسيط في الاختصاصات فإن بقية قرى ومدن وادي الإباضية في المغرب الإسلامي لم تتوحد فيها مجالس العزابة على شكل كتل حتى في القرى الكثيرة المتقاربة كما هو الشأن في القرى التي أشرنا إليها آنفا وإنما كان لكل قرية أو مدينة مجلسها الخاص يتولى شؤون منفردا دون الارتباط بماجلس القرى الأخرى أو الرجوع إلى آرائها ولا يتعدى شؤون التي يشرف عليها ويتولى قيادتها .

ومع ذلك فإن الأحكام التي يصدرها أي مجلس عزابة في أية قرية من تلك القرى على شخص من الأشخاص بالبراءة أو الهجران كان يجد صداه في جميع الأماكن الأخرى . وتتجاوب جميع المجالس في ذلك لا يخل واحد منها بالحكم ولا يستطيع المحكوم عليه أن يلتجئ إلى بلد آخر ليزيح عنه حكم الهجران إلا بعد أن يعلن التوبة ويتنصل من التبعة إن كانت عليه تبعة وقَبِلَ منه العزابة في ذلك المكان أو غيره ، ويتلخص من هذا أن مسلك الإباضية بالنسبة إلى مجلس العزابة كان على نمطين الأول تكتل عدد من المجالس لعدد من القرى تحت مجلس أعلى . والثاني انفراد كل قرية بمجلس مستقل .

وقد أدى نظام العزابة في البلاد التي اتبع فيها النمط أو الإتجاه الأول « الارتباط بين المجالس » إلى حفظ مجتمع له خصائص الدولة الصغيرة ما عدا الاسم . وساعد على تكوين مجتمع متماسك ذي خصائص واضحة حافظ عليها وحافظت عليه رغم جميع المؤثرات الخارجية ، كما أنه منح القوى المشتركة في المجلس العام والتابعة لنفوذ شيخ واحد توحيدا في القيادة ، وقوة جماعية لمكافحة عوامل التفكك والتحلل والذوبان ، وجعلت ذلك المجتمع

أقوى على الصمود والدفاع كما أنها قللت من مطامع الغير فيه ومحاولة استغلاله بالعنف والقوة .

أما القرى والمدن التي اتخذت الاتجاه الثاني« انفراد كل قرية بمجلسها » فإن العوامل الخارجية سرعان ما أثرت عليها ، ولم تصمد لها طويلا رغم المواقف العنيفة والحركة النشيطة الدائبة في حفظ مجتمع ذي خواص متميزة داخل قرية أو مدينة واحدة منفردة .

وبناء على ذلك فقد استطاعت العوامل التي كانت تستغل الخلاف المذهبي أن تغير المذهب في تلك القرى والمدن - ما عدا وارجلان وزوارة - وأن تتغلب عليها تارة باسم الدولة ، وتارة باسم الدين لأنها تناولتها عن طريق الا فراد لا عن طريق الجماعة . ولعل أغلب الأحداث التي أدت إلى تغيير المذهب الإباضي بغيره من أغلب البلدان إنما كان مبنيا على أحداث فردية أكثرها كان مفتعلا يقصد منه تغيير المذهب . يمليه أحد أمرين : تعصب مذهبي ، أو مكر سياسي . ولعل العصر الحاضر - رغم التسامح وكفالة الحريات - يحمل صورا من ذلك استجابة لرغبة متفقه متعصب ، أو متزعم متسلق ، أو حاسد يرى خيرا عند غيره ولا تطوله يداه .

تجمعات إباضية في الجزائر

كان أغلب السكان في الجزائر على المذهب الإباضي «1» لا سيما في الوسط والجنوب طيلة القرنين الثاني والثالث وكان أكبر تجمع لهم وأقواه في تاهرت وما حولها . وعلى هذه الكثرة تأسست الدولة الرستمية . وبقي هذا التجمع على كثرته إلى أواخر القرن الثالث حين تغلبت الدولة العبيدية على الدولة الرستمية - ولم يكن حينئذ نظام العزابة معروفا - فلما انفرط عقد الدولة الرستمية وزال سلطانها وتفرق رجالها وأتباعها بقيت بعض البلدان الآهلة بالإباضية على حالها وهذا غالبا في المدن والقرى المتطرفة البعيدة عن مراكز العبيديين والصنهاجيين من بعدهم . أما المدن التي كانت قريبة من مراكزهم وتحركاتهم فقد خرب الكثير منها ، وانتقم من أهلها . أما الأقليات والأفراد الذين يسكنون في مدن أخرى فقد حاولت السلطة أن تجبرهم على أحد أمرين : فمنهم من اعتنق المذهب الشيعي على كره ، ومنهم من قتل أو هاجر إلى حيث يأمن بطش العبيديين .

والواقع أن المناطق الشمالية والغربية قد قل منها الإباضية بعد الدولة الرستمية وأصبحوا فيها أفرادا لا جماعات وكانوا يتناقصون يوما عن يوم ، ولم يبق في المدن الكبيرة التي كانت عامرة بهم إلا عائلات معدودة أو أفراد قلائل . وبقدر ما كان الإباضية يقلون في المناطق الشمالية والغربية كانوا يكثرون في المناطق الجنوبية والشرقية للجزائر . وعندما ينعقدمجلس للعلماء في إحدى الواحات الجنوبية الشرقية للجزائر أو الغربية لتونس يكون المجتمعون من

(1) أصبحت هذه الدولة البربرية الإسلامية باسطة سلطانها العادل على كل ربوع الجزائر ما عدا الزاب الأغلبية وناحية تلمسان الإدريسية وكان المذهب العام يومئذ للبربر في كل بلاد الدولة هو المذهب الإباضي . عن كتاب الجزائر لتوفيق المدني ص 21 .

أماكن شتى وبلدان متفرقة متباعدة يقص كل واحد منهم المآسي التي عاشها في موطنه الأصلي ، وما بلغه ظلم الحكام وانحرافهم عن سبيل الإسلام . وفي المواطن الأصلية لهم قد تنقسم الأسرة الواحدة على نفسها يهاجر بعضها إلى مكان ، ويهاجر البعض الآخر إلى مكان غيره أو يقيم في مكانه الأصلي ينتظر الفرصة لصلاح الزمن وتبدل الأيام وسيادة الحق على الباطل بسبب من الأسباب . وكثيرا ما تكون المجاذبة والأخذ والرد بين أفراد العائلة الواحدة المنقسمة على نفسها كل يدعو القسم الآخر إلى الانتقال إليه والاستقرار معه .

قال أبو العباس الدرجيني وهو يتحدث عن أبي صالح جنون بن يمريان ما يلي :

«وذكر أن ابن عم له كتب إليه من بلاد المغرب : ياابن عمي :

إئتني فإنك أقمت في الأرض القفر « وارجلان » فإن عندنا أرضا كريمة ، قدر كساء يحمّل البعير وسقه حبا فأجابه أبو صالح : ياابن عمي : إئتني فإن عندنا أرضا ، قعدة رجل يحمّل البعير وسقه عسلا» .يعني النخلة .

والشواهد على هذا كثيرة حتى أنه يعسر على المؤرخ أن يعرف مواطن العلماء الذين ينسبون إلى بلد ما أو يعيشون فيه اللهم إلا بالعزوة أو النسبة كما يقال : أبو عبد الله الفرسطائي وأبو العباس الويليلي وأبو جعفر الوسلاتي وفي كثير من الأحيان ينسب الشخص إلى القبيلة وتكون القبيلة من القبائل التى تفرعت إلى فروع كثيرة وتنتقل بين بلاد المغرب الإسلامي كلها فلا يعرف لها مقر ، ولا يعرف موطن الشخص الأصلي وإنما الموطن الذي استقر فيه من بعد وأقام .

وإنك لو تتبعت أسماء العلماء في بعض كتب التاريخ لوجدت النسبة إلى القبيلة هي الغالبة أمثال :

الملشوطي، والسدراتي، واللواتي، والمزاتي، والزناتي، واليهراسني، والزواغي، والزواري، والنفوسي، والفارسي، والوسياني، والتناوتي، واليفرني ، واليروتني ، والفسطناسي ، الى آخر ما هنالك من أسماء وألقاب لمختلف القبائل والعروش ينسب إليها ، وفي أحيان قليلة يذكر المؤرخون الموطن الأصلي للعالم وينسبونه إلى القبيلة ثم يذكرون مقره الذي استوطنه أخيرا. وعلى كل حال فإن الإباضية لم يزالوا يطاردون من جميع أنحاء المغرب ويضيَّق عليهم . تارة من طرف الحكام المستبدين وتارة من بعض زعماء القبائل الأقوياء المستغلين ، وأحيانا قليلة من بعض المتعصبين من المتفقهين الجامدين فكانوا يلجأون في أغلب الأحوال إلى تلك الجهات من الواحات، يأوي المستقرون منهم إلى المدن ويأوي أصحاب الماشية إلى الوديان والتلال الخصبة في تلك الجهات ، فيتكون بسبب ذلك نشاط ملحوظ في الجوانب العلمية والدينية . وبلغ بهم الحرص على التعليم وعلى العبادة إلى أن جعلوا مساجد ومدارس متنقلة «1» مع الأحياء التي تعيش على نهج البداوة ، فكان أرباب الماشية ينصبون أحياءهم متقاربة من مواطن الخصب ثم يقيمون بناء المسجد والمدرسة فيؤمه الطلبة للدراسة والمصلون لأداء الفريضة، وقد ذكر المؤرخون أن لبعض الأحياء مسجدا متنقلا من هذا النوع يحملونه على اثني عشر بعيرا ينصبونه في مكان متوسط ليؤمه الناس من أحياء متعددة وقد قيل إن تفصيله شبيه بتفصيل المساجد المبنية حيث يخصص قسم منه للنساء وقسم للمرافق. ويبدو أن الوحدة لأصحاب الماشية في تلك الجهات إنما هي القبيلة ، ومن يندرج تحتها وينضم إليها . فتكون تلك القبيلة ومن معها تجمعا يقيم أو يرتحل بالاتفاق وهي بذلك تقيم لنفسها مجتمعا صغيرا تتيسر فيه عدة من أنواع النشاط في التربية وفي التعليم وفي إقامة الشعائر الدينية كما تتكون فيه يد قوية تحمي ذلك

(1) يتخذون نماذج من الحصر يسهل أن يقام منها بيت أو مسجد أو مدرسة على المساحة والهندسة المطلوبة بأيسر جهد فإذا أرادوا الإرتحال طويت الحصر وحملت على الجمال إلى المكان الجديد حيث تنصب بسهولة أيضا .

المجتمع من عدوان الغارات . أما القرى والمدن فقد كانت كل منها تكون تجمعا خاصا ، ويغلب أن يكون سكان القرية أو المدينة متكونا من مجموعة كبيرة من الأسر والأفراد جاءوا إليها من جهات مختلفة نتيجة للضغط في بلدانهم الأصلية . أما الرباط بين تلك القبائل أو بين تلك القرى أو بينها جميعا ، فهو الرباط العام من السيرة والسلوك والتعاون العلمي والديني والعطف والمحبة ، ولكن التنظيم لم يصل إلى درجة تكوين وحدة بين مجموعة من القبائل أو مجموعة من القرى تقف موقفا موحدا في حالات الدفاع بنظام ثابت ومستمر .

وبينما كان جبل نفوسة بجميع قراه ومدنه يكوِّن وحدة ، وكانت جربة بجميع حاراتها وأحيائها تكوِّن وحدة ، فإن بقية بلاد الإباضية في المغرب كمنطقة الجريد ، ووادي أريغ ، وآجلو ، وتجديت ، لم تكوِّن بينها هذه الوحدة . أما وادي ميزاب فقد بدأ الإباضية يتجمعون فيه بعد ذلك في أوائل القرن الخامس ، وقبل أن ينشأ وادي ميزاب كان نظام العزابة قد استقر عرفا في كل من الجبل وجربة ثم اتبع نظاما مقررا في كل بلاد الإباضية في ليبيا والجزائر غير أنه طبق في الجبل وجربة على أسلوب الوحدة وطبق في بقية الجهات الأخرى على أسلوب الانفراد كما سبقت إليه الإشارة .

وقد ذكرت غير مرة في هذا الكتاب وفي غيره أيضا أن هذه السيرة إنما نشأت أول ما نشأت في جبل نفوسة - بعد وقعة مانو والقضاء على الدولة الرستمية مباشرة - من الشيخين أبي القاسم البغطوري وأبي الخير الونزيرفي ، بقصد لم الشعث ، وتوحيد الصفوف ، وتوجيه الأمة توجيها سليما في أهم جانبين من جوانب الحياة هما الجانب الديني والجانب العلمي .

ولكن هذه السيرة بقيت عرفية غير مقررة ولا محددة حتى جاء أبو عبد الله محمد بن بكر فجعلها قانونا ونظاما خاصا يشبه أن

يكون نظام جمهورية صغيرة مستوحى من شريعة الله وقد سبق الحديث عن هذا النظام في غير هذا الجزء وكما سمعت أن الأخ الأديب فرحات الجعبيري قد يقدم عنه دراسة وافية ممتعة . أعانه الله ويسر له خدمة الإسلام والمسلمين .

تجنب إباضية المغرب للنزاع على السلطة

عندما انحرفت الدول الكبرى عن المنهج الإسلامي في إجراء الأحكام واتبعت أسلوبا دكتاتوريا متعسفا ثار الناس في كل مكان ، واتخذت تلك الثورات مختلف الأشكال والألوان والمبادئ . وسارت في طرق تتقارب أحيانا وتتباعد أحيانا أخرى . وكان الإباضية من جملة من انتقد الانحراف في سلوك الحكام ، وكان موقفهم في المغرب الإسلامي لا يتعدى - في باديء الأمر - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالقول . وكان العلماء ينددون بالظلم والظالمين في مجالسهم الخاصة والعامة ويتحدثون عن ذلك في المساجد والمجامع ، ويكشفون للناس عن صور الانحراف عن الحق في سلوك الظالمين ، ولما خاف الأمراء كلمة الحق وخشوا على مناصبهم أن تزلزلها الدعوة إلى الاستمساك بكتاب الله بسطوا أيديهم بالأذى ، وسلطوا ظلمهم على الإباضية ، فاستباحوا منهم المال والدم ، وحكموا سيوفهم في رقاب بعض العلماء الأعلام فاندلعت شرارة الثورة المسلحة عليهم عندما تعدوا على العلامة عبد الله بن مسعود التجيبي دون أن يصدر منه ما يبرر العدوان عليه . فانتقل الإباضية من مرحلة النهي عن المنكر بالقول إلى مرحلة النهي عنه بالفعل ، فوقفوا في وجوه المعتدين ، يشلون أيديهم الضاربة ، ويزحزحونهم عن كراسيهم المتحجرة ، وتكونت هذه الحركة أول ما تكونت في ليبيا ونجحت في مبدإ الأمر ولكن سرعان ما تألبت عليها القوى المستغلة للحكم والتي لا تريد أن يرى الناس نصاعة الحكم الإسلامي فينكشف لهم ما عليه أولئك المنحرفون من ظلم وجور وجبروت ، بعد أن كانوا يموهون عليهم بأن السلطان الذي بأيديهم إنما كان بأمر الله ، وأن ما يجرونه عليهم من أحكام إنما استمدوه من الحق الذي وضعته الشريعة في أيديهم ، وأنه لا حق لأحد أن ينازعهم فيه أو يحاسبهم عليه ، أو يأخذه منهم ، أو ينتقدهم بسببه ، واستطاعت تلك القوى أن تضرب الإباضية ضربة

قاضية حينما قتل أبو حاتم الملزوزي حسبما هو مفصل في كتب التاريخ . وتأكد الإباضية في ليبيا أنه لا يمكن لهم أن يقيموا دولة ترعى حدود الله وعن يمينها وشمالها دول تجري أحكامها على رغبات بشرية فانتقلت الحركة إلى الجزائر ونجحت في مبدإ الأمر وتكونت هنالك الدولة الرستمية ولكن سرعان ما وجهت إليها الضربات واستطاعت رغم كل شيء أن تقيم حكم الله مدة قرن ونصف . ثم جاءت الدولة العبيدية فقضت عليها كما هو مفصل في كتب التاريخ وسار حكام الدولة العبيدية على نمط قد يكون أسوأ من غيره ، واستباحوا لأنفسهم أموال الناس ودماءهم .

بعد القضاء على الدولة الرستمية وقف الإباضية يفكرون في المسلك الذي يسلكونه تجاه الجورة والمستبدين من الأمراء والحكام . أيقابلون أولئك الحكام بالدعوة إلى الثورة عليهم وقلب نظام الحكم وإبعاد المنحرفين عن مقدرات الأمة مهما كانت النتائج ؟ أم أنهم يسلكون مسلك المسالمة والمهادنة ؟ وكان أول من فكر في الموضوع بجدية وانتهى فيه إلى رأي هما العالمان أبو القاسم البغطوري وأبو محمد الونزيرفي وكانا حينئذ مرجع أهل الجبل وكان ذلك بعد معركة مانو التي قتل فيها الأغالبة أعدادا لا تحصى من رجال نفوسة وتتبعوا علماءهم وصلحاءهم حتى كادوا يقضون عليهم . ولذلك فقد رأى الشيخان أنه ينبغي لجبل نفوسة أن يحتفظ بانعزاله سياسيا فلا يحتك بإحدى الدول القائمة ولا يدعو إلى ثورة ولا يشترك فيها ، ولا يقيم لنفسه حكما بجهاز دولة . وإنما عليه أن يختار هيئة من الرجال الأكفاء تمثل الجبل بجميع نواحيه تتولى تحت رئاسة أحد العلماء شؤون الجبل الدينية والاجتماعية وتنظم وسائل الدفاع إذا اضطروا إليه ، ويتولى ذلك كله الرئيس الذي يطلق عليه اسم شيخ الجبل أو حاكم الجبل ، وينفذ جميع القرارات التي يتخذها المجلس ، وهكذا استقر رأي الجانب الشرقي من إباضية المغرب الإسلامي على عدم إقامة دولة ، وعلى عدم مناوشة الدول الأخرى ومطالبتها بالتزام

سلوك معين . وإنما أوجبوا على أنفسهم أن يقيموا حدود الله فيما بينهم وأن يلتزموا السير في المنهج الإسلامي الذي سار عليه الصالحون من أمة محمد ﷺ .

أما الجانب الغربي الذي ذاق حلاوة الحكم الإسلامي تحت رعاية الدولة الرستمية فقد كان أفراد منه يتوقون إلى إعادة ذلك الحكم ولكن المفكرين منهم قد انتهوا إلى مثل ما انتهى إليه إخوانهم في الجانب الشرقي .

وكانت الدولة العبيدية عندما تغلبت على الدولة الرستمية في تاهرت لا تخشى أحدا كما تخشى أبا يوسف يعقوب بن أفلح ، ولا تخشى بلدا من البلدان الإباضية في تلك المناطق كما تخشى وارجلان فلما فر أبو يوسف متجها إلى الجنوب تبعته فرق من الجيش العبيدي ولاحقته بقواتها ولكن تلك الفرق لم تتمكن منه حتى قرب من وارجلان وعندئذ أمرت بالتراجع خوفا من الاصطدام بأهل وارجلان وإثارتهم فرجعت دون أن تبلغ ما تريده من قتل أبي يوسف أو أسره أو الحيلولة دونه ودون الوصول إلى وارجلان .

كان مع أبي يوسف جموع من الناس الذين هاجروا من الشمال إلى الجنوب بعد تلك الأحداث المؤلمة فعرضوا على الإمام يعقوب أن يبايعوه إماما عليهم يقيم فيهم حكم الله ويحارب بهم عدوه فقال لهم : « افترقوا فقد انقطعت أيامكم ، وزال ملككم فلا يعود إليكم إلى يوم القيامة ، ولا اجتمع منكم ثلاثة إلا وقع عليهم الطلب » . وبلغ الرجل العظيم المدينة العظيمة وارجلان ، وكانت وارجلان وما يجاورها في ذلك الحين مأرزا وملجأ للإباضية ولهم فيها قوة وصولة فعرض عليه أهلها أن يبايعوه بالإمامة ، وأن يحاربوا تحت لوائه حتى يقيموا دين الله ولكن أبا يوسف قال لهم قولته المشهورة التي ذهبت مثلا : « الجمل لا يستتر بالغنم » وهكذا اتحدت الفكرة عند كبار رجال

الإباضية في المغرب الإسلامي على اعتزال السياسة وتجنب الاحتكاك بالدول القائمة وعدم القيام بتأسيس دولة جديدة .

ترك الإباضية في المغرب الإسلامي الحكم لطلاب الحكم يتهارشون عليه . أما هم فقد رجعوا إلى داخل نفوسهم يطهرونها وإلى أعمالهم يزكونها وإلى مجتمعهم يحاولون أن يقيموه على أسس متينة من شريعة الله .

ولقد تهيأت ظروف الثورة لهم على بعض الدول وتيسرت لهم الأسباب لإقامة دولة جديدة في بعض الأحيان ولكنهم لم يشاءوا أن يشغلوا أنفسهم بذلك ولا أن يتطلعوا إليه . ولعل من أبرز الشواهد على ذلك ما كان عليه الإباضية في عصر أبي القاسم يزيد بن مخلد في عهد المعز لدين الله الفاطمي ، فلقد واتت الظروف أبا القاسم واجتمعت الإباضية وغير الإباضية على حبه وطاعة أمره وكان لهم من القوة المادية ما يكفل لهم الفوز ، وعرض كثير من الناس الأمر على أبي القاسم وطالبوه بقبول البيعة ولكنه رفض لأن رأيه كان مثل رأي البغطوري وابن الخير ويعقوب بن أفلح . فكان يرى أن التعلق بالحكم لا يهم ، وأن المؤمن يستطيع أن يحافظ على دينه دون أن يكون صاحب سلطان ، وأن ما تعطل من شريعة الله فإنما يحاسب عليه أولئك الذين أمسكوا بالسلطة في أيديهم فلا هم أقاموا فيها أمر الله ولا هم تركوها لمن يقيمه فيها . وأنه ينبغي للإباضية أن لا يزيدوا للأمة فتنا على ما بها من فتن تتخذ وسيلة لاستحلال الدماء والأموال وإنما عليهم أن يقيموا الإسلام في أنفسهم ، فمن كان منهم مستقلا مثل جبل نفوسة ، فعليه أن يقيم أحكام الإسلام ويراعي حدوده دون أن يعلن اسم دولة ، ومن كان منهم خاضعا لدولة قائمة مثل إباضية تونس والجزائر ، فعليهم أن يخضعوا للدولة ، وعليهم أن يدفعوا لها ما تطلبه منهم من الضرائب والغرامات ، وأن يجاهدوا معها أعداء الله إذا وجهت جيوشها لمحاربة الكفار والمشركين ، وعليهم

أن يقوموا هم أنفسهم برعاية مصالحهم الدينية والاجتماعية ، وأن يفصلوا مشاكلهم حسب الأصول الشرعية ، وأن يكفوا أيديهم وألسنتهم عن مساعدة الدول القائمة في جميع ما ترتكبه من ألوان الظلم الذي تنزله على الناس ، وأن لا يشتركوا معها في أي حرب ضد المسلمين وفي بلاد الإسلام .

وسار الإباضية على هذا المنهج في أول أمرهم دون أن يجعلوا لذلك كتبا وقوانين يرجعون إلى موادها . وإنما يطبقون أحكام الإسلام فيما أمكنهم من حقوق الله وحقوق العباد ، حتى ضاق المعز لدين الله الفاطمي ذرعا بأبي القاسم بن المخلد ، وخشي من محبة الناس له ، وإقبالهم عليه ، وطاعته لأوامره ، فأمر عامله في « الحامة » أن يغتاله فاستزار العامل أبا لقاسم واغتاله في منزله نفسه . وكان هذا الاغتيال دون جريرة سببا في ثورة عارمة قام بها بعض أصدقاء (1) أبي القاسم وبعض تلاميذه وأتباعه ، جعلت المعز يترنح فوق عرشه ، ويتنازل عن كبريائه ويعرض الصلح على أولئك الثائرين ويتنازل لهم (2) عما كان تحت أيدي الإباضية في عهد الدولة الرستمية من البلاد فلم يقبلوا بذلك ، لأنهم لم يثوروا طلبا للملك ، وإنما ثاروا محاربة للظلم والجبروت .

ولما سكنت الثورة ورجع الناس الى حياتهم العادية كان أفراد من رؤساء القبائل وزعماء العشائر يعدون للقيام بثورات أخرى . ويهمسون بذلك في مجالسهم الخاصة ، وفي الإجتماعات المأمونة ، حتى جاء الإمام الكبير أبو عبد الله محمد بن بكر .

---

(1) عارض القيام بالثورة عدد من علماء الإباضية من أشهرهم أبو صالح اليهراسني وأبو محمد ويسلان .

(2) قال الدرجيني في الطبقات : فأرسل - أي المعز - إلى المشائخ أن ارجعوا إلى بلادكم التي كانت بها أوائلكم قبل هذا من تاهرت وغيرها فتكونوا على ما كانت عليه أوائلكم ، ونكون على ما كان عليه أوائلنا .

استبعد الإمام أبو عبد الله فكرة الثورات والحروب والقيام بدولة ومحاربة الحكام من أذهان الناس استبعادا كاملا . واتجه بالمجتمع الإباضي اتجاها خاصا هو الاهتمام بالنفس وبالمجتمع ، دون الاهتمام بالدولة وحول سيرة الإباضية بعد وقعة مانو من عرف جرى عليه الناس وعادات استحسنوها وتمسكوا بها إلى حيز الدراسة والبحث العلمي ثم التقنين وألف في الموضوع وجعل ذلك دستورا في مواد وقوانين . فنظم حلقة العزابة كما ذكرنا من قبل وحدد فيها اختصاصات الهيئات واختصاصات الأفراد . واعتنى عناية خاصة بقضية التربية والتعليم . وجعل لذلك منهاجا ، أعتقد أنه منهاج فذ في نظم التربية والتعليم ومما يتضمنه ذلك المنهاج توحيد زي الطلبة ، وتوحيد زيّ المدرسين ، وتنظيم أوقات الدراسة ، وتخصيص كل وقت لما يناسبه من المعارف ، وإدخال الآداب الإسلامية والقيام بالعبادات الدينية في قلب النظام ، بحيث تكون مواد أساسية في المنهاج الدراسي وتخصيص أوقات للتربية العملية في حل المشاكل وحسن التصرف وإدارة الأمور والسلوك الحسن بين المجتمعات المختلفة ، كما أنه أعطى قيمة خاصة للفروق الفردية بين الطلاب ، وأوجب احترام شخصية الطالب المتخلف ذهنيا ومراعاته ودراسة ظروفه حتى لا تتكون فيه الأمراض التي تسمى اليوم « العقد النفسية » وبالجملة فإن الإمام أبا عبد الله هو الذي حول بطريقة عملية مجرى تاريخ الإباضية فأبعدهم عن التهارش على منصب الحكم الدنيوي والنزاع على السلطة ، ودعاهم إلى تنظيم حياتهم تنظيما إسلاميا يلتزمون فيه أحكام الله على الفرد وعلى المجتمع .

ومنذ ذلك الحين تخلى إباضية المغرب عن التفكير في موضوع الحكم وساروا بنظام العزابة في وحدة متكاملة متعاونة محافظة على دين الله حريصة على اتباع سيرة المحسنين من السلف وفي العهد التركي الأخير بدأ إباضية جبل نفوسة وجربة يتخلون عن ذلك النظام الرائع حتى تركوه تماما فأصبحوا يعيشون في مجتمع واحد لكن دون رباط ولا

منهاج إذ فقدت الدولة المسلمة التى تحمل الناس على السير في الجادة . وأضاعوا النظام الذي كفل لهم حياة إسلامية نظيفة أكثر من خمسة قرون ، فابتعدوا عن الإسلام كما ابتعد الكثير من غيرهم .

أما إباضية الجزائر فقد حافظوا عليه إلى اليوم فحفظ عليهم وحدتهم واستقامتهم وتميزهم على بقية المجتمعات الإسلامية ، وفي وادي ميزاب وفي وارجلان أمثلة رائعة لأمة مسلمة محافظة على دين الله قائمة به ، إذا شذ منها فرد فارتكب ما يخالف تعاليم الإسلام أو آدابه نبذه المجتمع وقاطعه حتى يتوب ويعود . وهي مع ذلك تعيش في العصر الحاضر وتستفيد بآخر ما وصلت إليه الحضارة الإنسانية والمعارف البشرية من كشوف واختراعات في القرن العشرين ، فلا هي تخلت عن دينها كما فعل المخدوعون الذين يسيرون فى ركاب الأجانب دون وعي . ولا هي حرمت من الاستمتاع بالمباح مما يسرته الحضارة والعلم في عصر الحضارة والعلم كما وقع لبعض الجامدين والمتزمتين الذين يغمضون أعينهم عن كل ما لم تصنعه أيديهم .

انتشار الاباضية ثم انحصارهم

لقد سبق أن ذكرنا أن الإباضية طيلة القرنين الثاني والثالث كانوا منتشرين في كامل القطر الجزائري ويكونون أغلبيةالسكان فيه ، وفي القرون التالية إلى القرن الثامن الهجري او بعده بقليل كانوا يملأون بلاد الواحات من القطرين : الجزائر وتونس كما كانوا منتشرين في أغلب النواحي الشرقية للجزائر والنواحي الجنوبية والغربية لتونس أما الآن فهم منحصرون في وادي ميزاب ووارجلان من الجزائر . وقد بحثت كثيرا عن الأسباب التي جعلت إباضية الجزائر ينحصرون في وادي ميزاب ووارجلان ، وجعلت إباضية تونس ينحصرون في جربة ، وجعلت إباضية ليبيا ينحصرون فى جبل نفوسة وزوارة ، وللإجابة عن النقطتين الأخيرتين مكان غير هذا المكان . أما عن النقطة الأولى فبعد أن رجعت إلى ما لدي من مصادر ، وما بين يدي من مراجع وبعد دراسة ما أمكن لأوضاع الجزائر المختلفة والمتقلبة عبر العصور المتلاحقة ، رأيت أن أستعين على الموضوع برأي عالمين فاضلين من علماء الجزائر أحدهما الفاضل شيخ الصحافة الجزائرية شيخنا أبو اليقظان إبراهيم وثانيهما العالم الأديب أستاذنا بكلي عبد الرحمن بن عمر فوجهت إلى كل واحد منهما على انفراد السؤال الآتي :

«ما هي الأسباب التس أثرت على الإباضية في الجزائر حتى انحصروا في وادي ميزاب ووارجلان » .

وقد أجابني كل من الشيخين الفاضلين فكان بينهما لقاء في أكثر الأسباب ويتلخص جواب شيخنا أبي اليقظان في النقط الآتية :

1 ـ مضايقة جيرانهم لهم ، ومحاربتهم لهم باستمرار ، ويقصد بالجيران اولئك الذين كانوا يحترفون الغارة ويعيشون على النهب

والسلب ، أولئك الحكام الذين يعملون على إخضاع الناس لابتزاز أموالهم والتحكم في رقابهم .

2 ـ القحط والسنون : فقد توالت على مناطق الجنوب خاصة سنوات متوالية من القحط والجفاف اضطرت أكثر الناس إلى الهجرة .

3 ـ موت علمائهم بسب الفتن المتوالية وفشو الجهل بناشئتهم وعدم معرفتهم لأصول مذهبهم فاعتنقوا المذاهب الأخرى .

هذه خلاصة الأسباب التي أرجع إليها شيخنا أبو اليقظان أسباب انحسار الإباضية عن أغلب القطر الجزائري وانحصارهم في وادي ميزاب ووارجلان الآن .

أما أستاذنا الشيخ بكلي عبد الرحمن فقد أجاب إجابة فيها بسط وإسهاب ولعل من المفيد للقارئ الكريم أن أنقل إليه نص جواب الشيخ ، قال حفظه الله :

« إذا بحثنا عن الأسباب التي أثرت على الإباضية فصيرت كثرتهم إلى قلة وجعلتهم ينحصرون في نقطتين اثنتين ميزاب ووارجلان بعد أن كانوا في أكثر من عشرة مواطن لا يقل الواحد منها عن الباقين قوة وكثرة وجدنا لذلك أسبابا كثيرة منها :

1 ـ الظاهرة العامة المتأصلة في نفوس البربر الذين هم أغلبية سكان الجزائر في مختلف أدوارها ، ومعلوم أن البربر متمسكون أشد التمسك بمبادئهم إذا كانت هذه البادئ تتصل بالعقيدة ، فهم يحاربون من أجلها ويموتون في سبيلها (1) .

2 ـ حياة الفوضى التي عمت القارة وطبعتها بطابعها، وضعف السلطة المركزية أن تسيطر على الحالة فتوقف كلا عند حده وتحمل

(1) نقلت هذه الفقرة بتصرف .

الرعايا ولو بالقهر على التزام النظام واحترام الحريات والحرمات .

3 ـ جور الحكام وانتهاجهم سياسة التفقير والإثخان في البربر عملا بوصية أسلافهم وعلى رأسهم الأصحاب الذين ينتمي معظمهم إلى قبيلة زناتة العظيمة المعادية للصنهاجيين وخلفائهم ومن نهج منهجهم السياسي يدلك لذلك ما حكاه الشيخ الشماخي عن بعض حفدة الشيخ أبي باديس أبخت بن باديس اليشكني أحد شيوخ الإباضية الأغنياء الذي كان يسكن في بونة فقد ربى فرسين بأمر جده فأحسن تربيتهما وتأديبهما ثم أهداهما إلى المعز بن باديس الصنهاجي مداراة فقبلها منه وفرح به وبها وأكرمه . فكره وزراؤه ذلك فطعنوا فيه وأفسدوا قلب المعز عليه ، قالوا : اقتله فإنه من الإباضية وقد أمكنك ورأيت عظم ما أتاك به وكيف ما خلف وراءه ليلا يخالف عليك .

(وفي هذا التعليل كل الدلالة على روح السياسة وقتئذ) فقال لهم : كيف الحيلة إلى قتله وقد عرف القاصي والداني قبولنا لهديته .

قالوا : تأمره أن يلاعب أسد السخط ـ وهو الأسد الضاري العادي ـ بفرسه فيهلكه . قال الحفيد : « فأرسل إليّ المعز فقال : تلاعب بمهرك أسد السخط ـ وأنتم زناتة تذكر عنكم الفروسية ـ فقلت : لبيك ، زهوا وتيها .

فأمر بي أن أدخل خان السباع فركبت مهري الأول وأطلق عليّ سبع ضار عادٍ ، وجلت مع السبع في الدار مليا حتى إذا ارتاضه المهر قربته إليه فهمزته بالأشابير فضربه على أم رأسه فوقع كالنخلة السحوق ، ونجوت والحمد لله رب العالمين » . انظر تفصيل القصة في سيرة الشماخي ص 383 .

4 ـ الصراع الذي لا يكاد يفتر بينهم وبين الحكام الجورة وعدم الاستكانة لهم ، ومما يذكر في هذا الباب أن أحد المشائخ كان لا يلتفت إلى جبار احتقارا ولا يصافح الجبابرة البتة فلما قيل له في

ذلك أجاب : «إن الله يسأل اليد لمَ تصافح اليد » وكان من مبدإهم عدم الوفادة إلى الجورة ، وقد أخرجوا فعلا عبد الله بن جابر لوفادته إلى أمراء قابس وهاجروه ، ويروون في هذا خبرا « إن رأيتم العالم يمشي إلى باب السلطان فاتهموه على أمر دينكم » وقد نظم الشاعر هذا المعنى فقال :

قل للأمير مقالة ... لا تركنن الى فقيه
إن الفقيه إذا أتى ... أبوابكم لا خير فيه

5 ـ تأصل العداوة ضد نزعة الأصحاب التحررية التي ينعتونها بالخارجية « وإن كانت من لباب الإسلام » خوف الجورة على سلطانهم منهم وتأليب الغوغاء عليهم ، تخضيدا لشوكتهم ، وتوهينا لقوتهم ، وإشغالهم بالدفاع عن أنفسهم لئلا يتفرغوا لمهاجمتهم .

6 ـ وقوفهم دائما موقف الدفاع إزاء أعدائهم ، ولا يقفون موقف الهجوم أصلا . وأنت خبير أن المدافع دائما إلى ضعف .، وما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا .

7 ـ وقوفهم عند حدود الشرع في معاملة خصومهم وإن جاروا عليهم عملا بقول عمر بن الخطاب : « ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه » .

8 ـ تحكم النزعات المذهبيةالتي احتضنتها بعض تلك الدول وشجعتها لأنها لا تكون في نظرها خطرا على نفودها ، ورأته الخشخاش الذي يكرهه المذهب ويظل في أنفه ما عاش .

9 ـ عدم استنادهم إلى دولة عتيدة تحمي ظهورهم وتشد أزرهم وتجمع كلمتهم بل ظلوا أوزاعا مبددين هنا وهناك .

10 ـ ابتلاؤهم ببعض زحوف وهجمات ذوي المطامع من الملوك والأمراء الذين ينزعون إلى الاستبداد والسيطرة كالميورقي الذي اصطلم

وارجلان « يعني ناحيتها وعلى الأخص صدراتة » سنة 626 وهدم سورها وتركها قاعا صفصفا كأن لم تغن بالأمس .

11 ـ ما ينزل بهم من التخريب والترويع والتشريد أثناء انتقال السلطة من دولة إلى دولة دون تسليم المهاجَم ملكه واستيلاء المهاجِم عليه دماء تسيل وأرواح تزهق ، وعمران يخرب ويقوض ، وأموال تفنى وتتبدد ، وحرمات تنتهك إلى غير ذلك .

12 ـ مطاردة الجورة إياهم وتغريمهم بغرامات لا قبل لهم بأدائها تعجيزا لهم ، وتذرعا إلى قتلهم ، انظر حكاية أبي الخير الزواغي مع أحد أعوان ابن باديس : السير ص 336 .

13 ـ وإذا أضفت إلى كل ذلك نزوعهم إلى حياة الروح والعكوف في الخلوات وعزوفهم عن الجانب المادي الذي يخولهم قوة يستطيعون بها رد عاديات الأيام لم تستغرب من النتيجة الحتمية .

وهكذا تضافرت هذه الأسباب عليهم ، واستمرت تضعفهم شيئا فشيئا حتى تركتهم بالقلة التى نشاهدها عليها اليوم ، وجعلتهم ينحصرون في ميزاب ووارجلان .

ولكن ما السر في انحصارهم في تلك المنطقة دون سواها وبقائهم فيها إلى اليوم .

السر أن منطقة ميزاب ووارجلان منطقة بعيدة عن أوساط الاحتكاك ولم تكن من المناطق الخصبة التي يكثر فيها النزاع ، بل هي في صحراء قاحلة تأخذ ولا تعطي ، فكانت قحولتها كشوك القنفد تقصي الأيدي منه ، انحازوا إليها محافظة على عقيدتهم وأخلاقهم ، وضنا بوحدتهم أن تذوب وسط خضم المجتمع الكبير الذي تسوده الفوضى وتطاحن القوى ، وعدم التقيد بمبادئ الدين في تصرفاته .

وقد استعانوا على بقائهم بخصائص جمعها الله في هذه الكتلة الصغيرة الكريمة .

جمعت إلى المتانة في العقيدة الاستقامة في السمت ، وإلى الصبر على شظف العيش العمل المستمر ، وإلى الاقتصاد في النفقة تعاون الرجل والمرأة : الرجل يغترب وراء الكسب ، أو يعتكف على استثمار أرضه والمرأة تشتغل سحابة يومها وهزيعا من الليل في الغزل والنسيج ، وإلى الغيرة الوطنية إسعاد ذوي اليسار للمحاويج العاطلين . وإلى العمل التطوعي المتبادل بين العموم « التويزة » القيام بأنظمة البلد تطوعا واحتسابا . كنظام العزابة ونظام العشائر وضمانها ونظام الحراسة هذه الخصائص هي التي حفظت لهذه المجموعة بقاءها ولن تزال إن شاء الله ما دامت تتمتع بها » .

هذا ما قاله أستاذنا الشيخ بكلي عبد الرحمن .

أحسب أنه لم يبق لي في هذا الفصل عمل بعد ما نقلته إلى القارئ الكريم عن الشيخين الفاضلين فإن الصورة التي رسمها للحالة التي أردنا تصويرها كانت صورة دقيقة كاملة ، وما أحسب الدارس واجدا فوق ذلك أو بعد ذلك ما يزيده لها . ولقد يكون من أسباب التي ذكرها شيخنا بكلي بعض الإطناب ولكنه إطناب يقتضيه استيفاء جوانب الصورة كاملة ويتطلبه جهل الناشئة بأحداث التاريخ ، وبالأمراض المزمنة التي أصابت الأمة المسلمة في عصور طويلة فلم تزل تنخر في عظامها حتى أسلمتها للمرض الذي هيأها لأن تقع فريسة في يد المستعمر الذي يتظاهر بأنه يسعى وراء السلطة والحكم ووراء المكاسب الاقتصادية والمادية ، ولكنه في الحقيقة ما كان يعمل إلا للقضاء على عقيدة الإسلام ، العقيدة التي اندفعت بالبشرية في المنهاج الذي رسمه لها الخالق الحكيم . فلم ترض بذلك الوثنية والزندقة والإلحاد وآزرت هذه القوى المتضامنة قوى أخرى من المسيحية المحرفة والصهيونية المتقمصة ثياب اليهودية المعذبة . وتآزرت هذه القوى

جميعا على الإسلام بادئ الأمر في الميدان العسكرى والسياسي ثم في المجال الخلقي والديني وقد نجحت في خطتها الأخيرة نجاحا سريعا لم يتوقعه خبراء الفتنة والتضليل فيها .

حين كانت تلك القوى المتآزرة المتآمرة على الإسلام والمسلمين تلم شتاتها لتحاربه في كل شبر من أراضيه وفي كل منحى من حياته وفي كل خلق كريم من أخلاقه وفي كل مبدإ سام من مبادئه كان المسلمون سادرين في غفلة عما يراد بهم ويساقون إليه .

يتناقش العلماء منهم والمثقفون في مدلول الألفاظ والعبارات ، ويتصارع الأغنياء منهم وذوو اليسار على الترف والبذخ والإسراف في النفقات ويتقابل أصحاب السلطة على مناصب الحكم وكراسي الإمارات ، ويدأب الصعاليك والمغامرون على إشعال الفتن وشن الغارات وتتهارش العامة الجاهلة حائرة بين هذه الفرق ومندفعة بحماس تارة طلبا للدنيا وتارة طلبا للدين ، ولكنها في كل ذلك تسير وراء قيادة غير نزيهة في أغلب الأحوال ، وبذلك عاش المسلمون هذه الفترة من تاريخهم في حروب وفتن مظلمة يضرب بعضهم البعض معرضين عما يجهزه لهم الأعداء . ولا شك أن هذه العوامل وما جرت إليه إنما نشأت عن انحراف المسلمين عن منهاج الإسلام .

فقد انحرف أصحاب السلطان فحكموا بالظلم وتصرفوا في المال بغير عدل ، وأخذوا الرشوة بغير موجب ، وعاملوا الناس بغير حق وانحرف العلماء عن منهاج الإسلام ، فتملقوا الحكام ، واسترضوا أصحاب السلطان وسكتوا عن مناكرهم ، بل وبرروا لهم انحرافاتهم ، وانحرف الأغنياء عن منهاج الإسلام فأصبح التنافس على كسب المال هو غايتهم ، وتساهلوا في معرفة الحلال والحرام فلم يعنهم كيف يصل المال إلى أيديهم ثم استأثروا بحق الفقير ، وتهاونوا بمصلحة الأمة ودخلوا في منطقة الربا والترف .

وانحرف العامة عن منهاج الإسلام ، فرغبوا أن يشاركوا أصحاب الأموال في أموالهم ، وأصحاب السلطان في سلطانهم ، بطرق غير شريفة ولا نظيفة فصاروا آلات في أيديهم ، يكسب بها الغني ، ويضرب بها الحاكم ، ويستغفلها العالم .

وانحرفت الأمة بأجمعها عن منهاج الإسلام فاتكلت على غير الله واعتزت بسواه وتوددت إلى أعداء الله ، وربطت أواصر الصداقة والمحبة مع من نهى الله عن مودتهم وقسمت المشركين والكفار إلى قسمين ، تقبل على بعضهم وتعرض عن البعض فيما تحسب ، وإنما هم يتلاعبون بها كما يلعب الأطفال بالكرة فتارة تحت قدم هذا وتارة تحت قدم ذاك .

هذه الأمور بعض أسباب المحنة ودواعي الفتنة نسأل الله تبارك وتعالى أن يزيل الغشاوة عن عيون المسلمين فإنه لاحول ولا قوة إلا بالله .

صورة مصغرة لحياة الإباضية في الجزائر

بعثت سؤالا عن هذه الصورة إلى الأستاذ شيخنا بكلي عبد الرحمن فأجابني حفظه الله في رسالة مطولة تحتوي على اثنتي عشرة صفحة رأيت أن أقتطف منها ما تقرؤه فيما يلي :

« كان المجتمع الإباضي الجزائري في عهد الشيخ أبي عبد الله محمد بن بكر (أي في أوائل القرن الخامس للهجرة) مجتمعا إسلاميا في عقيدته وأخلاقه وسمته ، غنيا برجاله الصناديد وبعلمائه الفطاحل وبجيوش طلبته الميامين بله العامة الذين يخضعون لرؤسائهم ومشائخهم ويستميتون في حمايتهم إلى آخر قطرة من دمائهم ، وكانت النواحي الآهلة بهم كالزاب ووادي أريغ ووارجلان وسوف وجبال بني مصعب (ميزاب) تعج بهم عجا ، وكانوا إلى ذلك على اتصال وثيق بإخوانهم إباضية جبل دمر وقصطالية وجربة وطرابلس ونفوسة ، وكانت لهم خطة متحدة الأهداف لا سيما في كفاح الجورة الحاكمين بأمرهم قمعا للظلم وتنغيصا للقاسطين وصدهم عن القضاء عليهم واصطلامهم كما هي سياسة الحكام الشيعيين وخلفائهم الصنهاجيين (انظر وصية الفاطمي) (1)

كانوا يعيشون عيشة الروح لا عيشة الجسم ، حياة التقشف ، لا يحفلون بالقشور ، ولا يميلون إلى الترف والنعيم ، وأنّى لهم . وقد صرفوا كامل عنايتهم إلى الاضطلاع بدين الحق ، إلى تصحيح العقيدة ، إلى نشر تعاليم الإسلام ، بين الجماهير الساذجة ، وحملهم عليها قولا وعملا ، فانساقوا في هذا السبيل ، سبيل الآخرة إيثارا للآجلة على العاجلة ، وساعدهم على ذلك تحررهم من مهام الملك

(1) لما ارتحل المعز الفاطمي إلى القاهرة أوصى خليفته على المغرب يوسف بن زيري قائلا : « إن نسيت شيئا مما أوصيك به فلا تنس ثلاثة أشياء : لا ترفع الجباية عن أهل البادية ، ولا ترفع السيف عن البربر ، ولا تول أحدا من إخوتك وبنيك فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك . واستوص بالحضر » .

التي تستنزف جهودهم وأوقاتهم ، وتحملهم على اعتناق الحياة المادية طوعا أو كرها .

أجل إنهم وإن لم يعرضوا عن الحياة المادية تماما إلا أنهم يحيون حياة هزيلة لا تعدو - على عمومه - تربية المواشي وفلاحة الحبوب ، وغرس النخيل والأشجار سيما الزياتين ، إلى شيء من تجارة عمادها المقايضة ، وإذا قدر لبعض الأشياخ - مثلا - أن يكون ذا ثروة فإنه يفنيها في كفالة الطلبة الذين ينقطعون لخدمة العلم وإقامة شعائر الدين والوعظ والإرشاد احتسابا وامتثالا لما يأمر به الدين ، ويدعو إليه القرآن الكريم ، الأمر الذي حفظ للدين تعاليمه وللعلم حقائقه ، ولحسن السلوك منهاجه ، فكثرت جيوش العلماء وكثر تنقلهم من ناحية إلى أخرى تثبيتا للأقدام ، وإصلاحا لذات البين ، وتصحيحا للأخطاء ، وقياما بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على صعوبة المواصلات وقلة الوسائل ، وخوف السابلة وبعد المسافات .

ولذلك حافظوا على المذهب الإباضي بين تلك الزعازع والأعاصير العاصفة في مختلف نواحيه ، واستطاعوا أن ينازلوا خصومهم الذين يحاولون جهدهم تحويلهم عن عقيدتهم وزعزعتهم عن مراكزهم وحملهم طوعا أو كرها على الذوبان في بوتقتهم .

والحق أنهم أوتوا صبرا عجيبا ، وقدرة فائقة على تحمل شظف العيش ، ومجابهة خشونة الحياة ، وترك حظوظ النفس إرضاء لربهم واستعدادا لتحمل الأمانة التي عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ، يقصرون أول حياتهم على التعلم حتى إذا نبغوا تصدوا للتعليم وعقد الرحلات للدعوة إلى الله وتفقد أحوال المسلمين ، ورأب صدعهم ، وجمع كلمتهم ، وتصنيف الكتب في مختلف العلوم لا سيما فقه الشريعة ، وتوجيه قافلة الخلق في طريق الخالق ، والانقطاع إلى

العكوف على عبادة الله في الخلوات طالبين بذلك رضى الله عنهم ونعيمه المقيم ، مسترخصين في سبيل ذلك كل عزيز ونفيس ، فترى الأشياخ المياسير يقومون بتموين طلبتهم وكفالتهم حتى تفنى ثروتهم ، فقد قص علينا الشيخ الشماخي أن نيفا وثلاثين شيخا منهم أبو عبيدة وشق من شيوخ أهل الدعوة تعاهدوا أن يتكفلوا بنوائب الحلقة وحوائج الطلبة فمن مات منهم قام الباقي مكانهم حتى لم يبق إلا الشيخ أبو عبيدة وشق فاستمر في عهده حتى توفي .

وكما قص علينا سيرة أبي عبد الله محمد بن سليمان النفوسي وكان ممن وسع الله عليه وكانت عنده كثرة التلاميذ يعلمهم ويطعمهم ويكسوهم من خالص ماله : إذا أقبل الشتاء اشترى لهم أكسية جديدة فيها الدفء ، وإذا أقبل الصيف اشترى لهم ما يخف وادخر الأخرى وربما باعها بالثمن الذي اشتراها به .

أجل هناك بعض النواحي تمتاز عن سائرها بتعاطي التجارة وعقد الرحلات إلى البلاد النائية طلبا للرزق كتجار وارجلان الذين يسافرون إلى السودان وبلاد غانة . قال الشريف الإدريسي عن مدينة وارجلان : « ورقلة هي مدينة فيها قبائل مياسير وتجار أغنياء يجولون في بلاد السودان إلى بلاد غانة ـ ونقارة ـ وهكارة فيخرجون منها التبر ويضربونه في بلادهم ـ عملة مسكوكة ـ باسم بلادهم وهم وهبية إباضية والذي جعل جمهور الأصحاب يفضلون خشونة العيش والكفاف أنهم لا يستطيعون التفرغ للاكتساب مقلقين في أوطانهم ، خائفين في أسفارهم مخاطرين عرضة للنهب والسلب والقتل من جيرانهم بله إمعان الجورة في تجريدهم مما بين أيديهم ، وتشريدهم في البلاد والنكاية بهم .

فأنت ترى أن هذه الأجواء التي يتنفسون فيها شبه الغاز المخنق لا يساعدهم على تكوين الثروات ولا على استبقائها ، وهل

تبقى ـ لا أبا لك ـ ثروة وسط هذه الزعازع والأعاصير سواء كانت مادية أو أدبية ، أجل لولا تلك الفتن الداخلية والخارجية المتوالية والحروب المتتالية وعوامل المحو والإبادة التي تسلطت عليهم خلال القرون فأفقرتهم من الأموال ، وأخنت عليهم كما أخنت على لبد ، وأتت على ما هنالك من تراث علمي ، لأبقت تلك القرائح الوقادة ، والعقول الراجحة لنا وللمكتبة الجزائرية من الكنوز والذخائر ما يرفع رأسها عاليا بين أمم التاريخ .

ثم لولا ما أنشأوا من مدن ، وبنوا من ديار ، وغرسوا من بساتين وحفروا من آبار ، وأقاموا من سدود ، ومدوا من قنوات وسواقي الري في شتى النواحي الصحراوية المتباعدة فكونوا واحات زاهرة مزخرفة تلمع في وسط الصحراء القاحلة لمعان النجوم في سماء ليل بهيم .

أجل لولا ما نشروا من علم ، وركزوا من عقائد صحيحة وقاوموا من بدع مبيرة ، ومرنوا الجماهير على إتباع القول بالعمل ، وأحيوا من معاليم دين محمد ﷺ في وسط عصر عمته الفوضى والجهالة وتحكمت فيها الأهواء والنزوات ، وطغى سلطان المادة على النفوس فطمس بصائرها أن تتنور الحق ، فانغمست في محبة الشهوات والحظوظ النفسية وألهاهم التكاثر حتى زاروا المقابر . لولا ذلك ـ وناهيك به ـ لكانت حياة مجتمعنا طيلة هذه القرون يوما مكررا متشابها وغير متشابه .

ظل مجتمعنا طيلة القرون الخامس والسادس والسابع في ازدهار وانتشار (كما أسلفنا) فكانت مضاربهم في وادي أريغ وسوف ووارجلان والزاب وتاجديت ، والرمال ، وصدراتة ، وجبال بني مصعب ، (ميزاب) ، مضرب المثل في الاستقامة وإحياء سيرة الرعيل الأول من سلف الأمة الصالح ، وناهيك بتاجديت وما بلغته من ازدهار وتألق .

كذلك مجتمعنا ظلت عوامل المحو والإبادة تناوشه وظل هو بدوره يقاومها دراكا بينما قوة مقاومته تضعف شيئا فشيئا حتى ألقى السلاح واستسلم أمام ضربات الدهر القاسية ، ونحن إذا استثنينا الأقلية الضئيلة الباقية بوارجلان وجدنا المذهب الإباضي يأرز وينحصر في جبال بني مصعب (ميزاب) وإن لم يكن ثمت أيضا بنجوة مما انتابه في أوطانه الأولى ولو ذهبنا نستعرض ما مر به في أدوار تاريخه من خوف ونهب وسلب وسطو وفوضى وتسلط ذوي الأطماع من الأمراء ومن فتن داخلية ، وقحط ومسغبة وأمراض ، وضيق العيش ، وغير ذلك من أرزاء الحياة لتعجبنا كيف قدر لمجتمع صغير مثله أن يبقى إلى اليوم في الوجود .

ولعله يظل كذلك صامدا صمود الجبال الراسخة ، يهزأ بالأنواء والأعاصير ويضحك في وجه النوائب والمحن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين » .

هذه مقتطفات من إجابات شيخنا بكلي عبد الرحمن عن الصورة التي طلبتها وقد رسمها حفظه الله ورعاه في إطار أوسع من هذا الذي اقتبسته منه فظننت أن هذه الجوانب كافية لجعل القارئ عالما بالظروف التي عاش فيها المجتمع الإباضي في الجزائر ما يزيد من عشرة قرون .

البراءة والهجران

البراءة هي التطبيق العملي لقاعدة الولاية والبراءة الشخصيتين في المذهب . فإن المسلم المستقيم هو أخ لجميع المسلمين يتعاملون معه على أسس التقوى ورضوان الله ، وعندما يثبت على شخص ما ارتكاب معصية تعلن منه البراءة حتى يتوب . ويتبع ذلك كإجراء تأديبي ، هجرانه أي مقاطعته اجتماعيا فلا يتعامل أحد معه . فيجد نفسه معزولا من المجتمع فيضطر إلى التوبة لتعود إليه مكانته ويستطيع أن يعيش بين المسلمين كواحد منهم .

وقد جرى في بعض العهود توسع في تطبيق الهجران فلم يقتصر فيه على من يرتكب المعاصي المعروفة وإنما يطبق على من يخالف السيرة المتعارف عليها وعلى من يرتكب ما يعتقد أنه يحط من قيمة الشخص أو يتسبب مضرة للأفراد أو انحلالا وتفككا في المجتمع . ثم وقع تشدد أكثر في أهل العلم ومن يقتدي بهم الناس ويتأثرون بسلوكهم .

ولعل مما يفيد القارئ الكريم أن أنقل إليه ما قاله أبو العباس الدرجيني وهو يتحدث عن هذا الموضوع قال :

« الخطة والهجران والإبعاد والطرد ألفاظ تترادف على معنى واحد ، وذلك متى أجرم أحد من أهل الطريق جرما ، أو ظهرت عليه خزية ، أو أتى بنقيصة في قول أو عمل ، فإنه يهاجره كل أهل الصلاح فلا يكلم ولا يحضر جماعة ، و لا يؤم ، ولا يؤاكل ، ولا يجالس ، وكأن خطة بينه وبين أهل الخير . فإن تاب واستغفر قبل منه ، ورجع إلى الجماعة وزال عنه شين ذلك الاسم ، وكان بقاؤه في وحشة الهجران بقدر عظم الجرم وصغره وتوبة المجرم وإصراره ، فمنهم من يتوب ويرجع في الحال ، ومنهم من يبقى ساعة أو ساعتين أو يوما أو يومين أو أياما أوشهورا أو أعواما أو

عمره إذا عظم الجرم ودام المجرم على الإصرار وترك الاستغفـــار . أسأل الله أن يقينا شر أنفسنا وشر كل ذي شر » .

وفي هـذا الفصل أُريـد أن أضع أمـام القـارئ الكريم صـورا من وقائع الهجران التي نفذت في بعض الحـالات والتي شملت جمـاعـة من كبار العلماء والأئمـة الـذين يقتـدى بهم النـاس ويتبعون أقوالهم وفتـاويهم بل بعض من تعتبر مؤلفـاتهم أُصولا ومراجـع في المـذهب الإباضي ليرى القارئ الكريم مدى الحرص الـذي كـان عليـه السلف الصالح في المحافظة على الاستقـامـة بل على السلوك الرفيع طبقـا لأرفع الآداب التي دعا إليها الإسلام ، وإليك الأمثلة :

1 ـ زار أبو محمد عبد الله بن عيسى صديقـه أبـا يعقوب يوسف بن موسى فوجده يطـالع بعض الكتب الفلسفيـة التي تبحث مسـائل الخلاف في علم الكـلام وتتـوسـع فيـه فنهـاه عن قراءة تلـك الكتب ونصحـه بـالابتعـاد عنهـا ، خوفـا من أن تـؤثر فيـه أو يعرف حـالـه ضعاف الطلبـة فيقتـدون بـه في قراءتهـا فتؤثر عليهم ، فلم يستجب أبو يعقوب لصـديقـه ولم يعمل بنصيحتـه واستمر على منهـاجـه في المطالعة والدراسة ، ولما اجتمع المشـائخ بتونين أخبرهم أبو محمـد بالموضوع وما قد يترتب عنه فناقشوا المسألة واقتنعوا بوجـاهـة رأي أبي محمد فاتفق رأيهم على هجران أبي يعقوب فبعثوا إليه بذلـك . فبادر بالذهاب إليهم وأعلن توبته بين أيديهم ووعـدهم بترك دراسـة الكتب التي يخشونها عليه أو على غيره ممن يقتدى به .

2 ـ كان الشيخ صالح يعلو بن صالح في المرتبة التي لا تدانى علمـا وعملا وخلقـا ، وبلغ المشـائـخ عنـه شيء . وكـان كبير السن فجاز عليه المشائخ سنـة ثمـانيـة وخمسمـائـة فجعلوا يعـاتبونـه على أشيـاء بلغتهم عنـه وجعـل يستغفر ويتـوب ويقـول لا أعـود . حتى انتهوا وقبلوا منه ورفعوا عنه حكم الهجران . فقال لهم : لم أفعل مـا بلغكم عني . وكـل مـــا بي إنمـــا هـو ضعف ومرض ولا شيء مما تكرهون .

3 ـ الشيخ تبغورين بن عيسى الملشـوطي أحـد أئمـة الإبـاضيـة وكتـابـه في علم الكلام يعتبر أصلا من الأُصول المعتمـدة ، وأقوالـه وآراؤه تعتبر حجـة . ومـع ذلـك فلم يسلم من الهجران فقـد بلـغ المشـائـخ عنـه شيء فحكمـوا عليـه بـالهجران ووضعـوه في الخطـة واضطر أن يسافر إلى تينوال يتوب بين أيديهم ويعتـذر ممـا نسب إليه حتى قبلوا منه .

4 ـ كان إسماعيل بن العباس عـالمـا فـاضلا وبلغتهم عنـه أخبـار فوضعوه في الخطةحتى جاءهم وتاب بين أيديهم وقبلوا منه .

5 ـ عـاتبـوا جميـع شيـوخ أريـغ منهم من أخرجـوه إلى الخطـة ومنهم من اكتفـوا بعتـابـه وتـوبيخـه ، وحكمـوا على جميـع شيـوخ تينوال فأخرجوهم إلى الخطة حتى تابوا .

6 ـ من المواقف الصلبة التي وقفوهـا ضـد بعض العلمـاء موقفهم مع سليمان بن عبد الله بن بكر فقد كـان هـذا الشيخ أفتى بمسـألـة مخالفة للمعمول به بتاجديت فـأخرجـه الأشيـاخ إلى الخطـة وجـاء سليمان يتوب بين أيديهم فلم يقبلوا منه إلا بعد اثنتي عشرة سنـة ، ذلك لأنهم قالوا : إن الفتوى قـد انتشرت في النـاس ولا تتم التوبـة حتى يبلـغ خبر رجـوع الشيـخ عن فتـواه إلى كـل من بلغتـــه الفتوى الخاطئة .

7 ـ كـان الشيـخ ابـو طـاهر اسماعيـل بن أبي زكريـاء من أعلم الناس وأتقاهم فرحل إلى البادية وأقام بها أيـامـا فبلغ الأشيـاخ أنـه أكـل طعـامـا عنـد أنـاس لا يتقـون الشبـه ولا يعفـون عن الحرام ، فأرسلوا إليه بالهجران فلما بلغه الخبر وهو بالباديـة دعـا إليـه ولـده أيـوب وأمره أن يُرَحِّـلَ على نـاقتـه وكـان الشيـخ قـد كبر وضعف فركب الناقة وأخذ الولد بخطامها يقودها فحرص الشيخ أن لا يكلم ولده إلا إذا قال له الطريق من هنا أو من هنا . حرصـا على تنفيـذ

حكم الأشياخ ولئلا يكسر عليهم هجرانهم ، حتى دخل وارجلان وأناخ بباب مسجد « تاماست » (1) ووقف على باب المسجد يتوب ويتضرع ويسألهم القبول منه . ولا يزيد عن التوبة وهم يعاتبونه ويلومونه فيقول لهم : تبت ولا أعود آجركم الله ، حتى قبلوا منه ورضوا عنه فقال لهم : يامشيختي لم أفعل شيئا مما بلغكم .

8 ـ كان علماء الإباضية يشددون النكير على التعامل مع القبائل التي لا تتقي الشبهات ، ولا تحرص على مراعاة الحلال في كسب الأموال وكانوا ينهون عن التعامل مع ثلاث من القبائل البربرية وهي بنو غمرة ، وبنو ورسفان ، وبنو بنجاسن . لأن هذه القبائل لا تتورع عن النهب والغصب ولا تعف عن الغارة والسلب ، وكانوا يقولون : إذا حضر إليك طعام وغسلت يديك لتأكل فتبين لك أنه طعام بعضهم فارفع يدك ولا تأكل ، وكذلك كان حكمهم على بعض القبائل العربية من بني هلال وبني سليم ممن يسلك نفس المسلك ويحترف نفس الحرفة .

9 ـ أشيع عن قبيلة مغراوة أشياء أنكرها الأشياخ ، منها التطفيف في الكيل ، وتقديم غير الأكفاء في المصالح العامة ، فاجتمع جمع من المشائخ منهم أبو العباس احمد بن محمد بن بكر وعبد السلام بن وزجون ويحي بن ويجمين ويونس بن أبي الحسن وأمثالهم فحكموا على مغراوة كلها بالهجران وأخرجوها إلى الخطة فاجتمعت القبيلة بأسرها عند المشائخ وأعلنت أنها أتت تائبة ففوض الأشياخ الشيخ سمداسن لمناقشتهم فجعل يذكر لهم المنكرات التي تنسب إليهم والتي انتقدها المشائخ عليهم ووضعوهم في الخطة من أجلها فأعلنوا توبتهم واستعدادهم لتنفيذ أوامر المشائخ والمحافظة عليها والرجوع إلى السير في المنهاج والمحافظة على السيرة التي عرفها الأخيار من أهل الاستقامة ، فقبل الأشياخ منهم وعفوا عنهم وحذروهم الاغترار والانخداع بوسوسة الشيطان .

(1) كلمة بربرية معناها الوسطى .

10 ـ كان علماء الإباضية كثيرا ما يؤلفون وفودا يكلفونهم بزيارة إخوانهم والاطلاع على أحوالهم ومعرفة شئونهم ، فإذا وجدوا ما ينكرونه عندهم أنكروه عليهم لا يخافون لوما ولا يخشون غير الله . وتألف وفد فيه العلامة داود بن أبي سهل فلما قدموا على شيوخ أريغ لم يعجبهم حالهم فعابوهم وانتقدوهم ، ووضعوهم في الخطة حتى تابوا وعاهدوا الله أن يحافظوا على السيرة النظيفة التي سار عليها المسلمون السابقون من المنهج الإسلامي فقبلوا منهم ورفعوا عنهم ذلك الحمل الثقيل .

11 ـ ولعل من أجمل ما يروى في هذا الموضوع موقف العلامة الشيخ أبي الحسن علي بن خزر الوسياني النفوسي ، فقد ترامت عنه إشاعات إلى الشيخ سعد بن يفاو ، فقدم عليه وعد عليه ثمان خصال بلغه أنه فعلها مما لا يستقيم مع سيرة الفضلاء العدول ، وكان الشيخ الوسياني بريئا منها جميعافكان كلما ذكر سعد خصلة منها بادر أبو الحسن إلى التوبة والاستغفار والتعهد بعدم العودة إليها وإلى ما يغضب المسلمين حتى أتمها فقبل منه ورفع عنه حكم الهجران . .

ولما مضى جاء أصدقاء أبي الحسن وأقرباؤه يلومونه أنه لم يدفع عنه ما نسب إليه وهو بريء منه فقال أبو الحسن :

« أعوذ بالله أن أرد ناصحا ، ولو رددته لضرني ذلك فيما أعمل ، يقول من يريد نصحي ، نصحه فلان فلم يقبل وأنا لست خيرا منه » .

12 ـ ولعل من أطرف ما يروى في هذا الباب القصة الآتية :

كان أبو مسور يسجا يدرس في شروس على شيخه العلامة أبي معروف وكان أبو معروف كسائر أهل الجبل في ذلك الحين . يشتغل بالزراعة ، فذهب ذات يوم إلى بعض جنانه يعمل ما يعمل

الفلاحون ، وكان الوقت صيفا ، فتخفف من ثيابه الثقيلة ولم يبق عليه إلا سراويل . ولحق به تلميذه أبو مسور فوجده يشتغل على تلك الحال ، ورأى أبو مسور أن هذه الحالة لا تتناسب مع شيخه الوقور الذي يعتبر قدوة وإماما فأخرجه إلى الخطة . ولم يزل الشيخ يتوب بين يدي تلميذه ويتعهد بأنه لن يعود إلى هذه الحالة حتى قبل منه . وأراد أبو مسور أن يستمر في عتاب الشيخ فأسكته الشيخ قائلا : قد كان لك ذلك قبل قبول التوبة ، أما بعد قبولها فليس لك أن تلوم . ولعل هذه القصة لا تتم إلا بالصورة المناقضة لها في القصة الآتية :

فقد ذكر أبو العباس الدرجيني في كتابه الطبقات ما يلي :

قال أبو الربيع : جئت لزيارة عبد الله بن الأمير فلم أجده في منزله ، فأُعلمت أنه في الأندر فقصدته ، فوجدته في جبة صوف ، وقد وضع كساءه ، وهو يضم أطراف الأندار ، فلما رآني تنحى إلى كسائه فلبسه فلاقاني ، فصافحته ثم أقبل يعتذر كأنه أساء في وضع الكساء ، وقلت له : وهل في ذلك من بأس . أليس هو العمل في الحلال ، فقال : نعم ، ولكن أين من يحسن العمل في الحلال ، إنما يحسن ذلك أبو صالح ، فقلت : وكيف كان عمله ؟ قال : كان في أيام الحصاد يحمل الزرع إلى الأندار على ناقة له . فإذا كان وقت صلاة الضحى ، أناخ ناقته وحط عنها حملها ، ثم عقلها وحل إزاره وأخذ في الصلاة حتى يصلى ما كان يصلي قبل ذلك ، ثم يرجع لناقته ، فهكذا العمل الحلال ، إنما هو ما لم يضر بعمل الآخرة .

أحسب أن الأمثلة السابقة كافية لإيضاح الصورة التي أردنا أن نضعها لذلك المجتمع الذي وضع لنفسه سيرة يحافظ عليها كما يحافظ على بقية ما أوصى به الإسلام . ويحاسب أفراده على صغار الأمور وكبارها بلا هوادة ولا تلطف .

وعندما يتأمل القارئ الكريم جميع الصور السابقة التي طبق فيها حكم الهجران على عدد من الأفراد والجماعات يجد أن أكثرها إنما أوقع على ترك الفضائل والمستحسنات ، وليس فيها ما أوقع على ارتكاب الكبائر والمحرمات ، اللهم إلا ما أسند إلى قبيلة مغراوة من تطفيف الكيل .

ويكفي هذا دليلا على مقدار ما كانوا عليه من خلق ودين . ومن قوة في الإلزام والالتزام بما جاءت به الشريعة السمحة الغراء ، إما في نصوصها الثابتة أو ما نقل عن المقتدى بهم في خير القرون ، أو ما اتفق عليه المسلمون ورأوه صلاحا .

الإباضية مع جيرانهم

عندما نطلق كلمة الإباضية في هذه الحلقة نعني بها إباضية الجزائر في أغلب الأحوال . والإباضية في الجزائر قد عاشوا في مبدإ الأمر منتشرين في كافة القطر الجزائري ثم انحازوا إلى أرض الجنوب واعتصموا بالواحات والصحراء ثم انتهى بهم الأمر إلى أن تقلصوا من جميع الأماكن التي كانوا يعمرونها وانحصروا في وارجلان ووادي ميزاب .

ولا شك أن جيران الإباضية في الفترات الوسطى إنما كانوا في بعض الجهات دولا وإمارات ، وفي أخرى مغامرين وطلاب حكم ، أو بداة يعيشون على النسق الذي اعتاد بنو هلال وبنو سليم من الغارة والنهب والسلب والقتل ، أما جيرانهم في الفترات الأخيرة حين انحصروا في وارجلان ووادي ميزاب فقد كانوا من أولئك الضاربين في الصحراء ، يعيشون مع الأنعام ينتقلون بها من واد إلى واد .

وعندما كنت أراجع ما لديَّ لاستخراج الصورة التي كان عليها الإباضية بين جيرانهم كنت أعد سؤالا وجهته إلى كل من الشيخين الفاضلين أبي اليقظان ابراهيم وباكلي عبد الرحمن وقد تفضل كل من الشيخين فأجابني عن سؤالي على انفراد .

ويسرني أن أضع بين يدي القارئ الكريم الصورة التي وضعها العلامة الفاضل شيخنا أبو اليقظان . قال رحمه الله : «إن حالة الإباضية مع جيرانهم من المسلمين تختلف باختلاف الميادين التي يعيش هؤلاء وهؤلاء فيها وهي - طبعا - تبعا للظروف السائدة في كل ميدان ، ففي ميدان الاقتصاد تمر بين الفريقين أزمات فيها كثير من المرارة والتشاكس ربما تؤدي الى اغتيال ونهب وسلب وسرقة ، بينما جيرانهم الإباضية يقفون في سائر الأحوال موقف

دفاع . وعند دفع العدوان ينكفون عن الشر حسب مبادئ سلفهم الصالحين الإباضية الأولين ، وفي ميدان الاجتماع كذلك تنشأ أحيانا أزمات حادة قد يثيرها الاستعمار أو بعض المتعصبين ضد الإباضية من الطعن في مذهبهم أو في أفراد منهم بارزين فتنشأ عن ذلك ردود فعل هنا وهناك ربما تتسم بانحراف أقلام المدافعين . وقد اشتدت هذه الأزمات النفسية في أواخر القرن التاسع عشر المسيحي وأوائل القرن العشرين ، عندما تكالب الاستعمار على بلاد الإسلام فيسلط المسلمين بعضهم على بعض ، ويقف هو موقف المتفرج الساخر ، وهو يقضي مآربه من الوطن بمنجاة من أبنائه آمنا أن يكيلوا له ضربة بمثلها . وقد برز في ميدان الدفاع المحامي المِدره في هذا الباب السيد الحاج عيسى بن قاسم خريج الشيخ اطفيش ، وبرز من الكتب في هذا الميدان كتاب الشيخ اطفيش « إن لم تعرف الإباضية ياجزائري» وكتاب«القول المتين» للشيخ قاسم الشماخي وكتاب « المسلك المحمود » للشيخ سعيد التعاريتي الجربي وأمثالها ، لا رد الله ذلك العهد » .

هذا ما قاله الشيخ أبو اليقظان حفظه الله ورعاه أما شيخنا باكلي عبد الرحمن بن عمر فقد صور تلك الحالة صورة مؤلمة بما فيها من واقع مرير ، وقد ردَّ ذلك الى تمسك الإباضية الشديد بتعاليم الدين وحرصهم عليه وسكناهم في مدن متحضرين أو شبه متحضرين بينما كان جيرانهم على غير ذلك ، فقد كان الجيران في بعض العصور الأولى من بعض الفرق التي تستحل دماء وأموال مخالفيهم فكانوا بذلك لا يعفون عن اختلاس أموال الإباضية ولا عن إراقة دمائهم وبعد أن انقرضت تلك الطوائف التي كانت تبيح دماء وأموال مخالفيها بدين وعقيدة ابتلي الإباضية هنالك بجيران يحترفون الغارة ويعيشون على النهب والسلب ، فهم لا ينفكون يهجمون على قرى الإباضية الآمنة أو يتعرضون لقوافلهم فتذهب بسبب ذلك أموال وتزهق أرواح ، وإلى القارئ الكريم جانبا من

الصورة التي وضعها الأديب العالم الفاضل شيخنا بكلي عبد الرحمن حفظه الله ورعاه :

« أما جيرانهم فيحيون حياة بدائية طبيعية ، لا نظام فيها ولا قواعد ، ليس لهم رادع من عقل ، ولا وازع من دين ، فحياتهم على عمومها حياة فوضى ونهب وقطع طريق ، يضاف إلى ذلك ما تأصل فيهم من أحقاد متوارثة وعنصرية عريقة في جهل مطبق قاتم ، وكثرة تضر ولا تنفع ، فالإباضية معهم دائما في خوف ، في عراك ، عرضة لغاراتهم المتعاقبة ، في دفاع ، في مداراة، وضع لا يطاق ولا تستقيم معه الحياة ، يتحتم على من ابتلي به أن يفكر فيما يلطفه ويتقي به شروره ، فاتخذوا لذلك الوسائل الآتية :

1 ـ اتخذوا من بعض تلك القبائل أحلافا يستعينون بهم على دفع اعتداء القبائل الأخرى .

2 ـ فتحوا أسواقهم في وجوههم فسهلوا لهم المعاملات التجارية وتبادل المصالح على طرق المقايضة ، يجلبون محصول البادية من أغنام وألبان وسمن وإقط وصوف وشعر ووبر وجلود وحطب وأعشاب وغيرها ، فيبادلونهم ثيابا وحبوبا وتمورا وغيرها من حاصلات الحضر .

3 ـ يحسنون إلى محاويجهم وضعفائهم بالصدقات المتنوعة ، وتجد نساؤهم مجالا لبيع الأطباق والأوطاب والكساكس وغيرها ، ويأخذن بدلا من ذلك دقيقا وقمحا وتمرا وثيابا لهن ولأولادهن .

ويستخدمون أبناءهم عمالا في المزارع يضاف الى ذلك كله أن الإباضية اتخذوا الشتاء موسما لتوزيع أوقاف المقابر نظرا لعطلة أغلب السكان عن العمل ، وشدة احتياجهم أيام البرد . فترى جموع الأعراب يأخذون نصيبهم منها . وأن الواحد منهم لينالـه أحيانا ما يكفيه قوتا لكامل أسبوعه ، أي حتى يعاد توزيع الصدقات اذا كان مقتصدا .

4 ـ يتخذ الإباضية الأغنام يودعونها عندهم فيستفيد منها الطرفان وقد يبعدها المودعة عنده ويدعي موتها أو فقدها فتبقى له .

5 ـ يهادنونهم ويمونونهم ويضيفونهم كلما حلوا بالبلد .

6 ـ ظهر بعض الأغنياء الأسخياء في البلد عمَّ إحسانهم من يؤم قراهم من أي عرش كان سيما رؤساؤهم ، فكان لهذا الإحسان العام أثره المحسوس في إزالة السخائم من الصدور وكان بمثابة درع حصين يقي سكان الوطن من غارات بعض القبائل ، وكثيرا ما يجر لهم أصدقاء ، أو أنصارا ، ولا غرابة فالإحسان يستعبد الإنسان » .

هذا جانب من الصورة التي وضعها شيخنا بكلي عبد الرحمن للإباضية وجيرانهم في الجزائر . وهي بلا شك إنما تصور حياة الميزابيين مع جيرانهم في عصور الانحطاط والجهل ، من القرون الثلاثة الأخيرة ، وليست هذه المضايقة مقصورة على الإباضية في الجزائر وإنما هي صورة وجدت في كثير من القرى والمدن المنفردة في الواحات وغيرها والتي يعيش بجوارها بعض القبائل المتبدية التي يغلب عليها الجهل بالإسلام وأهله وأحكامه . فكانت لا تعرف مصادر الرزق الحلال ولا تهمها المصادر التي يأتيها منها الحلال ، بل إنها لتعد التغلب على قوم آخرين وابتزاز أموالهم من المفاخر التي يمتدح بها الأقوياء .

ولعل مما يوضح فهم أولئك الناس لمصادر الرزق هي القصة التي كان يقصها عليَّ أحد الشيوخ المسنين من جيراننا قال :

كان فلان ـ لشخص سماه ـ شيخا همَّا تجاوز التسعين ، وهو من بعض القبائل الضاربة حول الجبل وكان شيخا لقبيلة كذا ـ وذكر اسم القبيلة ـ وهو صاحب أغنام وإبل كثيرة ، وكان لا يفتأ يغير على غيره من القبائل الغافلة فيأخذ منهم أموالهم ويضيفها الى

ماله ، فلما كبر وعجز أعلن التوبة وأدى فريضة الحج وجلب معه سبحة أنيقة لا تفارق أصابعه وقد كف عن مباشرة الغارة وإنما كان يجلس في خيمة تنصب له وراء الحي ، وكانت أصابعه لا تكف عن الحركة وشفتاه لا تكف عن التمتمة بالتسبيح وكان له عدد من الأولاد الأقوياء الأشداء رباهم على خلقه وأسلوبه في الحياة فكان الواحد منهم ينطلق فيغير على بعض الأحياء أو المنازل ويقتطع الماشية فيأتي بها إلى حيهم ولا يدخلها إلى مالهم حتى يعرضها على أبيه فيقف الولد في رهبة ومهابة أمام الشيخ الوقور وهو منصرف عنه إلى التمتمة والتسبيح حتى إذا أتم العدد أو الورد وقال له في صرامة وشدة : من أين أتيت بهذا المال ؟ فيقول الولد : مررت على غنم كان رعاتها نياما فأخذت منها هذا ولم ينتبهوا . فيقول الشيخ التائب : إنهم باعوا أموالهم بالنوم سألت عنها الإمام فقال إنها حلال ، اخلطها بالمال . ثم تحرك أصابع الشيخ وشفتاه من جديد وينصرف عن الولد الذي أضاف إلى مالهم الحلال مالا آخر حلالا .

فاذا قال الولد اقتطعتها منهم وهربت فلم يلحقوا بي يجيبه الشيخ : لقد باعوها بالضعف سألت الإمام فقال : هي حلال . وإذا قال الولد : وقعت بيني وبينهم معركة قتلت منهم أو جرحت ثم نجوت بهذا المال ، يجيب الشيخ : إنهم باعوها بالخوف وأنه سأل الإمام فقال هي حلال .

وهكذا كلما ذكر الولد سببا برره الوالد التائب وأخبر أنه سأل الإمام عن ذلك فأجابه بأنه حلال ، ثم أمر بحفظ المال المسروق أو المغصوب .

هذه القصة سواء كانت واقعية أو كانت خيالية تدل على تصور أولئك الناس لمعنى الحلال والحرام . واستساغتهم للحصول عليه بأي وسيلة ، والرجل التائب منهم والذي لا ينفك عن

التسبيح ،وذكر الله لا يرى بأسا أن يأكل مما يجيء عن طريق الغصب لأن أصحابه في نظره قد باعوه بالعجز أو الكسل أو الخوف ، ولا مما يجيء عن طريق السرقة لأن أصحابه في نظره باعوه بالنوم أو بالغفلة وعدم الاعتناء ، أو بغير ذلك من الأسباب .

ولقد كنت أستبعدأن يقع مثل ذلك من أناس ينتمون إلى الإسلام ويفخرون بأنهم من أمة محمد ﷺ ، وتنفرج شفاههم عن ذكر الله في كل مقام ، ولكن الزمن برهن لي على أنه قد يقع ذلك وأكثر من ذلك . وأن الاحساس الديني بإثم الجريمة قد يضعف حتى يتجاوز الناس فيه حد المقارفة الى حد الاستحلال ، وحد الاستحلال إلى حد الافتخار والتمدح والإعجاب .

وقد يبدأ الأمر بالتجاوز عن أشياء يخيل لمرتكبيها أنها بسيطة وربما موهت بشبه يقبلها التفكير الساذج والإيمان السطحي ، ثم لا تفتأ النفوس تعتادها حتى تصبح وسيلة من وسائل الحياة يعسر الاستغناء عنها .

والطريقة التي ذكرتها آنفا كانت وسيلة من وسائل الحياة في البادية في عهود الجاهلية وسواء في ذلك بلاد العرب وبلاد البربر وغيرهما من البلدان التي تعيش في نفس الظروف فلما جاء الإسلام توقفت الأيدي المؤمنة عن التصرف في أموال الناس ودمائهم إلا بحقها ، ثم جعل للحقوق حدودا قائمة بينة واضحة . وقف الناس عندها والتزموها .

وكان وقوف بعض الأيدي عن القيام بأعمال الظلم إنما هو نتيجة لخوفها من العقاب الرادع الذي جعله الإسلام جزاء للمعتدين ، وكانت بعض الأيدي تحن إلى ما نشأت عليه وتعارفته وافتخرت به في جاهليتها ، فلما انحرف الحكام عن إقامة دين الله وعطلوا حدود الله من جهة ثم إنهم هم أنفسهم استباحوا أموال الناس

ودماءهم وأعراضهم من جهة أُخرى . ثم قامت دعوات باسم الدين أو المذهب تبيح دماء وأموال مخالفيها وأحيانا حتى أعراضهم ، سارعت تلك الأيدي التي غلها الخوف من تطبيق الإسلام إلى تطبيق ما عرفته وعادت إلى ما اعتادت عليه من عيشة الجاهلية ، بدعوى الانتقام أو عقوبة المخالفين في الرأي أو في المذهب ثم لم يلبث هذا التعليل واعتباره وسيلة التحليل أن اختفى وأصبح القيام بالغارة وسلب المال وسيلة من وسائل العيش كما كان في عهود الجاهلية . وأصبحت أغلب الواحات والمدن المتناثرة والقرى الواقعة في الأطراف والأحياء الضعيفة أو القليلة العدد هي مقصد المهاجمين ومنتجع الغاصبين المعتدين .

وقد أخذت وارجلان وميزاب حظيهما الوافرين من هذه المصائب وفي هذه العهود الأخيرة اختفت هذه الظواهر وساد الأمن وأصبح المسلمون من البداة يحسون بالرباط الأخوي الذي يربطهم ببقية المسلمين وعرف الناس أجمعون أن تلك الأحوال التي كنا نصفها أحوال لا يرضى عنها دين ولا قانون ولا خلق ولا ضمير ولا يستسيغها عقل ولا منطق وإنما هي نزوة من نزوات الشهوة والعاطفة العمياء تتحركان في غفلة من العقل والضمير .

العلاقة بين الإباضية في المغرب الإسلامي

من الأسئلة التى وجهتها الى الشيخين الفاضلين أبي اليقظان وباكلي السؤال الآتي :

ما هي علاقة إباضية الجزائر بإخوانهم في نفوسة وجربة ؟ فاتفقا في معنى الجواب وإن اختلفا في أسلوب العرض وقد رأيت إفادة للقارئ الكريم أن أنقل أهم ما ورد في الرسالتين ، قال أستاذنا الشيخ أبو اليقظان رحمه الله :

« ان العلاقة بينهم كانت طبيعية للغاية القصوى بعد عمارة الوادي فبمجرد استقرارهم في الوادي بقراهم الخمس ، توافدت إليهم الوفود ، كما أشرنا إليهم آنفا ، من نفوسة ، وجربة ، ووارجلان ، رجال من أهل العلم والرأي والصلاح والتقوى لأداء رسالة العلم والدين والخلق والمصاهرة فكانت عائلات كبيرة تنسب إلى الآن - لآل نالوت - مثلا في غرداية أو آل هارون فيها ، وآل الطرميسي كآل ترشين في بني يزقن ، أو آل هارون الجلالي في العطف ، وآل الشيخ عمى سعيد بن علي من جربة في غرداية وآل ثمينة وآل متياز في يزقن من ورقلة ، وآل ويرو من مليكة بجربة ، كما ستعرفه قريبا إن شاء الله . وكما كانت نفوسة وآل بارون بالأخص بجربة . وكان علماؤهم في هذا البلاد يتبادلون الزيارات ومواكب تلاميذهم يتوافدون لاغتراف العلم والمعرفة فبعضهم بالمراسلات والقصائد والخطب العلمية والأدبية ، وما كان بينهم وبين الشيخ عبد الله الباروني وقطب الأئمة والشيخ سليمان الباروني شائع ذائع كما سجلته دواوينهم وزياراتهم وآخرتها زيارة القطب الشيخ اطفيش والشيخ الحاج قاسم بالحاج لجبل نفوسة في عهد قبل الأخير أضف إلى ذلك زيارات الشيخ سليمان باشا الباروني مرارا للوادي بعد تخرجه مع زملائه عن قطب الأئمة الشيخ اطفيش .

ولا تنس زيارة الإمام محمد بن زكرياء الباروني وتعلمه عن الشيخ أبي اسماعيل مهدي بن إسماعيل المليكي في غضون 961 هـ ، كما ذكر عن نفسه في سير الشماخي رحمه الله وكان الإمام أبو زكرياء أثناء ذلك عضوا من بين أعضاء مجلس عمي سعيد كما تشهد بذلك اتفاقات مجلسهم الشهيرة بالموانع العامة .

وبالجملة كانت الإباضية في الشمال الإفريقي عائلة واحدة متشابكة الأوشاج .

كما كانت الحال في الترابط والانسجام بين جربة ونفوسة تعلما وثقافة وتزاورا ومصاهرة كما بين الباروني وجربة من جهة وبين آل مليكة في ميزاب وجربة من جهة أخرى.

وبعد سطور يقول :

«وأما ما كان من جهة التبادل الثقافي بين الإباضية في شمال افريقيا فحدث عن البحر ولا حرج ناهيك به قوة ومتانة في علاقة الثقافة بين هذه الأقطار ما كان في وادي ميزاب من اعتماده على كتب نفوسة العلمية الدينية في مختلف الطبقات ، فخزائنهم مملوءة بكتب نفوسة ومجالات أقلامهم في كتب نفوسة وحلق تدريبهم من مؤلفات جربة ونفوسة ، وقرى ميزاب جلها حافلة بدور الغرباء من تلامذة جربة ونفوسة وعليها أوقاف مؤبدة لتغذية هذه الدور سائر العصور . فهي تؤدي مهماتها على الوجه الأكمل ، ونجد أن جربة ونفوسة تذكر ، كما حدثنا تاريخ السلف الماجد بذلك ففي الخمسين الثانية من القرن العاشر قيل إن أهل وادي ميزاب رأوا أن البلاد الى فناء واضمحلال إذا لم تتدارك بعلماء فطاحل من إخوانهم الإباضية من جربة ونفوسة فأرسلوا يستغيثون إلى إخوانهم أن يتداركوا أمرهم برجال من أولي العلم الغزير والدين فأرسلوا إليهم من هؤلاء ثلاثة :

الشيخ عمي سعيد بن علي الخيري الجربي من جربة الى غرداية .

والشيخ بالحاج محمد بن سعيد ذلك المصلح الكبير الى يزقن من نفوسة .

والشيخ دحمان من نفوسة الى بنورة فقام هؤلاء بمهماتهم في نشر العلم والدين والخلق الكريم والاصلاح الديني العام بما أشاع النور والهدى في الوادي وأزاح ظلمات الجهل والفتن .

وإذا كان في العهد الأخير هناك فترة فتور فإنما يرجع أمرها للاستعمار الغاشم فإنه لم يفتأ يضع حواجز بينهم وبين إخوانهم المسلمين ، كما وضع أمثال ذلك بين الأخوة المسلمين الأشقاء ، في عموم الشمال الإفريقي كله جميعا .

فها هو ذا قد ارتفع كابوس الاستعمار بفضل ضربات المجاهدين - من ليبيا إلى المغرب الاقصى - فأصبحنا والحمد لله نتزاور بالسيارات ».

ثم ذكر بعد ذلك بعض المظاهر التي تدل على هذا الترابط يمكن أن نلخصها في النقاط الآتية :

1 - تفرغ بعض الأسر من جهة الى أخرى وقيادتها لحركة التعليم الاصلاحي كما وقع من أسرة أبي عبد الله الفرسطائي في مناطق الإباضية بالجزائر ، وكما وقع من الأسرة البارونية في جربة ، وكما وقع من أسرة آل ويرو من مليكة في جربة .

2- نجدة نفوسة لجربة في محنتها بغزو الإسبان سنة 915 .

3 - خدمة القطب رحمه الله لمؤلفات نفوسة وجربة والاستفادة منها وتنسيقها وتنظيمها ثم تقديمه لعدد كبير من المؤلفات استفاد

منها الإباضية عموما واشتمال حلقته الدراسية على أعداد من أبناء نفوسة وجربة تخرج منهم أعلام أمثال سليمان الباروني وعمر العوام .

4 ـ تعاون رجال الأقطار الثلاثة نفوسة وجربة وميزاب بما فيها ورقلة في تبادل الثقافة واستنساخ المخطوطات والتعاون على طبع ونشر الكتب العلمية والدينية .

هذا أهم ما في جواب شيخنا أبي اليقظان رحمه الله وقد لخصت بإيجاز شديد ما عبر عنه بمظاهر العلاقة أما أستاذنا الفاضل الشيخ بكلي عبد الرحمن حفظه الله فقد قال : « الحق أن العلاقة بين نفوسة وجربة وبين ميزاب كانت متينة على ممر أدوار التاريخ ، فلم تنفك الوفود مترددة ذاهبة آيبة من هنا وهنالك إلى أيامنا ، وإن كانت قبل أنشط منها الآن ، والمراسلة لم تفتأ موصولة الحبل ، وكم للمراسلة من أثر حسن في تمتين العلاقات وتلقيح الأفكار وحفظ التاريخ .

ولا غرو فالقلم أحد اللسانين بل نجد كثيرا يهاجرون من نفوسة ومن جربة ويستقرون نهائيا في ميزاب ـ ووارجلان قصد إحياء معالم الدين ونشر مبادئ المذهب لا سيما في فترات التاريخ التي تعم فيها الجهالة ، ويخاف فيها على أهله الانحراف وراء الدعايات المذهبية (غير الإباضية) التي ظل علماؤها ينشرونها وتسندهم في دعوتهم السلطة الزمنية بل تقهر لهم أحيانا من يظهر عليهم بالحجة قهرا .

وكذلك نجد أشخاصا يسافرون من ميزاب إلى نفوسة وإلى جربة طلبا للعلم حتى إذا امتلأ وطابهم وتأهلوا لقيادة الأمة عادوا إلى موطنهم وتصدوا لإحيائه وإصلاحه كما هو شأن يحي بن صالح الذي ابتدأت منه النهضة العلمية الحديثة بميزاب . وغيره كثيرين

وهنا نسجل ملاحظة جديرة بالاعتبار : تلك هي أننا نرى أهل نفوسة وجربة يهاجرون إلى ميزاب ويتوطنونه بخلاف أهل ميزاب يسافرون إلى نفوسة وجربة ولا يستقرون فيهما ، بل يأخذون حاجتهم من العلم ثم يعودون . لذلك نجد عائلات أصلها من ميزاب أصلها من نفوسة وجربة ولا نجد في نفوسة وجربة عائلات أصلها من ميزاب على ما أعلم (1) ، وكأن نفوسة ـ وجربة بالتبعية ـ الغنية بعلمائها ترى انحصار مسئولية المحافظة على المذهب الإباضي فيها ، فكانت لذلك أكثر تضحية وأشد غيرة عليه . ولا جرم فنفوسة لم تزل الحامية الحاضنة للمذهب الإباضي والمجددة لما اندرس من معالمه لما ظهر فيها من أبطال صناديد وعلماء فطاحل عبر القرون .

والحق أنهم عملوا جهدهم لتوحيد التعليم بينهم وقد تبنت نفوسة المسألة فكنت ترى الأشياخ منها يرحلون تارة الى جربة وأخرى إلى وارجلان وأحيانا إلى ميزاب كما قد أسلفنا سابقا ثم نرى في حالات أخرى تلاميذ من مواطن الإباضية المختلفة تجتمع على عالم واحد ويتلقون ثقافة واحدة كما فعل أبو زكرياء يحي بن أبي زكرياء أحد تلاميذ الشيخ أبي مساكن عامر بن على الشماخي فقد كان ساد في زمانه واجتمع عليه طلبة من نفوسة وجربة ودمر ويفرن والمغرب فكان همزة وصل بين الأصحاب هنا وهناك .

---

(1) من الميزابيين الذين استقروا بجربة الشيخ يوسف المصعبي وممن استقر في جبل نفوسة أخيرا موسى بن أحمد الغرداوي وقد اشتهر بين الناس باسم الشيخ محمد الميزابي وتوفي في زوارة ودفن بها . ومنهم عيسى بن حمو الواهج من الرحيبات وله فيها أولاد وبنات وتوفي بها كما أخبرني أخيرا أهل المنطقة . وفي بعض نواحي الجبل أملاك تنسب إلى الميزابيين فيقال لها زيتونة الميزابي ونخلة الميزابي وما أشبه ذلك ، ولما سألت بعض من توجد بحوزتهم تلك الأملاك لم يعرفوا على التحقيق شيئا وقالوا ربما كانت لأناس من ميزاب أو أن أصلنا من هناك .

وهنا قبر في إحدى غاباتنا يسمى (قبر الميزابي) ولا نعرف شيئا فوق ذلك ، وهناك قصص تروى عن ميزابيين كانوا في بعض المناطق ولكنها خرجت الآن عن نطاق التاريخ إلى نطاق القصص إذ لم يظهر ما يوضح معالمها .

وكما هو شأن العلماء الثلاثة الذين وفدوا من جربة إنجادا لميزاب الذي يحتاج مجتمعه وقتئذ إلى تثقيف وإصلاح . وقد تأتى لهم ذلك فكانت لحركتهم ثمرة مباركة لا نزال نتمتع بها إلى يومنا (1)

ومعلوم أن البربر يخضعون غالبا وينقادون إلى من يرد عليهم من الخارج أكثر مما يطاوعون من بالداخل . والعلماء الثلاثة هم :

الشيخ أبو عثمان سعيد بن علي الخيري الجربي ، والشيخ بالحاج والشيخ دحمان فكان الأول من نصيب غرداية والثاني من نصيب يسجن ، والثالث من نصيب بنورة .

ولما رق حبل العلم هنالك توافدت طلبته منها على قطب الأئمة الشيخ اطفيش ثم على تلاميذه بعده ، وأخيرا اختلفت بعثات على رئيس النهضة العلمية الحديثة الشيخ بيوض حفظه الله ولا تزال .»

هذا ما قاله الشيخان عن السؤال السابق وفيه مقنع . بقي لي أن أشير أن حركة المد والجزر العلمية والإصلاحية بين هذه الأطراف كانت مستمرة متواصلة أحيانا يزدهر العلم فيها جميعا ويسودها الهدوء والاستقرار فتجري بينهم زيارات المودة والأخوة وصلة الأرحام وأحيانا تضيق الحياة في بعضها - في بعض جوانبها - فيكون الغوث لها من باقيها وفي جميع الأحوال كانت جربة - بموقعها المتوسط - قلب الحركة وقد حظيت نفوسة في هذا العصر بزيارات متعددة فردية وجماعية كان أهمها على الإطلاق زيارات الإمام أبي اسحاق وزيارة الإمام بيوض ولا تزال أصداء تلك الزيارتين ترن في الأسماع » .

(1) هذا الكلام من شيخنا بكلي عبد الرحمن يؤيد ما أشرت إليه في بعض الفصول من أن حركة النهضة واليقظة أو الانطلاقة لهذا الشعب تبدأ من القرن التاسع وتستمر متواصلة مترابطة وإن كان يتاح لها من حين إلى حين يد قوية تدفعها الى الأمام في ثبات وشجاعة فتكون حركتها أوضح وأظهر .

مواقف العزابة في كفاح الباطل

كفاح الباطل في شتى صوره ومظاهره وألوانه : كفاح الرذيلة ، كفاح الظلم ، كفاح البدعة .

كان هذا الموضوع من المواضيع التى أردت أن أكتب فيها لأنه يعطي صورة من الصور التي أحرص على تقديمها إلى القارئ الكريم في هذا الكتاب ، ورأيت أن أستعين بالأستاذ الفاضل شيخنا بكلي عبد الرحمن فوجهت إليه سؤالا في الموضوع ، وقد أتاني الرد على جميع ما في نفسي وزاد عليه ، ولذلك فقد رأيت أن أكتبه بنصه وأكتفي به فإلى القارئ الكريم ما قاله شيخنا حفظه الله ورعاه وأمده بالهناء والعافية :

«حياة العزابة حياة كفاح ونضال وخدمة للجانب الروحي في الأمة : تصحيح عقيدتها ، وتيثقيفها في دينها ، وبعثها على صالح العمل ، وصرفها عن فاسده وعن الانغماس في الرذائل والموبقات ، والقيام عنها بعدة فروض كفائية لو تركت مرسلة ومهملة لاختل نظام الأمة وهلكت بتضييعها . أجل إنهم ينقطعون إلى إرشاد الأمة للصالح العام ودعوتها إلى المحافظة على آدابها العامة ومقاومة الظلم والرذيلة والبدعة في شتى صورها وأشكالها ، لا تكاد تعدو هذه الميادين يوما . وتقوم بكل ذلك تطوعا ، وابتغاء ما عند الله : لا يريدون جزاء ولا شكورا ، ولا يتقاضون مرتبا من حكومة أو هيئة أو مؤسسة ، ولقد امتحن معدنهم في هذا الميدان فأبان عن ذهب خالص ، لازيف فيه ولا دغل ، وأعربوا عن تعلقهم بما عند الله وما عند الله خير وأبقى .

وفعلا قدمت الحكومة - وما بالعهد من قدم - لبعض أئمة المساجد بميزاب مبلغا معتبرا من شأنه أن يستهوي العابد الزاهد فرفضه قائلا : «إما أن تتركوني أقوم بهذا الواجب ابتغاء ما عند

الله ، وإما أن اعتزل إمامة الصلاة ولا منزلة بين المنزلتين» . ولهذا السر تركت الحكومة الجزائرية أمر إمامة المساجد الإباضيين في ميزاب حرا ، ولم تعتبرهم من سلك موظفي الأوقاف كما هو شأن غيرهم من الأئمة في سائر القطر الجزائري .

والحق أن الضلع الأكبر في بقاء الجامعة الإباضية في ميزاب محتفظة بطابعها الحقيقي : طابع الدين والخلق الكريم المتين يرجع الفضل فيه الى هذه المؤسسة الجليلة فهي العقال الذي قيد الأمة عن الانحراف وراء تيار التحلل والتفسخ ، وعن الانحراف عن سواء السبيل ، والحاجز الذي أوقف الجماهير بعيدا عن الاسترسال وراء الشهوات والحظوظ النفسية .

فكم نال أفرادها في سبيل الاضطلاع بحملها أذى كثيرا . سجن وتغريم وتعذيب وفتنة وإذلال وإهانة . فلم يصدهم شيء من ذلك عن أداء رسالتهم نصرة للدين ونصحا لله ورسوله ﴿ **فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين** ﴾ (1) .

فإذا لم تكن ثمة حياة أحلى لدى القائمين بدين الله من مصارعة الباطل (ويا ما أحلى الشقاء في سبيل تنغيص الظالمين) وإذا كان لا يهنأ بال القاسطين ما رأوا الحق يشق طريقه نحو هدفه ، وأنصاره يزدادون في إقراره ونشره ثباتا ونشاطا .

فإن حياة العزابة لا تكون إلا حياة صراع مستمر ضد الباطل في شتىصوره وألوانه ، وأن تاريخها ليطفح بقضايا كانت ميدانا للصراع العنيف بين الحق والباطل نذكر منها على سبيل النموذج المسائل الآتية :

---

(1) آل عمران : 146 .

1 ـ (في كفاح البدع) مسألة البناء على القبور والتوسل بها ، مسألة إلغاء ميراث المرأة ، (1) على عادة الجاهلية وحسبما يجري به العمل الآن في بعض الجهات ، عدم احتجاب المرأة عن حميها .

أثارت العزابة ضدها حملات عنيفة اضطربت لها أركان البلاد وعصفت عواصفها مدة طويلة وظل العزابة يبينون فيها وجه الحق يدعون إلى ترك مألوف العادات التى تتصادم مع الشرع وإن استصعبت النفوس مفارقتها فإن في الصبر على ما يكرهون خيرا كثيرا ، ثم ما فتئوا يبشرون وينذرون ويقرعون ويربتون حتى فهم الناس وجه الحق وعاد اليهم صوابهم فانتصر الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا

2 ـ (في كفاح الرذيلة) تطهير المدن من أعشاش الخناء وحارات البغاء التى ركزتها قوة الظلم والكفر بدعاوى ما أنزل الله بها من سلطان فصمد المسجد يصك الأسماع بزواجره وقوارعه ، ويزلزل القلوب بحججه وبراهينيه ، ويوقظ العقل بحكمته وإقناعه ، وما عتم مع السلطة الزمنية في زعزع ورخاء ، وجذب وإرخاء ، ووعد ووعيد ، وترقيق وتهديد ، حتى اجتثت شجرة الفساد الخبيثة من فوق الأرض ما لها من قرار ، واختفى شبح تلك المناظر الفظيعة عن العيون ، وانغلق باب حرية الفساد والتهتك في وجوه الفساق الشهوانيين الذين لا يبالون بانتشار الرذيلةوفساد الأجيال الصاعدة ـ وكذلك مسألة الخمور بيعا وشرابا ومسألة القمار وانتشار حريقه . فقد كانت مقاومة المسجد لهذه الآفات الاجتماعية وردها الراتب . وكانت له صولات وجولات في موضوعها من حين لآخر لدى المناسبات .

3 ـ (وفي كفاح الظلم) مسألة التجنيد الإجباري الذي دامت

---

(1) راجع ما كتبته عنها في فصل (لا يا أخي)

حربها أكثر من جيل مع الحكومة الفرنسية من سنة 1912 الى أن ألغتها أيام الحرب العالمية نهائيا أي حوالي 1943 مسألة المكس ، مسألة استقصاء مقبرة الميزابيين القديمة بقسنطينة ومحاولة تحويلها إلى طريق عامة إلى غير ذلك .

ولعلي أُعطيك صورة صادقة ـ لها كل المغزى ـ اذا شرحت لك موقفا من مواقفها البطولية وأساليب المقاومة التي اتخذتها إزاء قضية من قضايا الرذيلة وقعت في بعض مدن ميزاب فحاولت سلطة الظلم انتهاز فرصتها لتتخذها ذريعة للنيل من هذه المؤسسة الجليلة التي وقعت كالشجى في حلقها والتنكيل بالقائمين بها قتلا للروح الدينية في الأُمة فلقيت فيها مصرعها بعد حرب دامت ما يقرب من خمس سنوات ، ومن صارع الحق صرع» .

ويذكر بعد هذا خلاصة لتلك القضية التي أشار إليها وفي آخرها يقول :

«تنبيه : لقد أفردت القضية برسالة خاصة تبلغ صفحاتها نحو مائة ، شرحت فيها أدوارها وكل ما يتصل بها . إنها لتشتمل على معلومات قيمة لا يستغني عنها طالب الحقيقة تعطيه صورة رائعة للمسجد وسلطانه في ميزاب » .

هذا ما أجابني به الأُستاذ الفاضل باكلي عبد الرحمن وقد رأيت أن أنقله للقارئ الكريم بنصه ما عدا القضية الأخيرة التى استشهد بها فقد فضلت أن أُثير شوق القارئ إليها ، وأرجو الله تبارك وتعالى أن ييسر لأُستاذنا الكبير الطرق ويتيح له نشر تلك الرسالة القيمة أو القصة الشيقة أو القضية الهامة ، ليجدها القارئ الكريم كاملة غير مبتورة ، أو لعله يتيح لدار الدعوة بنالوت شرف نشرها وهو مشكور في الحالتين .

فتن متوالية

عاشت منطقة الواحات المتكونة من بلاد أريغ ووارجلان وسوف وقصطيلية فترة طويلة تعاني من الفتن المتوالية التي ما تتخلص من إحداها حتى تثور أُخرى ، وكانت الهجمات لا تنفك توجه اليوم هنا وغدا هناك ، وكانت الطرق تكاد تكون مقطوعة ، والقوافل التى تربط بين البلاد اقتصاديا بأنواع البضائع تكاد تتوقف . وكتب التاريخ تذكر عرضا أنباء الوقائع التي كانت تقع هنا أو هناك بإيجاز حينا وبإسهاب حينا آخر .

وفي هذا الفصل سوف نذكر أمثلة من تلك الفتن والغارات والوقائع المؤلمة ليرى القارئ الكريم صورة واضحة لما كانت تعانيه تلك البلاد من محن في قرون طويلة ومدى الكفاح الذي كافحته من أجل البقاء .

☆ جاء في طبقات الدرجيني في ترجمة أبي العباس أحمد بن محمد بن بكر ما يلي :

« وذكر أنه وقعت فتنة ببلاد أريغ سنة إحدى وسبعين وأربعمائة» .

وكانت نتيجة هذه الفتنة أن فر العلماء من تلك البلاد فالتجأ أبو العباس الى أجلو والتجأ أخوه أبو يعقوب يوسف الى وارجلان .

☆ ويقص علينا أبو العباس الشماخي أخبار فتنة من تلك الفتن فيقول :

«وذكر أن عنان بن دليم الطرفي نزل بأريغ فحشد عليه أبو العباس مغراوة فردوه ثم نزل ثانية فحشدهم فردوه وهزموه ، وقد قتل من بني يطوفت ستين رجلا وحمل رؤوسهم فلما هزمهم استنقذ

الرؤوس ودفنها ، وأكثر من معه بنو ورتيزلن ، قيل إنهم قرب ألف . وجمع أيضا جمعا عظيما وأراد غدر الشيخ وتبييته ، وأخفى سيره فلم يشعر بهم الشيخ حتى قربوا فوقع إليه الخبر مع جاسوس . وسرى ليلا وقصد أبا العباس فلم يجده وهدم قصره . وجمع عليه أبو العباس بني ورتيزلن وأهل رأس الوادي فقال له فلفل بن فلنار : هذا رجل غدار فإياك أن تخرج إليه إذا طلب رؤيتك ، وقال لقمان لابنه : إياك أن تخالف ناصحا ولا تجاور فاضحا ولا تعامل كاشحا . فطلب عنان رؤيةأبي العباس فمنعه الناس أن يخرج إليه . قال الشيخ أبو عبد الله إن أبى من الرجوع فاقتلوه لأن قتل الواحد خير من قتل الجميع . وأفسد عنان النخيل وأفسد الغابة وذلك عام اثنين وخمسمائة ثم لحقه بعد أن ارتحل ثلاثمائة وثلاثة عشر من بني ورتيزلن ومعهم غيرهم فهزموه واستردوا ما قدروا عليه وقتلوا من قتلوا .

☆ ويقص علينا أبو العباس الدرجيني أخبار غارة من الغارات الكثيرةالتي كانت تقع في تلك البلاد . قال الدرجيني وهو يتحدث عن ماكسن بن الخير :

«وذكر أبو الربيع قال : أغارت غارة من بني توجين على رأس وادي أريغ فساقت غنمهم فاتبعهم عدة من المشائخ منهم ماكسن وأبو العباس الوليلي وعيسى بن يرصوكسن وعبد الله الدمري فلم يلحقوا بهم إلا عند أحيائهم فلبثوا مدة يستردون حتى استردوا الغنم بجملتها ، وما استردوها إلا وقد نفذت أزوادهم أو كادت قيل وكان فيهم عجوز مرابطة وقد اطلعت على حال المشائخ وعلمت أن أزوادهم قد نفذت وأن طعام قومها لا يروق أكله تورعا فرغبت إليهم أن تصنع لهم طعاما ولما حان وقت صلاة المغرب وصلوا جاءتهم العجوز تسألهم عن مسائلها » . وبعد أسطر يقول الدرجيني :«حتى سألتهم ما تقولون في قومي هؤلاء إذا أغاروا غارة

وغنموا وأخذوا أعطوني زكاة ما أخذوا فهل علي من ذلك حرج . فقالوا لها : وأنت إذن على هذه الحالة المذمومة ياعجوز . فانصرفوا ولم يذوقوا طعامها» .

☆ ويقص علينا الدرجيني أيضا أحداث قصة مؤلمة فيقول :

« وذكر أن قافلة خرجت من وارجلان من أهل أريغ متوجهين الى أريغ فلما وصلوا إلى (ان ونودي) يعني بئرا فازدحموا عليها يستقون حتى اقتتلوا) ويسهب أبو العباس في ذكر أحداث الواقعة وما نتج عنها من عواقب مؤلمة .

☆ ويقص علينا الدرجيني أحداث فتنة الميورقي في ترجمة أبي موسى عيسى بن يرصوكسن فيقول :

«ولقد حدثني رجل يعرف بابن القابلة ورد توزر سنة ثلاثة وثلاثين وستمائة وكتب في خيل يحي بن اسحاق الميورقي فتوجه بعسكره من أريغ إلى وارجلان أو قال من وارجلان إلى أريغ وهذا أقرب إلى الصحة فنزل (ثالا عيسى) وأراد الاجناد والاعراب أن يطلقوا خيولهم في الزروع فأنذرهم بعض من معهم ممن عرف قديما حال الموضع وأهله وحذرهم وقال لهم : هذا موضع منسوب إلى رجال عزابة صلحاء مساكين يتقى عقوقهم فإياكم وإياهم فمن الجند من تنحى ومنهم من توقف . وقال لهم عمرو كاتب الميروقي : الكلام هذا سخيف : أمنع فرسي هذا الخصب ، قل لهم فليدعوا على فرسي ، وأطلقها في الزرع ترعى واقتدى به غيره في هذا الضلال والاستخفاف . قال ابن القابلة : فوالله ما رفع من هناك إلا رسنها وسرجها ومات معها سبع وعشرون فرسا ، وليس هذا من باب كرامات الأولياء ولكنه من باب استجابة دعوة المظلوم .

☆ ويذكر الدرجيني في ترجمة عبود بن منار المزاتي بعض تلك الفتن فيقول :

«فبعد ذلك بأيام أغارت عليه غارة للنكارة خرج بها رجل فيهم يعرف بمنصور بن ملديك فلقوه بمنزله من زريق فدافع عبود عن نفسه وماله وأهله حتى قتل شهيدا رحمة الله عليه» .

☆ وفي ترجمة أبي محمد اللنتي ذكر أبو العباس الدرجيني فتنة من تلك الفتن التي تنشب بسبب الجهل والعصبية البغيضة من الطرفين قال :« وكان أبو محمد بحلقته في(تين زارين) لم تزل بها الحلقة قائمة قد رتبت على أبي محمد لا يخشون أحدا ولا يمسهم أحد . حتى جعل الله لخروجها سببا ، وسبب ذلك فيما كان أبو الربيع ساقه من هذه الحكاية قال :

«كان تلامذة أبي الربيع سليمان بن يخلف من أهل سوف وأريغ ووارجلان والزاب وقصطيلية قد حلقوا على أبي محمد(بتين زارين) وكانت الفتنة حينئذ بين تكسينت وهبيتهم ومالكيتهم فالوهبية منهم قبيلة يقال لهما بنو يروتن ، والمالكية من عداهم من قبائل بني تكسينت فكانت الفتنة والعزابة منها في أمان لا يخافون مكروها ولا يسمعونه ، فقدر بأن حضر بنو يروتن فرقي رجل جاهل ممن شملته الحلقة يقال له توزين من أهل قنطرار فقال لأهل العسكر الحاشدين : اسكتوا وأنصتوا . ففعلوا فقال لهم : فلان وفلان وفلان حتى عد جماعة من أئمته ، عليهم اللعنة وسوء الدار فلما سمعوا منه ذلك تركوا القتال واستدعوا شيخا لهم يقال له مطهرة بن نفاض فأخبروه الخبر . فقال : أسمعتم ذلك حقا . قالوا : نعم . قال لهم : احرقوا واسبوا واقتلوا ، فلما سمع العزابة ذلك خرجوا ليلا وتفرقوا إلى اليوم .»

☆ ويقص علينا أبو العباس الشماخي في ترجمة أبي عبد الله محمد بن الخير إحدى تلك النكبات فيقول :

« وذكر الشيخ أظن أبا الربيع ، أن عدو الله حماد بن بلقين لما

نزل على كدية مغراوة بجنوده وكانت كثيرة ، وقف رجل صباحا ليراها وهي تمر عليه متصلة الى صلاة الظهر من كثرة عددهم فحاصر أهلها وذكر له أن الخير وأخويه رجال صالحون حجاج فناداهم مناديه أن اخرجوا بالأمان ، ونادى الضعفاء ومن لا استطاعة له ، فلم يخرج أحد فقاتلهم محاصرا نحو شهر فما أتاهم مدد فأخذهم قهرا إلا برجا فيه عبد الله ومسعود أبناء المنصور الورزماري فقاتلا أياما المعسكر بأجمعه فقتل مسعود وأضرمت النار الى البرج فرمى عبد الله بنفسه خارجا فمضى وامتنع ونجاه الله منهم ، وأخذ حماد ابنه وحمله طمعا أن يكون كأبيه شجاعة ونجدة وجرأة » .

هذه نماذج من الفتن المتوالية المتتابعة التى كانت تقع هناك ، بل وفي غيرها من بلدان الواحات فكان السكان لا يهنأون بعيش ، ولا ينعمون بسلام ولا يطمئنون إلى أحد ولا إلى مكان بل إن بعضهم ما يكاد يستقر في مكان حتى تحدث أحداث تدفعه إلى الهجرة والفرار فإذا قصد مكانا لحقته الأحداث والفتن مرة أخرى . وكثيرا ما كانت تلك الفتن والأحداث تتسبب في تشتيت أسرة وتفريق عائلة واحدة إلى جهات مختلفة فيقصد بعض دون وعي ولا تخطيط مكانا ويقصد الآخرون أيضا بدون وعي ولا تخطيط ولا اتفاق أمكنة أخرى ، وقد سبق أن أشرنا إلى بعض الفتن والحروب التى وقعت في وادي ميزاب أو في وارجلان .

فتشتت بذلك أسر ، وقطعت وشائج أرحام ، وضاعت نفوس كريمة بين الحل والترحال وهي تلتمس مأوى تستكن فيه وموطنا يسوده السلام لتستقر بين ربوعه ومغانيه .

إمارات الدفاع

عندما انحرف الحكام عن منهج الاسلام في الحكم فكر إباضية المغرب الاسلامي في إقامة إمامة تعود بالأُمة إلى المنهج الذي رسمه الإسلام ، وسار عليه الخلفاء الراشدون ، وقليل من الأئمة الذين جاءوا من بعدهم مثل عمر بن عبد العزيز ، فقاموا بالتجربة في ليبيا وأقاموا ثلاث إمامات متعاقبة لم يكتب لإحداهن أن تستقر وتطول فقد وجهت إليها الضربات من كل جهة وجانب ، ولما فشلت التجربة في ليبيا ، وهي بوضعها الجغرافي معبر بين الشرق والغرب أعادوا التجربة في الجزائر فأقاموا الدولة الرستمية .

واستطاع أغلب أئمة هذه الدولة أن يعودوا بالحكم إلى ما ألفته الأُمة من السير على النهج الإسلامي القويم من الإمامات العادلة ، وبعد ما يقرب من قرن ونصف قضي على تلك الدولة وانقرضت الإمامة في تاهرت . ومنذ قضي على الدولة الرستمية لم يفكر إباضية المغرب تفكيرا جديا في إقامة بناء دولة مرة أخرى ، وإنما كانوا يعملون على أن يعيشوا في أمن وسلام تاركين لغيرهم دنياهم يتهارشون عليها تهارش السباع .

ولكنهم رغم ذلك فقد اضطروا في كثير من الأحيان أن يبايعوا أُمراء سموهم أُمراء دفاع . وذلك عندما تبلغهم أخبار عن مهاجمة عدو لهم . أو توقع خطر ينزل عليهم ، فإنهم يتفقون على واحد منهم يبايعونه على أن يقودهم في معركة الدفاع . فإذا انتهت المعارك وذهب العدو ، وأمنت البلاد بطلت البيعة والإمارة تلقائيا فلا يحتاج إلى عزل ولا تنازل بل بانتهاء مهمات الدفاع يصبح الأمير فردا كسائر الناس .

إنها بيعة تخول الإمام أن يقود الناس إلى الدفاع عن أموالهم وحرماتهم وأنفسهم وأوطانهم ويقيم بينهم وفيهم في تلك الفترة

أحكام الله وحدوده فإذا أمنوا وزال الخطر ورجعت الأُمور إلى نصابها انحلت البيعة من أعناقهم وزالت الإمامة عن إمامهم . ورجعوا تلقائيا إلى الوضع الذي كانوا عليه قبل أن تنجم هذه المعركة .

إن إمارة الدفاع عند الإباضية إمارة مؤقتة تقتضيها ظروف معينة لمجابهة أحداث واقعة أو متوقعة فإذا زالت تلك الظروف زالت الإمارة وهذا التنظيم الاستثنائي يدل على فهم عميق للنفس البشرية فإن أي مجموعة من الناس إذا لم تجمعهم قيادة في عمل من الأعمال فلا شك أن الافتراق واختلاف الآراء سرعان ما يؤدي بهم إلى الفشل .

فإذا بايعوا أميرا يقودهم في الحرب ، وينظم صفوفهم في المعركة ويقاتل بهم عدوهم في صفوف منظمة ، وخطة موحدة وهو في كل ذلك يقيم الحق بينهم ، كان هذ التنظيم أجدر أن يبعث فيهم القوة والعزة والمنعة ويثير فيهم روح المنافسة والحماس والفداء .

ولقد احتاج الإباضية إلى هذا التنظيم بعد الدولة الرستمية في كثير من الأحوال وذلك عندما يبلغهم أن معتديا يريد الهجوم عليهم وابتزاز أموالهم ، وفي الإمكان أن أعرض على القارئ الكريم عددا من النماذج توضح له هذه الفكرة في التطبيق العملي عند الإباضية :

1 ـ عندما قتل المعز لدين الله الفاطمي أبا القاسم يزيد بن مخلد في (الحمة) غيلة وبدون أية جريرة جناها أبو القاسم غضب الإباضية وجاءوا الى العلامة أبي خزر يغلا بن أيوب فبايعوه إمام دفاع على أن يقوض أركان الدولة الفاطمية وقبل منهم البيعة وبدأ العمل حتى بعث إليه الفاطمي يعرض الصلح ويتنازل عن حكم

المواطن العامرة بالإباضية ، واستشار أبو خزر أصحابه في الموضوع فرفضوا وطلبوا منه الاستمرار في القتال .

2 ـ عندما احتل الأسبان أغلب الثغور الإسلامية من المغرب الإسلامي قرروا احتلال جربة فاجتمع أهل جربة وقدموا عليهم أبا زكرياءالسمومني فبايعوه إمام دفاع ، وتقبل منهم البيعة وحارب بهم العدو حتى طرده في صورة مخزية للعدو مشرفة للإسلام والمسلمين .

3 ـ في سنة 1226 هـ قرر ابن جلاب الهجوم على وارجلان من تقرت فاستنصر أهل وارجلان بإخوانهم في وادي ميزاب فجاءتهم النجدة واتفقوا على أن يقدموا عليهم جميعا الشيخ طباخ داود بن ابراهيم إمام دفاع . واستطاع الإمام أن يقف أمام العدو وأن يرده في هزيمة منكرة تحدث عنها شعراء ذلك العصر . وعندما فر العدو وأمنت السبل ورجعت الأمور إلى نصابها انحلت بيعة الشيخ طباخ عن أعناق الناس وأصبح في مكانه العادي بين أفراد الأمة .

4 ـ قرر بعض العربان الهجوم على وادي ميزاب ، وقطع طريق القوافل عنه فاجتمع أهل الوادي وقدموا عليهم الشيخ سليمان بن عيسى اليزقني إمام دفاع . فقاد جيش الدفاع وأدار المعركة بنظام ، ووقع قتال ، وسقط في الميدان شهداء ، وانهزم العدو وولى أدباره تاركا مالا وعتادا وبعد انجلاء المعركة عاد الإمام إلى مكانه فردا عاديا في الأمة .

5 ـ نصب محمد أبو شوشة نفوذه على جنوب قسنطينة وهجم على وارجلان فارتكب فيها الأفاعيل وخطر له أن يهجم على وادي ميزاب فسمع أهل الوادي فاستعدوا لذلك وقدموا عليهم الشيخ حمو بن باحمد باكلي إمام دفاع فنظم الصفوف واستنفر الشباب الموجود خارج البلد فرجع وكتب الكتائب واستعد للقاء العدو عند

الحدود فلما سمع أبو شوشة بذلك التنظيم وبلغته أخبار الاستعداد خاف العاقبة فأراد الرجوع بشكل لا يسقط هيبته فبعث إليهم رسالة يقول لهم فيها :

«اعلموا أني أمهلتكم مدة شهر وثلاثة أيام لتقدموا إلي طاعتكم ، وتدخلوا تحت سلطاني ، فاذا انتهى الأجل ولم تمتثلوا لأمري قاتلتكم» .

وقد انتهى الأجل ولا يزالون ينتظرونه ولسان حالهم يقول إن عادت العقرب فالنعل حاضرة .

لقد اقتبست هذه الصورة بتصرف من رسالة للعلامة شيخنا أبي اليقظان تحت عنوان «نموذج إمارة الدفاع» .

هذه نماذج من إمارات الدفاع التي عقدها إباضية المغرب في حالات وقوع خطر ، أو توقع حدوثه . والمتتبع لأحداث التاريخ يرى أن هذه الإمارات المؤقتة كان يقصد منها تنظيم العملية الحربية في حالات الهجوم أو الدفاع والفارق بينها وبين القيادة الحربية أو الفرق بين إمام الدفاع وقائد القوات المسلحة كما يسمى اليوم أن إمام الدفاع رغم أن إمامته محدودة فإنه يعطى جميع الصلاحيات التي تعطى لخليفة المسلمين أو أمير المؤمنين بالإضافة الى قيادة الجيش مدة قيامه بإمامة الدفاع ، فله أن يجرى جميع الأحكام حتى إقامة الحدود ، ولكنه عندما تنتهي الحالة التي نصب من أجلها إماما للدفاع تسلب منه كل الاختصاصات التي أعطيت له في تلك الظروف الخاصة .

ولاشك أن هذه الإمامات كانت تعقد لرد العدوان ، فعندما يستعد بعض المتسلطين على الحكم لمهاجمة بلد ما وتطير أخباره إلى أصحاب البلد فإن المعتدى عليهم يستعدون هم أيضا للدفاع عن أنفسهم ويهيئون وسائل المقاومة فيعقدون الإمامة لمن تتوفر فيه

شروط القيادة وقد يقتضي منطق الدفاع أن يبدأ بالهجوم على صفوف أو خطوط المعتدي لإيقاع الخلل في تنظيمه ومفاجأته بما لم يجعل له حسابا .

أما الغارات المفاجئة التي تقوم بها عصابات أو قبائل بقصد الحصول على ما سهل من أموال ثم الفرار بها ، فإنها لا تترك فرصة للتفكير والتنظيم ثم عقد إمارة . وإنما يتلقاها أول من يراها أو يسمع بها ثم يبعث بالصريخ إلى الباقي ، وقد تنتهي تلك الوقائع قبل أن يسمع بها أغلب السكان ، لا سيما إذا كانت تلك الغارات تستهدف قوافل في الطريق ، أو ماشية في المراعي ، أو غلالا على أشجارها في أطراف البساتين ، فتخطف منها ما يتيسر لها اختطافه ، أو اختطاف بعضه ثم تفر تاركة في أغلب الأحيان قتلى وجرحى منها أو من أصحاب المال المسروق أو منهما معا . ولذلك فقد كان سكان الواحات مثل وارجلان ووادي ميزاب يتخذون حراسا لغاباتهم في فصول نضوج الثمار . وكان أولئك الحراس يوزعون مسلحين على مختلف مناطق الغابات والبساتين ، وكثيرا ما تنشب معارك حامية بين أولئك الحراس وبين القائمين بالغارات أو السرقات الذين يتسللون ليلا في جماعات فيختلسون ويفرون ، واذا اعترض طريقهم معترض ضربوا وقتلوا .

غير أن هذا النوع من الأحداث داخل في السرقات العادية التى لا يخلو منها مكان ولا زمان فهي لا تقتضي وجود إمارة خاصة للدفاع ، وانما تستلزم يقظة وحراسة مستمرة ولذلك فقد جعل له جهاز خاص تتعاون على تكوينه مجالس العشائر تحت إشراف العزابة ، والأفراد الذين يتكون منهم هذا الجهاز

يسمى (إمصوردان) (1) ولهذ الجهاز نظام كامل مسجل لم أحصل على صورة منه بكل أسف حتى أضع صورة له أعرضها على القارئ الكريم ليتعرف على جانب آخر من جوانب التنظيم في تلك المنطقة الحية .

(1) لا أعرف المعنى الذي تدل عليه هذه الكلمة ولم أسأل عنه أحدا من الإخوة الجزائريين الذين يستعملونها فإن كان لها لديهم مدلول فذلك هو . وإلا فأعتقد أن تحريفا بسيطا دخل عليها وأن أصلها (امسيريدان) أي المنظفون أو المطهرون وأطلق عليهم ذلك لأنهم ينظفون الغابة أو القرى أو يطهرونها من دنس السرقة على كل حال هو استنتاج خيالي فلا تهتم به .

إباضية الجزائر تحت الحكم العثماني

عندما دخلت الجزائر تحت الحكم العثماني كان الإباضية الذين يسكنون بلاد وادي ميزاب ووارجلان يفكرون في موقفهم تفكيرا عميقا هل ينضمون تحت لواء هذه الدولة ، أم يحاولون أن يبقوا على الوضع الذي كانوا عليه - مستقلين في جميع شؤونهم - لا يتبعون دولة أو إمارة ولا يعلنون عن دولة لأنفسهم .

وفكر القوم فيما يبدو تفكيرا طويلا واستعرضوا حالتهم في ذلك الحين ، وقارنوا بين حياتهم تلك وبين الانضواء تحت جناح هذه الدولة المسلمة القوية الجديدة ، والاحتماء بها ، وما يتوقعون أن يكون لهم في ذلك من أمن وسلام . ولا شك أن الآراء اختلفت وأن الجدال كان محتدما وأن اجتماعات كثيرة قد انعقدت لدراسة الموضوع . غير أن ذلك الجدل وتلك الاجتماعات والمناقشات التي جرت فيها والمقارنة بين عهدين أحدهما ماض معروف والآخر مستقبل مجهول مخوف ، قد أسفرت جميعها على أن جانب دعاة الالتجاء إلى الدولة والاحتماء بها كان أقوى فمالت إليه الأغلبية وأيدته العناصر التي بيدها الحل والعقد .

فقررت الاتصال بالدولة العثمانية والاتفاق معها قبل أن تتحرك هي نفسها للاستيلاء .

وقد تم ذلك فعلا فذهب وفد - مخول بصلاحيات كاملة للاتفاق - إلى الجزائر العاصمة ، وقد استطاع ذلك الوفد أن يعقد مع الدولة الحاكمة اتفاقية تشتمل على عدة بنود لعل أهمها أن تسمح للإباضية أن يزاولوا أعمالهم الحرة في كل المدن والبلدان التي تقع تحت نفوذ الدولة العثمانية ، وأن تتعهد الدولة العثمانية بحمايتهم أفرادا وجماعات في بلدانهم وفي جميع بلادها على أن يدفعوا لها خراجا سنويا معينا حددته المعاهدة .

وقد تم الاتفاق على المعاهدة وأصبح الاباضية في الجزائر تحت النفوذ العثماني لكنه نفوذ شكلي لأنه لا شيء يمثل الدولة العثمانية في بلاد الإباضية وحتى الخراج أو الضمان المتفق عليه بينهم فإنهم هم الذين يتولون جمعه بأنفسهم ثم يوصلونه الى الحكومة دون أن تتكلف تعبا ودون أن تطأ قدماها أي جزء من تربتهم ، ولم تحاول تركيا رغم العهد الطويل الذي بقيت فيه أن تغير من بند الحماية إلا ما حاوله أحد ولاتها من ضم وادي ميزاب الى ولاية وهران فاعترضوا ولم تنجح المحاولة كما سنشرحها فيما يأتي في هذا الفصل ، وفي هذا الموضوع لم أرد أن أعتمد على ما لدي من مصادر فقط وإنما رجعت إلى أهل الشأن فوجهت سؤالا الى الشيخين الكبيرين الفاضلين أبي اليقظان ابراهيم ، وباكلي عبد الرحمن فأجابني كلاهما على حدة .

أما نص السؤال فهو كالآتي :

«ما هي حالة إباضية الجزائر مع الدولة العثمانية؟»

وقد كان جواب أستاذنا الفاضل شيخ الصحافة الجزائرية كما يلي :

«إنها حالة مسالمة وتقدير للوضع الذي كان لهم في الاقتصاد الجزائري ، وكل الطرفين مسالم للآخر ، إلى أن وصل النفوذ التركي في الأغواط بالجنوب على يد صالح باي ، وعلى يده وقعت مفاوضات بينه وبين أهل وادي ميزاب في تحديد العلاقات بين الدولة التركية وبين وادي ميزاب على أسس ترمي الى الاعتراف بوجود ميزاب كما هو ، ومسالمته في نظمه وآدابه على أن يدفع مقابل ذلك للدولة التركية اثني عشر عبدا واثنتي عشرة أمة . وأشياء أخرى في كل سنة كما فصل ذلك في كتاب «عثمان باشا» لتوفيق أحمدالمدني ، وعلى هذه الأسس وقعت معاهدة بين فرنسا وميزاب سنة 1853 .

ومن أبرز العلاقات بين الدولة التركية وميزاب : رسائل وقصائد الشيخ الحاج ابراهيم بيحمان الذي ذكرناه آنفا يخاطب به ملوك الدولة فيما بين عام 1200 وعام 1207 كما هو مخلد في ديوانه المخطوط وكان له أثر محمود في أوساط الدولة وبني ميزاب في ذلك الحين» .

هذا ما قاله شيخنا أبو اليقظان رحمه الله ورضي عنه ويبدو أن بعض الأحداث التاريخية الهامة قد اختلطت عليه وهو يكتب جواب السؤال فلا شك أن الاتفاقية المبرمة بين الإباضية والدولة العثمانية إنما أبرمت بين وفد مكلف من الوالي العام أو (الداي) في الجزائر العاصمة أما صالح هذا فهو عامل من عمال الداي وطمحت نفسه أن يضم ميزاب الى الأرض التي تقع تحت عمالته وبنو ميزاب في ذلك الحين يتمتعون باتفاقية حماية لا خضوع كامل فلما سمعوا بنواياه قاموا لذلك وقعدوا وأجروا عدة مفاوضات مع الوالي العام للجزائر لا مع صالح باي وتم لهم ما أرادوا ، وسوف يتضح لك الموقف كله بعد قراءة الفصل كله .

أما أستاذنا الفاضل الشيخ عبد الرحمن فقد كان جوابه كما يلي:

«كان الإباضية في ميزاب الى عهد الدولة التركية منعزلين في وطنهم لا يكادون يتصلون بخارج محيطهم اللهم إلا ما كان من زيارة بعض شيوخ دعوتهم وما إلى ذلك من انتقالات جزئية مستقلين فيه استقلالا تاما . حتى إذا استقرت قدم الدولة التركية بالجزائر وأخذ نطاق استقلالها يتسع ، وجدوا أنفسهم بين شدقي ضيغم ، ووضعهم على خطر إن لم يحتاطوا لمستقبلهم ، وسارعوا إلى المفاهمة مع هذه القوة الزاحفة مفاهمة يحفظون معها ذاتيتهم واستقلالهم ، وإلا عصفت بهم رياح الحوادث وياما أكثرها ولا سيما وهم أقلية .

وفعلا اتصلوا بالدولة التركية ، وقرروا تبعيتهم إليها تبعية اسمية فقط أو بعبارة أوضح ، دخلوا تحت حمايتها مقابل خراج سنوي يدفعونه لها ، ولهم مقابل ذلك حق الاتجار والاكتساب في مدنها وحماية أشخاصهم وأموالهم في أسفارهم عبر بلادها ، فهل أمنتهم في أسفارهم وحمتهم من قطاع الطرق حقا ؟

كلا فالذي يقصه علينا التاريخ أن الدولة التركية لم تعر إلى هذه الناحية أدنى التفاتة ، بل ألقت الحبل على الغارب ، وتركتهم عرضة للنهب والسلب والترويع ، فلا يخرجون من بلادهم أو إليها إلا قوافل مسلحين استعدادا للطوارئ وتحت حماية بعض أبطال ذلك الزمن منهم الذين يستأجرونهم لذلك مخافة أن يذهبوا هم وأموالهم وأولادهم ضحية ، فكم من جماعة سافرت إلى وطنها بعد أن أمضت سنين في الجمع والاكتساب تخرج عليهم جماعة مجرمة من قطاع الطرق فتجردهم من كل ما ملكت أيديهم ، وتتركهم عراة صفر الأكف » .

وبعد كلام طويل بليغ قال :

«فلما أخضع الباي صالح جبال عمور والصحاري وما حواليها حدثته نفسه بتحويل تبعية ميزاب إليه ، ففاوض في الشأن باي الجزائر حسن الدولاتلي ، فقيل إنه أجاب طلبه نظرا لإخلاصه وحسن بلائه ، بيد أن الميزابيين ثارت ثائرتهم، واضطربوا اضطرابا شديدا لما يعلمون من سوء نواياه كما يصرح بذلك جوابهم إلى باي الجزائر الذي أعلنوا فيه في شمم رفضهم لتبعيتهم للباي صالح ، فإما أن يبقيهم على الحالة الأولى من تبعيتهم للسلطة المركزية ، وإلا فليسرحوا أبناء ميزاب الذين دخلوا بلادهم بأمان وأرض الله واسعة الفضاء .

حرر الكتاب نيابة عن ميزاب بأسره الشيخ الحاج ابراهيم

بيحمان أحد تلاميذ الشيخ عبد العزيز صاحب النيل ، وأحد شيوخ يسجن بعده ومما جاء في الكتاب :

« . . . من المسلمين عليك جموع بني ميزاب المشتكين إليك ما نزل بهم مما لاطاقة لهم به ، وذلك أنهم سمعوا أنك تريد أن تضرب عليهم الغرامة المالية على يد صاحب الولاية الشرقية ، غير ما كانوا عليه من قديم الزمان وتريد أن تبدل أحوالهم المسطرة من الأسلاف والأجداد . ... إلى أن قال :

«فإن قلت لابد من هذا فإنا لأمر الله طائعون ، ولكلامك سامعون ، فسرح حينئذ أولادنا الذين دخلوا الجزائر بأمان ، الخادمين بضائعها بالإحسان أن يقدموا إلى ما يريدون من البلدان ، وأرض الله واسعة مادام الزمان .

عجبت لمن يعيش بغير عز وأرض الله واسعة براها

والجواب أرسل إلى السيد إبراهيم بن صالح الأمين ويدخله إليه بواسطته على يد صهره الحاج علي بن عبد اللطيف ، مؤرخ بتاريخ ذي القعدة عام 1206 هـ ثم جاءت الأخبار بعد ذلك بعدول باي الجزائر عن عزمه بسبب وقوع سوء مفاهمة بينه وبين الباي صالح أدى إلى مصرع هذا الأخير ، ومن أبطن سريرة ألبسه الله رداءها » .

فيما نقلته عن الشيخين الفاضلين يرى القارئ الكريم أنهما لم يتحدثا في رسالتيهما عن إباضية وارجلان ، وإنما قصر حديثهما على إباضية وادي ميزاب ، ويبدو أن حالة وادي ميزاب في ذلك الحين تختلف عن حالة وارجلان بعض الاختلاف ، فبينما سكان ميزاب عند دخول الأتراك إلى جنوب الجزائر كلهم على المذهب الإباضي اللهم غير أسر قليلة جاءت تبعا لوسائل العيش ، والتماسا

للعمل ولا تلبث أن ترتحل ، وكانت بلاد ميزاب مستقلة استقلالا تاما عن أي نفوذ ويتولى الحكم فيها مجلس العزابة بأنظمته المعروفة في شئونه الداخلية والخارجية . وبينما كانت ميزاب على هذا الوضع المستقل نوعا ما كانت وارجلان على وضع يخالف هذا الوضع بعض المخالفة فقد كان سكان وارجلان في ذلك الحين يتكونون من الإباضية والمالكية كما أنهم كانوا خاضعين لأمير يجري عليهم الأحكام على طريقة أمراء الطوائف والشيوخ المستبدين وإن كان الإباضية من سكان وارجلان يرجعون في أمورهم الدينية والاجتماعية إلى مجلس العزابة في أكثر الأحوال .

ولكن يبدو من أحداث التاريخ ووقائعه أن سلطة مجلس العزابة في تلك الفترة كانت محدودة جدا .

ونظرا لطبيعة هذه الفوارق بين إباضية وادي ميزاب وإباضية وارجلان ، اختلف موقف الدولة العثمانية منهما ، فبينما ألحقت جميع البلاد الجزائرية ومنها وارجلان لحكمها وجعلت عليها ولاة ينفذون سياستها ويطبقون أحكامها ، ويشرفون على إدارتها ويجمعون لها الضرائب ويتولون رعاية جميع الشؤون في مختلف ميادين الحياة ، فبينما يقفون هذا الموقف من وارجلان وفي بقية القطر الجزائري تراهم في وادي ميزاب يقتصرون على عقد اتفاق حماية ، يعترف فيها الشعب الميزابي بسيادة الدولة العثمانية ويدفع لها خراجا سنويا معينا ، وتتعهد الدولة مقابل ذلك بحمايتهم في وطنهم وخارج وطنهم ، أما شؤون ميزاب الداخلية في المجالات الدينية والاجتماعية والاقتصادية فمرجعها الى مجلس العزابة .

هذا الفارق بين طبيعة الحياة في وارجلان ، وطبيعة الحياة في وادي ميزاب هو ما ترك الشيخين يتحدثان عن علاقة ميزاب فقط بالدولة العثمانية تاركين الحديث عن وارجلان لغيرهم .

والواقع أنه إذا استثنينا وضع ميزاب فإن أسلوب الحكم العثماني يتشابه في أغلب البلاد الإسلامية ، لأن المسلمين في جميع الأقطار الإسلامية قد خضعوا للدولة العثمانية واطمأنوا إليها ورأوا فيها دولة الخلافة التي تحافظ على تراث الإسلام ومجده ، ما عدا أفرادا كانوا يثورون هنا وهناك لأسباب مختلفة أغلبها شخصية سعيا وراء الوصول إلى كراسي الحكم . وقد بادلت الدولة العثمانية المسلمين جميعا ، حبا بحب ، واطمئنانا باطمئنان ، وأعدت نفسها لتشغل مكان الدولة الإسلامية الكبرى التي تقود البشرية وتحافظ على الحضارة الإسلامية السابقة مضيفة إليها ما تستطيعه من حضارة وأمجاد ، وقد حملت مشعل الإسلام وأوصلته الى ما لم يصل اليه من بلاد الشرق الأقصى وشمال أوروبا الشرقية .

غير أن وضعها تجاه الدول الصليبية الحاقدة التي كانت تحاول بكل ما عندها من وسائل أن تقضي على الإسلام وتستولي على البلاد التي ينتشر فيها ، عرقل مساعيها الإصلاحية العمرانية الداخلية .

إنّ الموقف المتعنت من دول أوروبا الصليبية الحاقدة الحانقة جعلتها توجه أكمل عنايتها إلى الناحية الحربية ، وتهتم بالعواصم والثغور للمحافظة عليها ، وتهمل أمور الدواخل في أغلب الأحيان نوعا من الإهمال اللهم في فترات قصيرة وبجهود بعض الولاة المصلحين بفطرتهم ودينهم ، وعلى هذا الوضع كان الجنوب الجزائري . وهذه الصورة التي عرضناها على القارئ الكريم لا تمنعنا أن نقول كلمة الحق في تلك الدولة التي رفعت منار الإسلام زمنا غير قصير ، ونشرته في كثير من أنحاء الأرض ، وكالت لأعدائه والحاقدين عليه صفعات مؤلمة لا يزال صداها يرن فوق أثباج البحر الأبيض المتوسط .

ولقد كان دورها في التاريخ الإسلامي العام لا يقل عن دور

الدولتين الأموية والعباسية بحال من الأحوال ، إن الذي تدل عليه المصادر التاريخية التى بين أيدينا من المراسلات الجارية بين مركز الدولة وأطرافها يدل على أن لها عناية واهتماما بالتعرف على شكاوى الأهالي ودراستها والاستجابة لها وقبول المعقول من طلباتهم وأحسب أن هذا القدر كاف في الدلالة على حسن نية الدولة ورعايتها لمصلحة الأمة ولا مطمع في أكثر من ذلك من أية دولة مدنية لا تلتزم الإسلام منهجا وحكما .

وأيًا ما كان الأمر فقد كان الإباضية في الجزائر كغيرهم من المسلمين الداخلين تحت نفوذ الدولة العثمانية يرون أنها في ذلك الحين تمثل قوة الإسلام وتحمل لواءه ، وأن سلاطينها هم الخلفاء الذين يجب أن يسمع لهم ويطاع أمرهم ، وهم لذلك راضون عن الدولة مطيعون لها وإن نقموا بعض الأحكام من بعض الأفراد أو بعض التصرف من أحد الولاة أوالموظفين وهم لا يطمعون منها في أكثر من ذلك لأنها دولة مستبدة وليست خلافة رشيدة وهذا الموقف هو ما كانت عليه جميع دول الخلافة في العهد الإسلامي باستثناء الخلافة الرشيدة أو خلافة عمر بن عبد العزيز أو بعض الدول التي قامت في جهات العالم الإسلامي ولم يتح لها أن تحكمه كله وإنما حكمت جانبا منه لفترة قصيرة أو طويلة ، وقد كانت الصورة العامة كما يلي :

اعتراف من الناس بنظام الدولة القائم ، واعتزاز به ، وسمع له وطاعة ونقد لأعمال الحكام ، وسخط الولاة الظالمين والموظفين الذين لا يراعون أحكام الله ولا يسيرون على منهجه القويم واحترام وتقديس لشخص الخليفة مع النقد الحر لكل ما ومن يتصل به .

كان الإباضية يعيشون في كل من ميزاب ووارجلان في نطاق ضيق محصور على ما تنتجه أراضيهم ، وعلى حرف يدوية بسيطة ،

قد يكون أهمها صناعة الصوف الذي تشتغل به المرأة ، فلما دخلت تركيا إلى الجزائر وأظهرت أنها ستؤمّن جميع السبل (1) ، وتعهدت للميزابيين بحمايتهم انطلق أولئك الناس المجدون ، حيث يجدون متسعا للكفاح في سبيل الرزق الحلال . وذهبت جماعات منهم في بادئ الأمر إلى الجزائر لا حتراف التجارة . نجحت تجربة تلك الجماعات نجاحا باهرا ، شجع الكثيرين على الاقتداء بأولئك المغامرين الأولين . وتبعهم آخرون ، وهكذا نشط القوم ودخلوا أغلب المدن الجزائرية ، واستطاعوا - في مدة قصيرة - بما أوتوا من خبرة من التجارب ، وجد في العمل ، وأمانة في المعاملة ، أن يمسكوا بمقاليد التجارة في كل الجزائر ، وبالتالي في الاقتصاد الجزائري العام بعد أن أمسكته به منهم تلك الأيدي الأمينة المجدة الحريصة . فاحترمتهم الدولة لذلك ، وكانت تحسب لهم حسابا أي حساب وعرفوا هم أيضا منزلتهم في الاقتصاد الجزائري ، وفي نفس الدولة ، فكانوا يدلون عليها بذلك ويهددونها بالانسحاب من هذا الميدان إذا لم ترع حقوقهم ، وتستجيب لمطالبهم ، وتفي لهم بما تعهدت به ويدل على ذلك دلالة واضحة كثير من المراسلات التي جرت بينهم ومن آخرها وأوضحها في هذا المقام ما جاء في رسالة الحاج ابراهيم بيحمان :

«فان قلت لا بد من هذا ، فانا لأمر الله طائعون ، ولكلامك سامعون ، فسرح حينئذ أولادنا الذين دخلوا الجزائر بأمان ، الخادمين بضاعتها بالإحسان ، أن يقدموا إلى ما يريدون من البلدان ، وأرض الله واسعة ، مادام الزمان » .

بهذه اللهجة الشديدة يجابه ممثل ميزاب والي الجزائر . ويهدده

(1) يقول أستاذنا الشيخ بكلي عبد الرحمن أن الدولة العثمانية لم تف للإباضية بما تعهدت به . ولم تؤمن السبل لهم ولا لغيرهم فقد كانت مشغولة بمصارعة القرصنة على أمواج البحر الأبيض المتوسط ولذلك فقد انصرف الإباضية عن وعودها لهم واعتمدوا على أنفسهم واتخذوا وسائلهم الخاصة لحماية أنفسهم وأموالهم أثناء أسفارهم المتوالية .

بالانسحاب من ميدان التجارة ، ولا شك أن هذا الوالي وغيره من ولاة الدولة العثمانية في الجزئر ، ليسوا هم الذين دعوا الميزابيين إلى التجارة في الجزائر ، أو في غيرها من المدن ، ولكنهم يعرفون الفرق في الحالة الاقتصادية الجزائرية ومداخيل الحكومة منها قبل أن يتولى الميزابيون وأهل وارجلان تصريف التجارة فيها وبعد ذلك . ومعرفة الوالي بحقيقة ذلك دعته أن يتغاضى عن الخشونة والتحدي الظاهر في الرسالة رغم أن آذان الولاة في تلك العصور لم تتعود سماع الكلام الخشن ولو كان حقا ولأن الوالي يعرف أنه لو أغفل مطالب أولئك القوم وترك لهم أن يخرجوا على تلك الصورة الغاضبة فإن الاقتصاد الجزائري سوف ينهار أو ربما يترنح فقط ، وأن أسواقها سوف ترتبك ، ولا شك أن مداخيل الدولة ترتبك من وراء ذلك على الأقل فترة ما حتى يجد ذلك الاقتصاد الأيادي البديلة التي تمسكه وتسير به ، كما يعرفون أن التجارة من بني مصعب وأهل وارجلان الذين مهروا في التجارة وعرفوا أدق أسرارها وأخفى أساليبها لا يلبثون أن يفتحوا لأنفسهم مجالات جديدة ، في أماكن جديدة ، تدر عليهم أرباحا لا تقل عن الأولى وترفع اقتصاد بلاد أخرى ربما كان بين ولاتها وهؤلاء الولاة تحاسد ومنافسة . وإن كانت جميعا ترتبط باسم الدولة العثمانية . ولذلك فقد تردد الوالي أمام لهجتهم المتحدية القاسية ثم لان . واستجاب لرغبتهم ووافق على مطالبهم .

على أن موقف الدولة التركية من الإباضية في الجزائر وفي غير الجزائر كان يبدو فيه كثير من التقدير والاحترام والتفهم ومحاولة الإنصاف يدل على ذلك تلك المجالس العلمية التي كان يعقدها ولاة الدولة التركية لمناقشة بعض المسائل والمشاكل والشكاوى فيدعون إلى حضورها بعض علماء الإباضية المعروفين فيمن يدعى من علماء المذاهب وكذلك مجالس المناظرة والمناقشة في المسائل الخلافية بين ا لمذاهب التي تثار هنا وهناك بطريقة

تتيح الفرصة لكل أهل مذهب أن يكشفوا عن آراء مذهبهم بما لديهم من حجة وبيان .

وقد كان العلامة أبو يعقوب يوسف بن محمد المصعبي - في نظر الدولة التركية - يمثل العالم والزعيم الإباضي في المغرب الإسلامي ولذلك فقد كان طيلة عصره ممثلا لرأي الإباضية في جميع المشاكل من هذا النوع التي أثيرت في الجزائر وتونس وليبيا ، وكانت له في جميع ذلك مواقف مشرفة عند جميع الأطراف وله في هذا الميدان رسائل وتقارير قيمة . كما أن الدولة التركية كانت تنظر الى الإباضية نظرتها إلى أي فرقة إسلامية أخرى نظرة طبيعية مجردة نزيهة لا عصبية فيها ولا ترفع ولا تحامل .

ولعل السبب في ذلك أن الشخصيات العلمية التي اتصلت بالأتراك في مختلف بلاد الإباضية كانت تمثل شهامة العالم المسلم ، وترفعه عن الطمع وعدم تملقه لهيبة السلطة ، وقوته في إعلان كلمة الحق والإصداع به .

كما قد يكون أولئك العلماء الذين احتكوا بمجالس الحكم قد أوضحوا في تلك المجالس أن المذهب الإباضي من أصح المذاهب الإسلامية استنادا وارتباطا بالقرآن الكريم والسنة النبوية الطاهرة ، وأتباعه من أحرص المسلمين على أن يكونوا مثلا عاليا في كل مجتمع عاشوا فيه . كما قد يكون الولاة الأتراك قد تحققوا خلال تعاملهم مع الإباضية في الجزائر من صدق القوم في معاملتهم وعهودهم والتزامهم للأمانة ، وحرصهم على الشرف والنظافة في والاستقامة ، ومحاسبتهم لأنفسهم ولقومهم قبل أن يحاسبهم الغير ، أو يبدو منهم ما يخالف دين الله ، أو قانون الدولة ، أو عرف الناس .

ولعله يحسن بي أن أختم هذا الفصل بما يلي :

قال السيد عمر بن عيسى بن ابراهيم في كتابه بيان حقيقة عن التجنيد الإجباري صفحة 43 ما يأتي :

«في عهد الاستيلاء التركي على الجزائر تكاثر عدد التجار الميزابيين المنتشرين بشمال افريقيا بسبب نمو أمتهم ، فاحتاجوا لحماية تجارتهم من طرف ولاة الأمور العثمانيين ، فوقع اتفاق بينهم وبين ميزاب ، بحيث أن الميزابيين يدفعون للأتراك جباية سنوية مقدارها اثنا عشر عبدا واثنتا عشرة أمة ، ولا يتدخل أرباب السلطة البتة في أمورهم ، بل تركوهم يحكمون أنفسهم بأنفسهم على مقتضى مذهبهم الإباضي وعوائدهم وأخلاقهم الخاصة بهم ، وهكذا كانت حالة ميزاب عند احتلال الجزائر في سنة 1830» .

الباب الرابع

صور عن :

مدن وبلدان

عزيزي القاريء :

في هذا الباب أردت أن أضع بين يديك صورا للمدن أو البلدان التي كانت عامرة بالإباضية فذكرت آجْلو وتَجْديتْ وتِقُرتْ كنماذج كانت عامرة في الماضي ثم خلت من الإباضية وذكرت وارجلان وميزاب كنماذج كانت عامرة في الماضي وهي عامرة الآن والحمد لله ولن تزال عامرة بهم ما شاء الله .وهذه المدن جميعا في المناطق التي تحويها وتتصل بها كانت مترابطة تعطي صورة واضحة كاملة للحياة الاجتماعية والسيرة الرضية التي كان يحيا عليها الإباضية في القطر الجزائري بعد انقراض الدولة الرستمية .

آجْلو

مدينة كانت تقع قرب البلدة التي تسمى اليوم «بلدة عمر » قال عنها المؤرخ المدقق والأديب البارع شيخنا بكلي عبد الرحمن بن عمر ما يلي :

«مثل ذلك بلدة (آجلو) بليدة عمر القديمة وما اشتهرت به من صلاح حتى تسمت ببلدة الصالحين» .

اشتهرت مدينة «آجلو» بالصلاح والعلم والعمل شهرة لم تبلغها أية مدينة أُخرى قريبة منها ، معاصرة لها ، وقد بلغت من شهرتها في الصلاح والفضيلة والنظام مبلغا ، يسَّر للخيال أن يضيف إليها

بعض الخيوط ، وللخرافة أن تجد مدخلا بين الحقائق (1) ، ووصفت بما وصفت به المدينة الفاضلة من حياة قويمة بحياة الفرد والمجتمع ، وأصبحت بذلك مأرزا وملجأ لرجل العلم . فكان يلجأ إليها كل من يخشى الفتنة ، أو يثور بين رجليه دخانها ، فيفر إليها ليعيش هنالك آمنا مطمئنا ، في جو كله دين وخلق وعلم وعمل صالح ، لا تجد إليه السياسة طريقا ، ولا البدعة مدخلا ، ولا مكائد الناس والشيطان مروِّجا ، وكان كثير ممن يعيش في البلاد المضطربة يعد العدة للهجرة إليها ، ويوصي بنيه بذلك لأنها في نظرهم وفي الواقع تمثل موطن السلامة في الدين ، وقد كانت مركزا علميا واسع النطاق ، ومنها امتد نور المعرفة إلى كثير من البلاد وتخرج فيها عدد غير قليل من العلماء الأعلام ، وكان العباد والزهاد والصلحاء يؤمونها للعبادة فيقضون فيها أوقاتا ممتعة في مناجاة الله ثم يعودون إلى قراهم وأحيائهم ، وقد بلغت ذروة مجدها وعظمتها في هذه الناحية عندما اختارها أبو عبد الله بن بكر فاتخذها موطنا له ولطلابه .

كان العالم الصالح معاذ بن أبي علي يسكن في أول أمره في قصر بني وليل الواقع جنوب وادي أريغ ، ولكنه كان يجشم نفسه مشقة السفر مرة في كل أسبوع ، فكان يحضر إلى آجلو مساء كل خميس ويبيت ليلة الجمعة مع العلماء والصالحين ، يحيون ليلتهم بأنواع مختلفة من العبادة كالصلاة وتلاوة القرآن ومذاكرة فنون العلم ، ويقضي صبيحة اليوم معهم مفيدا ومستفيدا ، حتى إذا صلى الظهر وحضر دروس الوعظ التي يلقيها أكابر العلماء هناك ثم صلى العصر ، انصرف راجعا الى قريته قصر بني وليل .

---

(1) انتشرت بين الناس في ذلك الحين خرافة تزعم أن دولة تقوم في مدينة تسمى (جعراف) وأن تلك الدولة تملأ الدنيا عدلا ويتكتل عليها المسلمون الصادقون ، ولما رأى بعض الناس ما عليه آجلو من فضيلة وصلاح قالوا إنها هي جعراف التي تتحدث عنها بعض القصص بل بلغ من بعضهم إلى أن زعم أن آجلو هي جعراف وأن ملكها هو أبو عبد الله محمد بن بكر .

ولما أرهقه التعب ، وأضناه السفر ، ونالت منه المشقة ، ورأى أن الإستفادة مقصورة عليه ولا تنال أفراد أسرته الآخرين فكر في الإنتقال .

وهكذا أخذ معاذ أفراد أسرته وانتقل إلى آجلو واستقر بها بين أهلها الكرام وأتيحت له الفرصة لكي يعيش في تلك المساجد والمجامع العلمية العامرة بالإيمان والمعرفة والعبادة . كما أتيح لولديه إبراهيم وعائشة أن يواصلا دراستهما وأن يحضرا مجالس العلم على فطاحل العلماء ، ومع أنجب الطلاب وأذكى التلاميذ .

كانت أسرة معاذ أسرةَ دين وعلم وفضل ، حتى ضرب بهم المثل فقيل خير شيوخ آجلو معاذ ، وخير فتيانهم إبراهيم ولده ، وخير نسائه عائشة بنته . وقد اشتهر معاذ بصفات يحق له بها أن ينال احترام الناس وتقديرهم ، فقد كان سخي النفس ، سليم الصدر ، بعيدا عن المزاحمة في أمور الدنيا يحب الخير للجميع . وما ذا يريد الناس من أي إنسان أكثر من أن يكون صدره مفعما بالمحبة والعطف ، يتسع لهم جميعا ، وأن تكون نفسه سخية تمتد لهم بالمساعدة والإحسان ، وأن يتجاوز عن دنياهم ويتركها لهم لا يزاحمهم عليها ، ولا يطالبهم بنصيبه فيها .

وقد كان لطيبة قلبه وحبه للناس وعدم اهتمامه بأمور نفسه يحسبه بعض الناس قليل الذكاء قال أبو العباس الشماخي :«والشيخ معاذ رجل صالح زاهد تقي القلب مخموله ذو نية » .

وقد درست عائشة بنت معاذ على فطاحل العلماء في آجلو وبلغت درجة في العلم يعز على نظائرها بلوغها ، فكانت تناقش كبار العلماء في أدق مسائل علم الكلام وكانت كثيرا ما تلزم بعضهم الحجة وتنتصر عليهم في ميدان الجدال والحوار ، وكانت تذهب في آرائها ونظرياتها مذهب التشدد والتضييق حتى أنها

كانت ترى أن من لايعرف الصواب في مسائل الإجتهاد غير معذور .

جمعها يوما مجلس مع الشيخ أبي محمد عبد الله بن محمد اللنتي وجرى بينهما نقاش في بعض مسائل العلم فقالت له : ما تقول فيمن أقر بالصلوات المفروضة إلا واحدة فقال لها : هو منافق ، ولا يحكم عليه بالشرك . فقالت له : أخطأت ، بل يحكم عليه بالشرك ، واستتابته من قوله ، فتاب منه ، إن أبا محمد اللنتي قد أقر لعائشة بما تريد ، واستجاب لها حين طلبت منه التوبة إلا أن القضية كانت ما تزال تشغل فكره ، واجتمع ذات يوم بالعالمين الكريمين أبي زكرياء يحي بن أبي بكر ، وأبي هارون موسى بن علي فسألهما سؤال عائشة فأجاباه بما أجابها هو به حين سألته . فحمد الله تعالى وأخبرهما بقصته مع بنت معاذ وتوبته لها عن قوله السابق فأكد له الشيخان أن قولهم هو الصواب ، وأن عائشة مخطئة ، وأنه ما كان يحق له أن يجيبها فيتوب من الصواب الى الخطإ . وسارت الأيام بهذه القصة وكانت عائشة كثيرة الحركة جمة النشاط ، متقدة الحيوية ماضية في الدراسة عاملة على الاتصال برجال العلم والإفادة والاستفادة منهم حتى جمعها يوما مجلس مع أبي زكرياء يحي بن أبي بكر فناقشته في كثير من مسائل علم الكلام وكان فيما وجهت إليه من أسئلة ما يلي :

هل يعذر الإنسان بجهله للصواب ؟ فأجاب بأنه يعذر إذا اجتهد في مسائل الفروع ، وقالت : لا يعذر . ثم سألته عمن نسي رسولا فحسبه نبيا بماذا يحكم عليه . فقال بالنفاق . قالت : بل هو مشرك ، فأجابها أبو زكرياء بلهجة فيها تأنيب بدعابة : وإدلال بقسوة ، وتعريف بجزم : ألست أنت التي استتبت أبا محمد اللنتي ياكليفة ؟ قالت : بلى . فعرفت هذه المسائل الثلاثة بمسائل الكليفة .

درست عائشة علم الكلام على العلامة الكبير تبغورين بن عيسى الملشوطي وكانت تفتخر به وبدراستها عليه ، وتعتبر أقواله حجة . فإذا جرى بينها وبين أحد نقاشا في قضية من قضايا علم الكلام كان يكفيها حجة أن تقول : قال تبغورين بن عيسى الملشوطي كذا وكذا وكان هذا في نظرها أبلغ حجة وأسطع برهان فلا تحتاج بعده إلى مزيد كلام ومع احترامها لشيخها تبغورين وحبها له وإعزازها بدراستها عليه وتمسكها بأقواله وآرائه كانت تقول : «رأيت كثيرا من العلماء وأهل الخبر واستمعت إلى عدد جم منهم ، واستفدت ولولا أبو العباس أحمد بن أبي عبد الله بن بكر لمت بالجهل » .

وذلك أنها كانت تدرس على غيره من المشائخ في شبه تخصص تأخذ عن بعضهم علم اللغة والأدب ، وتأخذ عن بعضهم علوم الشريعة والأصول وتأخذ عن غيرهم علم الكلام أو علم المنطق وغير ذلك من فروع الثقافة المعروفة في ذلك الحين ضمن التاريخ والرياضيات .

أما ابو العباس أحمد بن محمد بن بكر فقد كان دائرة معارف يجول في كل ميدان : وكانت دروسه تشبه أن تكون محاضرات تلقى في جميع الفنون فكان المتفوقون من الطلاب يلذ لهم سماعه والسباحة معه في الآفاق التي يسبح فيها ، وكانت عائشة من أمهر السباحين في علوم الشريعة بمختلف فروعها وفي علوم اللغة والأدب ، وكانت ترى أن تعلم اللغة وآدابها وما تقوم عليه من نحو وصرف واجب أكيد على المسلم حتى يستطيع فهم كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام .

كانت عائشة تمثل المرأة المسلمة المتعلمة المستنيرة التي تشارك الرجل في جميع الميادين الثقافية دون أن تتخلى عن رسالتها كأم ترعى بيتا وترعى أولادا ، وكزوجة تصون نفسها وبيتها

وترعى زوجها في نفسها وفي ماله وفي بيته وتوفر له وسائل الراحة والسعادة والإستقرار ودون أن تلقي عنها ثوب الحياء والحشمة . فلم يعقها الحجاب ، ولا الثوب الساتر الفضفاض أن تناقش أذكى الطلاب وأن تتفوق عليهم .

حفظت عائشة القرآن الكريم وهي صغيرة السن وتفتح عقلها الذكي لمزيد من المعرفة ، وعندما كانت أشد ما تكون ظمأ الى المزيد من المعرفة وإلى الاستمرار في الدراسة ، بلغت سن المراهقة وتفتحت فيها براعم الجمال ، وأشرقت عليها أنوار الشباب بعد غضارة الصبا وبراءة الطفولة . وكان هذا التحول في شخصيتها من طفلة تلفها البراءة إلى صبية تطفو عليها مسحة الجمال المغرية ، سببا في تغير سلوكها . فقد لاحظت أن أعين الزملاء تنظر إليها نظرات تحمل معاني مجهولة لم تكن تحس بها من قبل ، وأحست بجو جديد فيما بينها وبين أسرتها وهمسات عنها عندما يحسبونها في غفلة . وفهمت ما كانوا يوشوشون به ، وأدركت أنهم يفكرون في قطعها عن الدراسة وعدم السماح لها بالذهاب إلى مجالس العلم وهي على أبواب البلوغ وقدرت أنه ستثور بينها وبين أهلها معركة حامية تكون فيها هي المغلوبة لا محالة إذا لم تعرف كيف تعد لنفسها النصر . وفكرت في قضيتها في هدوء تفكيرا سليما قبل أن يفكر أفراد أسرتها ومدرسوها بجد ، وجاءت ذات يوم إلى أبيها تطلب منه أن يشتري لها حصيرا من النوع الخفيف غير العريض وطلبت من أمها أن تحضر لها عباءة ، ولما سألها والدها عن سبب هذا الطلب شرحت لهم وجهة نظرها فهي تريد أن تستمر في دراستها على مشائخها وتريد أن لا ينشغل بها أحد وتنشغل به . ووافق الوالدان على الطلب ، واستطاعت أن تضمن لنفسها الدراسة دون أن تثير عليها غضب أحد أو نقده ، ودون أن تتبذل أو تستهتر ، فكانت تذهب الى المجامع العلمية متلفعة في عباءتها الساترة الحاجبة فإذا بلغت المجلس

جلست قريبا من شيخها ،ثم أدارت على نفسها الحصير وتخففت في العباءة فكان شخصها مفصولا عن الحاضرين لا تراهم ولا يرونها ولكنها كانت تستمع وتناقش وتكتب ما تشاء في حرية كاملة حتى بلغت واشتهرت بين رجال العلم بمعارفها وسعة اطلاعها وفصاحتها ، وأصبحت الأنظار متجهة إليها في احترام وتقدير لما حباها به الله من عقل وذكاء وفهم ، ولما تتحلى به من دين متين وخلق قويم وعلم غزير .

لقد كانت عائشة بنت معاذ في الجزائر مثل أم ماطوس في ليبيا ، وقد أقامت هاتان المرأتان الحجة على المرأة المسملة وبرهنتا على أن الفتاة إذا شاءت فإنها تستطيع أن تبلغ أقصى ما يبلغه الرجال من المعرفة مع المحافظة على دينها وأخلاقها ، وصيانة تامة لأسرتها وبيتها ودأبها على القيام بالأعمال المطلوبة من المرأة في البيت دون مزاحمة الرجل على أعماله ومحاولة الجلوس في مكانه ، وزحزته عما خلقه الله بالفطرة لتأخذه هي بالدعوى والتكلف .

تجديت

تجديت كانت مدينة كبيرة قرب (جامعة) قال عنها شيخ الصحافة الجزائرية وأحد أركان نهضتها شيخنا أبو اليقظان إبراهيم رحمه الله : «كان لتجديت شهرة عالية في العلم والعمران والنظام العجيب» وقال بعد أسطر : «ويبدو لي بتسمية هذا البلد بتجديت أنهم بإنشائها يحاولون مقابلة عاصمة تاهرت التي يسمونها - بتاقدمت كما هو مرسوم بمحطة أطلال تاهرت ، وكأنهم يهدفون بهذا إلى إنعاش تاهرت القديمة - تاقدمت ، باسم البلد الجديد ، تاجديدت ، وهو مرمى بعيد ، وهدف سياسي له مغزى يرمي إلى تجديد تاهرت في الجنوب » .

وقال المؤرخ الأديب الشاعر البارع أُستاذنا بكلي عبد الرحمن بن عمر حفظه الله ورعاه ما يلي : «وناهيك بتاجديت وما بلغته من ازدهار وتألق أنوار ، وقد قصت علينا السيرة ما يدهش ويبهر »

تحدث كثير من المؤرخين على هذه المدينة التي كانت في يوم من الأيام عاصمة من عواصم العلم ، ومركزا من مراكز الثقافة الإسلامية تشد إليها الرحال ، ويؤمها الطلاب من كل مكان قال عنها أبو العباس الشماخي : «تجديت موضع معلوم بقبيلة أريغ ، وليست ببعيدة عنه اجتمع فيها من أهل الدعوة والعلماء والطلبة وأهل الصلاح ما لم يوجد في غيرها ، وعد فيها مائة عالم لا يرد أحدهم مسألة إلى الآخر إلا من جهة الأدب» .

بيدو من كلام المؤرخين أن تاجديت تكاد تكون مدينة علمية بما فيها من العلماء والطلاب والمعاهد فقد كان الطلاب فيها يعدون بالمئات ، ويصنفون الى أصناف حسب مواهبهم واتجاهاتهم ورغباتهم في التخصص ، تجد منهم من يستعمل التفكير ويعتمد

عليه فيميل إلى كثرة الدراسة وسعة الاطلاع ويتناقش ويتنافس هذا الصنف في عدد من الكتب التي يدرسها كل واحد منهم ومقدار التحصيل الذي بلغ إليه بجده واجتهاده ، وتجد منهم من يميل إلى الحفظ والاستظهار ويتنافس ويتناقش هذا الصنف في عدد الكتب التي يحفظونها ويستظهرونها عن ظهر قلب ، وقد يبلغ عدد ما يحفظه كل منهم العشرات والمئات ، وقد ذكر بعض المؤرخين أعدادا كبيرة من أولئك الطلاب الذين كانوا يستظهرون عشرات الكتب بالإضافة إلى بعض أبيات ومقاطع الأدب .

كانت تاجديت خاصة بسكنى العلماء تقريبا ، ولذلك فقد كان يبدو عليها الجمال والنظام والنظافة وكانت مساجدها ومدارسها عامرة باستمرار وكانت تشبه أن تكون مركزا لمناطق واسعة آهلة بالسكان يرجعون إليها في أوقات الصلوات وربما كانت أيضا مركزا تجاريا عامرا بالأسواق . وقد اعتاد سكان ضواحيها أن يأتوا إليها راكبين فيربطون دوابهم قريبا من المسجد فإذا استوت الصفوف وكبرت الجماعة تكبيرة الإحرام نفرت الدواب بسبب الدوي القوي الذي يحدثه تكبير العدد الضخم من المصلين ولعل أحسن ما يورد عنها هو الصورة التي وضعها لها المؤرخ الكبير أبو العباس الشماخي ، قال في السير ص 488 مايلي : «ويحضر الصلاة ثلاثمائة فارس وإذا كبروا تكبيرة الإحرام نفرت المواشي ، وهي قريبة من آجلو في الذي أعتقد ، وهذا في زمان واحد ، ودخلها عامل لصنهاجة ورأى كثرة العزابة وكثرة الخلق وضيق الموضع فاعتقد أنهم يدنسون وجه الأرض بالخلاء والسماد ، فدار فيها وحواليها ، فلم يظفر بشيء مما تكرهه عينه ، وتعافه نفسه ، فقال وقد مد يده بسيفه : ما يخاف الناس إلا من هذا أو من الله . فهذا (يعني السيف) ليس هذا موضعه وما منعهم من ذلك إلا خوف الله » .

هذه الصورة التي عرضها علينا المؤرخ الكبير أبو العباس الشماخي وهذه الملاحظة الدقيقة التي لاحظها العامل الصنهاجي إنما تدل على شيء واحد هو أن سكان هذه المدينة رغم كثرتهم وضيق مدينتهم كانوا يتأدبون بأدب الإسلام ، من المحافظة على النظافة والطهارة ظاهرا وباطنا في أنفسهم وفي موطنهم بحرص واهتمام .

وإنهم كانوا يحرصون على وسائل الصحة التي دعا الإسلام إليها وحرص على مراعاتها قبل أن يستيقظ الطب الحديث وقبل أن تستيقظ لها الحضارة الغربية فتأخذه منا لتبيعه لنا مصنعة في مناشير وتقارير .

إنه لغريب حقا أن تجول في مدينة أو قرية غاصة بالسكان في القرن الخامس الهجري وتجول في شوارعها وحواليها فلا تقع عينك على قذر تشمئز منه نفسك وينفر منه طبعك وقد يتيسر في ذلك الحين أن تجد شوارع قرية نظيفة ، أما أن تجد الشوارع جميعا وأن تجد أيضا ما حول القرية من النظافة بحيث لاترى فيه ما تقذى منه العين من بقايا الكناسة أو متناثر السماد الذي يخرجه أهل القرية ليرمى في مزارع بعيدة تستنفذ منه الحقول ولا يتأذى منه الناس ، لقد كان هذا الموقف النظيف حقا غريبا في ذلك العصر وبوسائله ، ولسنا نحن فقط نراه غريبا وإنما سبقنا إلى ذلك ، ذلك المعاصر الدقيق الملاحظة المرهف الإحساس الذي يفرق بين من يسير بهدي الله ومن يسير بتلويحات السيوف وهمزات السياط .

من العلماء الذين عاشوا في هذه المدينة العلامة أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن شاكر الفطناسي ، قال شيخ الصحافة الجزائرية وأحد أركان نهضتها شيخنا أبو اليقظان رحمه الله

ما يلي :«وكان من بين علمائها أبو الربيع سليمان بن شاكر الفطناسي يحف حوله مائة عالم يشار إليهم بالبنان .» .

ونقل الإمام أبو إسحاق أطفيش رحمه الله عن أبي الربيع في مقام الإحتجاج ما يلي : «ومثل هذا ما ذكر سليمان بن عبد الله بن شاكر الفطناسي المزاتي قال : أدركنا في فطناسة وكانت قبيلة قليلة العدد من مزاتة ، اثني عشر مسجدا كلها عامرة بالآذان والجماعات والمجالس : أي مجالس العلم» .

عاش هذا العالم الكبير في القرن الخامس الهجري ونقلت عنه هذه الرواية سنة 467 حسبما قاله الإمام أبو إسحاق رحمه الله .

كان أبو الربيع الفطناسي من أُولئك العلماء الأشداء في دين الله القائمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يعرفون المسايرة في دين الله ، يقفون مع الحق حيث وقف ، ويصدعون بآرائهم لا يبالون رضي الناس أم سخطوا ، فاذا تبين لهم خطأ في قولهم أو عملهم لم يتمادوا في الضلال ، وسارعوا إلى التوبة ، ورجعوا عن الخطإ إلى الصواب غير مبالين بالناس وأقوالهم .

قرر أبو الربيع أن يقوم بجولة يزور فيها أهل الدعوة ويتفقد أحوالهم فخرج من بلدة تاجديت ينتقل من بلد إلى بلد ، يطلع على الأحوال ، ويدرس الأوضاع ، ويفيد ويستفيد ، فاستغرقت الرحلة منه وقتا غير قصير ، ولما رجع إلى بلده تاجديت وجد أن أهل البلد قد عمدوا إلى أرض مشاع بين أهل المدينة فغرسوها وعمروها واستغلوها بأنواع من النخيل والأشجار . فعاب عليهم ذلك وانتقد سلوكهم وتصرفهم في المشاع كما يتصرفون في أملاكهم الخاصة . ووقف على باب المسجد يصيح فيهم بصوته الداوي : «ما هذا الحدث الذي أحدثتموه» . وكان في داخل المسجد العلامة أيوب بن أبي عمران فأجابه من الداخل بأن عملهم ذلك جائز ، وأنه

لا يصطدم بشريعة الله ، وكان في المسجد أيضا العلامة ابو يعقوب يوسف بن يعقوب فاتجه إليه أبو الربيع وقال له : ما حفظت يايوسف في هذه المسألة عن شيخك وارسفلاس بن مهدي النفوسي . قال أبو يعقوب : إن اتفق أهل المشاع على غرسه جاز وتجري عليه أحكام الملك كلها ، وإن عاد خرابا رجع إلى المشاع فاقتنع أبو الربيع بما ذهب إليه اولئك العلماء وأفتوا به ، وأقلع عن إنكاره» . واعتذر عن موقفه من إخوانه ، وشدة إنكاره عليهم .

هذا كان دأب أُولئك السلف الصالحين ، يتمسك أحدهم بما يراه الحق ويتشدد فيه ويدعو إليه ويدور معه حيث دار ولا يأنف أحدهم أو يتكبر عن الرجوع عن رأي أو قول كان يقول به إذا عرف أن الحق في غيره .

فرحم الله أُولئك الناس الذين كانوا يطلبون الحق . . . ومهما كانت نتائج الطلب .

أراضي تقرت

أخذت هذا العنوان من المؤرخ الكبير الأُستاذ أحمدتوفيق المدني فهو يقول في تاريخه القيم «كتاب الجزائر» ص 182 ما يلي :

«أرض تِقُرْتْ وهي الناحية الشرقية من أرض الجنوب العسكرية (1) وموقعها جنوب مقاطعة قسنطينة ، تشمل عدة واحات بديعة ، تستمر إلى وادي أريغ ، ووادي سوف ، ووادي إيغرغار» .

ويقول بعد سطور في صفحة 183 ما يلي : « من أشهر مدن هذه الدائرة تقرت ، ووادي سوف ، وورقلة» . وأنا حينما أُطلق هذا الإسم فأنا أقصد تلك القطعة المباركة من الأرض الجزائرية العامرة التي تقع غرب الحدود التونسية من جهة بلاد قصطيلية والجريد ونفطة والتي تشمل كثيرا من الواحات وبلاد الرمال والأراضي الشاسعة التي كانت وما تزال مرتعا خصبا لتربية المواشي ولا شك أن المؤرخ الذي يتتبع آثار الإباضية في مراحل الزمن وفي بطون التاريخ سوف يتردد بين عينيه كثيرا الأسماء الآتية : سوف وأريغ وواغلانت وآجلو وتقرت وبَغاي وما بين هذه المواطن وما جاورها .

أما وارجلان فقد كانت بمثابة العاصمة العلمية والدينية للإباضية في الجزائر بعد انقراض تاهرت وهجرة سكانها إلى مختلف البلاد .

وسوف نتحدث عن وارجلان في فصل خاص بها . أما هذا الفصل فسوف نمر فيه مرورا سريعا على ما سميناه أراضي تقرت

(1) اتّبع الأُستاذ المدني التقسيمات الإدراية في عهد الإستعمار الفرنسي لأنه وضع الكتاب في ذلك الحين .

وذكرنا أسماء بعض مدنه وواحاته وقراه التى كانت عامرة بالعلم والعلماء غاصة بالمدارس والمساجد ذات حركة نشيطة إلى عصور متأخرة ، واليوم قد انقرض الاباضية منها جميعا كسكان أصليين ، وإن كان يوجد بها جماعات منظمة منهم يشتغلون في مختلف ميادين الحياة الحرة ولا سيما التجارة . وأغلب هؤلاء إنما وفدوا إلى تلك البلاد إما من وادي ميزاب أو من وارجلان وقد يوجد هناك أفراد من جربة .

كان أكثر سكان الجزائر في القرنين الثاني والثالث على المذهب الإباضي ، يقول الأُستاذ توفيق المدني في كتاب (الجزائر) صفحة 20 ما يلي :

«واعتنقت الأغلبية الكبرى منهم المذهب الإباضي الذي نشره بينهم من قبل دعاة الإمام أبي الخطاب من طرابلس الغرب» . ويقول بعد قليل : «وكان المذهب العام يومئذ للبربر في كل بلاد الدولة هو المذهب الإباضي » .

هذه الصورة التى يرسمها المؤرخ الجزائري الكبير لانتشار الإباضية في الجزائر إنما كانت في القرنين الثاني والثالث ولكنها بعد ذلك تغيرت تغيرا ملحوظا ، فعندما تغلب العبيديون على الدولة الرستمية واستولوا على عاصمتها تاهرت ، عملوا ما وسعهم الجهد على مطاردة الإباضية في كل مكان ، ومحاربتهم محاربة مستمرة ، تساعدهم في ذلك منازع العصبية المذهبية في ذلك الحين ، ولذلك فقد تناقص وجود الإباضية في جهات الشمال ، وتركزوا في جهات الجنوب الشرقي للجزائر ، الجنوب الذي عبرنا عنه في عنوان هذا الفصل بأراضي تقرت وما جاورها .

يقول المؤرخ الكبير شيخنا باكلي عبد الرحمن ما يلي : «المواطن التي كانت آهلة بالإباضية في القطر الجزائري هي :

الزاب ووادي أريغ وسوف وتجديت والرمال ووارجلان بما فيها سدراتة ونواحيها التي ازدهرت فيها حضارة رائعة دلت الحفريات التي أجرتها الآنسة مارغريت فان برشايم العالمة التي انتدبتها الحكومة الفرنسية للبحث عن الآثار القديمة بالقطر الجزائري على زخرفة ونقوش في غاية من دقة الصنع مما يدل على أن الفن المعماري قد بلغ في تلك النواحي أوجا بعيدا ، وأثبتت في فصول نشرتها بالمجلة المصورة الفرنسية «الجيريا وأفريقيا الشمالية» عدد جويلية أكتوبر 1953 ، أنها كانت أرقى بكثير من الفن الأندلسي الذي كان مضرب المثل في تلك العصور ، وأطبقت شهرته الآفاق وقد خصص لآثارها في متحف الآثار الجزائري قاعة باسم(قاعة صدراتة) والمدن المجاورة ككريمة وجبل العباد وإفران وأنقوسة إلى مدن كثيرة انتهى عددها إلى نحو ثلاثمائة كما وجدته في بعض التقاييد القديمة مما يدل على ما للأصحاب هناك من سطوة وعمران ، وقل مثل ذلك في آجلو وتجديت وقد أسلفت عنها بعض القول والرمال وهو موضع لا يبعد كثيرا عن سوف كان كذلك موطنا من مواطن الأصحاب الآهلة ، وجبال بني مصعب ، ميزاب بما فيها» ، وعدد مدن ميزاب العامرة اليوم والقرى التى خربت وجلا عنها سكانها ثم قال : «ومدينة متليلي التي تبعد عن غرداية بنحو ثلاثين(1) كيلومترا غربا كان قسم من سكانها إباضيين ، ويحكى عن مدينة الأغواط التي تبعد نحو مائتي كيلومتر عن عاصمة وادي ميزاب شمالا كانت آهلة بالإباضية أيضا ، وبلدة المنيعة (قليعة) البعيدة عن وادي ميزاب بثلاثمائة كيلو متر غربا كان الإباضيون يسكنونها » .

لا شك أن أستاذنا الكبير عندما قال هذا الكلام كان يقصد العصر الذي بعد الدولة الرستمية ، إنه يقصد تلك العصور التي

(1) لا يزال في الأغواط وفي متليلي عائلات تنتمي الى عائلات إباضية في وادي ميزاب تربط بينهما علاقات نسب وهم حتى الآن يتزاورون ويتهادون .

انكمش فيها الإباضية وتجمع أكثرهم في بلاد بعيدة عن فتنة الحكم والحكام ، واعتزلوا ميدان السياسة وقصروا اهتمامهم على الناحيتين الدينية والعلمية ، أو الروحية والعقلية . وقد عمرت بهم واحات الجزائر وكان العلماء ينتقلون في قوافل كبيرة بينها ، يواصلون الدراسة في رحلاتهم ويقيمون الصلاة في مساجد منتقلة من الحصر تحمل على الإبل فإذا أقاموا بمكان نصبوها وإذا أرادوا الرحيل طووها وأخذوها معهم .

رحـلة وزيارة

كـانت تمر علي أثنـاء قراءتي أخبـار وأحـداث عن وارجـلان ، وعن رجـال العلم والعمل في وارجلان ، وعن وفود الطلبـة والتجـار إلى وارجـلان ، وعن القـوافـل المسـافرة إلى إفريقيـا السـوداء من وارجـلان ، وعن الحركـة التجـاريـة الـواسعـة التي يقـوم بهـا أبنـاء وارجلان عبر الصحراء إلى الجنوب .

فكنت أتصور وارجلان مـدينـة على شكل شبيـه ببعض المـدن الواقعة في جنوب المغرب الإسلامي ، واحة من تلك الواحات التي تجمع الظل الظليل والماء العذب ، والخضرة اليانعة ، والحياة الآمنة المستقرة النشيطـة ، في حفرة من حفر الصحراء ، تكتنفهـا أَلـويـة الرمـال ، أو سلاسل الجبـال ، وكـانت هـذه الصورة قـد تضيق وقـد تتسع وأنا أُقارنها ببعض ما أعرف من مدن الصحراء .

وقـد أُتيح لي أن أقوم برحلـة إلى الجزائر في صيف سنـة 1965 مـع بعض الأصـدقـاء من جبـل نفـوسـة زرنـا فيهـا كثيرا من أنحـاء الجمهورية الجزائريـة المكـافحـة وقضينـا منهـا نحو عشرة أيـام في الواحات أنسانـا فيهـا الأصـدقـاء الأعزاء أهلنـا وبلادنـا . وقـد كنت أُسجل خواطر سريعة أثناء الرحلة ثم نسقتها بعد ذلك في فصول قـد يتاح لي نشرها في يوم من الأيام .

وأحب أن أنقل الى القارىء الكريم هنا فصلا من تلـك الفصول حتى أُشركه في خواطري وأنا أنتقل من وادي ميزاب العـامرة الـذي أعتبر أهلـه لي أهـلا وجبـالـه وهضـابـه ووديـانـه لى وطنـا إلى وارجلان العظيمة .

في أصيل يـوم 11 /10/ 1965 ، انطلقنـا من وادي ميـزاب في رفقـة طيبـة من المشـائخ والطلبـة والأصـدقـاء وقـد تفضـل شيخنـا

الفاضل مدير مدرسة الجابرية الشيخ محمد بابـانو فرافقنـا في تلـك الرحلة المباركة مع مـا يسبب لـه ذلـك من أتعـاب ومشـاق . كنت أحمل في نفسي لهذه المدينة العظيمة ذكريات مجيـدة في خـدمـة الإسلام لمدة تقارب ألفا ومائتي سنة ، كانت في عشرة قرون منهـا عاصمة دين وعلم وخلق واقتصاد . وكانت طريقا للـدعوة الإسلاميـة إلى أفريقيـا السوداء ، الـدعوة التي يحملهـا المؤمنون الصـادقـون ، بسمتهم وهـــديهم وخلقهم وعلمهم وعملهم ، دون أن تحرسهم قـوات مسلحة أو تمهـد لهم جيوش منظمـة ، أو تسبقهم دعوات مبشرة ، أو تنفق عليهم أموال لا حساب لها ، ولعل النور الذي يومض اليوم في أمكنة كثيرة من إفريقيا السوداء إنما كان أكثره قبسات حملها أفراد مؤمنون عن طريق وارجـلان أو مـا شـابهـا من المـدن الصحراويـة التي تعتبر ثغورا أو منافذ إلى جهـات الصحراء ومـا وراء الصحراء . أما من الناحيةالعمرانية فقد كنت أرسم لها في مخيلتي صورة لبلـدة مبنية بالطوب في منخفض من الارض تكتنفهـا رمـال أو هضـاب ، كـالـذي أعرفـه من غـدامس أو بعض الـواحـات الأُخرى ، ولكن الحقيقة فاجأتني بغير ذلك فلقد وضحت أمام عيني وأنـا مقبل على وارجلان مدينة عظيمة فسيحـة مستبحرة العمران ، متسعـة الأرجـاء تتلألأ فيها أنوار الكهرباء ويحيط بها إطار أخضر من النخل البـاسق الذي بدأ يؤتي أُكله في ذلك الحين.

ومنـذ تراءت لي مشـارف وارجـلان العظيمـة خيِّـل إليَّ أنني رحلت عبر عصور طويلة من التاريخ ، وأنني أعيش هذه اللحظات في وارجلان القديمة وتلاشت من ذهني صور الحـاضر بمـا فيـه من حركة وحيـاة ، فكنت كـالمـأخوذ لا أحس بمن معي من الرفـاق ، ولا أحس بالزمن الذي أنا فيه ، ولا بالوضع الـذي أنـا فيـه ، وطغت عليَّ المشاعر والأحاسيس بالماضي ، وغلب عليَّ الحنين إليه ، ذلك الماضي المجيد الذي عشت فيه في كتب التاريخ بين رجال الـدين

والعلم والعمل أحضر بعض اجتماعاتهم ومناقشاتهم وحتى مآدبهم وأساليبهم في الإحسان والمعروف .

استقبلنا الإخوان الأعزاء والأصدقاء الكرام من أهل وارجلان الأفاضل وهم يسلمون علي ، ويحتفلون بي ويهيئون لي المقام الكريم في صدر المجلس من المسجد العامر ، وأقسم أنني ما كنت أحس بشيء مما حولي وحين جلست في صدر المجلس وطلب إلي أن ألقي موعظة على الجمع المنتظر المتعطش إلى سماع صوت أبناء الجبل كنت أتمنى بكل قلبي أن يتولى ذلك عني أي شخص آخر ، وأن أترك لأستسلم لخواطري . وتكلمت ولكنني حتى الآن لا أذكر أنني تقدمت إلى الحديث دون أن أدري ما أقول أو ما قلت مثل ما وقع لي في ذلك المقام الكريم .

لقد كنت أتحدث دون أن أستطيع حصر فكري في موضوع . كما يتحدث تلميذ صغير في تجربة أولى ، بين جمع رهيب من أساتذته الكبار ، ومشائخه الذين يحترمهم ويخشاهم . وما كنت - وأنا أتحدث - أحس بالحاضرين ، وإنما كان يخيل إلي أنني أتكلم في جموع حافلة من عباقرة العلم طيلة أجيال وكان الوهم يصور لي بينها صورا متناثرة من هنا وهناك لبعض أولئك الأفذاذ في صورة الحقيقة فيضع بين عيني في ذلك المجلس الوقور صورة لأبي يوسف بن أفلح أو لأبي يعقوب بن ابراهيم أو لأبي صالح أو لأبي رحمة أو لغيرهم ممن ترك في نفسي أثرًا حين قراءتي عنه ودراستي لحياته .

فكنت في ذلك المجلس مهتاج العواطف ، مضطرب الفكر ، متباين الأحاسيس خشيان خجلان . وكانت شفتاي ترتجفان عن كلمات باهتة خافتة كأنها تخرج ميتة . ولست أدري كيف بدأت الحديث ولا كيف أنهيته وقمنا إلى الصلاة ثم ذهبنا إلى تناول

العشاء في بيت من بيوت بعض الأصدقاء وبعد سهر خفيف آوى الإخوان إلى مضاجعهم .

أما أنا فقد عملت تلك الخواطر فى نفسي عملها ، فأرقت ولم يغمض لي جفن طول الليل وبعد صلاة الصبح ذهبنا مبكرين لزيارة جبل العباد وكنت أتحرك مع الإخوان والأصدقاء كما يتحرك إنسان مسلوب الإرادة لا يقوى على شيء . وقصدنا جبل العباد ، ورغم أن الجبل لم يكن شاهق الإرتفاع ، وأن ما تعودت صعوده من جبال نفوسة قد تفوقه ثلاث مرات أو أربع ، إلا أنه بدا لي شاهقا شديد الإرتفاع لا يمكن أن أبلغ إلى قمته وكان الإخوان من حولي يتنازون صاعدين بينما كنت أتسلق الجبل في مشقة وعسر ، وكأن على عاتقي أحمالا ثقالا من الماضي السحيق . وكانت نفسي مشحونة بالخواطر التي تتعاقب تحدثني بأن الرجال العظام الذين كانوا يعيشون هنا كما يفوقونني روحيا يفوقونني ماديا ، وأنه كما لا يحق لي أن أتطلع إلى مراتبهم السامقة في ميادين العلم والعبادة والإحسان كذلك لا يحق لي أن أتطلع إلى هاتيك الأماكن السامقة التي اختاروها في خلواتهم للإتصال بخالقهم في مناجاتهم الخاشعة ، وخيل إلي أنني بزيارتي لهذه الأماكن كأنني أنتهك حرمة مقدسة دون استئذان .

وعملت هذه الخواطر في نفسي عواملها بالإضافة الى أرق الليلة السابقة وإلى سهر متواصل لعدة ليال وأسفار متتابعة . فأصبت بنوبة قلبية سببها لي مرض الربو الذي يلازمني زمانا فكاد نياط قلبي يتقطع وانقطع عني التنفس ، واشتد خفقان قلبي وتصبب مني العرق . وأصبحت في حالة من التعب والإعياء لا أملك معها حركة ولا أستطيع كلمة فأحاط بي الإخوان يخففون عني ويساعدونني ويتلطفون بي حتى بلغت المكان الذي اختاره علماء وارجلان وسدراتة الصالحون لإحياء الليل ومناجاة خالق الخلق عندما يسكن

الناس ويغفو الكون ويسود السبات على الحياة فيكونون هم فقط هنالك يناجون خالق الخلق ، وقد رقت نفوسهم ، وتخلصت من شوائب الدنيا وعلاقاتها . استدار الإخوان في المسجد (1) لتلاوة ما تيسر من كتاب الله وكنت أتمنى لو تركوني خارج المسجد ولكن الإخوان أصروا أن أكون من بينهم وبقيت في المسجد صامتا إذ كنت في حالة من التعب لا أستطيع معها القراءة . وعندما اختتموا أداروا الدعاء وجاء دوري ، فأحجمت عن الدعاء . أحجمت لأن الخواطر بدأت من جديد تهجس في نفسي ، بأي حق أدعو في هذا الحرم المقدس الذي دخلته دون أن أستأذن أصحابه ؟ وما يدريني هل كان أولئك العمالقة العظام يرضون عن هؤلاءالأقزام وهم يقتحمون عليهم خلوتهم لمناجاة ربهم . إن أمكنة العبادة المشتركة والتي يحق لكل مسلم أن يدخلها وأن يعبد الله فيها متى شاء وكيف شاء إنما هي المساجد المقامة للجميع ، أما هذه الأماكن الخاصة التي يتكبدون مشاق وتعبا غير قليل ليكونوا فيها على خلوة إنما هي ملك خاص لهم وحرم مقدس لا يجوز انتهاكه ولمن شاء أن يقتدي بهم أن يتخذ لنفسه خلوة يأوي إلى الله متى شاء .

قمنا بعد ذلك لنزور أطلال سدراتة ، تلك المدينة العظيمة التي كانت لها شهرة في العلم والدين لا تقل عن شهرة وارجلان ، واشتهرت اليوم بأنها تحمل آثار حضارة إسلامية شبيهة بما تركه المسلمون في الأندلس وقصدها علماء الآثار من أوروبا وقاموا فيها بأبحاث وحفريات لم تذهب سدى .

كان الإخوان ينظرون إليها كمدينة أثرية يعجبون لما يجدون فيها من دلائل الإهتمام بالبناء والزخرف ، أما أنا فكنت أنظر إليها

(1) ليس في المكان بناء وإنما أطلقت عليه كلمة المسجد لأنه الموضع الذي اختاره أولئك الصلحاء للعبادة وكانت الصلاة هي أعظم وأكثر ما يتقربون به الى الله ولكن فرادى لأنها تطوع ويرى الزائر ما لا يدخل تحت حصر من المحاريب على الأرض حيث يقف كل واحد منهم .

من زاوية أخرى ، ونزلنا من جبل العباد وسرنا حتى بلغنا منبسطا من الأرض ، تتعرج فيه ألوية من الرمال تغمر كل شيء ، وقالوا ها هنا كانت مدينة سدراتة العظيمة ، قلت في نفسي نعم إنه أنسب مكان تقوم فيه مدينة إباضية تبلغ القمة في العمل لله ، سرنا فيها غير قليل حتى بلغنا بعض ربوات صغيرة ظهرت عليها آثار بسيطة من البناء ، قالوا ومن هنا تبدأ الآثار العمرانية لهذه المدينة الخالدة ، قلت في نفسي وهذه الآثار البسيطة من الاحتفال بالبناء قد تكون من آثار أولئك الأجداد العظام .

وسرنا قليلا فوجدنا آثارا فيها نقوش واحتفال بالزخرف ، واهتمام بالعمران وطول الحياة والبقاء ، وكان الإخوان فرحين بعثورهم على هذه الآثار الدالة على الحضارة والتقدم في تلك العصور ، أما أنا فقد كانت تقوم في نفسي معركة حامية من دلالة هذه الآثار ، لأن تلك المعاني التي يفرح لها الأصدقاء والتي توحي بها هذه الآثار هي أبعد ما يمكن أن أتصوره لأصحابنا في تاريخهم المجيد الطويل ، وكنت أقول في نفسي إن هذه الآثار التي يبدو عليها الإحتفال بالفن والإهتمام بالعمران ، والعمل للبقاء والتشبث بالخلود في الدنيا ، لا تكون أبدا لأصحابنا ، إنها بكل تأكيد ليست من عمل الإباضية فهي إما أن تكون سبقتهم وإما أن تكون لغيرهم ممن كان يعيش بينهم في عهود الرخاء والازدهار .

إن الاباضية في تاريخهم الطويل في المغرب الاسلامي لم يحفلوا بهذه النظرة الدنيوية التي ينظر إليها الناس ، ولم يأخذوا في حسابهم أبداً أن يبنوا للبقاء ، أو يشيدوا للخلود ، ولا أن يزخرفوا للجمال ، ويشتغلوا للفن ، لأن كل ذلك في نظرهم عبث يتنزه عنه المؤمنون . والتماس الخلود في الدنيا يبتعد عنه من يعملون للآخرة وللقاء ربهم ينتظرون .

ولو كان في الزخرفة والاحتفال بالمباني الشاهقة ، وبذل

الجهود المضنية لإقامتها خير ، ما عابها الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم على الأمم السابقة مثل قوله تعالى لعاد قوم هود : ﴿**أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون واذا بطشتم بطشتم جبارين**﴾ (1) في أمثالها فكأنما الإباضية في المغرب الإسلامي كانوا يخشون أن ينالهم طرف من هذا الوعيد فكانوا أبعد الناس عن الإهتمام بمظاهر الحضارة الصناعية اللهم إلا في جانب واحد من الحياة ذلك أنهم شيدوا في كل مكان عاشوا فيه مساجد يخطئها العد في جميع القرى والمدن التي عمروها ، وحرصوا على أن تكون تلك المساجد متينة البناء فسيحة تتسع للأعداد الوافرة كما حرصوا أن يخصصوا في تلك المساجد أقساما للنساء تحجب الرؤية ولا تمنع الصوت لتتمكن المؤمنات من حضور الصلوات والإستماع إلى الدروس وهن مصونات دون أن يؤذين أو يتأذين . كما حرصوا أن يجعلوا في تلك المساجد جميع المرافق التي تيسر على المسلم وسائل الطهارة دون أن يتعرض لأذى الحر في الصيف أو أذى البرد في الشتاء وعملوا لتوفير المياه فيها إما بالآبار أو بالصهاريج ولكنهم في كل تلك المساجد التي أقاموها واحتفلوا لبنائها لم يهتموا بالزخرف أو النقش أو الفن لأن المؤمن عندما يأوي إلى بيت الله ينقطع عن حظوظ الدنيا جميعا ليتصل بالله فهو حري أن لا يشغل فكره بما على الجدران من فنون لأنه ليس في زيارة لمتحف أو معرض وإنما هو في مكان ينقطع فيه عن الدنيا ليصل حبال قلبه بالله .

رجعنا من سدراتة إلى وارجلان وأنا لا أزال منهك القوى مضعضع الحواس ، فقصدنا محلا من محلات الإخوان ، وأتيح لي فيه أن أستريح قليلا قبل وقت الغذاء ، وغفوت غفوة قصيرة ردت لي بعض النشاط ، ودعانا الإخوان إلى جنان من أجنتهم الفيحاء

(1) سورة الشعراء : 128 ـ 130 .

لتناول الغذاء وحضر الغذاء جمع كبير من أكرم الإخوان ودارت أحاديث ممتعة في العلم والتاريخ والأدب وعلوم الشريعة حرمت من أكثرها لأني كنت مشغولا بتصفح الكتاب القيم «غصن البان في تاريخ وارجلان» الذي لا يزال مخطوطا بكل أسف ولما لم يكن في إمكاني استعارة الكتاب ، ولا نقله في تلك الساعات القلائل كنت أؤشر على بعض الفصول التي أرى ضرورة قصوى في الإطلاع عليها وطلبت من صديقنا الفاضل الاستاذ الشيخ أبي معقل عمر بن داود بن الحاج احمد أن ينقلها وأن يرسلها إليّ ، في أسرع وقت ممكن وقد فعل جزاه الله عن الاسلام وأهله خيرا .

وبعد صلاة العصر ودعنا الأصدقاء للسفر إلى تقرت وكنت أودع الإخوان وأنا أحس أنني لم أزر وارجلان ولم أتعرف على أهلها الكرام الأماجد ولم أتعرف على حياتهم في حاضرهم وأنني قد قصرت كل التقصير في حقهم ، وكنت أعاهد نفسي على الرجوع (1) في أقرب فرصة لأعرف وارجلان الحاضرة لأربط بين وارجلان التي عرفتها من خلال الكتب في قرون من التاريخ الطويل وبين وارجلان المعاصرة التي تكافح في جلد وصبر وثبات لتقيم مجدها الحاضر الزاهر على ماضيها الراسخ الثابت ، ولأرى مقدار ما يعده شبابها المسلم المؤمن من وسائل لمحاربة ما تجره الحضارة المستوردة من بدع ومفاسد تحاول أن تجتث أصول الإيمان بالله والإعتماد عليه في كل صغيرة وكبيرة من قلوب الشباب في ديار الإسلام حتى يبقوا كالقطيع الذي لا راعي له فيسهل على الذئاب الفتك به وتقطيع أوصاله .

(1) وقد أتيح لي أن أعود إليها بعد إحدى عشرة سنة وذلك في يوم الإثنين ٤ شوال سنة ١٣٩٦ هـ حيث تمكنت من قراءة الفصول التي كتبتها عن تاريخ وارجلان على الأخ العزيز الشيخ أبي معقل عمر بن داود .

قيل عن أَهل وارجلان

«وأَهل ورقلة كلهم رجال خير وإيمان وصلاح ، يهاجرون كثيرا الى جهات الشمال لأَجل العمل ، فلا تكاد تحصي على أَحد منهم سيئة أَو هنة» .

(كتاب الجزائر)

أَحمد توفيق المدني

وارجلان

لقد كانت وارجلان في عصور طويلة عاصمة للإباضية بكل الإعتبارات وقد كتب عنها جمع من المؤرخين الذين تحدثوا عن المغرب الإسلامي في كل فترات تاريخه وتناولها كل واحد منهم من الزاوية التي ينظر منها وكانت من العظمة بحيث يجد كل ناظر صورا جميلة للعرض ، وكل متحدث ميدانا فسيحا للحديث ، ويسرني - في هذا الفصل - أَن أَدع المجال للمؤرخ الكبير الشيخ ابراهيم بن صالح أَعزام رحمه الله صاحب كتاب «غصن البان في تاريخ وارجلان» يضع لنا إطارا نعرض في داخله صورا من تاريخ هذا البلد العظيم .

قال الشيخ أعزام :

«هذا الوطن من الأَوطان القديمة ، يحق أَن يكون له تاريخ عظيم مكتوب بحروف من نور على صفحات قلوب أَبنائه . وكيف لا وهو من فاتح القرن الثاني وطن إسلامي علمي ، أَنبت كثيرا من فحول العلماء وأَعاظم الرجال ، حتى أَن الإنسان لا يمر بشارع أَو طريق إلا ويسمع هذا قبر الشيخ فلان ، أَو مسجد العلامة فلان ، أَو محضرة العالم الفلاني إلى غير ذلك من الألقاب الشريفة . والشاهد على ذلك العيان ، وليس بعد العيان بيان .

ومن يرد تحقيق هذا الخبر يصِلْ إلى بلادنا وينْظُرِ

ويقول بعد أَسطر :

«وكان فيه من الخزائن المملوءة بالمجلدات (1) والأَسفار

---

(1) وجدت رسالة مبعثرة قديمة عن تاريخ سدراته ووارجلان اكتشفها باحث إفرنجي ولم يسعدني الحظ بالحصول عليها حتى الآن . أعزام .

الضخمة في الفنون المختلفة ، من تاريخ وفقه وحكم وتفسير وغير ذلك من العلوم العقلية . ولكن الفتن العمياء أعدمتها حرقا وتمزيقا ، ولم تبق منها بقية ، وحتى أن الإنسان مهما بحث أشد البحث لا يجد ولو أقل قليل من تلك الأسفار إلا بعض وريقات لا تفي بالمقصود » .

ويتحدث الأُستاذ أعزام عن سدراتة فيقول :

«بلاد سدراتة منسوبة إلى شعب من شعوب البربر من بطون زناتة وهي بلاد كثيرة يسكنها معتنقو المذهب الإباضي قديما ، ولم ينزحوا عنها إلا بعد ما خربها يحي بن إسحاق الميورقي المعروف بابن غانية سنة 624 عند ثورته على الأمير يعقوب بن المنصور أحد أُمراء الموحدين كما كان بيان ذلك في محله ، وبقيت البلاد إلى الآن خرابا » .

ويقول بعد أسطر :

«وبعد خراب البلاد تفرق الباقي من ساكنيها الى وادي ملوية التي هي الحدود بين بلاد وارجلان والبلاد المراكشية ، والبعض سكن وادي ميزاب والبعض الآخر انضم إلى وارجلان » .

وعقد الأُستاذ أعزام بعد هذا فصلا تحت عنوان : بلاد وارجلان عند المؤرخين .قال فيه :

«وارجلان ، واركلان ، واركلا ، ورقلة ، وارقلا ، وارقلان ، هذه الأسماء كلها واقعة على هذا الوطن قديما وحديثا إلا أن الاسم المعروف به الآن وارجلان ، وورقلة اسم لعاصمة بلاد كثيرة تحت نفوذها يسكنها الآن أخلاط من الإباضية والأعراب ورجال الحبشان ، والأصل فيها الأولون من قبائل زناتة ومزاتة وبني يفرن ومغراوة . كما سنذكر أقوال المؤرخين ،وربما نذكر المؤرخ

والكتاب وعدد الصفحات والجزء ليراجع من أراد التحقيق وعلى الله الإتكال» .

وقد نقل الأُستاذ أعزام أقوال جمع من المؤرخين قدماء ومحدثين عن وارجلان وعن جغرافيتها وموقعها وسكانها ، وعن حياتها وحياة أهلها وممن نقل عنه من القدماء : ابن خلدون ، والحموي ، والبكري ، والعياشي . ونقل أيضا عن السالمي والكعاك وبيرم التونسي .

والقاريء لكتاب غصن البان ولما نقله مؤلفه عن غيره من المؤرخين يفهم أن كلمة (وارجلان) إنما هي اسم لإقليم واسع ذي خصائص جغرافية وعمرانية وتاريخية ودينية. أما كلمة (ورقلة) فهو اسم لعاصمة هذا الإقليم ومما يساعد على هذا الفهم ما نقله الأُستاذ أعزام عن الحموي :

«وارجلان كورة بين إفريقيا وبلاد الجريد ضاربة في البر كثيرة النخل والخيرات يسكنها قوم من البربر » .

ونقل الأُستاذ أعزام عن الشيخ السالمي قوله :«وارجلان واد بأرض المغرب فيه عمارة ينزلها أصحابنا» .

ولقد نص الأُستاذ أعزام على هذا المعنى فيما نقلته لك في أول هذا الفصل حيث قال :«وارجلان ، واركلا ، ورقلة ، ورقلا ، وارقلان ، هذه الأسماء كلها واقعة على هذا الوطن قديما وحديثا إلا أن الاسم المعروف به الآن (وارجلان) وورقلة اسم لعاصمة بلاد كثيرة واقعة تحت نفوذها» .

ويبدو لي أن تلك البلاد الكثيرة والقرى العامرة والمدن المنتشرة والعيون الجارية والغابات الكثيفة الخصبة قد تضاءلت كلها ولم يبق منها إلا هذا العمران الذي تشتمل عليه مدينة ورقلة

التي كانت عاصمة وبذلك أصبحت كلمتا وارجلان وورقلة اسمين لمدينة واحدة هي نقطة اتصال هامة بين الجزائر وتونس وليبيا والصحراء ، ولموقعها الجغرافي الهام كانت مركزا تجاريا وعلميا هاما في مدى اثني عشر قرنا وما تزال .

ولما كان هذا الكتاب ليس كتاب تاريخ يتتبع الزمن عصرا عصرا ليسجل الأحداث حسب وقوعها فإنه لا يفوتني أن أضع صورا للقاريء الكريم عن هذا الوطن العظيم الذي كان مركز إشعاع ومقصد رجال العلم والدين من جهة ، وهدفا يضربه المنحرفون بغير هوادة من جهة أخرى . ومرتادا خصبا يتحلب عليه ريق المغامرين من جهة ثالثة .

وأحسبني أستطيع نظرا للأحداث الكبرى التي وقعت في هذه البلاد أن أقسم تاريخه إلى عهود يمتاز كل عهد منها بخصائص واتجاهات وأحداث ينفصل بها عن العهود الأخرى وإن شاركها في بعض المظاهر إذ لا شك أن تلك العهود يبنى بعضها على بعض ويأخذ منها . فمن المستحيل أن تكون فترة تاريخية لحياة أمة ما منفصلة كل الإنفصال عما سبقها وعما لحقها .

ولقد سبقني الأستاذ أعزام - وله الفضل - إلى هذا التقسيم فله الشكر .

ينقسم تاريخ وارجلان إلى أربعة عهود هي كما يلي :

1 - العهد الأول من الفتح الإسلامي إلى سنة 450 تقريبا .

2 - العهد الثاني من 450 الى سنة 624 تقريبا .

3 - العهد الثالث من 624 الى سنة 1040 تقريبا .

4 - العهد الرابع من 1040 الى سنة 1286 تقريبا .

العهد الأول

العهد الاول من تاريخ وارجلان يمتد قرابة أربعة قرون إذ يبتديء من الفتح الإسلامي ويستمر إلى منتصف القرن الخامس الهجري .

فقد اعتنق أهالي وارجلان الإسلام عندما حمل الفاتحون الأولون مشعل الهداية إلى المغرب الأوسط في أواسط خير القرون ، ويبدو أن سكان هذه البلاد ثبتوا على الاسلام منذ اعتناقهم له ، ولم تجرفهم عوامل الردة التي وقعت في كثير من بلاد المغرب بأقسامه ، لا سيما منطقة أوراس ، وفي عهد الدولة الأموية التي لم يستقر فيها الوضع في الجزائر بسبب حروب الردة أولا ثم الثورات المتعاقبة إما نزاعا على الحكم وإما سخطا من الظلم ، في هذه الفترة كانت وارجلان هادئة مطمئنة . وكان قد انتشر فيها المذهب الإباضي كما انتشر في بقية المغرب الإسلامي مع أوائل القرن الثاني . فاشتغل الناس بالجانب العلمي كما اشتغلوا بالدعوة إلى إقامة كتاب الله والمحافظة على أحكامه .

وتكونت من بعد البعثة العلمية فذهب عاصم السدراتي الى البصرة ودرس ورجع مع حملة العلم . وعندما بايع الناس أبا الخطاب بالإمامة في طرابلس كان عاصم من أول من بايع ، وكان يأمل أن تتكون إمامة تحكم بكتاب الله وتسير على منهج الخلفاء الراشدين وبعد أن استقرت قدم أبي الخطاب ، وهدأت الأحوال ، ودلت البوادر الأولى أن هذا الإمام الجديد حري أن يعود بالأمة والدولة إلى نهجها في أيام العدول من أئمة الإسلام ، فاطمأن عاصم إلى النتائج وسافر إلى الجنوب الشرقي للجزائر حيث كانت له شخصية محترمة ، وكلمة نافذة مسموعة ، وكان الناس يستمعون إليه ويتبعونه . وكان يعمل على أن تكون تلك البلاد تابعة للإمامة في

ليبيا فاستجاب له الناس وساروا وراءه غير أن إمامة أبي الخطاب لم تطل فقد قتل بعد سنتين في معركة حاسمة وبايع الناس أبا حاتم الملزوزي فالتزم عاصم ببيعته ولم يدع لنفسه ولم يقل إنه من حملة العلم وإنه أقوى شخصية بعد أبي الخطاب فهو أولى بالإمامة . وإنما كان أطوع قائد تقدم لمعاضدة أبي حاتم وأقواه ، وعندما اضطر أبو حاتم إلى انتزاع القيروان من الدولة العباسية وافاه عاصم على رأس جيش من أبطال سدراتة ووارجلان (1) وكان حكام القيروان يعرفون ما يتحلى به عاصم من الشجاعة والقوة وحسن التدبير فعملوا على قتله بحيلة ذكرتها كتب التاريخ ، ومات البطل العظيم قبل نتائج المعركة وقد أسفرت على انتصار أبي حاتم ، ورجع أولئك الأبطال الذين جاءوا تحت قيادة عاصم منتصرين ، ولكن دون أن يرجع معهم عاصم .

ولم تطل إمامة أبي حاتم فقد تمكن العباسيون من التغلب عليه وقتله . بعد هذه الأحداث سلك الإباضية في وارجلان نفس المسلك الذي سلكه الإباضية من أهل جربة . فقد انعزلوا عن الحركة السياسية والثورات العسكرية ، لا ينضمون إلى دولة ، ولا يناصرون أحد المتخاصمين ولا يساعدون الثوار ، ولا الدول القائمة ، ولكنهم كانوا يلتزمون الإسلام في سيرتهم ، وينفذون أحكامه على أفرادهم ومجتمعهم ، وعندما تكونت الدولة الرستمية في تاهرت ، وامتد سلطانها على أغلب بلاد الجزائر وتونس وليبيا ، دخلت وارجلان في هدوء تحت جناح هذه الدولة الجديدة .

ولما كانت الدولة الرستمية تسير على نهج الخلافة الرشيدة ، وتعمل على تطبيق أحكام الإسلام ، وتتقيد بها ، فقد كانت البلاد التابعة لها تتمتع بكل أنواع الحرية والعدالة والإستقرار التي كفلها

(1) ذكرت وارجلان هنا استنتاجا فقط فلست على يقين من أن أهل وارجلان بمخططها الواسع قد اشتركوا في جيش أبي حاتم .

الإسلام . وكان نفوذ الدولة عليها نفوذا اسميا لا يتعدى إقامة حدود الله على من يخرج عنه . والفصل بكتاب الله فيما ينجم من خلافات بين الناس ، أما في غير ذلك فقد كانت تترك لأهل البلاد أن يعيشوا كما يحلو لهم فهم أحرار في معاملاتهم وتجاراتهم وجميع أعمالهم ، ما دامت لا تجري على أسلوب من الأساليب المحرمة أو في نوع من الأنواع المحرمة ، وكان الناس حينئذ أشد إيمانا من أن يخالفوا أحكام الإسلام في معاملة أو تجارة مخالفة صريحة واضحة .

وكانت الدولة الرستمية لا تجبر أهل وارجلان ولا غيرهم على التجنيد الإجباري ، فهي لم تتخذ جندا مقيما تدفع له المرتبات والأجور ليبقى تحت السلاح باستمرار استعدادا لهجوم أو دفاع . ولا تعتمد على ذلك الجند الذي يحارب من أجل المال ووسائل العيش ، وإنما كانت تعتمد على التطوع ، على أولئك الذين يحملهم إيمانهم على محاربة المعتدين والدفاع عن حوزة الإمامة رغبة فيما عند الله : لا أملا في الحصول على غنيمة ، أو سعيا وراء نيل مرتب من الدولة .

إن الدولة الرستمية لم تكن تدفع مرتبات للجند كما أنها كانت لا تجيز لنفسها ولا لمن يعمل تحت حكمها أن يستحل شيئا من أموال المسلمين ولو كانوا بغاة ظالمين معتدين .

عاشت وارجلان في هدوء وسلام مدة الدولة الرستمية وكل ما يربطها بهذه الدولة من علاقة إنما هو اعترافها بالتبعية لها وإقامة الحدود وإصدار الأحكام باسمها والرجوع في مهام الأمور إليها .

وتلك هي علاقة الدولة الرستمية بجميع البلاد التابعة لها فلم تكن تبغي غير ذلك ولا يهمها إلا أن يعيش المسلمون أحرارا يتمتعون بكل ما يكلفه لهم دينهم الذي ارتضاه الله لهم . وقد

كانت الدولة الرستمية لا تفرض ضرائب ولا تصادر أموالا ، ولا تأخذ غرامات من أحد ، وإنما كانت تجمع أموال الزكاة على النهج الإسلامي الذي سار عليه الخلفاء الراشدون ، والمهتدون بهم من بعدهم ، قد كانت لا تأخذ من وارجلان شيئا وإنما كان عمال الدولة من خيرة العلماء يجمعون الزكاة من أغنياء البلاد ويردونها في فقرائهم تتمتع بها وارجلان وبقية البلاد التابعة للدولة الرستمية لم يدرك بعض المؤرخين العلاقة بينها ، وأعتقد أن حكمها لم يمتد إلى تلك النواحي لأنه لم يجد له الصدى الذي يجده غالبا بغيرها من الدول .

ويسرني أن أختم هذا الفصل بهذه الصورة الرائعة التي صور بها الأستاذ أعزام هذه الفترة من تاريخ وارجلان الحافل قال رحمه الله :

«إن هذه البلاد في سنة 151 هـ (1) (830م) الى سنة 450 هـ (1039م) عامرة بالإباضية كما قدمنا ولا اختلاط معهم من الأجناس(2) الأخرى وشؤونهم بأيديهم وكل واحد رئيس على عائلته ومنكب على أشغاله ومهماته والرئاسة العليا بيد حلقة العزابة(3) بالجامع الكبير في كل مدينة وإن نزلت بهم مسألة عويصة اجتمع العلماء من جميع القرى فيفصلونها على مقتضى الكتاب والسنة وآثار السلف ولا يؤدون على أملاكهم وديارهم

(1) لا يقصد المؤلف التحديد الدقيق بهذه السنة .
(2) يقصد المؤلف المذاهب .

(3) نظام العزابة في أول هذه الفترة غير معروف لا عرفا ولا تنظيما ويقصد الأستاذ أعزام أن أمور المسلمين كانت بأيدي القائمين على شؤون المسجد من العلماء ولا شك أن القائمين على أمور المساجد من الأئمة والمؤذنين والمشرفين على الأوقاف والقائمين بحركة التعليم ودروس الوعظ والإرشاد ، ومن هؤلاء جميعا تكون فيما بعد مجلس للعزابة حسب التنظيم الموجود الى الآن والذي سجله الإمام أبو عبد الله محمد بن بكر سنة 408 على الأرجح بعدما اتفق مع أبي زكريا فصيل على خطوطه العريضة قبل ذلك في جربة .

وأنفسهم أية ضريبة لدولة إلا الزكاة فقد كان يؤدي كل واحد واجبه فيما بينه وبين الله تعالى لمستحقه بغير رياء أو سمعة أو محاباة » .

هذه الصورةالتي وضعها الأستاذأعزام لوارجلان خلال ثلاثة قرون ونصف هي نفس الصورة التي كانت عليها جربة في تلك الفترة أيضا . وقد اعتصمت وارجلان بالإنعزال عن الفتن القائمة قبل تكوين الدولة الرستمية ، ثم دخلت طائعة تحت نظام هذه الدولة فلما انقضت أيامها عادت وارجلان إلى نوع حياتها التي عاشتها ما بين الفتح وتكون الدولة الرستمية ، وكل ما هنالك من فرق بين حياة وارجلان قبل تكون الدولة الرستمية وبعدها إلى نهاية العهد الأول من تاريخها وبين حياتها تحت نظام تلك الدولة العادلة ، أن الأمور في زمن الدولة كانت تجرى باسم الدولة ، أما قبل ذلك وبعده فقد كانت الأمور تجرى على أيدي رجال العلم والدين والصلاح إلى أن تكّون نظام العزابة على أساسه العرفي أولا ثم على نظامه المتقن المسجل فأصبح بديلا عن الدولة .

ومنذ تأسيس نظام العزابة المتقن في عهد أبي عبد الله بن بكر أصبح سيرة من سير أهل وارجلان يعملون به ويحافظون عليه الى اليوم وإلى ما شاء الله رغم اختلاف الأحداث وتغير الأزمان .

قد يلاحظ القاريء الكريم أن هذا العهد لم يكن في جميع فتراته متشابها كل التشابه ، ولم تغب عني هذه الملاحظة وقد خطر لي أن أقسمه الى ثلاث فترات :

تبتديء الفترة الأولى منها في الفتح الإسلامي في منتصف القرن الأول أو بعده بقليل وتمتد إلى منتصف القرن الثاني عند تكون الدولة الرستمية . وتبتديء الفترة الثانية من تكون الدولة الرستمية إلى نهاية القرن الثالث عند انقراض الدولة الرستمية

وتبتديء الفترة الثالثة من انقراض الدولة الرستمية في أواخر القرن الثالث وتمتد إلى نهاية هذا العهد ، وهذه الفترات الثلاث كانت كل منها تتميز بأحداث تاريخية هامة أو بأنماط من السلوك خاصة ، إلا أن حياة الشعب الوارجلاني في هذا العهد كانت تسير على وتيرة متقاربة ليس بينها كبير اختلاف . فقد كان يعيش في جميعها عيشة هدوء وأمن واستقرار وتطبيق لأحكام الإسلام تطبيقا حقيقيا ، وشعور بالحرية الكاملة دون أن ينالها ظلم أو تعسف أو إرهاق .

العهد الثاني

يمتد هذا العهد قرابة قرنين من الزمان من النصف الثاني للقرن الخامس الى منتصف القرن السابع تقريبا أي من سنة 450 الى سنة 624 ، أي منذ دخول العرب من بني هلال وبني سليم إلى المنطقة حتى تغلب ابن غانية على وارجلان وتخريبه لمدينة سدراتة .

ويمتاز هذا العهد عن غيره من العهود بكثرة القلاقل والفتن والحروب والغارات وذلك أنه بالاضافة إلى عدم استقرار دولة متغلبة تتحكم في البلاد بقانون عادل أو جائر كان هنالك ناس يحترفون الغارة والنهب والسلب .

ويبدو أن هذه الحالة جاءت مع أفواج الأعراب من بني هلال وبني سليم الذين كانوا لايزالون يعيشون على ما اعتاده أسلافهم البداة من الغارة على الغير واستخلاص ما تصل إليه أيديهم من أموال الناس على طريق الغنيمة ، سواء كانت تلك الأموال عروضا محفوظة ، أو محاصيل زراعية مجموعة ، أو سوائم ترود الكلأ في المراعي . ولم تكن هذه الحالة المؤسفة مقصورة على القبائل الوافدة من نجوع بني هلال وبني سليم وإنما تضاف إلى هذه الحياة المنحرفة بعض القبائل البادية الأخرى التي تعيش في البلاد من قبل والتي شجعها مسلك بني هلال وبني سليم أن تسلك نفس المسلك للحصول على المال إما متفقة ومنسجمة معها أو معارضة ومناقضة لها ، أو منفردة . وتكاثرت تلك الأحياء الضاربة في الوديان والبوادي والتي كانت تقوم بأعمال العدوان للسلب والغنيمة على أحد الأسلوبين الآتيين :

فقد تكون جموعا من المحاربين الأشداء تحت رئاسة بعض شيوخ القبائل وفرسانهم ثم يهجمون على حين غرة على بعض

المدن والقرى أو الأحياء الأخرى ، يقتلون من يعترض سبيلهم ويغنمون ما تصل إليه أيديهم .

ثم يركبون جيادهم ويعودون إلى أحيائهم ، وهم يفخرون بما أظهروا من صبر وثبات في القتال ، وما قتلوا من رجال وما غنموا من متاع وسلبوا من أموال .

وقد يعدون مجموعات من أولئك المحاربين فيعترضون الطرق ، ويستولون على القوافل التي تنقل البضائع من مكان الى مكان ، فيأخذون ما عندها لأنفسهم غنيمة باردة .

ولا شك أن هذه الأحياء البادية التي تعيش هذه المعيشة إنما تسعى إلى كسب المال من جهة وإلى التغني بالبطولة والشجاعة من جهة أخرى ، وليس لهم أي مقصد في الإستقرار أو البقاء في الأماكن التي يغزونها ويتغلبون عليها ، ولذلك فحروبهم كانت عبارة عن هجمات خاطفة على من يجدون عنده غرة أو يتوقعون منه غفلة فإن حصلوا على شيء فذلك مطلبهم وإلا فروا هاربين ليعيدوا الكرة على نفس المكان أو على غيره في فرصة تكون أكثر مواتاة لهم .

أما الأسلوب الثاني فقد كانت بعض القبائل تلتحق ببعض الأمراء أو بعض الثائرين أو بعض المغامرين من طلاب الحكم فتدخل تحت لوائه وتحارب مع صفوفه لا محبة في نصره ولا اعتناقا لمبدئه وإنما استعانة به على تحقيق نزعة القتال الجامحة في نفوسهم والتغني بالبطولة وعلى الحصول على الأموال من طريق الغنائم ، الطريق الذي لا يعرفون غيره ولا يفكرون في سواه . ولذلك كان من السهل على تلك القبائل أن تنقلب على من كانت تناصره وأن تعمل تحت قيادة من كانت تحاربه .

وقد كانت وارجلان في هذا العهد - وهي محاطة بعدد غير

قليل من هذه القبائل - غير خاضعة لدولة ، ولا تابعة لإمارة ، وإنما كان مجلس العزابة يدير شئونها وينظم أمورها ، ويفصل في مشاكلها ، ويتولى قيادة الدفاع عنها ، بقوتها الشعبية لا بقوة دولة ، وبذلك كانت عرضة للهجمات والغارات أكثر من جميع البلدان التي تجاورها ، وقد يكون من الأسباب التي وجهت إليها أنظار المغيرين ربما أكثر من غيرها - أنها كانت تتمتع بمركز اقتصادي ممتاز ، وأن أهلها كانوا على نصيب وافر من الثروة والغنى بسبب الأخلاق التي كانوا يتحلون بها من جد ونشاط ومواصلة للعمل سواء كان هذا العمل في خدمة الأرض والاشتغال بالزراعة أو كان بالضرب في الأرض والسفر إلى بلاد السودان للإشتغال بالتجارة .

وقد استطاع العزابة في هذه الفترة أن يحتفظوا بالسلطة كاملة وأن يستمسكوا بقيادة الأمة ، وأن يحافظوا على النهج القويم الذي كانوا يسيرون عليه من قبل وأن يدفعوا عنهم عدوان المعتدين في تلك الغارات الخاطفة دون أن يتورطوا في حروب طويلة مع الدول القائمة أو الثائرين عليها فلم ينحازوا الى أي من الجانبين ، وكانوا يتركون بلادهم شبه مفتوحة للحركات الدولية فلا يعترضون سبيلها في تحركها ولا يخضعون لها وإنما يتركونها تمر كما تمر العاصفة يتطامنون لها حتى إذا تجاوزتهم وقفوا واستطاعوا أن تبقى بلادهم في تلك الظروف الحالكة المتقلبة في أمن وراحة وهناء .

وكما يمتاز هذا العهد من تاريخ وارجلان بالحالة المضطربة فيما جاورها وبكثرة الفتن والغارات والحروب كان هذا العهد من تاريخها يمتاز بمزايا أخرى بعيدة كل البعد عن تلك المعاني مباينة كل المباينة لذلك الاتجاه . وذلك أن وارجلان في كامل ذلك العهد كانت أهم مركز علمي للإباضية وأحصن ملجإ يلجأ إليه العلماء والطلاب والزهاد وقد تداول فيه الرئاسة العلمية والدينية

عدد من أعلام الإسلام نذكر منهم أبا صلح الياجراني في أول العهد وفيلسوف الإسلام أبا يعقوب يوسف بن إبراهيم في آخره . وبين العالمين العظيمين وفي عصريهما حلقات مترابطة من فطاحل العلماء وأعداد لا نستطيع حصرها من طلاب العلم في المدن والقرى وحتى في الأحياء البادية (1) . يقول الأستاذ أعزام عن هذا العهد في كتابه القيم : غصن البان ، ما يلي :

« وفي بحر هاته الأعوام اختلطت البلاد ودخلت العرب الوطن كما سيأتي بيانه ، وفي أثناء ذلك وقع الهجوم والهرج والفتن الكثيرة في المغرب . ولكنهم بقوا على حالتهم الأولى من الهدوء والسكون » .

ويقصد الأستاذ أعزام بكلمة العرب هنا تلك الجموع الهائلة من بني هلال وبني سليم الذين وفدوا على المغرب بمكيدة من الدولة الفاطمية في القاهرة فانتشروا في أرجاء ليبيا وتونس والجزائر والمغرب ، يقتلون ويخربون ويغنمون ، وقد نالت وارجلان نصيبها منهم وممن سار بسيرتهم وأصابتها فتن وحروب وتخريب ، وإن كانت في أغلب الأوقات تقف للمعتدين بالمرصاد ترد عليهم ما يقومون به عليها من صولات وجولات ، ما جعلها تعيش طيلة هذا العهد على استعداد دائم لترد عدوان المعتدين .

وقد صور المؤرخ الكبير ابن خلدون حركة دخول العرب من بني هلال وبني سليم وما قاموا به من فتن وحروب وما أدخلوه على البلاد من الروع والفزع ، وما ارتكبوه من تخريب ، في عدة

(1) ذكر المؤرخون أن أبا صالح خرج من وارجلان الى بعض الأحياء الضاربة في البادية وكان له معهم إبل ، فوجد هناك شيخا من كبار العلماء عليه حلقة من الطلبة يتجاوز عددها ثلاثمائة ، وعند رجوعه شيعه الشيخ وتلاميذه فسأل أحدهما الآخر قبل الوداع قائلا : أخبرني ما أعظم شيء ينال به خير الدنيا ، أهي التجارة أم الزراعة أم الصناعة ، فقال أفضل ما ينال به ذلك دعاء الصالحين لا سيما اذا سبقه إغاثة ملهوف أو سداد حاجة مضطر .

مواضع من كتابه القيم نأخذ منه هذه الصورة لنعرضها على القاريء الكريم كمثل لما قام به أولئك الناس .

قال ابن خلدون في الجزء السادس من تاريخه القيم ص 43 ما يلي :

«وعاجوا على ما هنالك من الأمصار مثل طبنة والمسيلة فخربوها وأزعجوا ساكنيها وعطفوا على المنازل والقرى والضياع والمدن فتركوها قاعا صفصفا أقفر من بلاد الجن ، وأوحش من جوف البعير ، وغوروا المياه ، واحتطبوا الشجر ، وأظهروا في الأرض الفساد » .

وأحسب أن هذه الصورة الصغيرة التي نقلناها للقاريء الكريم عن المؤرخ الكبير كافية لمعرفة ما أصاب البلاد في المغرب الإسلامي من أضرار بما كان يقوم به أولئك البداة الجفاة الذين لم يلامس الإسلام قلوبهم إلا قليلا ، ولم يلتزموا أحكامه في إخوانهم المسلمين لا كثيرا ولا قليلا .

العهد الثالث

يمتد هذا العهد ما يزيد عن أربعة قرون أي من سنة 624 عندما خرب الميورقي سدراتة الى سنة 1040 عندما استدعى بنو سيسين أُسرة ابن علاهم لتولي الحكم في وارجلان .

لقد ذكرت للقاريء الكريم أن أهل وارجلان الكرام كانوا في العهد السابق عرضة للغارات التي تقوم بها بعض القبائل التي تبني حياتها على السلب والنهب . ولكن سنة 624 جاءت بأشد ما يمكن أن يقع فقد مر المغامر الجريء يحي بن إسحاق الميورقي على هذه المنطقة كما يمر الإعصار ، فقتل الأنفس بدون حساب ، وخرب المدن ، وغور المياه وأحرق الغابات. وقد انصبت نقمته على سدراتة «فهدم سورها ، وتركها قاعا صفصفا ، وغادرها كأن لم تغن بالأمس» . » (1) .

كان ابن غانية ثائرا على الموحدين يريد أن يقوض دولتهم وأن يبني لنفسه على أنقاضها ملكا . فكان يمر بالبلدان بشراذم من المغامرين فيقتلون ويخربون ، ثم تمر من بعدهم جيوش الموحدين على تلك المدن والقرى المنكوبة فيعاقبونها هم الآخرون على استسلامها للميورقي ودفعها له ما فرض من ضرائب . وتوالت الهجمات من عدة أطراف فكانت لها نتائج وخيمة على تلك المنطقة .

ونظرًا لتضافر القلاقل وكثرة الفتن وتعاقب طلاب الحكم على البلاد وإنزالهم بالناس شتى أنواع الظلم وكثرة غارات البداة ، ومن في حكمهم فإن هذا العهد يعتبر أسوأ عهد تاريخي مر على وارجلان في عهودها الإسلامية .

---

(1) ما بين قوسين عبارة أبي العباس .

وإذا كانت الغارات وقطع الطريق والتعرض للسابلة في العهد السابق قد قيدت نشاطات رجال العلم والعمل ، وعاقت طلاب العلم عن الإنتقال بين المدارس والمفاضلة بين الشيوخ والمدرسين ، والالتحاق بأكثرهم فائدة ، وأوسعهم دائرة ، وأصبرهم على العطاء ، فإن حالات الفتنة واستمرار الحرب والاضطراب والقلق قد أثرت على الناس فاشتغلوا بوسائل الدفاع ، وكرسوا أنفسهم لرد سيول المهاجمين الذين لا ينقطعون ، وقر كل واحد منهم في موطنه يتوقع كل يوم نزول المصائب ، ويحتال لدفعها ويعد الوسائل لردها أوالتخفيف منها ، فوقع شبه تهاون في الجانب العلمي بانصراف العلماء والمتعلمين إلى مضاعفة الإشتغال في الميدان الاقتصادي حتى تستطيع البلاد مواجهة ما تأتي به الأيام من المطالبات . كما أنهم كانوا أيضا يعدون وسائل الدفاع ويتدربون عليها لرد الغارات التي يقوم بها طلاب المال من رؤساء القبائل .

وفي هذه الأثناء احتاجت البلاد إلى رجال أشداء تسند إليهم إدارة البلاد عسكريا ليتولوا حمايتها والدفاع عنها ، ولما كان من تتوفر فيه شروط القيادة السياسية والعسكرية قد لا تتوفر فيه شروط الزعامة الدينية التي يقوم بها العزابة . ومن تتوفر فيه شروط العزابة قد لا تتوفر فيه شروط الزعامة للقيادة السياسية والدفاع ، فقد أُسند الدفاع إلى رجال من غير العزابة ، وقد سار أولئك الحكام المختارون في مبدإ الأمر سيرة حسنة ، خاضعين للإختيار والشورى ، عاملين بنصائح العزابة وتوجيهاتهم ، ولكنهم لم يلبثوا أن استغلوا تلك المناصب فأعطوا لأنفسهم حق الحكم والتحكم حسبما يعرف عند غيرهم من المجتمعات . وحرصوا على أن يبقى الأمر في أيديهم ، ثم عملوا على أن يبقى الحكم وراثيا في أسرهم .

وعندما بلغ بهم الانحراف إلى هذا الاتجاه بدأت المشاكل

الداخلية فقد كانت أُسر أُخرى ترى أن تولّى الحكم شرف وحق ، وهي تريد أن تحصل على هذا الشرف وتنال هذا الحق ، وكانت أُسر أُخرى ترى أن الحكم مغنم ووسيلة للاستغلال وهي تريد أن تجني لنفسها بعض المكاسب وتستغل ما استغله الآخرون .

وكان هناك مجموعات من الناس ينتقدون في الأُسر الحاكمة هذا الانحراف الذي يميل إلى الاستبداد والاستغلال والاستعلاء ، ويحاولون أن يطيحوا بأُولئك الحكام حتى يقوم الأمر على نزاهة ونظافة واستقامة . وبدأ التطاحن الداخلي في نفس وارجلان يفعل فعله ، فانقسم أهلها وكان لكل داعية أتباع ، ولكل قبيلة أشياع ، واستطاع بنو سيسين أن ينتزعوا الحكم من بني وكين ، ولم يطل ببني سيسين الأمر ، فقد وقع بين أفراد العائلة نفسها نزاع وخصام نتجت عنه فتن طويلة ذهبت فيها أموال وأرواح ، وخشي أصحاب الحكم من بني سيسين أن يتغلب عليهم منافسوهم فينتزعون منهم مقاليد السلطة فارتكبوا الخطأ الذي يرتكبه كل ضعيف يتمسك بالحكم رغما عن أهل وطنه . فالتجأوا إلى خارج وارجلان ، وذهب منهم وفد إلى مراكش يدعو اليهم من يسندهم في موقفهم ويشدهم على كراسيهم فجاءتهم هذه المساعدة ممن أخذ الحكم منهم ومن منافسيهم .

وفي سنة 1040 قدم مولاي عبد الغفار بن مولاي محمد بن مولاي علاهم بدعوة من بني سيسين ليتولى الحكم على شروط شرطوها عليه فقبل منهم وأقبل إلى وارجلان حيث تولى الحكم إلى الأبد من بني سيسين ومن بني وكين ومن أهل وارجلان أجمعين ، وكان مجيء عبد الغفار هذا مبدأ العهد الرابع من تاريخ وارجلان الحافل .

انقضى هذا العهد بين فتن وجروب داخلية وغارات متواصلة من الخارج وحيل بين العزابة وبين توجيه الناس والسير بهم في جميع

الإتجاهات . واستبدت السلطة في بعض الأحيان استبدادا أخفت صوت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويبدو أن الإستمساك بالدين والمحافظة عليه ومراعاة آدابه لم يعد مثلما كان من قبل عندما كانت جميع الأُمور بيد العزابة وتوالى الضغط على الإباضية في وارجلان وما يجاورها وكانت الغارات توجه إليهم باسم المذهبية من ناس جهلة لا يفرقون بين الحلال والحرام ولا بين مذهب ومذهب ، وإنما يتخذون المذهبية وسيلة لابتزاز المال ، واستحلال الإستغلال ، فأثرت هذه المواقف على البلدان المجاورة لوارجلان فكان الإباضية يتناقصون منها تحت الضغط المتواصل مرة بالهجرة ومرة بالانتساب إلى المذاهب الاخرى حتى انقرضوا من تلك البلاد .

أما وارجلان التي كانت في ذلك الحين أقوى المراكز الإباضية في المغرب الإسلامي فقد استطاعت أن تصمد وأن تحتفظ بكيانها ، وإن كانت تلك الظروف قد أثرت عليها تأثيرا كبيرا فأخذت في الضعف ، وكثر فيها الجهل وانحرف الناس عن النهج القويم الذي كان عليه أسلافه ، وانعزل مجلس العزابة عن مهمته الحقيقية من قيادة الأُمة في جميع الميادين والإشراف على المجتمع وتوجيهه ، إلى هيئة قائمة في المسجد مهمتها القيام بشعائر العبادة ثم الفتوى البعيدة عن التنفيذ .

ويبدو لي أن هذه الصورة شبيهة كل الشبه بما مر على جربة في الأيام الأخيرة قبل انحلال مجلس العزابة ، وكل ما هنالك من فرق أن المجلس في جربة قد انحل كما انحل في جبل نفوسة وانفرط ذلك العقد الكريم فلم يعد له أثر على المجتمع بل لم يعد له وجود لا شكلا ولا موضوعا ، أما في وارجلان فقد استطاع المجلس أن يصمد وأن يقاوم وأن يحتفظ بمكانه من بيت الله .

واليوم وقد بزغت شمس الحرية على الجزائر العظيمة وانفتحت

أبواب العلم والمعرفة للشباب المسلم في كل الأصقاع وكل الأقطار ، وأصبح ميسورا لأبناء وارجلان الأذكياء أن يلحقوا بمعاهد العلم وأن يغترفوا منها بسهولة ويسر فعساهم أن يردوا لوارجلان مجدها العظيم ومركزها التاريخي الرفيع ، وأن يغذوا مجلس العزابة بالعناصر المتعلمة المؤمنة التى تجمع بين الثقافة الواسعة الواعية والعقيدة المؤمنة الصادقة والسلوك المهذب القويم ، والعمل المتواصل الدءوب ليواصل مجلس العزابة الموقر رسالته العظيمة في كفاح الباطل وكفاح الرذيلة ومحاربة المنكر . وإذا كان أسلافهم الكرام قد بلغوا من غزارة العلم ومتانة الدين وقوة الإرادة ما استطاعوا به أن يقوموا بواجبهم وأن يبلغوا رسالتهم وسط الأعاصير والزوابع فليس للأبناء اليوم عذر في التقهقر أو التخلف أو الإنحراف . وإذا كان أولئك الأسلاف العظام بلغوا إلى أسبانيا طلبا للعلم وتوغلوا إلى مجاهل إفريقيا طلبا للرزق ونشرا لدعوة الإسلام فما أحرى هذا الخلف وقد تيسرت له السبل أن يبلغوا ما لم ينله أولئك مع معاكسة الزمان وجور الأيام .

العهد الرابع

يمتد هذا العهد ما يقرب من قرنين ونصف من سنة 1040 التى تولى فيها أسرة ابن علاهم الحكم على وارجلان الى سنة 1286 عندما احتلت فرنسا الجزائر .

وفي هذا العهد كانت وارجلان شبه إمارة مستقلة فقد كان يرأسها شريف يحكمها حكما مستبدا مطلقا . وإن كان في أغلب الأوقات يتبع الدولة العثمانية تبعية اسمية ، يجمع لها الضرائب في مواسمها ويسلمها إليها وليس له شأن بها غير ذلك . وقد كان الحكم طيلة هذا العهد وراثيا في أسرة بني علاهم ، وقد سار بعض الحكام من هذه الأسرة سيرة نظيفة نزيهة فيها كثير من العدل والإستقامة وسار آخرون سيرة فيها من الإنحراف والإستبداد والظلم مايبعد بهم عن منهج الحكم في الإسلام ، كما أن منهم من يستقيم فترة ثم يبدو له فينحرف ويرتكب ما لم يرتكبه غيره من الظالمين ، ومع هذه الحال المتقلبة التي كان عليها حكام وارجلان من أسرة بني علاهم فقد كان أهل البلد راضين بهم ، ذلك لأن وجودهم كان يحمي البلاد من شرور المغامرين والمغيرين الذين لا ينفكون يهجمون على الآمنين يقتلون ويسلبون ويختلسون .

لقد كانت الجزائر كلها في هذا العهد تابعة للدولة العثمانية ولكنها في نفس الوقت لم تتمكن من التنظيم والاستقرار والحكم المباشر لا سيما في الدواخل والجنوب وذلك أن الدولة الغربية كانت لا تتوقف عن مهاجمة الجزائر في مختلف الجهات وبمختلف الأساليب ، وسواء كانت الدوافع إلى ذلك رغبة في القرصنة التي احترفتها ورعتها بعض الدول الغربية مثل أسبانيا والبندقية ، أو كانت أسبابا استعمارية ، أو كانت أسبابا صليبية يمليها التعصب الديني ، فكانت تلك الهجمات تتوالى وإن اختلفت أماكنها مرة

على الجزائر ومرة أُخرى على وهران أو تلمسان أو عنابة أو بجاية أو غيرها ، وكثيرا ما يجد أُولئك المهاجمون من يساعدهم من المغامرين وينضم إليهم في محاربة الدولة العثمانية طمعا في منصب أو جريا وراء غنيمة تؤخذ ، أو غنيمة تمنح ، وكان في نفس الوقت تثور ثورات في الدواخل من المغامرين طلاب الحكم أو طلاب المال وكانت الدولة غالبا مشغولة عنهم بمصارعة العدوان الخارجي وإيقاعه عند حده فتستمر أعمالهم الفوضوية حتى تلتفت إليهم الدولة . وكانت وارجلان في هذه الظروف المتقلبة هادئة راضية بوضعها فهي لا تثور على الدولة العثمانية ، ولا تحاول الاستقلال عنها . ولا تمتنع عن دفع الضريبة السنوية عليها ، إلا أن هذا الاستقرار بالنسبة إلى علاقة وارجلان بالدولة الكبرى لم يكن عامل استقرار بالنسبة للبلد نفسه وللأُسرة التي تحكمه ، فقد كان الخلاف لا ينفك يثور بين أهل البلد بتحريض بعض المتعصبين للمذهبية الدينية كما كان النزاع لا يلبث أن ينشب بين أفراد الأُسرة الحاكمة نزاعا على الحكم ورغبة في الإستغلال وقد كان ينبني على ذلك فتن داخلية ومكائد سياسية ينجم عنها إزهاق أرواح إما بطريق الإغتيال الفردي أو الحرب الداخلي ومضى هذا العهد على وارجلان كما مضى العهد السابق لم تتمكن فيه من مراجعة نفسها وتصفية حسابها ، والرجوع بسيرتها إلى ما عرف من تاريخها المجيد ، فبقي مجلس العزابة في المسجد يقوم بالأُمور الدينية الخاصة بالعبادة وليس له من أمر توجيه الناس ومعالجة مشاكلهم شيء ، كما أنه لم يتمكن من محاربة البدعة في انحراف الحكم لا سيما وأن ولاة الحكم كانوا على غير مذهب الإباضية . فلم يكونوا يستمعون إلى رأي مجلس العزابة . وإذا شدد المجلس في الإنكار على أحدهم لسوء تصرفه وانحرافه وعدم تقيده بأحكام الدين يعزو الحاكم ذلك إلى الخلاف المذهبي وينسبه إلى التعصب والتحكم ، ثم يثير العامة من المذاهب الأُخرى فتحدث فتن بسبب

ذلك بين الناس ويستقر هو في منصبه بعد أن يضرب الأُمة بعضها ببعض ، ويفرق كلمتها ، ويشعل بينها نار الشحناء والبغضاء .

وخلاصة القول في هذا العهد أن وارجلان كانت فيه مستقلة منعزلة مشغولة بأحداثها الخاصة دائرة على نفسها وكانت علاقتها بأواسط إفريقيا أكثر من علاقاتها بشمالها فقد كانت تجارتها وأسفارها متجهة إلى الجنوب أكثر مما كانت متصلة بالشمال وهذه الحركة المتجهة إلى الجنوب من وارجلان وما شابهها من الواحات كانت هي المعين الذي يستمد منه المسلمون في إفريقيا المدد الروحي ، وكان أُولئك المسافرون هم حقا الدعاة الذين أبلغوا الإسلام إلى كل مكان في هذه القارة السوداء المجهولة العظيمة .

فـتن ساحقة في وارجلان

لعل القاريء الكريم يذكر أن كلمة وارجلان صارت علما على مدينة كانت عاصمة لعدد غير قليل من القرى والواحات اندثر أغلبها وغطتها الرمال ، ولعل من أهم الأسباب التي ساعدت الرمال على التغلب على تلك البلاد عدد من الفتن والحروب توالت مع عوامل الطبيعة القاسية . وفي هذا الفصل سوف أعرض صورا لبعض الفتن الكبرى التي كان لها أثر بالغ على وارجلان . وقد تحدث الأُستاذ أعزام عن هذه الفتن بإسهاب فمن شاء فليراجعها في «غصن البان» أما في هذا الفصل فسوف أعرضها باختصار وإيجاز .

1 ـ الفتنة الأُولى : سبب هذه الفتنة فيما يبدو إنما هو عصبية جاهلية ونعرة قبلية ، وعدم تحكيم لكتاب الله فيما شجر بين الناس . وقد اختلفت أساليب المؤرخين في عرض أحداث هذه الفتنة والنتائج التي ترتبت عنها . وإن كان جميع المؤرخين متفقين أن سببها حادثة بسيطة من تلك الحوادث التي تقع على معاطن المياه بين القوافل المتعارضة ، أو رعاة الماشية الواردة ، أو بعوث الأحياء الضاربة في الصحراء لاستقاء المياه .

وقد ذكر الأُستاذ أعزام في غصن البان أن امرأة ذهبت الى بئر لتستقي وفي أثناء ذلك وردت على البئر إبل قبيلة أُخرى فتدافعت على المرأة وزاحمتها فتقطع رشاء سقائها ووقع في البئر ، فرجعت الى أهل حيها شاكية دون أن تستقي فصحبها رجل من حيها الى البئر ليلوم صاحب الإبل ويعتب عليه إهماله فوقع بينهما أخذ ورد حتى بلغ بهما إلى نهاية الغضب فوثب صاحب الإبل على صاحب المرأة فقتله والتحمت قبيلتاهما في معركة حامية ونصر كلا من القبيلتين قبائل أُخرى فاتسع الخرق ومات عدد من الناس وجرح آخرون وكانت هذه الفتنة أول شرارة داخلية أوقدت في منطقة

وارجلان وكانت لها آثار بعيدة المدى فيما بعد ، وقد ذكر أبو العباس الدرجيني حين تحدث عنها أن الفتنة لم تنته بانتهاء المعركة في موقعة البئر ، وإنما تغلب فيها التعصب القبلي فكانت كل من القبائل المتعادية تحاول الهجوم المفاجيء على الأُخرى للأخذ بالثأر .

ورغم أن عددا من كبار المشائخ حاولوا ـ بكل جهد ـ إطفاء هذا الحريق وشددوا النكير ، ومنهم من قاطع قومه ووصفهم بالعدوان وخرج مغاضبا لهم ، لكن كل ذلك لم يوقف سيل الدماء ، ولم يستل الضغائن من القلوب ولم يرجع الأواصر بين تلك القبائل إلى ما كانت عليه ، وكان هذا الوضع هو الذي مكن للنكبة الأُخرى التي حاقت بالبلاد على يد ابن غانية في أوائل القرن السابع وكانت هذه الفتنة في أوائل القرن السادس في أواخر عهد ماكسن بن الخير وأضرابه .

2 ـ الفتنة الثانية : كان ابن غانية يحي بن اسحاق مغامرا جريئا عمل على أن ينتقم من الموحدين وأن يقوض ملكهم فكان ينتقل بين بلاد المغرب الإسلامي يقتل ويغنم ويحتل ولا يستقر ، إنه كان لا يثبت ملكا ، ولا يستقر في مكان . وكان الموحدون يتعقبونه أينما حل وفي سنة 624 مر بمنطقة وارجلان فارتكب فيها من الأفاعيل ما لا يرتكبه إلا مغامر لا يعصمه دين ولا خلق .

وقد عرض علينا الأُستاذ أعزام صورة واضحة جلية وإن كانت مختصرة لما تركه الميورقي عند مروره من وارجلان قال في «غصن البان» ما يلي :

(وهو يحي بن إسحاق المتلثم المعروف بابن غانية منسوب إلى جزيرة ميورقة بالأندلس ، ثار بإفريقيا وفعل فيها العجائب من الفساد ، وكان أن كتب على هذه الأوطان الخراب والفتن

والأهوال ، قدم هذا الغشوم ثائرا سنة 624 لهاته الأوطان فخرب البلاد وقتل العباد ، وكان سلوكه على بلاد وارجلان فنزل بها ، وهدم قصورها وقطع نخيلها ، وأفسد عيونها ، وشتت جموعها . وزاد الى حومة أريغ وبلاد سوف وجبل نفوسة وبني دمر ، ونزل على عين الصفا ، بسدراتة فأفسدها في ثلاثين يوما . ثم على عين قبائل يفرن فأفسدها في ثلاثين يوما ، فلما وقع بهم هذا هربوا من أوطانهم طالبين السلامة فمنهم من هرب إلى جهة المشرق ، ومنهم من هرب إلى وادي ميزاب ومنهم من هرب إلى وادي ملوية ، ومنهم من تحصن بجبل الكريمة وهو جبل بناحية جبل العباد وسدراتة في غاية المنعة صعب الارتقاء ولا طريق لصعوده إلا من ناحية واحدة ، فتحصنوا فيه فحاصرهم العدو من أسفله مدة شهر . ثم انصرفوا عنهم لما يئس منهم ، ويقول الأستاذ أعزام :

«ثم نزل بوارجلان وأهل أنقوصة وحاصرهم حصارا شديدا إلى أن أعطوه أموالا كثيرة ، واتفقوا معه على غير الحق خوفا من جوره وتعسفه » . . . هذه الصورة التي وضعها الأستاذ أعزام لفتنة الميورقي معتمدا فيها على مصادر تاريخية أهمها ابن ألاثير كما يقول صاحب الكتاب نفسه وهي صورة مما كان يقاسيه أهل تلك البلاد من المتاعب بسبب المغامرين من طلاب الحكم وبسبب جور الدول الظالمة التى تعمل على تثبيت سلطانها بكل وسيلة .

ووارجلان بموقعها الممتاز الذي يربط بين الصحراء وبلاد الشمال وبين تونس والجزائر كانت محط أنظار الطامعين والمتنازعين من طلاب الملك . ومع أن أهلها بسبب كثرة التقلبات السياسية كانوا لا يهمهم من يتولى الحكم في بلادهم لان الحكام والأحكام في ذلك الحين كانت متشابهة كلها بعيدة كل البعد عن المنهج الاسلامي ولذلك فهم يقفون منها موقفا سلبيا لا يساعدون بعضها على بعض الا أنهم كانوا يلاقون على موقفهم هذا

أشد العنت من كل من تسنح له فرصة التغلب على البلاد ، والسيادة بها ولو لزمن قليل وعندما يهجم عليها طالب من طلاب الحكم فيتغلب على الحاكم السابق ويطرده منها أو يقتله فإنه ينزل بأهل البلد جميع وسائل العقوبة من قتل وتعذيب ومصادرة أموال وفرض ضرائب وغرامات ، وإن كان يعلم علم اليقين أن السكان كانوا على حياد تام في المعارك الناشبة بينه وبين سلفه . ويرى أن ذلك الحياد أو ذلك الموقف السلبي بين المتخاصمين لا ينهض عذرا ولا يلقى مبررا ، والواقع إنما يرتكبون ما يرتكبونه بدافعين : الدافع الأول هو التماس الوسائل والأسباب لجمع أكثر ما يمكن من المال ، والدافع الثاني هو إشاعة الخوف والإرهاب حتى يستجيب السكان الأبرياء لجميع المطالب .

إن أولئك الحكام المتسلطين الذين كانوا يسيرون بالفتنة يوقدونها أينما ساروا كان يساعدهم أن يحسبوا الشعب في أي بلد دخلوه مناوئا لهم مؤازرا لخصومهم حتى يجدوا بين الناس وفي دخائل نفوسهم أيضا مبررا لما يرتكبونه من أعمال ويعاقبون كما يشاءون بطريق التغريم والمصادرة وفرض الضرائب غير المحدودة لأنهم دائما في أشد الحاجة إلى مزيد من المال وفي جميع الأحوال ومتى تعسرت عليهم هذه السبل كلها ولم ترو ظمأهم فإنهم يلتمسون وسائل أخرى ويعودون على ذوي اليسار ونظرة واحدة إلى حكام اليوم لا سيما في البلاد الصغيرة والفقيرة من أنحاء العالم كافية لنفهم بها سلوك أولئك الناس الذين يرتفعون من غير شيء كما ترتفع الزوابع والأعاصير ثم يذوبون في السراب كما تذوب تلك الزوابع والأعاصير أحيانا قبل أن يستفيق من مرت به من الدهشة .

3 ـ الفتنة الثالثة : تحدث الأستاذ الكعاك عن أولئك المغامرين الذين يسودون بعض القبائل ثم يستولون على الحكم

ويلقبون أنفسهم بأضخم الألقاب فقال في كتابه الموجز ص 401 ما يلي :

«لم تكن هذه الأسر بدول لها شأن عظيم ولكنها تشابه ملوك الطوائف في الأندلس ولو أنها لم تبلغ إلى درجتها في الرقي والسطوة ، وهي أكثر شبها بمناطق الأسياد في القرون الوسطى لا سيما وهي لا تبعد عليها في الشكل والجوهر . فإن أمير القبيلة يعيش عيشة (السيد) فيتخذ له قلعة يتحصن بها ويجعلها قاعدته المدنية والحربية ، ويبسط نفوذه على القبيلة التي تطيعه كل الطاعة وتمده بالمال والرجال وتتطوع له في كل شأن يريده فيهجم بها على القبائل المجاورة لغزوها وسبيها ، والإثراء والتوسع على حسابها»

وبعد أسطر يقول : «ومن جملة هذه الدول دولة بني جلاب التي تأسست في مدينة تقرت في القرن العاشر في أواخر أيام بني زيان واستولت على جميع ولاية وادي أريغ » .

ويتحدث مؤرخ وارجلان الأستاذ أعزام عن بني جلاب فيقول : «قلت لما أن ثبت قدمهم في هذه البلاد حدثتهم نفوسهم بالإغارة على أموال الإباضية بوارجلان سنة 1007هـ فقدموا إلى وارجلان بجيشهم الجرار وشنوا غاراتهم على البلاد وأخذوا طريق الفساد والقتل والنهب وأعانهم جميع من ينتمي إلى الفساد والغالب من أنقوصة لما أنها في ذلك الأوان تحت طاعة وادي أريغ كما ذكره المؤرخون » .

ثم يتحدث الأستاذ أعزام عن تفاصيل المعركة ونتائجها وآثارها ،. ويذكر شيخ الصحافة الجزائرية شخنا أبو اليقظان إبراهيم في كتابه القيم «نموذج إمارة الدفاع» فتنة أخرى قام بها بنو جلاب على وارجلان سنة 1226هـ كانت الفتنة الأولى التي قام بها بنو

جلاب في أول حكمهم حينما استقرت أسرتهم في تقرت ثم استطاعت أن تتغلب على الجهات المجاورة من أريغ وأنقوصة وتبسط عليها نفوذها وكانت تأمل أن تتوسع فكونت جيشا لجبا واتجهت إلى وارجلان عروس الصحراء ومعقل القوافل وأغنى المناطق ولكن أهل وارجلان قد عرفوا عزم بني جلاب فاستعدوا للقائهم ، رغم الطوابير الخامسة ، واستعانوا على العدوان بالأصدقاء من جيرانهم الذين كانوا يريدون ضرب بني جلاب قبل أن يستفحل أمرهم ، ولا شك أن بني جلاب إذا استطاعوا أن يتغلبوا على وارجلان فسوف يحاولون الإستيلاء على غيرها وإخضاع البلاد جميعها لهم .

وصل بنو جلاب الى وارجلان ووقعت معركة حامية الوطيس بين الفريقين ذهبت فيها أرواح كريمة وأموال غزيرة ثم انهزم بنو جلاب وخسروا المعركة والسمعة . وكانت هذه الوقفة الصامدة من وارجلان في وجوههم وردهم على أدبارهم كافية لأن تجعلهم حراصا على عدم التوسع وعدم العدوان على بلاد أخرى سنة 1226 في أواخر أيامهم على ما ذكره قطب الأئمة رحمه الله فأرادوا أن يعيدوا الكرة وجهزوا جيشا لجبا وقصدوا وارجلان وسمع أهل وارجلان هذه المرة أيضا بما عزم عليه بنو جلاب فاستعدوا للقائهم واستعانوا بإخوانهم من بني ميزاب فأنجدوهم بجيش تحت قيادة بطل من أبطالهم . ولما قرب بنو جلاب من وارجلان ووجدوا الإستعداد والتنظيم والعزم على الدفاع وخافوا أن تكون هذه الموقعة أشأم من الموقعة الأولى ، طلبوا السلامة ، ورجعوا من حيث أتوا وقد خلد بعض الشعراء هذه الموقعة بقصيدة رائعة غير موجودة عندي الآن وإن بقيت أبيات منها عالقة بذهني وقد وصف الشاعر الاستعداد للمعركة والتحام القتال وانسحاب العدو فقال :

. . . . . فانهزمت عساكر الشيطان
تتبعهم خيول وادي مصعب أكرم بأهل الخيل من شجعان

وقد ذهبت عني الأبيات إلا أن الصورة كما رسمها الشاعر لا تزال عالقة مرتسمة بذهني كما يأتي :

إن الجيش المغير بعد أن ثبت قواعده وجلب الذخائر وسوى صفوفه وعزم على القتال ، استولى عليه الرعب فاضطر إلى الفرار تاركا فسطاط القائد وخيام الجنود مبنية ، مخلفا وارءه ما جلب من ذخيرةالبارود والرصاص ، وانفلت برقابه لا يلوي على شيء .

والحقيقة أن الفتنة الأُولى لبني جلاب وإن تكن قد تسببت لأهل وارجلان في خسارة أموال وأبطال إلا أنها أرجعت إلى القوم ثقتهم في أنفسهم واتحادهم مع إخوانهم ،. وقد نتج عن ذلك انتصارهم في المعركتين الكبيرتين اللتين سعى إليهما حكام هذه الدولة التي استقرت في تقرت وتريد أن تمتد إلى اليمين واليسار .

4 ـ الفتنة الرابعة : بوشوشة مغامر آخر من أُولئك المغامرين الذين يصطادون في الماء العكر ، وينتهزون الفرص في أسوإ الظروف قال عنه شيخ الصحافة الجزائرية شيخنا أبو اليقظان رحمه الله ما يلي :

«ذلك أن الثائر محمد بوشوشة لما نصب نفوذه على الجانب القسنطيني إبان الزحف الفرنسي لما استولى على وارجلان أمعن في التقتيل والتنكيل فزرع الرعب في القلوب».

أما الأُستاذ أعزام فقد تناول الحادثة بشيء من التفصيل والإسهاب في كتاب «غصن البان» نقتطف منه ما يلي :

«قدم لوارجلان بوشوشة المدعي الشرف ، ونزلها على نية الفساد ، والإيقاع بأهاليها ، فتلقاه بعض الناس بوارجلان واتفقوا معه على إخلاء البلد والنهب ، وكان لما سمع الأهالي بقدومه

اجتمع سكان المدينة من الأعراش الثلاثة، واتفقوا على عدم طاعته والدخول تحت نفوذه ، والقائد إذ ذاك على بني وكين الشيخ ابن الحاج معيزة ، وعلى بني إبراهيم الحاج حمو ، وعلى بني سيسين جلول بن بيحمان ، ورئيس الطلبة الإباضية الحاج عمر أبو عزيز خواجة وبعد الإتفاق أعطوا العهود والمواثيق على عدم الخداع ، ثم إن رئيس الطلبة أبدى لهم رأيا أخذوا به. وهو أن يبنوا بين كل عرش سورا وبابا خوفا من الخداع . فاذا خدع عرش من الأعراش كان ذلك يخصه دون الآخرين » .

كان أهل وارجلان بمذهبهم الإباضي والمالكي ، وبعنصريهم البربري والعربي قد اتحدوا في فتنة بني جلاب وكونوا قوة واحدة للدفاع فاستطاعوا أن يصمدوا وأن يردوا العدوان عن بلادهم وقد وقفوا مثل هذا الموقف في جميع الأحداث التي وقعت في تلك الفترة فلم يستطع أحد أن ينال منهم .

فلما جاء بوشوشة استطاع أن يكون فيهم طابورا خامسا ، وأن يزرع بينهم كلمة التفرقة وأن يتخذ لنفسه من يساعده من الداخل ولما تأكد أن لديه أعوانا داخل المدينة يعملون له سرا جهز جيشه واستعان بكثير من الطامعين الذين يشتركون في الفتن والحروب طمعا في الغنيمة والمكسب . وعسكر الرجل خارج المدينة قريبا منها، فانضم إليه من سكان وارجلان من كان متفقا معه سرا وكان ذلك مبدأ الخديعة والمكر وتفريق الكلمة ووقع الصدام بين الجند المهاجم وأهل المدينة فكانت كفة المعتدين هي الراجحة طوال اليوم الأول . وعندما سكتت ألسنة الرصاص عند الغروب بدأت ألسنة الفتنة والمكيدة تعمل ، فأُشيع بين أتباع المذهب المالكي أن بوشوشة إنما يريد القضاء على الإباضية فقط ، يقول الأُستاذ أعزام :

«ثم وقع الخداع من بعض المفسدين ، وفتحوا لبشوشة الأبواب بحجة أن بوشوشة قدم لقتال الإباضية خاصة فدخلت عساكر بوشوشة

فنهبوا إباضية بني سيسين وقتلوا منهم من وقع بين أيديهم وحانت منيته ». وهرب من استطاع الهروب ولما رأى الناس ما وقع لبني سيسين وأن الغزاة سينتصرون لا محالة اتفقوا على التسليم ، فخرج زعماء الأعراش إليه يحملون علامات التسليم ووقف منهم موقف حاكم الأباريق في القصة المشهورة يعفو عن هذا ويقتل هذا ويغرم هذا ، حسبما تمليه عنترة مغامر منتصر وغروره .

ومن أسوإ ما فعل أنه غرم الشيخ ابن الحاج معيزة قائد بني وكين والحاج أبا عزيز بن خواجة رئيس الطلبة بمبلغ عشرة آلاف فرنك لكل واحد منهما على أن تدفع حالا ، فجمع بنو وكين هذا المبلغ الضخم ودفعوه له وما تسلم هذا المبلغ حتى أمر الشيخين بالرجوع الى البلد . ولكنه حين انفصلا أمر باطلاق الرصاص عليهما فقتلا . وكان جلول بن بيحمان مختفيا عند قائد بني إبراهيم فبعث إليه بوشوشة سبحته علامة على الأمان فلما جاء الرجل أطلق عليه الرصاص قبل أن يصل الى خيمة الحاكم بخطوات .

وقد ارتكب المغامر الجريء ما يرتكبه مغامر أفاق يجري وراء المال والسلطان دون أن يعصمه دين أو خلق وذهب بما كسبت يداه وبقيت وارجلان وأهل وارجلان درة في الصحراء وحلقة اتصال بين أربعة أقطار مسلمة ، ومركز إشعاع من مراكز الدين والخلق والاستقامة (1)

(1) قرأت هذا الفصل على الأخ العزيز الشيخ ابي معقل عمر بن داود فكان من ملاحظته أن نتغاضى عن مساويء بوشوشة وأن نهمل ما ارتكبه من جرائم ضد المواطنين لأنه في الأصل كان ثائرا على الإستعمار ، فنيته في محاربة الإستعمار تغطي على الفظائع التي ارتكبها مع بني قومه .
(ملاحظة : قبل البدء في الطبعة الثانية من هذا الكتاب ، استدرك الأستاذ أبو معقل عمر بن داود ، فقال : «حكيت للمؤلف ما يزعمه آخرون من تبريرهم لفظائع بوشوشة . أما أنا فمن أشد الناس استنكاراً وانتقاداً لجرائمه بل ولأدنى أي ظلم ضد اي مسلم على وجه الأرض . أهـ أبو معقل عمر بن داود») .

هذه صورة مصغرة جدا عن وارجلان في تاريخها الإسلامي الحافل. أما الصورة الناصعة الحية فهي تلك التي يرسمها أو سوف يرسمها لنا أبناؤها الأبرار الأذكياء ، الأقوياء في عهد الإستقلال الزاهر إذا تم لهم حكم إسلامي نظيف ، وديموقراطية شاملة ، وسلام وأمن واطمئنان . لا تتحرك فيه فتنة ولا تثور زوبعة ، ولا يسعى إلى تفريق الصفوف ولا يستغل الظروف فيه ـ مغامر يسعى إلى السلطة أو يجري وراء المال أو تقوم نفسيته المريضة على عصبية جاهلية من التفريق بين المذاهب أو الأجناس أو العناصر .

بين وارجلان ووادي ميزاب

لا شك أن كثيرا من سكان سدراتة ووارجلان هاجروا الى وادي ميزاب - بادية بني مصعب - وقد استمرت تلك الهجرة المتقطعة من أوائل القرن الخامس إلى الثلث الأول من القرن السابع . وأسباب تلك الهجرة المتطاولة متعددة بعضها اقتصادي وبعضها علمي ، وبعضها سياسي .

ومن المؤسف أن بعض المؤرخين المتأخرين يذكرون أن سبب هجرة أهل سدراتة الى وادي ميزاب إنما هي الفتن التي أشعلها ضدهم إخوتهم بوارجلان، أحسب أن هذه الكلمة وردت أول ما وردت إما في القصص الشعبي الذي يعلل الأحداث التاريخية البعيدة بالخيال والمبالغة . وإماعلى لسان مؤرخ غير نزيه القصد يرمي إلى إيقاع الفتنة بين الأخوين العزيزين المتحابين ، فانساق بعض مؤرخينا المعاصرين وراء تلك الرواية . بل ذهب بعضهم الى المفاضلة بين وارجلان القديمة وسدراتة الحديثة وما تتصف به الأولى من شيخوخة وهرم وتتحلى به الثانية من شباب وجمال جاءت به من الشمال ، وحاول أن يصور الدافع - حسب ظنه - إلى الخلاف بينهما بغيرة أهل وارجلان من أهل سدراتة وحسدهم لهم على نجاحهم مما حملهم على مضايقتهم ودفعهم إلى الهجرة بعيدا عنهم .

•

وقد كنت أرى أن هذا لا ينسجم مع منطق الأحداث في تلك الفترة من التاريخ لا سيما أن وارجلان وسدراتة كانتا تتمتعان في ذلك الحين بازدهار ديني وعلمى وخلقي رفيع .

وعندما كنت أكتب هذا الفصل وأنا قلق من وجود هذه الفكرة وسيطرتها على بعض المؤرخين المعاصرين حتى حسبها حقيقة ، وكان بين يدي ما تيسر من مراجع التاريخ من مؤلفين قدماء

ومحدثين أُقلبها صفحة صفحة لاستخلاص الحقائق التاريخية التى تسير على حسب ما تقتضيه الأحداث من جهة وينسجم مع الخلق الإباضي من جهة أُخرى ويتفق مع نفسية طائفتين من الناس تعتنقان مبدأ واحدا وقع عليهما كليهما بسببه عدوان ، رجعت إلى رسالة أُستاذنا الفاضل الشيخ أبي اليقظان رحمه الله فإذا به يقول فيها ما نصه :

«وقد غلط من زعم أن إباضية وادي ميزاب هم بقية الرستميين الذين طردهم أهل وارجلان لمنافستهم لهم في الحياة ، وقد رددت على إذاعة الجزائر برسالة محكمة خلاصتها ما سبق ، وحاشا إخواننا بوارجلان أن يتضايقوا من هؤلاء الضيوف الكرام ، وقد قاسموهم أموالهم كما فعل ذلك الغني الكبير ابو صالح جنون بن يمريان ».

ويقول رحمه الله في موضع آخر من الرسالة :

«ثم أخذت جموع الإباضية تتلاحق إلى الوادي من وادي أريغ وجربة ونفوسة وأخص من بين أولئك بقية بني رستم من وارجلان» .

ويقول في رسالة أُخرى ما يلي :

«بعد استقرار الإباضية في الوادي على النمط المومى اليه أخذ أفواج الإباضية تفد من بلاد الإباضية في شمال إفريقيا زرافات ووحدانا من نفوسة وجربة ووارجلان وأريغ ومن المغرب كما رأيت ، ومع تناسل أجيالهم من بعد عمر الوادي بالإباضية إلى اليوم » .

ويقول الأُستاذ توفيق المدني في تاريخه القيم «كتاب الجزائر» صفحة 110 ما يلي :

«ولما غصت بلاد وارجلان وأريغ برجال الإباضية وأرادت أن تتنفس في معيشتها فيما جاورها ، رأت جبال بني مصعب«وادي ميزاب» أحسن ملجإ لها ، وأمنع حصن لأجيالها المتعاقبة فتكاثرت الهجرة إليها منها ومن سجلماسة بعد انقراض ملك بني مدرارا مستعمرة تيهرت ومن نواحي المغرب فتكونت بذلك في عصور متعاقبة بلاد ميزاب السبع» .

ويقول الأُستاذ محمد علي دبوز في كتابه القيم «نهضة الجزائر الحديثة» صفحة 161ما يلي :

«في القرن الخامس الهجري ابتدأت هجرة الميزابيين إلى ميزاب من سدراتة ووارجلان ووادي أريغ»

ونستخلص من الفصل الذي كتبه الأُستاذ دبوز عن هجرة الإباضية من سدراتة إلى بادية بني مصعب«وادي ميزاب» عدة أسباب منها ما يلي :

1 ـ «القحط الذي أصاب تلك النواحي بجفاف الأرض ، إن العمارة والفلاحة قد اتسعت فارهقت العيون التي كانت تكفي وارجلان فغار كثير منها فانقطعت مياهها ،فاحترقت غابات كثيرة من النخيل وتضررت الفلاحة».

2 ـ «كثبان الرمال الكثيرة في تلك النواحي ، فترى العواصف تهيلها على البساتين والمزارع فتقتلها» .

3 ـ «كانت سدراتة وما يحيط بها من المدن في السهول لا تستطيع أن تعتصم من العدو القوي الذي يصر أسنانه غيظا وحنقا عليها في الشمال» .

وقبل أن يذكر الأُستاذ محمد على الدبوز هذه الأسباب

الحقيقية لهجرة بعض سكان سدراتة ووارجلان وغيرهم ذكر خرافة نزاع أهل وارجلان لأهل سدراتة وحسدهم لهم وغيرتهم منهم ومضايقتهم لهم. ففكروا في الهجرة تبعا لبعض تلك الروايات دون أن يهتم بنقدها .

والحقيقة التي لا مراء فيها والتي تنطبق على أخلاق المؤمنين الصادقين في كل عصر ، والتي نجدها في المجتمعات الإباضية في أي مكان وما تدل عليه الأحداث التاريخية في تلك العهود واقتران اسمي وارجلان وسدراتة في كل التحركات الجماعية والفردية هذه الحقيقة تكذب قصة العداء بين أهل وارجلان وإخوانهم في سدراتة بل إن سدراتة لم تكن في الواقع إلا ضاحية من ضواحي وارجلان الكثيرة ما كان الناس يهتمون بالتفريق بين وارجلان وسدراتة حتى أن كثيرا من علمائهم سواء أكانوا من وارجلان أو من سدراتة أو كانوا يعيشون في وارجلان أو في سدراتة كانوا في الغالب ينسبون إلى وارجلان وأن الجموع المهاجرة سواء إلى وادي ميزاب أو إلى غيره غالبا ما تتكون من أهل وارجلان وأهل سدراتة .

إن الأحداث التاريخية في تفاصيلها والتي استطعنا أن نطلع عليها تكذب قصة العداوة بين وارجلان وسكان سدراتة الذين أصبح بعضهم فيما بعد ضمن سكان وادي ميزاب ، ومنهم ومن غيرهم تكون هذا الشعب الميزابي الكريم .

وكما آوى جبل نفوسة كل من هاجر إليه وأحسن إليهم وقاسمهم في جميع مرافق الحياة ، وكما آوت جربة جميع من هاجر إليها ، وقاسمتهم في جميع مرافق الحياة ، وهيأت لهم سبل العيش الكريم ، وكما آوى وادي ميزاب ولا يزال يأوي كل من هاجر إليه ووفر له الحياة الكريمة وقاسمه المال والوطن ، كذلك فعلت وارجلان مع من هاجر إليها من الشمال والشرق والغرب ، وفتحت لهم صدرها ، وأولتهم خيرها وبرها وعاملتهم معاملة المؤمن لأخيه

المؤمن حين يضيق به مجال الحياة ولم تتنكر لإخوتها في يوم من الأيام. ولقد كانت وارجلان لا سيما في تلك العهود أشد برا وأكثر عطفا وأعمق إيمانا واستشعارا للمسؤولية الدينية والأخوية ، من أن تصد إخوانها أو تعاملهم بالغلظة التي تتركهم يفكرون في الهجرة وإنما حمل أهل سدراتة على الهجرة بل أهل وارجلان أنفسهم تلك العوامل الأخرى التي أشرنا إليها في أول هذا الفصل ويدل لذلك أن الهجرة كانت تدريجية بطيئة وكانت من سدراتة ووارجلان أيضا ومن أريغ وغيرها ولو كانت هجرة مبنية على خلاف وعداوة وتحاسد ثم نزاع وتغلب لا قترنت بما تقترن به تلك الحركة عادة من ألوان التعاسة والمآسي ، ومناظر البؤس الجماعي ، ولكنها كانت هجرة فردية مبنية على أسباب معيشية ، وكانت هجرة تدريجية حتى بالنسبة للأفراد فقد كان الكثير من أولئك الذين انتقلوا من سدراتة أو وارجلان إلى وادي ميزاب لم يكونوا في أول الأمر ينوون الأستقرار أو الإقامة ، وإنما ارتحلوا وراء أنعامهم التي سبقتهم فرحب بهم إخوتهم وطابت لهم الحياة فأقاموا . ومنهم من أحس بالجفاف في سدراتة أو وارجلان وازدياد قسوة الطبيعة فذهبوا يرتادون الأماكن إلى وادي ميزاب أو غيرها فطاب لهم المكان الجديد فرجعوا وقرروا الارتحال إليه بأهلهم وأموالهم .

ونظرة واحدة إلى تاريخ تكون القرى بوادي ميزاب توضح لنا أن الهجرة إليها كانت تدريجية فقد تكونت العطف في سنة 402 حسبما ذكره الأستاذ الدبوز وهذا يعني أن الناس الذين التفوا حول الإمام أبي عبد الله من المصعبيين أنفسهم ومن الذين التحقوا بمواشيهم من أهل سدراتة ووارجلان قد راقتهم الإقامة مع الإمام الكبير في وادي ميزاب فتكونت المجموعة السكنية الأولى لهذه القرية الأولى .

ولم تتكون المجموعة السكنية الأولى للقرية الثانية إلا بعد

خمس وثلاثين سنة حيث تكونت قرية بنورة . ولم تتكون المجموعة السكنية الأولى للقرية الثالثة الا بعد أربعين سنة من تكون الثانية .

ثم همدت الهجرة نوعا ما وتوقفت حركة التحضر في المصعبيين نحو ثلاثة قرون حيث بدأت تتجمع المنازل الأولى للقرية الرابعة وبعد نصف قرن آخر تكونت القرية الخامسة ثم همدت حركة البناء نحو ثلاثة قرون تكونت بعدها القريتان السادسة والسابعة .

ومع أن هذه القرى تنتشر على بادية بني مصعب وتستغل مياه ثلاثة أودية إلا أن وادي ميزاب غلب عليهما أخيرا . والشعب الذي يعيش في هذه المنطقة أصبح معروفا ببني ميزاب ، وميزاب على ما يخيل إلي هي كلمة محرفة عن مصعب الذي تنتسب الى أبنائه البادية وأحد الأودية الثلاثة التي تخترقها معترضة سلاسل الهضاب والجبال فتكون منها ما يشبه الشبكة .

وادي ميزاب

قال قطب الأئمة رحمه الله في رسالته صفحة 38 ما يلي :

«وليس أهل هؤلاء القرى إباضية من أول بل كانوا معتزلة يسافرون إلى تاهرت لقتال الإباضية» وبعد أسطر يقول :

«وبعد انقراضها جاء فلهم فانضموا إلى من سكن هذه القرى من المعتزلة وجاء أيضا أولاد عبد الله من المغرب كما جاء منه باباعيسى العلواني ، وجاء قوم من نفوسة وأكثرهم نزل يسجن وهم أولاد عمي عيسى وبعضهم نزل غرداية وهم اللالوتيون وبعضهم العطف . ومن جربة عمي سعيد وتناسل في غرداية وقليل من بني ميزاب جاءوا من جربة ونفوسة أولاد أبي مسور في العطف ، وجاءوا أيضا من تاهرت ، وجاءوا أيضا من ناحية فساطو من جبل نفوسة .

وسبب انضمامهم إلى موضع الجدب هو الخوف من الجورة » . انتهى بتصرف .

قال الأُستاذ عثمان الكعاك في كتابه « موجز التاريخ العام للجزائر» ص 453 ما يلي :

« ولما سقطت الدولة الرستمية الإباضية بقي المذهب قائما بين النفوسيين بطرابلس والجربيين بتونس وبني ميزاب بالجزائر ، والميزابيون هؤلاء قوم من قبيلة نفوسة قد جاءوا تحت قيادة الإمام يعقوب من أحفاد الرستميين إلى جنوب مدينة وارجلان الغربي

سنة 360 وهو وادي مية وأسسوا به المنازل منها الكريمة وصدراتة وجبل إباظ (1) .

ولما كانوا أمة ناشطة عاملة استطاعوا أن يجعلوا وادي مية بلادا خصبة بفضل جدهم واجتهادهم وقد ساعدهم على ذلك بعدهم عن المعارك الشمالية ، وإقامتهم بالصحراء محل استقلالهم . وقد تخوف منهم بنو وارجلان وخشوا منافستهم فأجلوهم عن وادي مية بعد مضي نصف قرن (2) فخرجوا وقصدوا وادي ميزاب وقد كان موطنا للمعتزلة الجزائريين .

والشبكة عبارة عن نجد من الجلامد تخترقها الأودية الضيقة تبلغ مساحتها 8000 كم على مسافة 110 كم من مدينة الأغواط وقد استطاع الميزابيون أن يحولوا تلك الجلاميد الى بساتين ومزارع ، ويؤسسوا بها المدن وقد سكنوا في أول أمرهم الخيام ثم إن الرئيس خليفة بن أبغور أسس مدينة العطف سنة 402 هـ» (3)

ويقول الأُستاذ أحمد توفيق المدني في كتابه القيم «كتاب الجزائر» ما يلي :

«والشبكة تشمل المدن الميزابية السبعة : غرداية ، وبني يزقن ، وبنورة ، ومليكة ، والقرارة ، والعطف ، وبريان» .

---

(1) الاسم الصحيح هو جبل العباد (لا اباظ) ولا تزال آثار عشرات المحاريب واضحة فوقه .

(2) سبق أن أوضحنا أن هذه الفكرة لا أساس لها من الصحة راجع المقال السابق إن شئت .

(3) إذا صح هذا فإنه يناسب الفترة التي كان محمد بن بكر يزور هذه المنطقة وقد يكون خليفة هذا أحد تلاميذ أبي عبد الله أو أتباعه من بني مصعب ويكون تأسيس العطف على يد أبي عبد الله لا قبله كما يرجح أستاذنا بكلي والمؤرخ البحاثة الشيخ سليمان بن الحاج داود .

ويقول الأُستاذ محمد علي دبوز في كتابه «نهضة الجزائر الحديثة » الجزء الأول صفحة 149 ما يلي :

«وادي ميزاب يقع في جنوب الجزائر في شمال الصحراء الكبرى في ناحية تسمى الشبكة ، وهي منطقة جميلة تتخللها أودية ، ويبعد ميزاب عن مدينة الجزئر بثلاثمائة وعشرين ميلا ونصف الميل ، ويتكون وادي ميزاب من سبع مدن ، خمسة منها متجاورة : وهي العطف ، وبنورة ، ومليكة ، وبني يزقن ، وغرداية . واثنتان تبعدان عن المجموعة بعض البعد وهي مدينة بريان التي تبعد عنها بأربعة وعشرين ميلا ، وهي في شمالها الشرقي ، ومدينة القرارة البعيدة عن أخواتها بأربعين ميلا ونصف الميل وهي في شرقها » .

ويقول الأُستاذ دبوز في صفحة أُخرى ما يلي :

«وكانت هذه النواحي عبارة عن مجموعة من الجبال متشابكة في شمال الصحراء تتخللها ثلاثة أودية كبيرة هي : وادي ميزاب بجنوب الأغواط في ناحية (نيلي) وتنحدر جنوبا نحو ميزاب فتمر منعطفة بين جباله وربـاه وتنتهي في شمال وارجلان برمال (أنقوسة) .

هذا بعض ما قاله المؤرخان الكبيران : المدني ودبوز . ولا شك أن موقع ميزاب من أرض الشبكة هو كما قالا . ويكوّن جزءا منها قد يكون أكثرها خصوبة وعمرانا ولذلك غلب اسمه على المنطقة كلها .

وترى أيها القاريء الكريم أن هذه المنطقة تطلق عليها ثلاثة أسماء هي :

بادية بني مصعب ، أرض الشبكة ، وادي ميزاب . فما هو الاسم

الأصلي لهذه الأرض ؟ يبدو لى أن التسمية الأصلية لهذه الأرض هي بادية بني مصعب ، لأن بني مصعب هم الذين كانوا يعمرون هذه المنطقة، وينتقلون بين أجزائها فكانت لهم منتجعا ومرتعا . ولما كانت هذه البادية تخترقها وديان ثلاثة على شكل حبال طويلة ، وتعترضها سلاسل ممتدة من الجبال شابهت في صورتها الشبكة فاطلق عليها أيضا أرض الشبكة . أما كلمة ميزاب فقد تكون اسما لأحد الأودية الثلاثة كما يعتقد أكثر الناس وقد تكون اسما لفروع من قبيلة نفوسة كما يرى الأُستاذ الكعاك . وقد يكون مقتبسا من ميزاب الكعبة المشرفة كما علل القطب رحمد الله . ولكنني غير مطمئن لهذه الفروض جميعا ، فأنا أُرجح بدون استناد إلى أدلة كافية أن كلمة ميزاب محرفة عن مصعب أو مصاب أو مضاب ، وهذه الكلمات الثلاثة ترد كثيرا في المصادر التي تتكلم عن تلك المنطقة أو عن الأشخاص الذين ينتسبون إليها ، مما يدل أن أصلها واحد . فأصل الكلمة فيما يبدو «مصعب» ثم حرفت الى مصأب بإبدال حرف العين همزا ، وحروف الحلق عند البربر ينوب بعضها عن بعض فكثيرا ما ينطقون الخاء بدلا من الحاء والهمز بدلا من العين بل ربما كان حرف العين من أعسر الحروف نطقا عليهم ولذلك فتجري ألسنتهم بالهمز بدلا عنها(1) ثم سهلت الهمزة فقرئت الصاد ممدودة ، ثم أن هذه الصاد حرفت مرة أُخرى فنطقها بعض ضادا ونطقها بعض زايا لتقارب مخرجي الضاد والزاي .

وعلى كل فكلمة ميزاب هي المرحلة الاخيرة لمصعب . وشاع اليوم أن تنطق كلمة ميزاب بميم مكسورة يمدها البعض ولا يمدها آخرون . ولكن كثيرا من الناس ينطقونها مضمومة مما يدل أن أصلها : مصاب ، مصأب ، مصعب . فكلمة ميزاب إذن هي كلمة

(1) من ذلك أنهم يقولون (أبد الله) بدلا من عبد الله وكثير من الأعلام اشتهرت هكذا حتى ظن الناس أنها وضعت قصدا كذلك . ومنها نطقهم لفظة (أمي) بدلا عن عمي حتى ظن الناس أنها وضعت كذلك للدلالة على الاحترام والتعظيم .

مصعب ، وكلمة : بنو ميزاب تدل على ما كانت تدل عليه كلمة بنو مصعب ، غير أن بني مصعب كانوا يمتلكون كامل البادية التي يطلق عليها أرض الشبكة فكانت تنتسب إليهم ، ويقال لها بادية بني مصعب بأوديتها الثلاثة وسلاسل مرتفعاتها وجبالها . أما تسمية اليوم بنسبة بني مصعب إلى ميزاب واعتبار أن ميزاب اسم لأحد الأودية الثلاثة فهي تسمية تحاول أن تقصر أولئك القوم على بعض أجزاء باديتهم بينما تهمل الأجزاء الأخرى أو تنسبها لقبائل أخرى ، ولقد يكون اسم بني ميزاب آخر ما أطلق على هذا الشعب الذي كان يسكن بلاد الشبكة أو بادية بني مصعب ينطلق فيها طولا وعرضا ، ثم انحصر في المدة الأخيرة في بعض أجزاء منها . ولا أستبعد أن يكون للاستعمار يد - ولو كانت خفية - في تضييق المكان الذي يعتبر وطنا للميزابيين لا سيما حينما عجزت فرنسا عن استعماره وارتطمت معه بعهد حماية فإن من مصلحتها أن تضيق رقعة الحماية إلى أقصى حد ممكن ، ونحن نعلم أنها حاولت أكثر من مرة أن تنقض اتفاقية الحماية وأن تحتل تلك البلاد من جديد لتدخلها ضمن المستعمرات فلم يتسن لها ذلك أبدا وجرى بينهما كفاح سياسي مرير طويل لم ينته إلا بانتهاء الوجود الاستعماري لفرنسا في الجزائر وإفريقيا .على أن مناقشة هذه التسمية بالنسبة للأودية الثلاثة المتوازية التي تقطع سلاسل من المرتفعات المتوازية حتى سميت الشبكة ، أو للبادية المترامية الأطراف التي تحتضن تلك الأودية وتلك المرتفعات ، أو لوادي ميزاب الذي أطلق اسمه على كل أرض الشبكة اتباعا للقاعدة - تسمية الكل باسم الجزء - لا ينبني عليها شيء البتة .

وإنما الذي أريد أن أتحدث عنه في هذا الفصل إنما هم الميزابيون كشعب ذي خصائص ومميزات .

ومع احترامي الكبير للمؤرخين الكبيرين الكعاك ، ودبوز ،

ومع تقديري لجهودهما العظيمة في الأبحاث الطويلة والعميقة في تاريخ الجزائر وسعة معارفهما بطبيعة البلاد والسكان ، إلا أنني أخالفهما في بعض النقط البسيطة فيما يتعلق بالميزابيين وسوف أوضح ما أذهب إليه فيما يلي :

قال القطب رحمه الله في رسالته صفحة 84 : « جرى تسمية أهل هذه القرى الخمس بل السبع ببني مزاب بضم الميم وتخصيصهم بهذا الاسم» . وبعد سطور قال :«ثم إن أهل هذه القرى الخمس فقط يسمون بني مصعب لأن بعضهم من ولد مصعب ولعله مصعب بن سدمان ». فالميزابيون اليوم هم إذن أحفاد سكان هذه البادية التي تنسب إليهم وتسمت باسمهم ، بوديانها وهضابها ، وقد كانوا يسكنونها على حياة بدوية قوامها تربية الماشية وقليل من الزراعة الموسمية التي تعتمد على الأمطار . كما كانت تعيش كثير من القبائل البربرية في تلك العهود ، وكانوا ينتقلون فيها على ضفاف الأودية الثلاثة التي تربط باديتهم رباطا يشبه الشبكة ، فلما جاء الإسلام إلى الجزائر أسلم بنو مصعب كما أسلم غيرهم من الناس ، وسبقت إليهم أصول المعتزلة فاعتنقوها ، قليل منهم عن اقتناع وعلم ، والكثير عن تبعية وتقليد .

وبقوا على ذلك (1) إلى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس حين كان أبو عبد الله بن بكر يتنقل بين وادي أريغ ووارجلان بجموعه الهائلة من طلبة العلم كأنها الجيوش الجرارة ، وكان يعتمد لتمويل ذلك العدد الهائل من الطلبة على ما تنتجه

(1) عندما قرأت هذا الفصل على أستاذنا الشيخ عبد الرحمن بكلي حفظه الله قال : «يرجح أنه كان هناك إباضية في العطف قبل مجيء محمد بن بكر من فلول تاهرت ويؤيد هذا أنه توجد مقبرة قديمة يظن أنها لبعض بني رستم» . ولست مقتنعا بهذا الرأي لأن أهل هذه المنطقة كانوا على خصام متواصل مع الدولة الرستمية كما هو معروف وكما قرره القطب رحمه الله فمن المستبعد جدا أن يقصدهم فلول الدولة الرستمية عند نكبتهم لأن تلك الفلول إنما تلتجيء إلى من تثق بالسلامة والأمن معها وهؤلاء ليسوا معها حينئذ على سلام .

تلك الواحات الكريمة من الغلال وما يخصصه أصحابها من مقادير ضخمة للإنفاق على طلاب العلم كما يعتمد على أعداد وافرة من الماشية يتخذ لها رعاة يتخيرهم من أصحاب الدين والأمانة ثم يسلمها إليهم ليتولوا رعايتها وتربيتها وعندما تجدب المراعي بسبب الجفاف في نواحي أجلو وأريغ ووارجلان - وهذه البلاد كانت مضطرب الإمام - يدعو رعاته الى انتجاع بادية بني مصعب وقد يرافقها ليتأنس أصحاب الأرض ويحصل على موافقتهم وقد استطاع في رحلاته تلك أن يتخذ منهم معارف وأصدقاء ، كما استطاع أن يتعرف على كامل تلك البادية تعرفا كاملا ، ويعرف مواطن الخصب من أوديتها وجبالها ، وملاءمة كل جزء منها لأنواع الماشية على مدار السنة ، ولمختلف الفصول .

وفي أوائل القرن الخامس توالى الجفاف على منطقة وارجلان وما جاورها عددا من السنين وزفقر كثبان من الرمال على سدراتة وكانت بعض الأودية - التي تنساب تحت طبقات من الأرض حتى إذا وصلت إلى منطقة سدراتة ووارجلان نبعت على شكل عيون غزيرة المياه - قد تغيرت مجاريها فغارت تلك العيون النابعة منها . فضاقت الحياة بالناس لا سيما أصحاب الماشية . ودرس القوم موقفهم وكان الإمام أبو عبد الله من بينهم فلم يجدوا منتجعا لإنقاذ ماشيتهم غير بادية بني مصعب ، ولإيضاح هذه الصورة يسرني أن أنقل للقاريء الكريم ما قاله شيخ الصحافة الجزائرية الشيخ أبو اليقظان إبراهيم بن عيسى في رسالته «الإباضية في شمال إفريقيا» قال رحمه الله ما يلي :

«بعد فترة حوالي 50 عاما (1) - فيما أظن - من حلول فلول

(1) خرب العبيديون تهرت سنة ٢٩٦ وانتداب أبي عبد الله الى ارتياد بادية بني مصعب يكون في أوائل القرن الخامس فإن أكثر المصادر التاريخية تذكر أن مدينة العطف بدأ تأسيسها سنة 402 ولا شك أن مجيئه إليها كان بعد ذلك .

بني رستم بوارجلان وقعت مجاعة كبيرة في البلاد وأكلت الحرث والنسل ، وأحرقت الحدائق والبساتين حتى قيل إنها غورت أكثر من ألف عين ... الخ الخ .

وهناك التأم جمع من علماء وأعيان البلاد من أهل الرأي والصلاح وفيهم أبو عبد الله محمد بن بكر النفوسي - اجتمعوا في مكان ما - للمداولة في إيجاد حل لهذه الأزمة التي تهدد بخراب البلاد ، وفناء العباد ، إذا بقيت كذلك بدون حل .

وبعد تقليب وجوه الرأي اتفقوا على إيجاد حل للقضية بالبحث عن متسع حيوي يأوي إليه الأجيال الآتية بأنفسهم ودينهم وخلقهم يكون لهم كمأرز للدين والإسلام ، يأوون اليه ، كما تأوي الحية في جحرها عند الخطر . وحيث سبقت للإمام معرفة ببادية بني مصعب اذ كانت رعاة أغنامه ترتاد عين المكان للرعي والكلإ في الربيع كما كانت رعاة الشيخ أبي عمار عبد الكافي ترتاد لرعي أغنامه جبال بني راشد في الشمال ، لأجل ذلك اتفق مؤتمرهم على ما يلي :

أولا : أن ينتدبوا الإمام أبا عبد الله للبحث عن هذه المهمة لخبرته بالمكان ولحكمته لمعالجة طباع أهله الشرسة .

ثانيا : تزويد الوفد بمؤنتهم لستة أشهر على حساب الجماعة .

قام الإمام بالمهمة وإن كانت كلفته خسارة ابنه العزيز ابراهيم إذ قتله السكان الأصليون لشراستهم ، وعداوتهم المزمنة للإباضية ولكن لم يثن ذلك من عزمه لاستصلاح البلاد . فهو بحكمته وصبره ألان من قسوة قلوبهم ، وكبح من جماحهم وشراستهم حتى شرح الله صدرهم للإسلام الحق . فنزل أولا في العطف واتخذها مركزا لعمله ، ومقامه هنالك موجود كتذكار حول ضفة الوادي إلى اليوم.

ثالثا : أن يرافقه خادمه وابنه إبراهيم ـ فيما أظن .

انتهى المقصود من كلام شيخنا .

هكذا قرروا أن يتجهوا إلى بادية بني مصعب فساروا بقطعان لا حصر لها من الإبل والأغنام ، وكان قد أعجفها القحط والجفاف . وحسب الاتفاق الذي عقده أهل الحل والعقدوأهل الماشية من انتداب أبي عبد الله صحبهما الإمام نفسه ورحب به القوم بعد جفاء ، وراق المقام فقد وجد المرعى الخصب لما معه من الأنعام ، والأسماع المرهفة والعقول النيرة لما يلقيه عليهم من دروس فأعجبهم منه الدين القيم والخلق السمح والتواضع الجم ، والعلم الغزير ، والصدر الفسيح الذي لا يضيق ، وتحلق عليه الشباب والشيب فتكونت النواة الأولى لأول قرية ميزابية مستقرة (1) وكانت أخبار أبي عبد الله مع بني مصعب تصل إلى أهل سدراتة ووارجلان تحدثهم عن نجاح الرحلة وعن المدى الذي بلغت إليه الألفة بينهم .وكانوا قد تضرروا وضاقوا من توالي الجفاف وانحباس الغيث ونضوب المياه وزحف الرمال عليهم بفعل رياح الجنوب المستمرة حتى أصبحت الحياة في بعض تلك الأماكن عسيرة أو شبيهة بمستحيلة . ففكر بعضهم في النجاة بماشيته ونفذ فكرته فطابت له النقلة والتحق بهم بعض من لم تكن لهم مواشي ولكنهم يحسنون الزراعة ففتحت لهم أرض الوادي صدرها عندما مدوا إليها أذرعهم القوية ، ووجد أولئك المهاجرون الأول من سدراتة ووارجلان أن المصعبيين قد تأثروا بدروس أبي عبد الله فلانت طباعهم ، وسمحت نفوسهم واتسعت أخلاقهم فاستقبلوا

(1) يقول أستاذنا الشيخ بكلي عبد الرحمن : هناك عدد من القرى في هذا الوادي قبل مجيء محمد بن بكر ، وأن قرية العطف نفسها كانت موجودة قبل مجيئه والذي يبدو من مقارنات أقوال المؤرخين أنه كانت هناك بالفعل بعض المجموعات من المنازل ـ قبل أبي عبد الله ـ لا تبلغ أن تكون قرية وإنما تشبه أن تكون مشاتي لبعض الأسر يأوون إليها عند اشتداد البرد ويرتحلون منها بعد ذلك طوال السنة فهي ليست قرى أو مدنا بالمعنى المتعارف وإنما هي مقار ثابتة لأسر من قبائل بادية .

المهاجرين إليهم بالترحاب والتكريم وامتزجوا بهم الامتزاج الكامل ، وأضافوا إلى حياتهم البدوية نوعا من حياة مستقرة كالتي كانت في سدراتة ووارجلان ووادي أريغ .

وبدأوا يحفرون الآبار ويشتغلون بالزراعة ، ويبنون البيوت ، ويستقرون بأخلاطهم في انسجام ووئام وتعاون ، وتسامع الإباضية في كل مكان بهذا التغير الذي وقع عند بني مصعب وترحيبهم بالإمام وآثار الإمام فيهم فاشتدت الهجرة إليهم من كل الأماكن من سدراتة ووارجلان ووادي أريغ ، ومن الجنوب التونسي ومن جبل نفوسة ومن جميع البلدان أي : من أي مكان يجد فيه الإباضية كيدا بسبب الظغط السياسي ، والضيق العنصري ، أو الاحتياج الاقتصادي .

وكانت الهجرة غالبا ما تتم إلى وارجلان لشهرتها عند الإباضية في ذلك الحين ومنها ينتقلون إلى إخوانهم في بني مصعب .

اعتنق بنو مصعب المذهب الإباضي على يد الإمام أبي عبد الله في أوائل القرن الخامس وورد إليهم كثير من إخوانهم من البلدان الأخرى لا سيما واحات الجنوب الشرقي من الجزائر والجنوب الغربي من تونس وعائلات من المغرب ومن بعض المدن المختلفة في الجزائر كقسنطينة وبسكرة ومن جربة والجبل . وانصهرأولئك في مختلف البلاد والجهات ومن ضمنهم بعض الرستميين الذين كانوا في سدراتة من السكان الأصليين أي (بني مصعب) وذابوا فيهم وتكون من الجميع شعب ذو سمات وخصائص واضحة فيه غير متكاملة في غيره .

ومنذ بدأ يتكون تكونه الجديد من حيث اعتناق المذهب واستيعابه للمهاجرين الجدد بدأ يتجه ـ بعناصره المختلفة ـ إلى تغيير جذري في حياته الاقتصادية . وبعد أن كان شعبا يعيش

عيشة البداة ينتقل بين المراعي ، صار شعبا زراعيا مستقرا يبني الحياة الكريمة في مدن كريمة معتمدا على استغلال خيرات الأرض بكل ما يملك من علم وجهد . ولما تغيرت ظروف الحياة ، وأصبحت الزراعة وحدها لا تكفي لبناء اقتصاد سليم ، غير ميدان كفاحه الاقتصادي فانطلق وراء التجارة (1) وبلغ فيها ما لم يبلغه غيره من جيرانه . وفي هذا العصر لما بدأت الحياة تتغير ، وموازين الاقتصاد تتحول ، بدأ هذا الشعب يتجه في اقتصاده اتجاها جديدا . وأصبح لا يقتصر اعتماده على التجارة كما كان من قبل وإنما صار يعتمد على الصناعة ويعود إلى الزراعة ... الزراعة الواعية - من جديد - حتى يتمكن من بناء اقتصاده على أساس ثابت مدروس قد خطط له عن علم وخبرة ودراية . وبعد كل هذا فأحسب أنه من الخطإ أن نقول أن الميزابيين هم بقايا الرستميين هاجروا من تاهرت إلى سدراتة ثم إلى الوادي على تلك الصورة المتميزة التي صورها الأستاذ علي دبوز كما أنه من الخطإ أن نقول إنهم قوم من قبيلة نفوسة جاءوا تحت قيادة يعقوب بن أفلح إلى وادي (مية) جنوب وارجلان ولنشاطهم كوّنوا هناك بلادا خصبة فتخوف منهم أو حسدهم بنو وارجلان فأجلوهم عن تلك البلاد فالتحقوا بوادي ميزاب فتكون منهم هذا الشعب الذي نتحدث عنه . وهاتان الصورتان كما ترى يلعب فيهما الخيال دورا هاما ، ويكفي أن تعلم أن يعقوب عندما هاجر من تاهرت لم يهاجر برسم قيادة ، وإنما هاجر خائفا فارا بأهله أو بعض أقاربه . وكتب التاريخ حين تصف هجرته تعبر بدقة عن تلك الحالة . وأكثر كتب التاريخ تذكر أبا يعقوب عند فراره من تاهرت والتجائه إلى وارجلان وكانت فرق من الجيش العبيدي تطارده كان يقف لها وحده يشاغلها حتى يبتعد رفاقه ثم يلتحق برفاقه فإذا لاحقتهم فرق

(1) تولدت عن ممارسة التجارة في ديار الغربة مشاكل اجتماعية اتخذت لها حلول لم تعرف لأي شعب غيره سوف نعرض لها بإيجاز في فصل خاص .

جيش العبيديين اعترضها منفردا وشاغلها حتى يبتعد صحبه حتى نجوا . فلو كانت الصورة كما رسمها الأستاذ الكعاك (قوم من نفوسة جاءوا تحت قياد يعقوب) لما اضطر أن يشاغل العدو وحده طول الطريق ولكان من الحكمة أن يساعده بعضهم على الأقل ليكونوا أرهب في عين العدو .

على أن العبارة الدقيقة التي حددت المعنى قد تكررت عند الدرجيني على صور فتأملها فيما يلي : «ثم إن يعقوب ابن الإمام وابنة أخيه دوسرا (1) خرجا في خفاء إلى جهة حتى نزلاها» ويقول في مكان ثان : «وخرجوا في خفاء خوفا مما ينالهم من عدوهم» ويقول في مكان آخر : «فأقبل بمن معه من أهله حتى نزل وارجلان» . أضف إلى كل هذا ما جاء في الكتاب نفسه في موضع آخر : «قال لأصحابه إنكم لا يجتمع منكم ثلاثة نفر إلا كان عليهم الطلب . افترقوا» .

أظن أن هذا ينسف كل الصور التي كانت ترسمها بعض الأقلام بأن مجموعات كبيرة إما من الرستميين أو نفوسة بقيادة يعقوب قصدت وارجلان ثم استوطنت سدراتة إلى آخر الصورة السابقة ويتضح منها جميعا أن إباضية تاهرت عندما احتلها أبو عبد الله الحجاني وارتكب فيها الأفاعيل فر من نجا منهم إلى أي مكان يظن فيهالنجاة أو الحماية دون توجيه من أحد أو قيادة أو تنظيم وأن يعقوب بن أفلح اتجه بأهله وابنة أخيه إلى وارجلان فلما رأى أن بعض الفلول تنضم إليه خاف أن يكون في ثقل يتعثر في تنقله ويعجز هو عن الإسراع به إلى مكان النجاة وهو في حالته تلك لا

(1)تقول كتب التاريخ أن دوسرا هي إحدى بنات الإمام أبي حاتم وكانت من الجمال بمرتبة عالية فلما اغتال أبناء اليقظان أباها صممت على الأخذ بثأره مهما كانت الظروف فذهبت مع أخ لها الى الحجاني وطلبت منه الانتقام من اليقظان ووعدته إن فعل أن تتزوج به فلما فعل خافت أن يطالبها بوعدها ففرت مع عمها يعقوب وبحث عنها الحجاني بالحاح فلم يقع لها على أثر .

يستطيع حمايته فأمرهم بالتفرق وفعلا تفرقوا عنه فلم يكن معه عندما بلغ إلى وارجلان أحد غير أهله كما نص على ذلك أبو العباس الدرجيني بقوله فيما نقلناه عنه سابقا وتأمل إن شئت قوله : «فأقبل بمن معه من أهله حتى نزل وارجلان » .

ومعنى هذا أن بقية الإباضية الذين نجوا من القتل في تاهرت قد تفرقوا إلى جهات مختلفة بعضهم بوارجلان في مجموعات كبيرة أو صغيرة قبل أو بعد يعقوب بن أفلح ولعل بعضهم نزل مدنا أخرى أو جهات أخرى ثم بدا له فاتجه إلى وارجلان ، هذه كلها احتمالات لا نستطيع إثباتها ولا دفعها .

وأحسب أننا ننتهي من هذا الحديث الذي طال أكثر مما ينبغي له إلى أن الميزابيين هم السكان الأصليون والمالكون الحقيقيون لبادية بني مصعب بما فيها من هضاب ووديان وسهول ، وبما يرعى عليها من ضباب وظباء ووعول . فاذا كانت قد وردت عليهم طوائف من الناس ، أفرادا أو أسرا ، طلبا للحياة الكريمة ، أو فرارا من الظلم أو الإضطهاد ، فان تلك الطوائف قد دخلت بينهم ، وانصهرت فيهم وذابت في مجموعهم . ولا يغير من هذه الحقيقة أن بعض تلك الطوائف أو الأسر أو الأفراد لا يزالون يذكرون مواطن أجدادهم التي هاجروا منها . أو أنهم لا يزالون يحتفظون بأسمائهم وألقابهم قبل أن يستوطنوا هذه البلاد الكريمة .

ومهما راجعت المصادر التي بين يدي ، وفكرت في أصل الميزابيين فلست أؤيد أبدا أولئك الذين يقولون إن الميزابيين هم بقايا تاهرت بعد أن خربها العبيديون هاجروا إلى سدراتة ، وبقوا فيها متميزين عن غيرهم ثم إنهم هاجروا إلى وادي ميزاب فتكون منهم هذا الشعب الذي نتحدث اليوم عنه في اعتزاز لمحافظته على نقاء الإسلام ولسيره على منهج المسلمين في خير القرون . لا لانحداره من دماء ملكية، ولا لانتسابه إلى ارتفاعات طبقية وكل

ما يقال في هذا الموضوع إن بقايا تاهرت من الرستميين - وهم قليلون جدا - وغيرهم هاجر بعضهم تحت ضغط عوامل اقتصادية محضة في أزمنة متفاوتة إلى بني مصعب فكانوا ضمن العناصر التي انصهرت وذابت فيهم وتكون منهم جميعا هذا الشعب الذي كان يسمى إلى مدى قريب «بني مصعب» وأصبح اليوم يسمى بني ميزاب وهكذا انتبهت لتلك الصورة التي وضعها الأستاذ محمد علي دبوز في قوله : «كان الميزابيون إلى آخر القرن الثالث الهجري في شمال الجزائر وفي نواح أخرى من المغرب الأدنى والأقصى فهم الذين أنشأوا في الجزائر أول دولة اسلامية مستقلة» . ثم يستمر في رسم الصورة فيهاجر بهم إلى وارجلان ثم إلى سدراتة ثم إلى وادي ميزاب ، ولعل الممحاة التي تمسح ظلال هذه الصورة ولا تترك منها إلا الوقائع الحقيقية هي قول محمد علي دبوز نفسه في نفس الكتاب ص 159 :

«وكانت هذه النواحي الميزابية وطنا لقوم من زناتة القبيلة البربرية المشهورة استوطنوه منذ زمن بعيد فنسب إليهم ، وكان هؤلاء الزناتيون منبثين في مكان المدن الخمس ، قد نصبوا فيها خيامهم وبنوا في نواحيه بعض قرى بسيطة يسكنونها ومن تلك القرى العطف التي لا تزال فيها آثارهم إلي اليوم . وكان هؤلاء الزناتيون على مذهب المعتزلة» . وبعد سطور يقول : «فاندمجوا في إخوانهم الميزابيين الذين هاجروا إليهم وامتزجوا بهم وصاروا شعبا واحدا تربط بينهم الدماء الممتزجة ودين الله القويم » .

ويبقى لنا هنا سؤال معلق يحتاج إلي جواب وهو اسم (الميزابيين) هل هو اسم لمجموعة من الناس كانوا معروفين به في شمال الجزائر ثم هاجروا - وهم به محتفظون - إلى وارجلان وسدراتة ثم انتقلوا به إلى أودية زناتة فانصهروا مع سكانها وغلب اسمهم على الجميع فسموا به كما يظهر مما ذكره محمد علي دبوز .

أم أن أولئك المهاجرين من شمال الجزائر ومن غيره إنما جاءوا يحملون أسماء أسرهم وأطلق عليهم الأكثر وأنهم عندما دخلوا هذه المنطقة انصهروا في سكانها وقبائلهم على اسمها على ما أوضحناه في أول هذا الفصل .

أما أنا فأحسب أن الميزابيين لم يعرفهم الشمال الا في هذه العصور المتأخرة عندما انفتحت أبواب التجارة لسكان بادية بني مصعب فانطلقوا إلى أغلب مدن الشمال حيث تحكمت أصابعهم المرنة في أغلب المقاييس والموازين والمكاييل .

ملاحظة

بعد الإنتهاء من كتابة هذا الفصل بسنوات اطلعت على جواب الاستاذ الفاضل الإمام بيوض ابراهيم أجاب فيه عن سؤال وجه إليه عن حقيقة النسبة إلى ميزاب وما ذا تعني هذه الكلمة وقد حلل الموضوع تحليلا كافيا في إيجاز بليغ . وعندما اطلعت عليه خطر لي في باديء الأمر أن أنشره في هذا المكان مستغنيا به عن هذا الفصل ثم عدلت عن هذا الرأي وقررت أن أنشره بنصه بعد هذا الفصل حرصا على فائدة القاريء .

من هم بنو ميزاب (1)

تسألون عن انتساب إباضية القطر الجزائري الى ميزاب ، وهل النسبة إلى جد ، او إمام ، أو مذهب ، أو كرامة ، أو وطن ، وتطلبون شرح هذا وتفصيله ... الجواب :

مما نحفظه وطالعناه وتحققناه قديما اذ ليس لنا سعة من الوقت للمراجعة والبحث .

إن النسبة إلى الوطن والوادي وليس في كلمة (ميزاب) ما يمت بنسب أو سبب إلى إمام ، أو كرامة ، أو جد ، أو مذهب ، أو وطن . فدونكم البيان : تعرف هذه الجبال المحيطة بقرى ميزاب في التاريخ بجبال (بني مصعب) ويعرف الوادي الذي عمرت عليه القرى بوادي «مصاب» في التاريخ وبهذا أسماه المؤرخ الشهير ابن خلدون ، ومصعب ومصاب واحد فيما ترى . وإنما الفرق بين نطق العرب والبربر ، وإفريقيا بعد حملة بني هلال - كما تعلمون - أو بعد الفتح الإسلامي على الأصح عمرت بالعرب الذين زاحموا البربر الأصليين في كل بقعة من أرض افريقيا ، ومن البربر من لا يستطيع النطق بالعين محققة ، وإنما ينطق بها همزة وقد يسهلها إلى الألف . فإذا قال العربي مصعب قال البربري مصأب ولكم على هذا أدلة قاطعة من نطق الأعاجم لهذا الحرف ولغيره من حروف الحلق . وحتى الكتابة فإن حرف العين ساقط عندهم . فلا يكتبون مسعد اليوم إلا مسأد . ثم أن تقازب مخارج الصاد والزاي والضاد من جهة ، وتعدد اللهجات والألسنة من جهة أخرى ، وتقادم العهد من جهة ثالثة ، وكتابة المؤرخين للأسماء بحسب اللهجات التي نقلوا عنها ، وفيهم العربي والبربري والإفرنجي من جهة رابعة

(1) هذا جواب أستاذنا الفاضل ابراهيم بيوض مد الله في عمره ومتعه بالصحة والعافية لبعض من سأله عن الموضوع .

أوجبت اختلاف اللغات في النطق لهذا الحرف فقالوا ميزاب - مزاب - مضاب - مصاب - مصعب - . وأصل الكلمة واحد غير متعدد ، هو اسم لهذا الوادي وللجبال المحيطة به ، وتستطيعون أن تجدوا لهذا عشرات من أمثلة في أسماء المدن والأدوية والجبال والأشخاص . إذا كتبت بأصل عربي كتبت بصيغة ، وإذا نقلت عن أصل إفرنجي كتبت بصيغة أخرى حتى تستغلق ولا تفهم في كثير من الأحيان ، وحتى تنقطع الصلة بينها وبين أصلها وقد حضرتني عشرات وعشرات من أمثلة لولا ضيق الوقت لذكرتها . وخذوا على سبيل المثال اسم مدينة (وهران) إذا نقلت عن الفرنسية كانت (أوران) و (تيارت) كان في القديم (تاهرت) ثم حرفت الى (تيهرت) ولا يستطيع الإفرنجي أن ينطق بهذا الحرف إلا (تيارت) إذ يضطر إلى قلب الهاء همزة مسهلة بعد ياء ، وكثيرا ما انتقد العلماء على بعض كتاب الشرق الذين يجهلون كثيرا من المدن الإسلامية والأقطار العربية ، فاذا كتبوا عنها نقلوا أسماءها عن مؤرخي الأوروبيين فجاءت محرفة لا تدل على مسماها .

وليس للإباضية جد ولا إمام مسمى بهذا حتى تكون النسبة إليه . وأما دلالة لفظ(ميزابي) اليوم على (إباضي) فإنما جاءت من كون الذين عمروا هذا الوطن من زمن قديم إباضية المذهب . ولم يزالوا هم الأغلبية الساحقة فيه إلى الآن ، وحكام الوطن منهم وأموره بأيديهم فأصبحت كلمة (ميزابي) مرادفة في العرف العام لكلمة (إباضي) ونظير ذلك كلمة فارسي اليوم فإنها كادت تكون مرادفة لكلمة شيعي لأن مذهب الفرس التشيع . وقديما كانت كلمة المغربي ترادف كلمة «مالكي» لغلبة مذهب مالك على المغرب .

نعم ان بعضا يزعم أن كلمة (ميزابي) نسبة إلى ميزاب الرحمة في الكعبة الذي قطرت منه قطرات ماء في يوم مشرق الشمس

سماؤه صافية الأديم ليس فيها قزعة سحاب ، على أحد أئمة الإباضية أبي بلال مرداس استجابة لدعوته ، وأمارة على هداه ، وصدق وعده ، في قصة مشهورة .

والخبر إن كان صحيحا في نفسه لعدالة رواته وثقتهم ونزاهتهم عن الكذب لكن دعوى نسبة (ميزابي) إليه باطلة قطعا فإنها لم تعرف في القديم ، ولو كانت صحيحة لكان أولى الناس بها إباضية المشرق ، وإباضية الصدر الأول ، وما نعرف أن إباضية عمان والبحرين واليمن وزنجبار والجبل وجربة ووادي أريغ ، ووارجلان انتسبوا لهذا قط ، فالدعوى باطلة .

هذا ما حضرني للجواب عن سؤالكم وأرجو أني وفقت فيه وأذكر أن الشيخ اطفيش رحمه الله قد تكلم في التسمية كثيرا ولكني لا أذكر الآن موضوعه .

العهود التاريخية لبني مصعب

أحسب أنني أوضحت - بما فيه الكفاية - في الفصول السابقة أن الكلمات :وادي ميزاب ، أرض الشبكة ، بادية بني مصعب . هي أسماء مترادفة لإقليم واحد ، كان يسكنه في مبدإ الفتح الإسلامي شعب يسمى بني مصعب ثم هاجر إلى هذا الإقليم - في مختلف أدوار التاريخ الإسلامي - أعداد من الناس اندمجوا به ، وانصهروا فيه ، وتكون منهم جميعا شعب كريم عزيز أصبح يسمى الشعب الميزابي أو بني ميزاب .

إن كلمة بني مصعب تحرفت إلى كلمة بني مصأب ، بقلب حرف العين الحلقية إلى همز ، ثم جرى تسهيل الهمز فقيل مصاب ، ثم تحرفت الصاد الى ضاد لقرب المخارج ثم بعد ذلك أصبح الضاد ينطق زايا لقرب المخارج ولخفتها ، والقاريء الكريم إذا تصفح كتب التاريخ والسير بل وكتب الفقه يجد أن بعضها تستعمل كلمة بني مصعب أو مصاب أو مضاب . ولا تستعمل ميزاب أو مُزاب إلا في هذه العصور المتأخرة ، وأنها حين تنسب إليه تقول المصعبي .

وبناء على هذه الحقيقة فان الشعب الميزابي الكريم هو الشعب الذي تكون من بني مصعب ومن انضم إليهم وانصهر فيهم منذ الفتح الإسلامي حتى الآن .

فإذا أردنا أن نتحدث عن تاريخ هذا الشعب في المدى الممتد بين الفتح الإسلامي والعصر الحاضر . فإننا نستطيع أن نقسمه إلى ثلاثة عهود متميزة بعضها عن بعض . وأن كل عهد من تلك العهود يشتمل على عدد من الفترات التاريخية التي تربط بينها روابط من الخصائص الاقتصادية والاجتماعية والحركات العمرانية.والنشاطات

العلمية والثقافية والسمات الدينية والسلوكية ، وإن كانت تفصل بينها أحداث سياسية ، أو مظاهر اجتماعية فصلا غير سميك .

ولعلي في هذا الفصل أستطيع أن أعرض - بإيجاز - صورا لكل عهد من تلك العهود بما يتميز به من مظاهر وظواهر تجعله يكون وحدة زمنية واضحة المعالم في عباب التاريخ الطويل .

العهد الأول

العهد الأول لبني مصعب في التاريخ الإسلامي يبتديء من الفتح الإسلامي لتلك المنطقة فيما بين سنة خمسين وستين للهجرة تقريبا ، ويمتد إلى نهاية القرن الرابع أو بعده بقليل حين ورود أبي عبد الله إلى تلك المنطقة والبدء في تطبيق نظام العزابة . ويمتاز هذا العهد بأن سكان أرض الشبكة قد اعتنقوا الإسلام ببساطة ، ثم سبقت إليهم آراء المعتزلة في الأصول والفروع فأخذوا بها ، وطبقوها على أنفسهم في حرص شديد ، وحافظوا على نظام حياتهم كشعب يعتمد على تربية المواشي بالدرجة الاولى ، وعلى الزراعة الموسمية بالدرجة الثانية . وربما كانت المرأة عندهم تشتغل بصناعة الفليجة (1) كما هي عادة أغلب نساء البادية وحاولوا أن يحتفظوا بما عندهم وأن ينعزلوا عن غيرهم ، محافظة على شخصيتهم الخاصة في دينها وخلقها وتفكيرها واقتصادها ، وهم يدافعون بحماس شديد كل من يخشون منه التأثير على اقتصادهم أو حرية مواطنهم المترامية . أو على آرائهم الدينية ويمكن لنا أن نقسم هذا العهد إلى ثلاث فترات قصيرة متقاربة متشابهة في أغلب الأشياء متخالفة في أخرى .

1 ـ **الفترة الأولى :** تمتد هذه الفترة نحو قرن من الزمان أي من الفتح الإسلامي في الستينات تقريبا إلى تكون الدولة الرستيمة سنة 160 هـ تقريبا وقد كان المصعبيون سكان ارض الشبكة في هذه الفترة ، قد آمنوا بالاسلام وتقبلوه ، واطمأنوا إليه واستمسكوا به في حرص شديد ، ومع أن هذه الفترة كانت فترة مد وجزر

(1) الفليجة هي شقة الخباء ، والاخبية أو بيوت الشعر مصنوعة من عدد من الفلائج والفلائج تصنع من شعر الماعز مخلوطا بوبر الإبل والبدويات غالبا ماهرات في الصناعات المتخذة من الشعر والوبر ، أما الصوف فلا يهتممن به ولا يجدن صنعه ولذلك فهو يجلب إلى أسواق الحضر فيباع فيه .

بالنسبة للفتوح الإسلامية في المغرب الإسلامي الكبير ، وكانت فترة حروب بين المسلمين الفاتحين وبين غيرهم من أصحاب الديانات الباطلة أو المرتدين ممن أسلموا قبل ذلك . إلا أن هذه الأحوال لم يرد لها ذكر في أرض الشبكة أو بادية بني مصعب مما يدل أن سكان تلك المنطقة حين آمنوا بالاسلام ، قد اقتنعوا به واستقر في قلوبهم فلم تجتذبهم الدعاية المضادة له ، ولم تؤثر عليهم مساعي طلاب الزعامة فلم يشاركوا البلاد المجاورة لهم فيما يصدر عنهم من شغب ، ولم يستجيبوا لطلاب الزعامة فيما يحدثونه من قلاقل واضطرابات . وفي أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني من الهجرة بدأت تتكون الآراء المذهبية ويتميز بعضها عن بعض ، وبدأ يحتدم حولها النقاش والجدل ، وبدأت تنشأ المذاهب الكلامية والفقهية ، وكان حملة الآراء والعقائد لا يقلون نشاطا عن زعماء السياسة فكانوا يجوبون البلاد يدعون الناس الى ما يرون ويعتقدون ، وكان المعتزلة من أشد فرق المسلمين نشاطا وأكثرهم حركة فسبقت آراؤهم الى هذه المنطقة فتقبلها أهلها واعتنقوها بعضهم عن اقتناع ، وبعضهم عن تقليد . وكانوا متأثرين بالحركة العامة للمعتزلة الذين كانوا منتشرين في ذلك الحين في أغلب القطر الجزائري ، وكانوا يصاولون ـ في قوة وعنف ـ غيرهم من المذاهب الأخرى . غير أن الموقف لا سيما عند بني مصعب لم يخرج عن مجال الكلمة والدعوة ، فاستمرت حياتهم هادئة في كامل هذه الفترة .

2 ـ **الفترة الثانية :** تمتد هذه الفترة قرابة قرن ونصف إذ تبتديء بعد منتصف القرن الثاني وتستمر إلى نهاية القرن الثالث وذلك أن المعتزلة عموما وأهل هذه البادية من أتباعهم ، قد رأوا أن للمذاهب الإسلامية الأخرى التي تخالفهم في الأصول والفروع دعاة لهم في الحركات والنشاط ما جمع عليهم أعدادا كبيرة من الأتباع . وأنهم بدأوا يكونون لأنفسهم دولا ، ويركزون مذاهبهم على حكم

وسلطان وأن البعض الآخر منها بصدد التكوين .وبدا لهم أن تلك الدول تبحث على السلطة وأنها قد تحاول السيطرة على بعض البلاد وتعمل للتحكم فيها فكتلوا أنفسهم ، وتحفزوا للعمل ، واستعدوا للدفاع ، أو حتى للهجوم اذا اقتضى الأمر . ونشأت بالفعل من حولهم ثلاث دول قوية لم يكن لإحداها علاقة بالمعتزلة . فقد نشأت الدولة الرستمية سنة 160 هـ ونشأت الدولة الادريسية سنة 172 هـ . ونشأت الدولة الأغلبية سنة 184 هـ . وكان لكل دولة من هذه الدول نفوذ على بعض جهات الجزائر . ورغم أن المعتزلة في هذه الفترة بالذات كانوا على أشد ما يكونون من الانتشار في الجزائر وعلى أشد ما يكونون من الدعوة لمذهبهم إلا أنهم لم يتمكنوا أن يتغلبوا على جهة أو يستقلوا بها فلم تنشأ لهم هنا دولة . واستمروا في صراعهم مع المذاهب الأخرى باللسان وأحيانا بالسنان ، ولما كان معتزلة هذه البادية مرتبطين مذهبيا مع الأعداد الوفيرة من المعتزلة الذين يحيطون بالدولة الرستمية والذين كانت علاقاتهم تتراوح بين الجدل في المجامع والمساجد وبين القتال والحرب في ميادين النضال تبعا لإحساس المعتزلة أنفسهم بما هم عليه من قوة وضعف . وكان لهذا الموقف لمعتزلة الشمال أثره البالغ على سكان بادية بني مصعب ، وذلك أن إخوتهم في المذهب من أهل الشمال لا يفتأون يحذرونهم من أن المذهب الإباضي يكاد يعم المنطقة ، وأن دعاته لا يلبثون أن يدخلوا بين صفوفهم .

ونتيجة للمخاوف التي كان يصورها دعاة المعتزلة تحذيرا من الاباضية ومن الدولة الرستمية بالذات . فقد تكون رد فعل عنيف عند بني مصعب ، واستعداد قوي لمجابهة هذا المذهب وأصحابه ، ومحاربة أتباعه ودولتهم إن اقتضى الأمر .

وكما تتكون آراء الشعوب ـ دائما ـ في الاندفاعات الأولى حسب أهواء الزعماء والقادة والدعاة . وكما يصورون لهم غيرهم من

الشعوب وما هم عليه من الآراء والمباديء ، وكما يلقون في روعهم أن مخالفيهم معادون لهم ومضادون أو مزاحمون ، دون معرفة حقيقية أو تجربة واقعية ، فقد استقر في أذهان بني مصعب ـ وهم معتزلة ـ أن الإباضية ـ وهم مخالفون في المذهب ـ أعداء لهم وخصوم ، وأنه يجب الاحتراز منهم ، والبعد عنهم ومحاربتهم إذا دعت الدواعي . وعندما كانت تقع المناوشات بين معتزلة الشمال والدولة الرستمية كان بنو مصعب يحسون بالخطر ، ويقفون على أهبة الدفاع ، وقد يذهبون لنجدة إخوانهم بما يتيسر لهم من مساعدة مادية أو معنوية (1)

ومضت هذه الفترة كاملة على المعتزلة عموما وعلى بني مصعب خصوصا وهم إما في محاربة فعلية مع بعض الدول القائمة وإما في استعداد أو توقع لحرب . ويبدو مما يفهم من النتف القليلة التي وردت على ألسنة بعض المؤرخين أن مواقف بني مصعب كانت في أغلبها موجهة ضد الدولة الرستمية ، فهم لا يخشون غيرها ولا يهتمون بسواها ولا يطمعون ـ حسبما يلقى إليهم ويصور لهم ـ في غير احتلال مكانها والسيادة بدلها ولذلك فهم معها على عداء مستمر . إما قتال ، وإما مناصرة لمن يحاربها ، وينقم عليها ، ومساعدة له ولو بالمال والرأي . وإما تحفز واستعداد ، فعاشوا قرنا ونصف قرن في قلق واضطراب وحرب أعصاب .

وأثر هذا الموقف التحفزي عليهم تأثيرا كبيرا . فتضاءل اهتمامهم بالجانب العلمي ، واختفت من مجتمعاتهم تلك المجالس الصاخبة التي يثور فيها الجدل ويكثر الأخذ والرد في بعض مسائل العقائد وتناقص عدد العلماء وطلبة العلم . وأصبحت العلوم

(1) قال القطب رحمه الله في رسالته صفحة 38 ما يلي «وليس أهل هؤلاء القرى إباضية من أول ، بل كانوا معتزلة يسافرون إلى تيهرت لقتال الاباضية وكانت المعتزلة أقوياء في هذا المغرب» .

الدينية عندهم ـ سواء في أُصول الفقه وفروعه ـ عبارة عن معلومات محفوظة حفظا لفظيا تنقل جافة على صورة ميتة ، فيها كثير من التحريف والتشويه ، وفي نهاية الفترة ضعف فيهم الاهتمام العلمي والحرص على الثقافة ولم يبق لهم إلا كيان اقتصادي يبنى على تربية الماشية والزراعة الموسمية فرجعوا إلى حياة بدوية تختفي منها جميع صور الحضارة .

ويبدو أن الصراع الحاد الذي عاش عليه المعتزلة طيلة هذه الفترة قد أثر عليهم عموما فتضاءلت مواقفهم في جميع أنحاء المغرب الإسلامي ولم يعد لهم وجود ملموس .

وفي نهاية هذه الفترة قد انقرضت الدول الثلاث التي أشرنا إليها سابقا فقد اكتسحتها جميعا الدولة العبيدية في نهاية القرن الثالث الهجري . واختفى أيضا الوجود الظاهري لفرق المعتزلة كالواصلية التي كادت أن تكتسح في مبدإ أمرها بعض دول الجزائر عقائديا وعسكريا وحتى حسبت لها الدولة الرستمية كل حساب ، فاستنجدت استعدادا للمجابهة واللقاء على ميدان الجدال أو ميدان القتال ، بعلماء وفرسان جبل نفوسة .

وهكذا تنتهي الفترة الثانية ببني مصعب بدورة حول أنفسهم وترجع بهم إلى مبدإ الحياة التي كانوا عليها عندما بلغهم الإسلام ما عدا أنهم الآن في نهاية الفترة يتشرفون بالاسلام وينتمون إلى خير أُمة أُخرجت للناس .

3 ـ الفترة الثالثة : تمتد هذه الفترة نحو قرن من الزمان أي من أواخر القرن الثالث عند انقراض الدولة الرستمية إلى أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس عند دخول أبي عبد الله بن بكر إلى بادية بني مصعب .

في أول هذه الفترة قد اختفت الدولة الرستمية التي كان بنو

مصعب يناصبونها العداء كما اختفت الدول المجاورة لها في نفس الفترة ، وخضع الشمال كله بما فيه من مباديء ومفارقات ودول لسلطة واحدة هي سلطة الدولة العبيدية وبذلك بدا لبني مصعب أن الشمال قد انفصل عن الجنوب انفصالا كاملا فأصبح معتزلة الشمال وإباضيتهم خاضعين لحكم واحد هو حكم الدولة الفاطمية وانعدم الرباط الذي كان يربط الشمال بالجنوب . أما إباضية الجنوب فأصبحوا هم الآخرون في مستوى معتزلته لا تحميهم دولة ولا يلوذون بسلطان .

فنزعوا إلى موادعة الإباضية ، وأمنوا في حياتهم واطمأنوا وانطفأت حرارتهم ، وفقدوا في نفوسهم دوافع الحرب للدفاع أو للهجوم وتركوا الاستعداد والإعداد له ، ومالوا إلى حياة بدوية مستقرة .

ولعل أهم ما تمتاز به هذه الفترة الثالثة من حياة الميزابيين الذين لا يزالون إلى ذلك الحين مصعبيين على مذهب المعتزلة إنما هو الإطمئنان والاستقرار والهدوء والحياة الرتيبة والانصراف عن مجالس العلم والحرب ، إلى تربية الماشية ورعايتها في البادية الفسيحة وأوديتها الطويلة المتعرجة الخصبة . وإلى تكوين علاقات جديدة ـ وان كانت محدودة ـ مع مجاوريهم من المناطق الأُخرى فيما تقتضيه طبيعة تربية الماشية من ضرورة تتبع مواقع الغيث هنا وهناك ، ولا شك أن الأمطار قد تجود في باديتهم وتقل عند جيرانهم فيضطر أُولئك الجيران أن يلتمسوا عندهم المرعى بأُسلوب من الأساليب وقد تنعكس القضية فيجدبون وتخصب بلاد جيرانهم فيضطرونهم إلى التماس المرعى عند أُولئك الجيران بطريقة من الطرق ، ولعل مما سهل ذلك عليهم أن جيرانهم من أصحاب الوادي والواحات قد بقوا غير تابعين لدولة من الدول فهم يعيشون في نفس الظروف السياسية فلم يكن أحد منهم يخشى الآخر . أو

يتوقع غزوه ، فانصرف كل منهم إلى حياته الخاصة يعالجها على حسب ما اعتاد وعرف من وسائل الحياة .

ولما كانت بادية بني مصعب فسيحة ، وكانت أوديتها خصبة صالحة للمرعى في معظم شهور السنة وكانت الأمطار في أغلب السنوات إما أن تنزل عليها كلها فتخصب أو تنزل على بعض جهاتها ، أو على أقل تقدير على رؤوس أوديتها فتسيل وتتكون فيها المراعي فإن بعض جيرانها لا سيما من الجهات الغربية وأصحاب الواحات كانوا يحتاجون إليها أكثر مما تحتاج هي إليهم ، فكانوا ينتجعونها في مواسم الخصب ويعودون إلى مواطنهم . وكان هذا الإتصال بينهم تعارفا وتعاونا في بعض الأحيان كما يسبب شغبا ونزاعا في أحيان أخرى تبعا لاتساع الخصب والجدب ، وكثرة الأمطار وقلتها في هذه الجهة أو تلك .

وفي أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس كان محمد بن بكر بنظامه الإجتماعي الفريد ، وتلاميذه الكثيرين ، ومدرسته المنتقلة ، ومواشيه الوافرة ، ينتقل بين أودية أجلو وأريغ ووارجلان ، وكان أحيانا ينتجع بادية بني مصعب ، فيصيب منها ويعود ، فتكونت بينه وبين بني مصعب معرفة لم تلبث أن تطورت حتى دفعته سنوات الجفاف إلى الإنتقال إليهم ، والسكنى بينهم في مدينة العطف التي يرجح أكثر المؤرخين أنها تأسست سنة 402 ، ويرى بعضهم أن نواة المدينة كانت موجودة قبل حضوره وإنما جعلها مستقرا له في المدة التي بقي هناك وتجمع السكان فيها وفيما حولها وكانت - حقيقة - هي النواة لهذه الحضارة الرائعة القائمة اليوم في وادي ميزاب .

بهذا الحديث تنتهي الفترة الثالثة وينتهي معها العهد الأول من حياة بني مصعب في التاريخ الإسلامي ، ويبتديء العهد الثاني من تاريخ هذاالشعب الكريم .

العهد الثاني

العهد الثاني لحياة بني مصعب في التاريخ الإسلامي يمتد نحو أربعة قرون فهو يبتديء من أوائل القرن الخامس بعد استقرار نظام العزابة به . وبنائه المدن الثلاثة ، وينتهي في أواخر القرن الثاني بعد الإنتهاء من بناء مدينتي مليكة وبني يزقن والتفكير في الإنبعاث .

ولعل أبرز سمات هذا العهد عند سكان بادية بني مصعب أنهم تحولوا عن آراء المعتزلة واعتنقوا المذهب الإباضي ، ثم إن أخلاقهم البدوية الجافة الخشنة بدأت تلين وتكتسي نوعا من اللطف والرقة . وأنهم صاروا يفكرون عمليا في تغيير حياتهم من النسق البدوي القلق المتغير إلى النسق التحضري المستقر المقيم . فجعلوا يتجمعون في مدن أو قرى كبيرة ويحفرون متعاونين - آبارا عميقة لإقامة زراعة مستمرة تعتمد على الري الدائم . ثم أصبحوا يرحبون بمن يهاجر إليهم ، فيستقبلونهم بكرم ، ويفتحون لهم صدورهم ، ويفتحون لهم أبواب الحياة الكريمة بينهم . ويستفيدون هم من خبرات أولئك القادمين من بلاد مختلفة في المجالات المختلفة لوسائل الحياة . ولا سيما في مجال الزراعة الثابتة المستديمة .

وهكذا استمر هذا الشعب الكريم طيلة هذا العهد في كفاح متواصل من أجل الاستقرار والتحضر ، ودأب أبناؤه على البناء أربعة قرون كاملة لا يفترون ولا يتوقفون وإن كان اتجاههم في الفترة الأخيرة من هذا العهد قد انصرف إلى جانب مادي غالبا - ربما كان الاهتمام فيه بالمحافظة على الموجود أكثر من الاهتمام بمزيد من التقدم نظرا إلى الأوضاع القاسية المحيطة بهم والتي كانوا ينظرون إليها في حذر وخوف وترقب .

وفي الإمكان تقسيم هذا العهد الى ثلاث فترات تتميز كل

واحدة منها بظواهر وخصائص أوضح مما في الأُخرى وإن كانت جميعا مترابطة متلاحمة يُبنى آخرها على أولها ، وينسق السلوك فيها جميعا نظام العزابة الذي ابتدأ تطبيقه مع أوائل هذا العهد .

1 ـ الفترة الأُولى : الفترة الأُولى من العهد الثاني لحياة بني مصعب تمتد نحو قرن من الزمان إذ تبتديء من أول القرن الخامس وتنتهي في أواخره أو أوائل القرن السادس ما بين (400 ـ 500) تقريبا .

وأهم ما تمتاز به هذه الفترة من تاريخ بادية بني مصعب أن سكانها قد اعتنقوا المذهب الإباضي بالفعل بدلا من عقائد المعتزلة وأنهم سمحوا بالهجرة لإخوانهم الذين اضطهدوا في جهات أُخرى أو ضاقت بهم الحياة لأسباب سياسية أو مذهبية أو اضطروا للهجرة إليهم تحت قسوة الظروف الطبيعية كما وقع لبعض سكان سدراتة ووارجلان ووادي أريغ ، فتقبلوهم أحسن قبول ، وامتزجوا بهم أكمل امتزاج ، ثم إنهم اتحدوا في عمل جاد متواصل لتكوين حياة حضرية مستقلة في أخصب وديان الشبكة ـ وادي ميزاب ـ ولم ينته هذا القرن حتى تكونت ثلاث قرى كانت نواة لاستقرار الشعب المصعبي أو الميزابي ، تلك القرى أو المدن هي العطف ، وبدأت تتكون مع أول القرن الخامس ، ثم بنورة ، وبدأت تتكون في العقد الرابع من نفس القرن ، ثم غرداية وبدأت تتكون في العقد الثامن من نفس القرن .ولم ينته القرن الخامس حتى كان في أحد أودية بني مصعب ثلاث مدن آهلة بالسكان يقيم بها على الدوام من انتقل من الحياة الرعوية إلى حياة الاستقرار من بني مصعب ومن هاجر إليهم من مختلف الجهات كما يجعلها بعض من لم يتخلص من حياة البادية ومن تربية المواشي من بني مصعب مآلا ومرجعا يقيم بها أغلب فصول السنة ويلتحق بأنعامه في بعضها حين يكون الالتحاق بها ضروريا كفصل الربيع لاستخلاص النتاج بأنواعه فاذا انتهت المهمة رجع إلى تلك القرى ليستقر بها .

وقد اتضح اتجاه سكان هذه المدن إلى الاستقرار حينما اعتمدوا في اقتصادهم على الزراعة بالدرجة الأُولى فكانوا يتعاونون في تفان وإخلاص على استخراج المياه الجوفية بحفر الآبار التي تكون في بعض الأحيان شديدة العمق ، وكان اهتمامهم بالزراعة يزداد يوما فيوما وكان التحسن في وسائلهم يظهر لهم من خلال المحاصيل السنوية التي تزداد كل عام ، ولم يقتصروا على الزراعة بل لقد التفتوا إلى الصناعة البسيطة التي تحتاجها البيئة وتوجد مواردها الأُولية هناك . فمهرت أيدي صناعة الآلات الخفيفة المختلفة للزراعة ولاستخراج المياه ولجرف التربة أو نقلها ولتفتيت الصخور ونقلها ولصنع قوالب الطين والآجر في بناء الحوائط والجدران ولاستغلال سعف النخيل وخشبه في الأثاث المنزلي بمختلف أنواعه .

ويبدو أن المرأة المصعبية نفسها قد أخذت حظها من التطور فقد كانت في العهود السابقة مشغولة بمساعدة الأُسرة في عمليات الرعي المختلفة . وقصارى ما تستطيع أن تجيده من الصناعة إنما هي صناعة الفلائج التي تتكون منها الأخبية والبيوت . وكانت الصوف وهي أهم نتاج الماشية تؤخذ فتباع في أسواق الحضر ولم يشتغل بها إلا عدد قليل من العائلات المصعبية التي استقرت في منازل قليلة أطلق عليها اسم (قصر الصوف) او (حصن الصوف) لأنه المكان الوحيد الذي كانت المرأة فيه تعرف صناعة الصوف ، ولا شك أن اللغة السائدة في ذلك الحين وفيما قبله هي اللغة البربرية ولذلك فقد كان يطلق على تلك المجموعة من المساكن التي يقال إنها سبقت مدينة العطف اسم (أغرم نتلزديت) والترجمة الحرفية لكلمة (اغرم) هي القصر أو الحصن . والترجمة الحرفية لكلمة (تلزديت) هي قطعة الصوف المحلوجة . وأعتقد أن البربر يطلقون كلمة (أغرم) التي معناها الحرفي هو القصر ويقصدون بها القرية لأن القرى البربرية في القديم لا تخلو من قصور أو حصون .

أما النون في في أول الكلمة (نتلزديت) فهو حرف إضافة .

ولما استقر بنو مصعب ومن هاجر إليهم في مدنهم تلك وأُعفيت المرأة من الأعمال التي كانت تزاولها في البادية واستقرت في البيت ، وأصبح زوجها يقوم بأعمال الزراعة والصناعة قريبا منها ثم يعود إليها - وجدت أن في وقتها فراغا تستطيع أن تستغله لفائدة الأُسرة وتحركت أصابعها الدقيقة الماهرة تغزل الصوف وتنسج منه الأكسية والبرانس لأفراد الأُسرة للسوق حيث تضيف دخلا إلى دخلها في الزراعة أو الصناعة .

وأثبتت تعاون المرأة مع الرجل لتحسين اقتصاد الأُسرة قبل أن تنعق زعيمات هذا العصر يطالبن باشتراك المرأة في ميدان العمل بعدة قرون .

ولعل أهم ما تمتاز به هذه الفترة وما بعدها وما قبلها هو تطبيق نظام العزابة بتفاصيله وبه استطاع هذا الشعب أن يوحد القيادة ثم أن يوجه الجهود إلى أهم مجالات الحياة بدراسة ووعي وتخطيط .

2 - **الفترة الثانية :** تمتد الفترة الثانية من العهد الثاني نحو قرنين من الزمان أي من أوائل القرن السادس إلى أواخر القرن السابع .

هذه الفترة تشبه أن تكون امتدادا للفترة الأُولى . فقد استمر بنو مصعب في الاستقرار والتركز في القرى التي تكونت في وادي ميزاب وشغلتهم الجوانب الاقتصادية فتفرغوا لها وانصرفوا إليها وبديهي أن اقتصادهم حينئذ كان ينبني على الزراعة وقليل من الصناعة . وتوالت إليهم الهجرة من مختلف الجهات لما يتمتعون به من أمن وسلام وبعد عن التموجات الحركية للمغامرات السياسية ولما ينعمون به من استقرار في أودية خصبة تكفي لإعاشة عدد

كبير من السكان إذا أحسن استغلالها . ثم لوجود تلك الوديان في أمكنة حصينة بعيدة عن أن تكون متعرضة للمناوشات والاعتداءات وقد استمرت الحياة على هذه الوتيرة وعلى هذا النحو نحو قرنين من الزمان حتى كبرت تلك القرى وأصبحت مدنا فسيحة تعج بالسكان وتضيق بهم وكان السكان لا يزالون يكثرون بمن يهاجر إليهم وبمن يتحضر منهم ويستقر في تلك المدن فيغير مجرى حياته من بداوة ترتبط بالماشية والمطر والكلإ ، إلى حضارة تزدهر بالزراعة والصناعة والتجارة وتمتاز بالاستقرار .

ولعل أوضح ما في هذه الفترة ظاهراتان :

الأُولى: مغامرات الميورقي فقد ثار هذا الرجل على الموحدين طلبا للحكم - وكان يؤم أطراف المملكة ونقاط الضعف فيرتكب فيها الأفاعيل - ومر بمنطقة الواحات فخرب سدراتة وعاث فسادا وإفسادا في وارجلان ووادي أريغ وما كان في طريقه إلى ليبيا . فتسبب بذلك في هجرة أعداد وافرة من الناس إلى بني مصعب ولا سيما أهل سدراتة فإنه لم يبق أحد بعد فتنة الميورقي وهاجر أغلب سكانها إلى بادية بني مصعب وبذلك تضاعف عدد السكان في وادي ميزاب .

الثانية : بنو مصعب أنفسهم في هذه الفترة كانوا متخوفين أشد التخوف من الأحداث التي تجرى في جوارهم . وكانوا يتوقعون كل يوم أن يمسهم غيرهم . وكان كلما ورد إليهم وفد من المهاجرين المضطهدين من أي جهة كانت ، نقل إليهم الأخبار المؤلمة عن المآسي التي تقع على الناس بسبب حماقات المغامرين وطلاب الحكم ، فكانوا يتوجسون خوفا أن يلحقهم ما لحق غيرهم . ولذلك فقد اعتصموا بصمتهم ووحدتهم ، وفرحوا بكل من هاجر إليهم ، باعتباره قوة لهم يستفيدون منها في الدفاع عن أنفسهم لو نزل بهم مكروه . وقد نتج عن هذا بعض الجمود العلمي

لأن السكان - وعلى قيادتهم مجلس العزابة - شغلوا في هذه الفترة بتدبير وسائل الأمن والحيطة وبالاستمرار في تحسين الجانب الاقتصادي ، فلم تتغير عندهم الحياة كثيرا عما كانت عليه في الفترة السابقة إذا استثنينا جانب ازدياد السكان بالهجرة ازديادا مطردا أو التوسع في ناحيتي الزراعة وتمدد البناء بطبيعة الانكماش في الوادي وتضاعف السكان مع ضيق المجال الحيوي الذي يضطرب فيه أولئك القوم للحصول على ضروريات الحياة أو بعض كمالياتها لو ساعدتها الظروف ، وبما أنهم بقوا نحو ثلاثة قرون على نمط واحد من الحياة فلم يضيفوا مدنا جديدة إلى مدنهم الثلاث ، ولم تبرز لهم جهود واضحة متفوقة في الميدان العلمي ، ولم يسجل لهم انطلاق خارج وطنهم المحدود ، فقد اعتبر بعض المؤرخين هذه الفترة بمثابة غفوة خفيفة ، أو استلقاء للراحة والاستجمام .

الفترة الثالثة : تمتد الفترة الثالثة من العهد الثاني نحو قرن من الزمان اذ تبتديء من أوائل القرن الثامن وتنتهي ببداية التاسع ، وهي تشبه أن تكون صورة للتمدد والتمطي فوق الفراش استعدادا للنهوض والاندفاع ، إن هذا الشعب بسبب ظروف الحياة القاسية التي عاشها طيلة الفترة السابقة في خوف متوقع من الخارج وكفاح مستمر لاستثمار الارض في الداخل ، كان كأنه قد استلقى على الفراش الوثير للراحة أو النوم وهو في هذه الفترة يتمدد ويتمطى ويمسح عينيه بعد اليقظة ليندفع إلى الكفاح المستمر .

لقد انتبه بنو مصعب من غفوتهم القصيرة فوجدوا أن أعدادهم تضاعفت وأن المدن السابقة قد غصت بهم حتى لم يعد في إمكانها احتمال للمزيد ، وأنهم مضطرون إلى التوسع وزيادة المدن والقرى في باديتهم الفسيحة وأوديتهم الطويلة ورغم إحساسهم بضيق المكان في وادي ميزاب ورغبتهم في استغلال بقية الأرض فقد آثروا أن

يزيدوا قرى قريبة من القرى الأولى . لأن صدى المغامرات العدوانية السابقة التي وقعت على من جاورهم بل على بعضهم ، لا يزالون يسمعون صداها في آذانهم ، ولأن جميع الظروف المحيطة بهم تدعوهم إلى التجمع لكي لا تفرق المسافات بينهم فيجد فيهم أصحاب المطامع فرصة للعدوان ، ولم ينته القرن الثامن الهجري حتى تكونت إلى جوار القرى السابقة قريتان أخريان هما مليكة وبني يسقن .

ويبدو أن أوائل سكان هاتين القريتين كانوا من المهاجرين الجدد الذين وردوا على الوادي فرأوا ما يعانيه من ضغط سكاني ، وقدروا أن المدن السابقة أصبحت في حالة لا تستوعب معها أكثر مما فيها ورأوا أن كل تزايد سكاني فيها يؤثر على إمكانياتها الاقتصادية فآثروا أن ينفسحوا بعض الانفساح عن السكان السابقين وبذلك صار الوادي يتكون من مجموعة سكنية من خمس قرى تشبه أن تكون أحياء من مدينة واسعة . فإن المسافة بين أبعد نقطتين من هذه القرى الخمس لا تزيد عن ستة أميال .

وبينما كان سكان وادي ميزاب قبل القرن الخامس الهجري مثل زميليه : وادي زقريز ووادي النساء ، كل ما فيه من حياة أنه كان منتجعا لأصحاب الماشية يؤمونه بعد مسيله في بعض فصول السنة فأصبح خلال أربعة قرون فقط مركزا لحياة اجتماعية متحضرة يعيشها شعب امتاز بالايمان والاخلاص والجد والمثابرة على العمل الذي لا يتوقف ولا ينقطع . وتكونت فيد مدينة مستبحرة العمران تتكون من خمسة أحياء كل حي منها يحمل اسم قرية . وكما يصح أن يعتبر ذلك الحي حيا من مدينة كبرى أو ضاحية من ضواحيها يصح أن يعتبر بلدا عامرا يموج بالحركة والحيوية . وصار الوادي يشتمل على بساتين ورياض غنية الإنتاج وافرة الغلال جميلة التنسيق متعددة الأنواع عادلة التوزيع .

وبينما كان هذا القسم من بادية بني مصعب تجري فيه الحياة العمرانية كما وصفناها في هذه الفترة - وفي الفترة السابقة - كانت الجهات الأخرى من البلاد المجاورة كبلاد سدراتة ووارجلان وأريغ وسوف وتجديت وواغلانت وأجلو وغيرها تكافح في استماتة من أجل البقاء بل أن منها من لفظ أنفاسه وهمد إلى الأبد وذلك بسبب ما تعرض له من العاملين القاسيين هما :

1 - عامل الطبيعة من الجفاف وندرة الأمطار وهبوب رياح الجنوب باستمرار محملة بالرمال الزاحفة لمدد طويلة .

2 - عامل بشري يتمثل في فتن وعداوات وغارات للسلب والنهب قام بها الأعراب البداة من بني هلال ومن سلك مسلكهم من قبائل البربر .

وكان أقسى من كل ذلك مغامرات طلاب الحكم كابن غانية ومن سلك طريقه في البحث عن السلطة أو البحث عن المال .

بهذا تنتهي الصورة التى أردنا أن نعرضها من حياة بني مصعب في عهدها الثاني من تاريخها الاسلامي .

العهد الثالث

العهد الثالث لبني مصعب في التاريخ الاسلامي يمتد نحو أربعة قرون ونصف إذ يبتديء من أول القرن التاسع وينتهي في منتصف القرن الثالث عشر تقريبا ويمتاز هذا العهد بأنه عهد الانطلاق (1) الكامل في جميع ميادين الحياة ، ولكن في الإطار الاسلامي الجميل .

وقد اتخذ هذا الانطلاق عدة اتجاهات متوازية متساندة متعاونة :

فقد انفتح باب الاجتهاد العلمي فقدم إليهم وفد من جربة والجبل يشتمل على خيرة من أفاضل العلماء والأعلام العاملين فقادوا الحركة العلمية وتزعموا حركة الإصلاح عموما ، واندفع إليه مجموعة من خيرة الشباب الأذكياء تتكون منهم فيما بعد عناصر صالحة للزعامة والقيادة .

وانفتح باب للتوسع الحيوي والانطلاق العمراني فتأسست مدن جديدة في بادية بني مصعب كانت إحداها على وادي النساء وكانت الأخرى على وادي زقرير ، وبذلك عمرت جميع الأودية التي تكون الجبال الرئيسية لأرض الشبكة والتي تمثل شرايين الحياة لبادية بني مصعب .

---

(1) أستاذنا الفاضل الشيخ عبد الرحمن بكلي حفظه الله يرى غير هذا الرأي يقول في مقدمته لكتاب النيل ما يلي : « كان القرن الثاني عشر والثالث عشر فترة ركود بل انتكاس بالنسبة للحياة العلمية بميزاب ، ضؤل شعاعه ، وركد حبله حتى كاد ينبتر ، لولا أن تداركه لطف من الله فاطلع في سمائه بدرا منيرا وأرسل أشعته على زواياه فأنارها ذلك هو الشيخ أبو زكرياء يحي بن صالح الأفضلي » ولعل أستاذنا الكبير حين كتابته للمقدمة كان متأثرا بما كتبه صاحب النيل نفسه على أستاذه أبي زكرياء ولا شك أن أبا زكرياء وضياء الدين كانا حلقتين متينتين مترابطتين في حركة الإنبعاث التي بدأت في القرن التاسع الهجري .

وانفتح باب للانطلاق السياسي فأصبح ذلك الشعب المنكمش الذي كان يقبع في مناطق وعرة محصورة من أرض الجنوب خائفا يترقب .

أصبح من ذلك الشعب رجال يناقشون أعقد المسائل السياسية في عصرهم ويرتادون أرفع الدوائر الحكومية، ويشاركون مشاركة فعالة في تكوين الآراء والتخطيطات لوضعهم السياسي والاقتصادي ضمن الشعب الجزائري الكبير .

وانفتح باب واسع للانطلاق الاقتصادي فبعد أن كان هذا الشعب يعيش في واحات الجنوب على حياة مبنية على زراعة بسيطة وصناعة ساذجة وتربية ماشية مضطربة ، انطلق في هذا العهد إلى ميدان التجارة الحر الفسيح ، وصار يمارسها متنقلا من بلد إلى بلد مكونا أعرافا وتقاليد ونظما لو وجدت من اهتم بها ودرسها بعمق لاستخلص منها نظريات اقتصادية رائعة في ميدان التجارة ، ونتج عن انطلاقهم هذا في ميدان التجارة غيبة طويلة عن الوطن ، وانتقال متتابع من مكان إلى مكان (1) ، فصار بذلك - ذلك الشعب الذي قضى زمنا غير قصير - منكمشا في الواحات ، منعزلا على نفسه - يملأ مدن الجزائر وقراها بل وخارج الجزائر بالحركة والنشاط ، ويتحكم في الاقتصاد العام للبلاد .

وقد ترتب على هذا الانطلاق خارج الوطن وعلى الغيبة الطويلة عدد من المشاكل درست دراسة وافية واتخذت لها حلول روعيت فيها جميع الجوانب التي تتأثر بها حياة مجتمع مسلم فلم يهمل فيها الجانب الديني ولا الجانب الخلقي ولا الجانب النفسي ولا الجانب الاقتصادي فاستحدثوا في كل قرية بها عدد من تجارهم

(1) حركة الإنبعاث الاقتصادي بدأت في القرن التاسع الهجري بتجارة أولية محدودة ثم تأكدت بالاتفاقية التي جرت بينهم وبين خير الدين في أوائل القرن العاشر وتركزت بعد العملية الفدائية في نسف برج (بوليلة) فأخذت مجالها بالكامل .

أو عمالهم مركزا للاجتماع وهيئة تتولى الاشراف المهني على أصحاب المحلات التجارية ، وتقدر أجور العمال وتزود الجميع بالرعاية التي تحمي أخلاقهم ودينهم من أن تؤثر عليها الغربة الطويلة وتراقبهم مراقبة دقيقة في مهجرهم حتى لا ينفرط عقد أمتهم ولا تذوب خصائصها التي تمتاز بها ، كما جعلوا مدارس خاصة تتولى تعليم أبنائها الذين يعيشون أو يشتغلون مع آبائهم مراعين أن تكون خطة الدراسة غير متعارضة مع أوقات العمل ثم سنوا مجموعة من القوانين والقرارات في شئون المجتمع والأسرة كان لها أطيب الأثر على حياتهم ، وقد نعرض لبعض هذا في فصل خاص .

وفي الإمكان أن نقسم هذا العهد - أيضا - إلى ثلاث فترات تتميز كل منها ببعض السمات الخاصة بها أو التي تكون أكثر وضوحا منها وهي جميعا مرتبطة بعضها ببعض ينبني آخرها على أولها .

1 - الفترة الأولى : تمتد الفترة الأولى من العهد الثالث نحو قرنين من الزمان إذ تبتديء من أوائل القرن التاسع وتنتهي في أواخر القرن العاشر بعد وفاة العلامة أبي مهدي عيسى بن اسماعيل المصعبي .

وأظهر ما تتميز به هذه الفترة أنها فترة دبيب اليقظة في أوصال المجتمع الذي كف عن الحركة في غفوة قصيرة ، فلما فتح عينيه ذعر لانه وجد نفسه واقفا بينما ركب الحياة يسير . ووجد محافل العلم عنده ، ومجالس العزابة خالية من فطاحل العلم وكبار الأئمة ، ولا يشغلها غير فقهاء من الدرجة المتوسطة يعتمدون على استظهار القرآن الكريم وشيء من السنة النبوية ويعتمدون في فقههم على ما حفظوه ويجدونه مسطورا في الكتب فينقلونه للناس في جمود ودون تصرف ، وقد اعتاد ينو مصعب من قبل أن لا يخلو موطنهم

من كبار العلماء فأسرعوا إلى استقدام عدد منهم ليشغلوا المراكز الهامة وينيروا الطريق في دروب الحياة المختلفة ، ولبى إخوانهم في جربة وجبل نفوسة طلبهم فجاءتهم البعثة التدريسية من ثلاثة علماء أفاضل . كان أعظم شخصية فيها هو العلامة الكبير الشيخ سعيد بن علي بن حميدة بن عبد الرزاق بن سعيد الخيري الجربي ، فباشرت البعثة حالا مهمتها وقامت بواجبها أحسن قيام ، ووضع الشيخ سعيد الخيري الذي اشتهر (بعمي سعيد) الأُسس الأُولى لنهضة ذلك الشعب الكريم بعد يقظته فقد التف حوله جماعة من نبغاء الطلاب فبلغوا على يديه درجات سامقة من العلم . ووضع شعارا خاصا للعزابة ، وأسس لهم المجلس المعروف بمجلس عمي سعيد ، الذي يجتمع فيه رؤساء العزابة وتبحث فيه قضايا جميع المدن الميزابية ، وتعرض فيه جميع المشاكل فتتخذ لها الحلول المناسبة . وفي ذلك المجلس تصدر القرارات العامة لتنظيم الحياة وسير الناس .

وبالإضافة إلى الإصلاحات الاجتماعية والدينية التي كان يتحمل أعباءها الثقال بكفاءة ونجاح ، كان هؤلاء وزملاؤه يشتغلون بالتدريس ونشر العلم والمعرفة في أماكن متفرقة حتى تخرج على أيديهم عدد من كبار العلماء كانوا هم السند القوي لدعائم النهضة ولو لم ينجح على أيديهم إلا أبو مهدي عيسى بن إسماعيل لكفى به نجاحا .

إن هذه الفترة ـ حسب دراستي الناقصة ـ تعتبر عصر انتفاضة لبني مصعب من غفوة خفيفة ، وقد سبقها فترة التمطي وسوف تعقبها فترات الانطلاق الكبير . ففيها إذن وضعت اللبنات الأُولى لأُسس النهضة الشاملة فيما بعد .

ومنذ انطلق الشعب من غفوته في أوائل القرن التاسع لم يتوقف عن العمل حتى بلغ مرحلته الحاضرة ، وهو سائر بخطوات

فسيحة في منهج إسلامي سليم لبناء حضارة إسلامية فريدة في هذا العصر المادي الصرف ركناها الإلتزام بالاسلام عقيدة ودينا وخلقا وسلوكا ، والاستفادة من الاكتشافات العلمية بناء وعمرانا وحضارة وحياة .

2 ـ **الفترة الثانية :** فترة التمدد المادي أو كسر الكتكوت لقشرة البيضة ، وتمتد هذه الفترة نحو قرن من الزمان إذ تبتديء من أوائل القرن الحادي عشر وتنتهي في أواخره . وتتميز هذه الفترة بظاهرتين واضحتين إحداهما : إن سكان الوادي أحسوا بضيق المجال الحيوي لهم ، وأن وادي ميزاب وحده أصبح مختنقا يضيق من الناحيتين العمرانية والاقتصادية ، وأنه لابد لهذا الشعب المحصور في هذا الوادي الضيق بين الجبال المرتفعة من الانفساح والانطلاق ، ولابد من ارتياد أماكن أُخرى في نفس البادية تكون صالحة للعمران . وانطلقت الدفعة الاولى من الرواد الشجعان تلتمس مكانا لها تستقر فيه فاختارت موقعا على وادي النساء ، وانطلقت بعدها دفعة أُخرى من الرواد الشجعان تلتمس لها مكانا تستقر فيه أيضا فاختارت موقعا على وادي زقرير . وبذلك تأسست المدينتان الزاهرتان : القرارة وبريان ، . وانضم إلى كل دفعة من هذه الدفعات بعض سكان تلك المناطق ممن لا يزالون على حياة البادية فتحضروا واستقروا في تلك المدن الجديدة كما انضاف إليها بعض المهاجرين من جهات أُخرى بعيدة طلبا للأمن والاستقرار ، وبتأسيس هاتين المدينتين العامرتين أصبحت أرض الشبكة ، أو ما كان يطلق عليه بادية بني مصعب عامرة بحضارة مزدهرة في أهم وديانها الخصبة ، بل لقد أصبح بنو مصعب على الحقيقة يعمرون كامل باديتهم ويستغلون جميع وديانهم .

الظاهرة الثانية : ناجمة عن هذه الانطلاقة ، فما خرج الكتكوت عن قشرة البيضة ، وتمت له الانطلاقة الاولى حتى

تكونت انطلاقة أُخرى في الميدان الاقتصادي ، وبدأ الناس يجمعون رؤوس الأموال الصغيرة من محاصيلهم الزراعية المحدودة أو من أثمان مواشيهم بعد بيعها ثم ينطلقون إلى الغربة حيث يكونون المتاجر في مختلف البلاد .

وقد كانت التجارب الأُولى مشجعة رغم ما يكتنفها من مصاعب ومتاعب ، وأصبح التنافس واضحا بين الشباب المتحمس المتوثب وبدأت نظرة المجتمع التي كانت مقتصرة على تقدير الزراعة ووسائلها ، واحترام العضلات القوية التى تستثمر الأرض خيرا من غيرها ـ بدأت تلك النظرة تتجه إلى تكون اقتصادي مبني على أُسس تجارية . وبدأت ـ تبعا لذلك ـ قيمة التاجر ـ الذي يغيب زمنا ثم يعود بمكاسب تفوق كثيرا مكسب زميله الذي بقي يشتغل بالزراعة ترتفع في نظر المجتمع لا سيما وأن المشاريع العمرانية ، والمرافق الجماعية أصبحت تعتمد على التجار أكثر مما تعتمد على المزارعين .

أما من الجانب الثقافي فيبدو لي أن هذه الفترة كانت فترة تبادل ثقافي بين بني مصعب من جهة وجربة أو جبل نفوسة من جهة أُخرى وأن مجيء عمي سعيد في الفترة السابقة كان بمثابة تشجيع للاتصال الثقافي واستمراره بين هذه البلاد ولا سيما بين بني مصعب وجربة ، ويكفي للدلالة على هذا الموضوع مجيء طلبة من جربة ونفوسة للدراسة على أبي مهدي كما أن رحيل الشيخ محمد المصعبي والد الشيخ يوسف في أواخر القرن الحادي عشر واستقراره في جربة يقوي ما نراه من حركة علمية نشيطة بين البلدين يتبادلان فيها وسائل الثقافة ، ولعل الذي أضفى بعض الغموض على أهمية البعوث العلمية من بني مصعب إلى جربة أو جبل نفوسة والعكس ، أنه لم تلمع ـ من بين تلك الأفواج شخصيات

في مستوى عمي سعيد أو أبي يعقوب يوسف المصعبي(1) ممن يتركون دويا لا يحصره الزمان ولا المكان .

لقد كانت هذه الفترة هي فترة التحسس لمواضع الأقدام في كل مجا ل من مجالات الحياة ، فقد كسرت القوقعة وخرج منها الكائن الحي يستنشق النسيم والعبير ، وبدأ ينفض أجنحته ويتطاول بعنقه ليحلق في الأجواء .

3 ـ **الفترة الثالثة :** تمتد الفترة الثالثة من العهد الثالث نحو قرن ونصف ، فهي تبتديء من أوائل القرن الثاني عشر وتنتهي في منتصف القرن الثالث عشر . كان بنو مصعب في العهود السابقة لهذا العهد يسكنون قرى تشبه أن تكون مدينة واحدة وهم يعيشون فيها على حياة زراعية سقوية أو تربية ماشية يتولى رعايتها رعاة متخصصون ينزحون بها بعيدا عنهم في مواطن الكلإ فكان مجال حركتهم بين البستان والمسجد ، فالرجل منهم لا يغيب عن أهله إلا فترات قليلة في اليوم . فلم يكونوا يحتاجون إلى الأسفار والتنقل . فإن أبعد نقطتين عن قراهم الخمس لا تزيد عن ستة أميال . فلما تأسست مدينتا القرارة وبريان أصبح السفر ضرورة من الضرورات ـ على أقل تقدير لصلة الرحم بين سكان المدن السبع ولا سيما في المواسم والأعياد ـ ولما بدأوا يشتغلون بالتجارة خارج وطنهم وجدوا أنفسهم محتاجين إلى عدة أشياء لا تستقيم حياتهم الجديدة إلا بها . وتلك الأشياء هي التي تكون الظواهر الخاصة بالفترة الثالثة لهذا العهد . ويبدو لي أنها يمكن أن تتلخص فيما يلي :

(1) مما يؤيد هذا الرأي أن عددا ضخما من طلاب العلم التحقوا بمدرسة القطب رحمه الله ومنهم رجال فقه ودين أفادوا بلادهم عندما رجعوا إليها ، ومن طلاب الجبل لم يشتهر إلا الزعيم سليمان باشا الباروني ، أما بقية الأسماء فهي ذاهبة في الإختفاء مع قرب الزمن ولن يمضي هذا الجيل حتى يغطي الجهل أولئك الناس الذين قاموا بدور هام في حياة الأمة اذا لم تبادرهم يد غيورة فتكتب عنهم .

الظاهرة الأُولى : لما بدأت جماعات التجار ذاهبة آتية بين المدن الكبرى في القطر الجزائري وأراضي الشبكة لاحظ ذلك بعض المغامرين الذين يعيشون على السلب والنهب وقطع الطرق ، واستنتجوا أن التجار الذين يعودون من كبريات المدن في الجزائر إلى صحراء الجنوب بعد غياب طويل - لا بد أن يكونوا محملين بكثير من المكاسب ، فكانوا يتعرضون لهم في الطريق ، وكثيرا ما كانوا يسلبون أموال الضعاف منهم ، فتولدت عندهم لذلك فكرة رد الفعل ومجابهة العدوان ، فكان المسافرون منهم يتخذون الاحتياطات اللازمة للحراسة من امتلاك السلاح ومعرفة استعماله عند اللزوم واستصحاب الحراس الأشداء الأُمناء في تلك السفرات الطويلة . وبذلك تكوَّن لهم في هذه الفترة وما بعدها عدد من الأبطال الأشداء الشجعان الذين يخشى قطاع الطرق جانبهم ، فصاروا يتحاشون قوافل بني مصعب ويبتعدون عن طريقها ، وأصبح أُولئك الحراس كأنما يمتهنون حرفة الحراسة . لهم أُجور معينة عن كل رحلة من الرحلات بين مدن الصحراء والتل حتى تتجاوز قوافل المسافرين مناطق الخطر إلى الشمال أو إلى الجنوب .

الظاهرة الثانية (1) : أحس التجار - غير الميزابيين - في مختلف المدن بمنافسة جديدة خطيرة - على ما ظهر لهم - فلم يرتاحوا لها ، ووقفوا معها موقف المعارضة والرد ، ونتج عن ذلك عدد من المشاكل كانت تصل إلى السلطة المحلية بمختلف الأساليب والوسائل . فوجد المصعبيون أنفسهم في حاجة ماسة إلى من يتولى توضيح موقفهم - في الحالات الفردية والجماعية - والدفاع عن مصالحهم ، وإقناع المستائين من منافسيهم بأن التجارة

(1) هذه الظاهرة في الواقع في حاجة الى دراسة متعمقة متغلغلة ولعل أحد الشباب المثقف من بني مصعب يتولى القيام بهذه المهمة قبل أن يختفي هذا الجيل الذي لم يبق إلا أفراد منه فتختفي معه كثير من الأسرار والحقائق وتضيع الى الأبد .

ميدان حر متسع للجميع ، وكما هو صالح للمنافسة وإظهار التفوق والعبقرية الاقتصادية ، هو صالح أيضا للتعاون والاستفادة المشتركة وتوحيد الجهود لبناء صرح الاقتصاد الوطني على يد التاجر الأمين النزيه ، فتكون لهم جماعة من أفذاذ الرجال في جميع هذه الجوانب فمنهم من اصطبغ مسلكه بالزعامة السياسية ، فكان يتصل بالأجهزة الحاكمة في مختلف أماكنها ، ومنهم من اشتهر في الميادين الاجتماعية فكان يتصل بالأعيان وكبار التجار لدراسة المشاكل الناجمة عن سوء التفاهم بين الأطراف المختلفة واتخاذ الحلول اللازمة لها . ومنهم من يقوم بالدعوة إلى التوفيق والمساعدة والتعاون ، ومنهم من يستخلص النتائج من التجارب ويدرس المواقع واحتياجاتها والأيدي الماسكة بدواليب الحركة وشدتها وتوزيعها ، ويتخذ بناء على ما يستخلصه من كل ذلك آراء له يقدم عنها توصيات واقتراحات .

الظاهرة الثالثة : أحس المصعبيون - بناء على انطلاقهم - باحتياجهم إلى عناصر مثقفة قوية من الرجال الأكفاء في جميع الميادين ثقافة تؤهلهم لمراكز قيادية من جهة ، وإلى نشر العلم بين كل الطبقات من جهة أُخرى ، فعملوا على استجلاب مدرسين أكفاء ، وإلى إرسال بعثات علمية تعود إليهم بعد نجاحها . وبذلك تمت الانطلاقة في جميع الاتجاهات على النمط التالي :

فقد أمكن الانسجام في البلاد الجديدة التي اختارتها أي مجموعة منهم لعملها . واقتنعت الدوائر الحكومية أنه يجب أن تكفل الحرية لهذه الإنطلاقة القوية .

وفهمت العناصر الحاكمة قيمة هذه الحركة التجارية في البلاد وأثرها على الاقتصاد العام فسمحت لها بالنشاط ، وفتحت لها الميادين ، وتعهدت لها بالحماية - وإن لم توف لها بذلك - ثم

أمنت الطرق بسبب اتخاذ الحراسة القوية الذاتية والاعتماد عليها حتى أصبح لتلك الحراسة نظم وأعراف .

وتكونت زعامات اقتصادية وسياسية واجتماعية ، تولت معالجة جميع المشاكل الناجمة عن أي وضع من الأوضاع - واتخذت لها الحلول المعقولة المقبولة .

ثم بدأت النهضة العلمية تؤتي ثمارها ، فتزود المجتمع بمثقفين ينهضون بأعباء العمل بجدارة واستحقاق ، كما تكونت شخصيات علمية مرموقة أصبحت تتمتع بكل احترام وتقدير ، لا من المجتمع المصعبي أو الإباضي فقط ، وإنما من المجتمع الإسلامي في المغرب الكبير كله بما فيه ليبيا ، ولعل أبا يعقوب يوسف بن محمد أوضح مثال لذلك .

ولعل من أوضح خصائص هذه الفترة ، أنه اجتمع فيها ثلاثة من الأعلام هم : أبو يعقوب يوسف بن محمد المصعبي الذي يعتبر في عصره زعيما عاما لإباضية المغرب . وجميع الأوساط العلمية والسياسية - في الجزائر وتونس وليبيا - تعرف مواقفه وتقدرها له وقد دافع عن الإباضية - في حرارة - بلسانه وقلمه في جميع الأوساط الرسمية وغير الرسمية ، وحصل على الإعجاب والثقة والتقدير في كل المجامع التى حضرها .

وأبو زكرياء الأفضلي الذي يعتبره أكثر المؤرخين مبدأ للنهضة الحديثة ، ويرونه موقظ بني ميزاب من نوم عميق ، وضياء الدين الثميني الذي أرسى قواعد النهضة ، ومن مجهوداته انطلقت الحركة العلمية الإباضية في الأقطار المغربية الثلاثة ، بل إن كتبه أصبحت عدة أصحابنا في المشرق أيضا .

وفي منتصف هذا القرن - القرن الثالث عشر - تنتهي الفترة الثالثة وينتهي معها العهد الثالث من حياة بني مصعب ليبدأ العهد

الرابع وهو حافل بمجموعة من الأحداث الهامة . منها استلام القطب رحمه الله لراية القيادة ثم أحداث جانبية أخرى كفتن بني جلاب وبوشوشة ، والاحتلال الفرنسي وما تبع ذلك من أحداث ووقائع .

وأحسب أن العهد الرابع يبتديء بالقطب رحمه الله ويمتد فترة قصيرة ربما كانت الاقل من قرن ، وينتهي بعد وفاته بقليل ، ولعل في هذا العهد - على قصره - من الأحداث والظواهر ما يربو على جميع ما عرفناه للعهود السابقة .

أما العهد الخامس فيبتديء بالحركة التي قام بها تلاميذ القطب ، وعلى رأسهم الشيخان العظيمان أبو اسحاق وأبو اليقظان رحمهما الله ، ثم قادها بكفاءة وبراعة أستاذنا الفاضل الشيخ بيوض حفظه الله وسلمه ، ويمتد هذا العهد إلى ما شاء الله .

ولما كان هذان العهدان (الرابع والخامس) زاخرين بالأحداث والحركات ، سواء ما كان نابعا من داخل الأمة نفسها أو من موقفها من القضايا الإسلامية عموما ، أو من تطور العصر وتأثيره في حياة الشعوب جميعا لا سيما في قضايا التربية والتعليم . أو ما كان ناتجا عن الكفاح الطويل المرير للاستعمار البغيض الذي ابتلي به المغرب الإسلامي الكبير . وقد وقف القطب رحمه الله - في عهده - ضده بما أوتي من قوة وحجة ودعوة ، فمسه منه أذى كثير بلغ الى حد السجن ، ووقف أفلح - حفظه الله - ضده أيضا بما يملك من قوة وحجة ودعوة ولم يتزحزح عن موقفه - على ما ناله من الأذى - حتى أدبر الإستعمار عن البلاد كما يدبر الإعصار المدمر مخلفا وراءه الأنقاض والغبار والدخان ، فجاءت بعده يد الإستقلال وأزالت الأنقاض وسكنت الغبار وأطفأت النار فانقشع الدخان .

رأيت أن اؤجل الحديث عنهما وأن أُفضلهما عن العهود السابقة لغزارة مادة الحديث فيهما .

ولعل الله تبارك وتعالى ينسيء في الأجل ، وييسر لي العمل ، فأُتم هذه الحلقة من هذا الكتاب بجزء مستقل عن العهد الرابع وبعض الخامس ، ولله عاقبة الأُمور .

الباب الخامس

صور عن :

نقود وردود

عزيزي القاريء :

في هذا الباب سوف أعرض عليك صورا من النقد الذي وجه إلى شعب بني مصعب ، سواء أكان ذلك النقد موجها إلى خلقه ، أو إلى سلوكه العام ، أو إلى نظامه الاجتماعي . أو إلى آثار إباضية الجزائر في التاريخ . فمن ذلك النقد ما وجه عن سوء نية وجهل ، ومنه ما وجه عن حسن نية وسوء فهم ، ومنه ما لم يقصد به النقد ولكنه جاء في صورة النقد العنيف ، ومنه ما تهمس به الشفاه وتلوكه ألالسنة في الخلوات ، ومنه إحساسات تثور في صدور شباب بني مصعب أنفسهم لمعارضة بعض أنظمتهم الاجتماعية ، ولكنهم لا يجرأون على التبوح بها لرسوخ فائدتها في نظر المجتمع . ولقد حاولت أن ألتقط مشاهد مختلفة لتلك النقود مع الإشارة الخفيفة إلى سوء القصد أو سوء الفهم أو سوء التعبير عند الناقدين ، وإلى الغرض من التنظيم ، والحكمة في التشديد والمقصد من السلوك ، والسبب في وجود الحالة في كل تلك المشاهد عند من خططوا ونظموا وسلكوا . وجمعت كل ذلك في هذه الفصول .

وفي حسباني أن الصورة الكاملة لتاريخ هذا الشعب لا تتم إلا بهذه الفصول ، وذلك أن التواريخ الأُخرى لشعوب العالم إنما تعتمد - أساسا - على أداة الحكم ، ملك يسقط ، وملك يتولى ،

وجمهورية تمحى وجمهورية تقوم ، وجيش ينهزم وجيش ينتصر ، وقائد يخيب وقائد ينجح .

أما تاريخ هذا الشعب - في اثني عشر قرنا من حياته الحافلة - فهو مجرد من حاكم ومحكوم ، ومنتصر ومهزوم ، وجيش وقيادة . ومع ذلك فقد استطاع أن يحتفظ بحريته - ولو كانت غير كاملة - أمام جيوش الإعصار الإستعماري الغربي الذي اكتسح كل دول المنطقة وحطم جيوشها ، وسلب حرية شعوبها ، وتصرف حتى في أوقاف مساجدها . وبلغ به التسلط - وهو الكافر بالإسلام - إلى أن يعين الأئمة والمؤذنين .

ومن المؤسف أن الدارسين لعلم الاجتماع الحقيقي - الذين لم تلونهم السياسة - لم تقع أنظارهم على هذا المجتمع المثالي المعزول في الصحراء ، لأن أقلام المستشرقين المغرضين والمستعمرين الحاقدين ، وكتبة المتعصبين ، قد شوهوا الصورة الجميلة للحقيقة بإطار من الكذب والبهتان والتضليل ، وغيموها بألوان غامقة من التصوير والتحليل والتعليل .

أخي القاريء : لا تتم لك الصورة التي أردت أن أعرضها عليك في هذا الكتاب إلا إذا ضممت هذا المشهد بكامل صوره وألوانه وزواياه إلى المشاهد السابقة .

لا يا أخي (1)

يقول الأستاذ محمد علي دبوز في كتابه القيم (نهضة الجزائر الحديثة) الجزء الأول صفحة 254 ما يلي :

وخلا ميزاب من العلماء الأجلاء الذين ينشرون العلم ويصلحون المجتمع ، إن ميزاب في أول القرن الثاني عشر الهجري يغط في نومه ، ويسوده الجهل وما يتولد عنه من عصبيات قبائلية وحزبية ، فرقت صفوفه ، وأغرقته في الفتن والدماء ، وجعلت القوي فيه يأكل الضعيف ، وانعدم فيه ذلك المجتمع الذي تسوده الأخوة الإسلامية ، وانحرف في ناحية الإخاء وشدة التمسك بالدين عن الطريق الذي أقره فيه أسلافه ومنشئوه .

وكانت البدع التي ينكرها الدين والخرافات التي تأباها الثقافة والاستسلام للأهواء الذي يحرمه الاسلام قد انتشر في ميزاب فتعكر جوه الصافي الذي كان . والمجتمع الذي كوّنه فيه أسلافه . وقد بلغ جهل بني ميزاب بالدين ، واسترساله مع الأهواء ، ومع ما يدعو إليه طبعه الموروث إلى أن كان يعطي للزوجة نصف الميراث لا الربع أو الثمن كما شرع الدين . إن هذا يدل على احترام ميزاب للمرأة ، لقد استجاب لما دعته إليه وراثته البربرية التي تدعو إلى إكبار المرأة وتقديرها ، وجعله جهله بالدين يستجيب لطبعه ويجعل إلفه له دينا ، وما وجد آباءه عليه من بدع هو الحق الذي يجب التمسك به ويناضل عنه ، ويرمح بالأرجل كل من يحاول اقتلاعها ومناهضتها » .

ويقول في صفحة 260 من نفس الكتاب ما يلي :

---

(1) اقرأ في آخر هذا الفصل رأي أستاذنا الفاضل الإمام بيوض ابراهيم في هذا الموضوع .

«جاءته ـ أي أبا زكرياء الأفضلي ـ امرأة تسأله عن ميراثها من زوجها . وكانوا في الجاهلية قبل أبي زكرياء يعطونها النصف ، فأخبرها بأنه الربع أو الثمن ، فثارت في وجهه قالت : هذه بدعة في الدين ... هذه شريعة خضراء ، فأجابها أبو زكريا : شريعتنا الخضراء خير من جهلكم الأسود» .

هذه بعض الصور ، من صور متناثرة في الكتاب استوقفتني كثيرا ، وكنت مترددا بين أن أسجل ما أحسه نحوها من غربة عن تاريخ الشعب الميزابي ، ونبو عن سلوكه وأخلاقه . أو أن أترك ذلك للقاريء الكريم يعرفه المطلع ، ويستنتجه الذكي ، ويخطيء فيه العادي . وكنت في هذا الموقف يتنازعني عاملان : عامل الوفاء لهذا الشعب الكريم ، وعامل الوفاء للصديق الوفي والزميل القديم ، وقد غلبني العامل الأول لاعتقادي أن زميلي وصديقي محمد علي يسره مني هذا الموقف ، وهو يبذل جهوده العظيمة المتواصلة لاستخراج الصورة الحقيقية لشعبه الكريم نظيفة من كل تشويه ولو كان ذلك التشويه مما يتناثر من قلم الأستاذ دبوز .

يبدو لي لو أن متهجما حقودا أراد أن يتهجم على وادي ميزاب بما يسيء إليه في أعز ما يعتز به ، لما تهجم عليه بأكثر من هذا . ولو أن خصما عنيدا له ، حاول تحطيم ذلك البناء الشامخ الذي أقامه الميزابيون في واديهم الأمين منذ أن انبثق نور الاسلام في قلوبهم إلى اليوم ، والذي صارع جميع الأعاصير ، فمضت دون أن تنال منه ، ودون أن ينحني ـ لما ضربه بأشد من هذا المعول ، ولما كان لمعوله أثر أسوأ من هذا الأثر ، ولا صورة أبشع من هذه الصورة التي رسمها الأستاذ دبوز ... وأنا على شبه يقين لو أن هذا الكلام صدر من شخص آخر لانبرى له الأستاذ الدبوز يرد ويصحح ويوضح .

ولا شك أن الأستاذ الدبوز إنما صور ميزاب بهذه الصورة

القاتمة في الفترة التي سبقت أبا زكرياء الأفضلي ليوضح للقاريء الكريم مقدار الكفاح العظيم ، والجهد المتواصل الذي بذله أبو زكرياء، ولا شك أن أحدا ممن له إلمام بتاريخ الحركة العلمية عند بني مصعب لا ينكر فضل أبي زكرياء. ولكن من الخطإ أن نعتقد أن أي مصلح يرتفع بقدر ما ينحط الشعب الذي يعمل من أجله .

لقد جاء أبو زكرياء في فترة الركود العلمي لا في ميزاب خاصة ، ولكن في العالم الاسلامي عامة . ولقد يكون ميزاب في ذلك الحين خيرا من غيره بكثير ، ويكفي أن عصر أبي زكرياء كان مسبوقا بعدد من العلماء الأعلام مثل العلامة سعيد بن علي الجربي ، وأبي مهدي عيسى بن اسماعيل ، وأبي يعقوب يوسف المصعبي وزملائهم وتلاميذهم . وإن عصرا تعاقب فيه هؤلاء الأعلام الثلاثة في وطن ضيق كميزاب لا يمكن أن يكون عصرا ساد فيه الجهل وتغلبت فيه البدعة .

ومهما كان... فإن الإشارة بالكفاح العظيم الذي قام به أبو زكرياء لا يحمل على المغالاة في تحطيم أمة معتزة بإسلامها ومحافظتها عليه منذ انشرح صدرها للإيمان ، فاستجاب لدعوة الله واستقبلت قبلة الإسلام ، ولست أدري كيف ساغ للأستاذ الدبوز ـ عند الأستاذ الدبوز ـ أن يقول في أمته المسلمة الكريمة :

«وكانوا في الجاهلية قبل أبي زكرياء » إنها كلمة أبعد من أن تجد مكانها في تاريخ هذه الأمة الكريمة ، ولو كتب لأبي زكرياء أن يعود إلى الحياة وفي نفس الظروف التي كان عليها لما رضيها في وصف أمته ، بل ولما رضي أن يصف بها خصومه في الإصلاح ، ولسنا نرضاها نحن ، وأحسب أن جميع الميزابيين ـ ومنهم محمد علي ـ ومن يعرف الميزابيين على حقيقتهم في الماضي والحاضر لا يرضى أن يطلق هذا الحكم الجائر على تلك الأمة الكريمة .

لو وصفت بها عادة من عادات الميزابيين ، أو بدعة مما قد تكون ، أو جماعة معينة محدودة لا حتملناها على مضض ، أما هكذا على الإطلاق فلا ياأخي ... وألف لا ...

إن كلمة الجاهلية لا يسوغ أن تطلق علي مجتمع يؤمن بالله ، ويقوم بواجباته الدينية في حرص وتشدد ، ويحافظ في عمومه على شعائر الله ، فلا يترك فرضا ولا ينتهك حدا .

ولا يستطيع الأُستاذ الدبوز ـ ولا غير الأُستاذ الدبوز ـ أن يزعم بحق أن الشعب الميزابي ـ في تاريخه الإسلامي الطويل أو في أي فترة من فترات ذلك التاريخ ـ كان قد انحرف عن سبيل الله وأعرض عن دينه فتخلى عن الواجبات وانتهك أو استباح المحرمات ، أو أن ذلك كان يقع فيه وهو راض ساكت لا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر .

كيف يجيز إنسان لنفسه أن يصف مجتمعا ـ يحرص على أداء الفرائض حتى يبالغ في الحرص ـ ويقاطع كل من يتهاون بفريضة أو سنة ، وينأى عن جميع المعاصي ويقاطع كل من يرتكب معصية ، ويقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويدين بالولاية والبراءة الشخصيتين ، فيحرص على محبة الناس في الله ومعاداتهم في الله بأنه كان في جاهلية .

لا شك أن هذا المجتمع قد تكون له عادات سيئة وقد تكون بينه بدع تخالف السنة وقد تكون فيه أفراد ينتهكون حرمات الله ، ويرتكبون الموبقات ، وهذا شيء طبيعي لا بد أن يكون في المجتمع ، ولكن وجود بعض البدع الغالبة على الناس أو بعض العادات السيئة أو بعض الأفراد المجان في مجتمع أغلب ما هو عليه الطاعة والعبادة لا يبرر وصفه بأنه في جاهلية . والشعب الميزابي في تاريخه الإسلامي الطويل أبعد ما يكون عن المجتمع

الذي صوره الأُستاذ الدبوز بتلك الصورة الشوهاء التي لا يمكن بحال أن تكون صورة له في أي عهد من عهوده الإسلامية . ولإبعاد هذه الصورة البشعة في ذهن القاريء الكريم عن ذلك الشعب الطيب نعود إلى نفس الكتاب صفحة 249 فقد جاء فيه ما يلي :

«لم يخل ميزاب من العلماء في وقت من الأوقات ، يقومون بالشؤون الدينية ، ويعظون العامة ، ويرشدونها . إن ميزاب في كل عهوده كان متمسكا بالدين غيورا عليه ، محافظا على نظامه الاجتماعي الإسلامي لا يبغي عنه بديلا ، ولا يرضى له أن يضعف أو يضمحل ، والدين يقوم على العلم ، وكذلك نظامه الاجتماعي ، فإنه بدون العلم في العزابة ورؤساء العشائر وجمعية الشباب وغيرها لا يؤتي أُكله ، لذلك كان الميزابيون حريصين في كل عهودهم على العلم ، غير أن انتشار العلم والثقافة فيهم يختلف في العهود التي مرت عليهم في ميزاب » .

ويقول في نفس الكتاب صفحة 241 ما يلي :

«فهو الشيخ عمي سعيد بن علي الجربي الذي وفد مع اثنين من العلماء فأحيوا وادي ميزاب بعلمهم بعد الجهالة التي استولت عليه في أوائل القرن العاشر الهجري ـ كما أرى ـ ثم لم ينقطع العلم في وادي ميزاب بعد ذلك» .

إن الفقرة الأُولى التي نقلناها لك هنا هي الصورة الحقيقية لوادي ميزاب . وهي الرد البليغ من الأُستاذ محمد علي الدبوز على تلك الصورة الشوهاء التي وردت في الكتاب . أما الفقرة الثانية فهي تنص كما ترى أن العلم في وادي ميزاب لم ينقطع منذ القرن العاشر . ومعنى هذا أن هذه الفترة قد مسحت ما وصف به الدبوز أهل وادي ميزاب في الفترة التي سبقت أبا زكرياء الأفضلي وهي ـ ولاشك ـ الفترة التي تقع بين عمي سعيد الجربي

وأبي زكرياء الأفضلي والتي كان فيها العالمان الفاضلان أبو مهدي عيسى وأبو يعقوب المصعبي كما كان بها أيضا العالم المناضل القوي أبو امحمد اليزقني .

وأرجو أن لا تغرك - أيها القاريء الكريم - كلمة الجاهلية والجهالة التي ترد على قلم الأستاذ الدبوز فهي له بمثابة ستار يحجب به العصور التي سبقت من يتحدث عنهم ، فعندما يتحدث عن عمي سعيد يضع تلك الستارة على القرن التاسع وما سبقه . وعندما يتحدث عن أبي زكرياء يضعها على القرن الثاني عشر ومن سبقه ، وعندما يتحدث عن القطب يسحب تلك الستارة ويضعها على العصور التي سبقته واقرأ إن شئت في نفس الكتاب وهو يتحدث عن جهود القطب في الإصلاح ، صفحة 325 ما يلي : « وكان الأب في عهد تلك الجاهلية». وهكذا بكل بساطة يعتبر الأستاذ الدبوز العصور التي سبقت عمي سعيد عصور جاهلية ثم يعتبر العصور التي سبقت أبا زكرياء عصور جاهلية وضاعت في هذه الصورة الآثار القيمة عن جهاد عمي سعيد ثم يعتبر أن العصور التي سبقت القطب عصور جاهلية وضاعت في هذه الصورة تلك الآثار القيمة التي نتجت عن كفاح أبي زكرياء وضياء الدين . وأحسب أنه حين يتحدث عمن جاء بعد القطب سوف يسحب نفس الستار ويحجب به عصر القطب . إن كلمة الجاهلية تقوم له مقام اللوح الأسود أو الخرقة السوداء عند المصورين تحصر له الضوء في بؤرة محدودة هي التي يريد إبرازها للقاريء في وضوح كامل . وإذا أزحتها عن جميع الصور فإن الصورة الصادقة لوادي ميزاب - في عصور الانحطاط والركود العام - تبقى هي الصورة التى رسمها له الأستاذ الدبوز في صفحة 249 من كتابه هذا وهي (1) .

إن ميزاب لم يخل في عهد من العهود من علماء أجلاء ولم

(1) أوردنا نص العبارة فيما سبق من هذا الفصل لمن شاء مراجعتها .

ينحرف الشعب عن الدين ، ولم تتمكن منه البدع وإن لم يخل منها . ولم يخل من رجال يوقومون لها ويقاومونها بشدة وإصرار ، والرجوع إلى من ذكرهم الأخ الدبوز في كتابه من علماء وصلحاء ميزاب والمصلحين فيه ، ومعرفة تواريخهم وعصورهم وقيام مجلس العزابة طوال هذا التاريخ بمهمته ،دليل كاف لإظهار الصورة الحقيقية لوادي ميزاب في كل فترات تايخها .

أما خرافة المرأة والميراث التي تحدث عنها الأستاذ محمد علي الدبوز مرتين في كتابه فأحسب أنه مما لا يتلاءم مع المنطق التاريخي . وما انجر إليه الأستاذ الدبوز استنادا على أخبار العوام ، والإشاعات المتناقلة بين الناس من أن الجهل قد سيطر على الوادي حتى أصبح أهله لا يعرفون فريضة الزوجة في الميراث فكانوا يعطونها النصف بدلا من الربع أو الثمن لا يثبت حقائق تاريخية ولا يدل عليها .

إن هذه القصة غير مقبولة إطلاقا . والميزابيون بأنظمتهم التي عاشوا عليها أحرص على المحافظة على الدين من أن يغيروا أحكام الله لهذه الدرجة .كما أنه لا يستساغ مطلقا بناء على قصة تُنقلها الإشاعات العامة أن نتهم العلماء الأجلاء الذين سبقوا أبا زكرياء والذين علموه ودربوه - بالجهل بالرضاء والسكوت عن هذا المنكر وهم الأشد حرصا على أحكام الإسلام - بل إنه لا يتأتى أن تجري أمثال هذه التغييرات في الفرائض المنصوص عليها في القرآن الكريم ونظام العزابة قائم يشرف على تنفيذ أحكام الله ، ويشرف على تصفية المواريث عقب الوفاة مباشرة .

إن قصة هذه المرأة إن صحت إنما هي قصة فردية ، امرأة كانت تعتقد أنها سوف ترث النصف من مال زوجها ، فحال أصحاب الحقوق دون ذلك فذهبت إلى أبي زكرياء الأفضلي العالم المتحرر - في نظرها - الذائع الصيت الذي لا يرد قوله . تستفتيه ،

وكانت مقتنعة أن الحق لها ، فلما أجابها بغير ما كانت تتوقع وتنتظر ، قالت كلمتها وهي تنصرف محنقة يعتصر ألم الحرمان قلبها . بل إن القصة لا تدل بمفهومها ومنطوقها إلا على هذا فلو كان اعطاء النصف للزوجة عملا جاريا معمولا به ، معروفا بين الناس ، لأعطى لهذاالمرأة نصفها ، ولما احتاجت هي أن تسأل أحدا . ولكن القضية هي أن أحكام الفرائض كانت تجري في ذلك المجتمع المسلم على ما وضعه الإسلام . وكان اعتقاد هذه المرأة يخالف ذلك . وربما قيل لها إن العالم الجديد له آراء أخرى غير ما عرفه الناس فأملت أن تحصل على فائدة وذهبت إلى أبي زكرياء مستفتية وشاكية ومخاصمة . فردها العالم الكبير إلى حكم الله ، ومهما كان الأمر فإن هذه القصة لا تصور إلا حالة فردية هي خطأ من الأخطاء التي يقع فيها الأفراد كل يوم . أو جهل بحكم شرعي مما يمكن الجهل فيه ، أو معصية مما يرتكبه الأفراد في كل مجتمع ، ولا يمكن أن نعطيها أكثر من ذلك مهما قيل عنها . أما الحكم على مجتمع مسلم بأنه في جاهلية لأن امرأة منه زعمت أن ميراثها من زوجها يجب أن يكون النصف وذهبت تستفتي العلماء في ذلك فليس من الحق وليس من الصواب وليس من حقائق التاريخ ، على أن ما كتبه الأستاذ الدبوز عن المرأة الميزابية وعن ثقافتها وتدينها في مختلف العصور من تاريخها ، ومحافظتها على نظام مجلس العزابة النسوي وما إلى ذلك يقوض أركان هذه الخرافة من أساسها ولا يبقي لها أي ظل . وعد إن شئت إلى نفس الكتاب ، فسوف تجد فيه : «وللنساء في ميزاب مجلس ديني من النساء العاملات الصالحات الورعات » . « يختارهن العزابة بدون تحيز ولا تعصب من العشائر » . «والمجلس الديني للنساء يعين مجلس العزابة في تثقيف المرأة الميزابية وتربيتها تربية دينية صحيحة » . «ان المرأة الميزابية بفضل التربية الدينية التي تكون لها من والديها وأسرتها والمجتمع . وهذا المجلس الديني الذي

يتعهد النساء وينفخ فيها الروح الدينية الصحيحية وو.... متمسكة بدينها كل التمسك تخاف الله وتراقبه في أعمالها . لا ترضى أن يخالف الدين أمامها . إنها امرأة صالحة » والمرأة المتدينة الصالحة لا تأخذ ما ليس لها بحق ، ولعله من المضحك أن يهتم الأستاذ الدبوز بهذه القصة كل الإهتمام ويوردها في كتابه مرتين شاهدا على أن الشعب الميزابي كان في جاهليته ، ثم يغرق في النزع فيعلل ذلك بأنه نابع من طبع ميزاب الموروث من البربرية في إكباره للمرأة وتقديره لها ، مع أنه في فصول أخرى من الكتاب يصفع البربر ، وينكر أن يكون الميزابيون منهم ، يقول في نفس الكتاب صفحة 167 ما يلي :

«ولا صحة لما يدعيه الاستعمار ومقلدوهم من أنهم بربر خلص ، فالبربر الخلص اذا أمكن وجودهم في المغرب (1) ففي رؤوس الجبال المنقطعة التي لا تعرف دولة ولا حضارة . أما الميزابيون فمتحضرون وأبناء أكبر دولة إسلامية نشأت في الجزائر ، اختلطوا فيها بالشعوب الإسلامية سيما بالعرب فالدماء العربية فيهم أكثر ، يدل على ذلك فصاحتهم العربية وخلوهم من اللكنة الموجودة في بعض أنحاء البلاد .» .

وسواء أكان الميزابيون بربرا أم عربا ، أم كانوا خليطا منهما ومن غيرهما ، أم كانوا خليطا من أحدهما ومن غيرهما ، فقد تكون منهم شعب ذو خصائص ومميزات احتفظ بها دون غيره لمحافظته على دينه ولابتعاده عن وصف الجاهلية لاتصافه بأخلاق الإسلام . وليس للمرأة في هذا الشعب قديما وحديثا غير مكانها الطبيعي . وليس للمرأة عند البربر أو عند العرب في القديم إلا مكانها كأم وزوجة وأخت وبنت ، وقد قيل عن البربر - أو قالوا عن أنفسهم في جاهليتهم - إنهم يكرمون الخيل ويهينون النساء ويعنون بذلك أنهم شعب جد وفروسية ونضال . وإن المتعة لا

(1) اقرأ عن هذا الموضوع ما كتبه الأستاذ الدبوز في كتابه : تاريخ المغرب الكبير الجزء الاول .

تستعبدهم ولا تضعف عزائمهم فتجعل منهم : أحلاس بيوت ، أو عبيد شهوات ، أو عبدة إناث .

وقبل أن أختم هذا الفصل يسرني أن أقف وقفتين قصيرتين ، أعرض في الأولى منهما رأيا عن المرأة الميزابية لأستاذنا الفاضل الشيخ باكلي عبد الرحمن بن عمر حفظه الله ورعاه ، وأعرض في الثانية رأي أستاذنا الفاضل الإمام بيوض ابراهيم في هذا المقال نفسه وفي قصة المرأة السالفة ، أرجو أن يتابعني القاريء الكريم فيهما لعله يستخلص منهما عبرة ، ولا شك أنه سيخرج منهما بفوائد .

الوقفة الأولى : في سنة 1965 وجهت سؤالا الى أستاذنا باكلي عن موقف العزابة في كفاح الباطل ، والرذيلة ، والظلم والبدعة ، وقد أجابني حفظه الله بجواب مطول بتاريخ 1965/1/2 جاءت فيه هذه الفقرة القصيرة «في كفاح البدع : مسألة البناء على القبور والتوسل بها ، مسألة الغاء ميراث المرأة على عادة الجاهلية وحسبما يجري به العمل الآن في بعض جهات القبائل ، عدم احتجاب المرأة عن أحمائها ». ويقول في مقدمته الطبعة الثانية لكتاب النيل صفحة 13 ما يلي :

«اشتهرت في أيامه ـ أي الشيخ عبد العزيز الثميني ـ عادات فاسدة كعدم احتجاب المرأة عن أحمائها ، وكفشو الوشم بين الرجال والنساء ، وتعاطي السعوط (الشمة) جهرا ، وكعدم توريث المرأة النصيب المفروض إلى غيرها» ، لعل القاريء الكريم لاحظ أن ما يقرره أستاذنا باكلي ـ حفظه الله ـ في موضوع ميراث المرأة يناقض تمام المناقضة مايقرره الأستاذ محمد علي دبوز ، فبينما يذهب الدبوز إلى أن المرأة في تلك العهود كانت تحصل على أكثر من حقها ، وأن الزوجة كانت تأخذ النصف من ميراث زوجها ، يقرر أستاذنا باكلي أنها كانت محرومة بالكلية .

والذي يستنتج من هذا أن الواقع الذي كانت تسير عليه الأحكام في عمومها وتحت إشراف مجلس العزابة إنما هو الحكم الذي جاءت به الشريعة الاسلامية وأنه قد يشذ عن هذه القاعدة أحيانا بعض الأفراد فيعطون أكثر من الحق أو يمنعون الحق ، ويثور من أجل ذلك جدال ونقاش ويقف العلماء بثبات حتى يضعوا الحق في نصابه فتروى عن ذلك قصص تنشر بين طبقات الشعب تغذيها الخيالات والأوهام وأهواء فتتسلل إلى أقلام المؤرخين .

الوقفة الثانية : كنت كتبت هذا الفصل وأنا متردد فيه ، ثم أخذت منه صورة وأرسلتها الى أستاذنا الفاضل الإمام بيوض أعرض عليه الفصل وأستشيره في نشره أو عدم نشره ، وقد جاءتني منه رسالة بتاريخ 1971/11/10 قال فيها ـ حفظه الله ـ ما يلي فيما يخص هذا الموضوع :

«رابعا الفصل المستشار فيه من فصول كتاب (الاباضية في الجزائر) لا نرى إسقاطه ولا إلغاءه ، فان نظريتكم في مناقشة الأستاذ معقولة ، ونحن نعلم كما تعلمون أنه إنما كتب ما كتب عن حسن نية ، وغفلة عما يتركه ذلك الوصف المبالغ فيه من أثر سيء عند من يتصيد أمثال هذه الهنات ، والباعث له حقيقة هو نفس ما عللتم به ، وقضية المرأة السائلة عن ميراثها من زوجها لا يمكن أن تكون بحال من الأحوال معبرة عن نزعة بربرية عريقة في تقديس المرأة ، وإنما هذا خيال مفرط . على أن قصة المرأة وسؤالها وقولها للعالم المفتي (هذه شريعة خضراء) إنما وقعت حقيقة ببلدة القرارة ، والعالم المسؤول شيخ عماني نزل القرارة وتزوج بها وعلم فيها ، وكان يلبس جبة خضراء ، ولذلك قالت المرأة قولتها تلك ، واشتهرت بين أهل القرارة ، وقد أدرك مشائخنا هذا الشيخ الجليل وعرفوه وسمعوا عنه ، وأعقب بنتا عرفت بين أمهاتنا ببنت العماني ،

وأنت خبير أن بعض هذه الوقائع وهذه الأمثال تنقل من بلد إلى بلد ، وينسبها الجاهلون بحقيقتها وموردها إلى أشخاص آخرين . وهذا كثير وكثير جدا .

وبعد ...فإن الفصل آتيك ضمن هذا الكتاب ، وإذا أمكنك أن تمر بيدك الناعمة عليه ، فما أحسست من خشونة في كلمة صقلته (1)

وإن له لفضلا كبيرا فيما يعانيه من إبراز تاريخ أُمته جملة وتفصيلا كما يليق بكرامتها » .

أحسب أنه لم يبق ما أزيده بعد هذه الكلمة الرائعة لأُستاذنا العظيم حفظه الله ورعاه سوى أن أشكر الأُستاذ الدبوز محمد علي ، على مجهوده العظيم القيم ولقد كان كتابه هذا وكتبه الأُخرى من بين المراجع الهامة التي اعتمدت عليها ورجعت إليها في كثير من الأحيان واستفدت منها فوائد جلى ، ساعدتني في أبحاثي وتكوين آرائي .

أعان الله الأُستاذ الدبوز على إتمام ما عزم عليه ، ويسر له الوصول إلى ما يصبو إليه من خدمة الأُمة والوطن .

---

(1) بعد رسالة أُستاذي الفاضل الإمام بيوض ابراهيم حفظه الله رأيت أنه من واجبي أن أنشر الفصل وأن أعود إليه فأعيد صياغته وقد حذفت منه جملا وزدت فيه جملا ، واستشهدت برأي استاذنا بكلي حفظه الله فإنني لم أعرض له في الفصل حين عرضته على أُستاذي حفظه الله فإن كان في الفصل ما يحرج إحساس أخي وزميلي الدبوز فأنا أعتذر إليه وهو يعلم أني من أبناء الجبل لابد أن يكون في طبعي شيء من طبعه وفي أُسلوبي بعض من خشونته .

ميزاب في نظر مستشرق

إن للمستشرقين والمستعمرين الغربيين أساليبهم الخاصة عندما يكتبون عن أي بلد من بلدان الشرق وهم يدعون النزاهة والعلمية ، ولكن الواقع أن الكثير منهم لا يدعون فرصة تفوتهم لكي يبثوا السموم فيما يكتبونه عن الشرق ، وهذا مستعمر فرنسي كتب عن الجزائر وعن ميزاب ، وفي كتابه كثير من المغالطات والسموم ، وفيه بعض الحقائق ، ولقد طلبت من أُستاذنا الفاضل الشيخ عبد الرحمن بكلي أن يترجم لي الفصل المتعلق بوادي ميزاب فأجاب مشكورا ، وقد رأيت أن أنقل عنه بعض الفقرات وأن أترك كثيرا من التشويهات والأكاذيب دون أن أثقل بها على القاريء الكريم وربما أنقل له واحدة من الأكاذيب كنموذج .

قال شيخنا باكلي عبد الرحمن ما يلي :

«الكتاب هو كتاب : صحراء الجزائر ، تأليف العقيد توماس المدير المركزي للشئون العربية بالجزائر ، نشره بإجازة المارشال دوق دي دالماس رئيس وزراء فرنسا يومئذ ووزير الحرب مطبوع في باريس 1845 م . بعد أن ساق خلاصة يظن أنه استقاها من بعض خصوم الميزابيين تشمل على ما ينبزون به من قبل مخالفيهم الذين ينظرون اليهم كمارقين من الدين . قال : «ومهما كان الأمر فإن الميزابيين أشد تدينا من العرب ، يتخذون ثيابا خاصة بالصلاة ، لا يسكرون ، ولا يزنون ، يصومون ويصلون ويسبغون الوضوء ، يبالغون في تطهير تقاليدهم إلى حد التشديد والغلو ، فهم يعتبرون لذلك زهاد الصحراء المصلحين .

وللواحد منهم - وهو الواقع - أن يتخذ زوجات أربع ولكنهم يحجبونهن عن أعين الناس عكس أعراب البادية ، فالابن لا يمكنه أن يرى سوى أُمه ، والأخ لا يسوغ له أن يرى زوجة أخيه، فإذا

خرجن خرجن متلفعات إلا عينا واحدة ، الزاني عندهم يرجم ، ويغرم غرامة باهظة ويعزر خمسمائة جلدة ويغرب ، فهم متدينون محافظون على عقيدتهم ، أعداء الكذب ، يموت الواحد أحدهم جوعا ولا يخون الأمانة المودعة عنده فكأن لسان حاله يقول لها : حفظك الله نامي فأنا ساهر عليك .

لا يأكلون الا ما يطبخونه ويحضرونه بأنفسهم عفة ومبالغة في الزهد ، لا ينشقون السعوط ولا يدخنون ، ويرون ذلك محرما شرعا ويرون الإسكار جريمة بحيث لو سكر يهودي لفتشوا محله ، وقد يفتشون محال ذويهم أحيانا وما عثروا عليه لديهم من جرار الخمر حطموه في البطحاء العامة بين سمع الناس وبصرهم ، وإذا زنت يهودية غربت بكيفية مخجلة وهذ ما يؤسف له » .

وبعد كلام يقول : « ولقد تسرب بعض اليهود إلى ميزاب فآووهم وأظهروا معهم تسامحا لم يجدوه مع غير الميزابيين على شرط أن يخضعوا لقوانين البلاد ويحترموا تقاليد الذين آووهم ، ويتمتعون معهم بحريتهم كاملة : لهم كنائسهم وأحبارهم ومدارسهم . ويسمح لهم أن يلبسوا لباسا يشبه لباس الميزابيين على أن تكون لهم علامة تميزهم ، وذلك أن لا يلبسوا الحائك . وأن يعتموا بعمامة سوداء ، وليس لهم أن يركبوا الخيل ، ولهم - كما في الأماكن الأخرى - أن يحترفوا التجارة والحلاجة والصباغة والصياغة » .

وبعد كلام يقول على من يريد أن يكون ميزابيا أي أن يتحصل على الجنسية الميزابية :

«واذا قبل أحدهم ذلك فإن قبوله لا يتم الا باعترافه أمام الشيخ ، ورغم ذلك لايعتبر ميزابيا خالصا إلا بعد أربعين جيلا . هذه الخطوط الرئيسية لمنظمة إدارية دينية جديرة بالدراسة،

وتنقصنا لاستخراج العبر مع الأسف المعلومات الكافية الدقيقة عن أصل هذا الشعب الوحيد » .

هذه هي الصور التي أردت أن أعرضها عليك أيها القاريء الكريم ، وسوف أنقل لك تعاليق لشيخنا باكلي حفظه الله عن بعض النقط منها :

1 - التعليق الأول عن قوله «فالابن لا يمكن أن يرى سوى أمه»

قال شيخنا باكلي : «ليس الأمر كذلك بل يباح له أن يرى المحارم اللائي حرم الله عليه زواجهن المذكورات في قوله تعالى : ﴿ **حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن ، فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ، وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ، وأن تجمعوا بين الأختين الا ما قد سلف ، ان الله كان غفورا رحيما ، والمحصنات من النساء** ﴾ (1) .

2 - التعليق الثاني عن قوله : «الزاني يعزر خمسمائة جلدة» . قال شيخنا باكلي حفظه الله : فالله يقول :﴿**الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة**﴾ (2) لا خمسمائة جلدة .

3 - التعليق الثالث عن قوله « لا يعتبر ميزابيا خالصا إلا بعد أربعين جيلا» قال شيخنا باكلي حفظه الله : ليس الأمر كما قال المؤلف من أن الذين يدخلون الجامعة الميزابية لا يعتبرون لديهم ميزابيين أقحاحا إلا بعد مضي أربعين جيلا ، فالواقع التاريخي

(1) النساء 23 ، 24 . (2) النور : 2

ينفيه لأننا وجدنا عائلات كثيرة من مختلف قرى الوادي ـ ولا تزال إلى أيامنا ـ كانت مالكية فتأبضت ، وإنها لتعتبر من صميم الميزابيين ، ولا يكاد يستشعر من لا يعرف سابق أمرهم شيئا اللهم إلا إذا بقيت عائلة على سيرتها الأولى من رقة الدين وفسولة الأخلاق فيحترز منهم لذلك كما يحترز من الإباضية الأصلاء إذا كانوا كذلك لا لأجل أنهم كانوا فصاروا .

على أن غالب العائلات التي كان أصلها عربيا فتوطنت ميزاب لا فرق بينهم وبين من سبقهم بأجيال على أننا لو ناقشنا أصل النظرية لوجدناها غير واقعية . ذلك أن الجيل عبارة عن أربعين سنة على أصح الأقوال ، وأربعين جيلا عبارة عن 1600 سنة ، ولم يكن لميزاب بمدنه الحالية هذا العمر ، فالنتيجة أن سكان ميزاب ليسوا بميزابيين أقحاح ، وهذا تناقض وقضية باطلة من أساسها لا يقول بها أحد حتى المؤلف نفسه على ما يظهر .

ولا يبعد أن يكون قد استوحى هذا الزعم من معاملة بعض الجهال العنصريين الذين لا يخلو منهم زمان ولا مكان، معتمدا اثباتها كحقيقة تاريخية لحاجة في نفسه على ما أرى . لأن مؤرخي الغرب وإن تظاهروا بالتحقيق العلمي وبإنصاف التاريخ إلا أن عسلهم لا يصفو من مغافير إن لم نقل من سم . وغالبهم متشبعون بالروح الاستعمارية يخدمون ركابه بتآليفهم ولا يتورعون أن يزخرفوا نظريات من شأنها أن تحدث الخلاف بين صفوف الأمة عملا بسياسة «فرق تسد» ومؤلف كتاب (صحراء الجزائر) من القواد العسكريين المتشبعين بروح السيطرة والاستيلاء ، فلا نكون ظالمين إذا اتهمنا حسن نيته في هذا الميدان ، وإن لنا في هذه القطعة التي ترجمناها عنه لغمزات ، وإن تعمده الإطلاق في عبارته ابتغاء الفتنة كما في رقم 3 ورقم 4 لقرينة على صحة هذا الاتهام ، والاستعمار مكيافيلي النزعة مبدؤه : الغاية تبرر الواسطة .

أما أن يكون ما أثبته توماس في النقط التي علق عليها وفيما لم ننقله هو واقع الأمة الميزابية فلا ولا . والتاريخ الحق يحكم بيننا ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

ميزاب في نظر مستغرب

إذا ظن القاريء الكريم أن ما تدل عليه كلمة (مستغرب) هو ضد ما تدل عليه كلمة (مستشرق) فهو مخطيء . بل إن المعنى الذي تدل عليه كلمة مستغرب هو نفس المعنى الذي تدل عليه كلمة مستشرق ، فهما كلمتان مترادفتان وكل ما بينهما من فرق أن كلمة مستشرق تدل على إنسان غربي يحمل فكرا غربيا ، وقلما غربيا ينطلق بهما إلى الشرق بدعوى خدمة العلم ليمهد للغرب وسائل احتلال جزء من الشرق ، إما احتلالا عسكريا ، أو فكريا ، أو خلقيا ، أو دينيا ، أو كل ذلك .

وأما كلمة مستغرب فهي تدل على أن إنسانا شرقيا ينطلق إلى الغرب بدعوى الحصول على العلم ، فيحصل على فكر غربي ، وقلم غربي ، ينطلق راجعا بهما إلى بلاده في الشرق ليقوم فيها بنفس الدور الذي كان سيقوم به المستشرق ، موفرا بذلك على دول الاستعمار ـ بكل معانيه ـ وعلى مؤسساته ، تلك المصاريف الباهظة التي كانت تتكبدها لتمويل المستشرقين والمبشرين وأشكالهم بمختلف الأساليب ، كما يوفر عليها حدة رد الفعل الذي يحدثه دخول أجنبي إلى مجتمع شرقي ليهدم ، وهكذا يبدأ المعول الهدام الذي صمم ـ خصيصا للشرق ـ في مصانع الغرب يتحرك داخل الحصن بيد أحد سكان الحصن يعمل بجد ورتابة معتقدا أنه أدى واجبا ، أو حصل على منزلة ، أو ملأ فراغا . وهو إنما أدى دورا ، ودخل في (حصالة) واشتغل على فراغ .

لقد نجح المستشرقون في مهمتهم أعظم نجاح ، فبهم استطاع الغزو الفكري أن يتغلغل في رؤوس الشرقيين ، والأضرار التي نجمت عن جهود المستشرقين والمبشرين في العالم الإسلامي كانت أفدح ألف مرة من أضرار التي تركتها فيه جحافل جيوشهم الجرارة ،

ولا شك أن الأضرار المادية التي خلفها الإستعمار العسكري قد استطاعت الشعوب الإسلامية أن تتلافاها بعد أن خرج الاستعمار العسكري من بلادها . أما الأضرار التي خلفها المستشرقون في العقائد والقيم والأخلاق والفكر فهي لا تزال تقرع في آذان المسلمين ، وقد اختفى شبح أولئك المستشرقين من بلاد الإسلام ، ولكن تلاميذهم (المستغربين) قد احتلوا مكانهم وأصبحوا يسيطرون على أعظم مؤسسات الثقافة والتوجيه ولا يزالون يوالون جهودهم بنفس الأسلوب وبنفس الحماس والنشاط ، ولم يتغير عند أكثرهم إلا الاسم . فبعد أن كان المستشرقون يحملون أسماء غربية مثل كريستو ، وفيليب ، وتوين ، صار المستغربون يحملون أسماء عربية مثل مصطفى ويحي وإبراهيم . أما الحقيقة فهي حقيقة واحدة يخفيها الأول تحت ستار خدمة العلم ، ويظهرها الثاني فوق بطاقة الجنسية .

هذه خاطرة خطرت لي وأنا أقرأ فصلا من كتاب أرجو أن لا يعلق عليها القاريء أهمية فيما نحن بصدده . ولننتقل إلى ما نريد من الحديث عنه في هذا الفصل .

أراد الدكتور يحي هويدي ان يكون فيلسوفا فتحصل على دكتوراه في الفلسفة من باريس ، وكتب في الفلسفة كتابات عدة يهمنا منها ـ هنا ـ فصل في كتاب (تاريخ فلسفة الاسلام في الشمال الإفريقي) ويبدو من قراءة ذلك الفصل أنه فتات من عدة موائد جمعت لتشغل حيزا من كتاب ، وسوف ننقل فيما يلي فقرات منه مع بعض (الملاحظات البسيطة والخفيفة) :

قال في صفحة : (51 ـ 52) ما يلي :

1 ـ «وحوالي 400 هـ (1009 ـ 1010م) انتهى مطاف الوهبية الإباضية في الشمال الإفريقي جنوب وارجلان في كريمة وسدراتة

بالجزائر ونزحوا إلى إقليم شبكة مأزب حيث ظلوا يعيشون حتى اليوم » في هذه الفقرة ملاحظتان :

إحداهما : يجثم عليها ظل المستشرقين الكالح بوضوح ، فتصوير الإباضية بصورة مجموعة من الناس تطوف من مكان إلى مكان حتى استقر بهم المطاف في مكان ما هي نفس الصورة التي خطرت للمستشرق نلينو حين صور الإباضية بأنهم فرقة نزحت من الشرق إلى الغرب تاركة وراءها عقائدها ثم جعلت تستعير العقائد من المعتزلة والشيعة لتملأ بها فراغ نفسها ، فقد قال نلينو : «فكان الجزء الأكبر من مذهب الإباضية في إفريقيا إذن معتزلي ، فهل هم أخذوه وهم في المشرق من قبل أن ينزحوا إلى بلاد المغرب ، أم هم تقبلوه في شمال إفريقيا تحت تأثير اتصالهم بالأدارسة من الشيعة » .

وهذه ولا شك صورة مضحكة ، ومما يزيد في طرافتها أن يأخذها الدكتور هويدي ثم يعبر عنها بأسلوبه الخاص كأنها نابعة من خياله هو لا من خيال نلينو مستعملا كلمة الطواف بدلا من النزوح .

والواقع الذي ينبغي أن يعرفه الدكتور هويدي أن الفرق الإسلامية بما فيهم الإباضية ليسوا فرقا متكونة من مجموعات متنقلة كطوائف الغجر تطوف من مكان إلى مكان . إن الإباضية هم السكان الأصلاء لأغلب مناطق المغربين الأدنى و الأوسط ثم عملت السياسة عملها فزحزحت بعضهم عن أماكنهم وأذابت بعضهم في غيرهم وثبت أهل وارجلان وسدراتة وبني مصعب على وضعهم ، وربما هاجر إليهم غيرهم فرارا من واقع أليم . ولا صحة لما توحيه عبارة الدكتور في قوله :انتهى بهم المطاف» . ولا قول المستشرق : «قبل أن ينزحو إلى بلاد المغرب» . فان الاباضية لم يعرفوا الطوافة بأي معنى من معانيها في جميع فترات تاريخهم ،

ولم يكن ابتداء عمران وارجلان وسدراتة وكريمة بالإباضية ابتداء من القرن الرابع كما ظن الدكتور ، وإنما كانت وارجلان ومنطقتها عامرة بالإباضية منذ دخل المذهب الإباضي إلى الجزائر في أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني الهجري وكانت في القرن الثالث تعتبر من أعظم عواصم الإباضية في شمال افريقيا ، ولذلك التجأ إليها يعقوب بن أفلح بعد تخريب تاهرت وأبو نوح سعيد بن زنغيل عندما طارده الفاطميون ليحتميا فيها وبها من ملاحقة المطاردين .

أما الملاحظة الثانية : فهي ذلك الخطأ الشائع الذي يقع فيه كل عربي ذي ثقافة غربية يعتمد على المصادر الأجنبية ، فينقل عنها أسماء فتأتي محرفة لأن النطق والكتابة في اللغات الأجنبية غير النطق في اللغة العربية ، ولأن بعض الأصوات الواضحة فى اللغة العربية ليس لها حروف في تلك اللغات أمثال العين والحاء والضاد .

والذي وقع فيه الدكتور هويدي هو أنه حرف ميزاب إلي مأزب نقلا فيما - يبدو - عن بعض كتب الغربيين عن بني ميزاب كما أن ما كتبه في هذا الفصل يدل علي أنه لا يفرق بين مأزب التي جاء بها والزاب ، أما كلمة ميزاب فلم ترد على لسانه في هذا الفصل لأنه لا يعرف حقيقة المكان ولا حقيقة أهله ، وإنما وجد فنقل دون معرفة أو فهم .

وقال الدكتور هويدي في نفس الفصل ما يلي :

2 - «وبنو مأزب يؤمنون بأن مثال الخلافة كان في الخلافة الكاملة أي في الخلافة في عهد الخلفاء الراشدين حتى عام 38 هـ ، وهوالعام الذي خرج فيه الإمام عبد الوهاب الراسبي على سيدنا علي بن أبي طالب (وقد قتل علي بعد هذا بعامين أي عام 40 هـ)»

هذه فقرة لا تحتاج إلى تعليق والمسلك الملتوي الذي سار معه المؤلف لا يبلغه الى مقصده وإذا كان بنو ميزاب يرون أن الخلافة الكاملة في الأُمة الإسلامية هي ما كان عليه الخلفاء الراشدون فإنه لا يخالفهم في هذا الرأي مسلم ولو خالفهم لم يجرؤ على إعلان خلافه . أما الاسم الخرافي الذي جاء به فلا نجد له ذكرا في مصادر التاريخ التي نعرفها ، ولعله يقصد عبد الله بن وهب الراسبي ، ولا نعرف أي معنى لخصمه سنتين من خلافة أمير المؤمنين علي . أما تعبيره الذي جرى عليه في هذا الفصل بقوله : «بنو مأزب يؤمنون» في قضايا ليست من مسائل الايمان ، فلا تدل الا على إحدى ثلاث : الاستهتار والاستخفاف ، أو الجهل ، أوالنقل المغفل البليد .

ويقول الدكتور هويدي في نفس المقال ما يلي :

3 ـ «ويؤمنون بأن من حق المسلمين أن يعتزلوا الخليفة إذا حكموا بانحرافه» عبارة أخرى ملتوية لا تقتضي الوقوف لأن الإلتواء فيها ظاهر لكل قاريء ولا مكان لكلمة (يؤمنون) في هذه الفقرة كالتي قبلها والتي بعدها ، أما جملة «إذا حكموا بانحرافه» فقد صيغت ـ على ما يبدو ـ هكذا بقصد ، والقضية ليست قضية بني ميزاب فقط وإنما هي قضية الأُمة المسلمة جمعاء ، منهم من يرى أن من حق الأُمة أن تعزل الخليفة إذا انحرف عن سبيل الله ، ومنهم من يرى لها الصبر والتحمل .

ويقول في نفس الفصل ما يلي :

4 ـ « ويؤمنون بأن الخلافة تكون بالانتخاب وإذا كان الأمر بيد سلطان الجور فلا بد من تأجيل الانتخاب »

هذا الكلام ساقط لا معنى له ولا داعي للإتيان به ، ذلك أن الأمر إذا كان بيد سلطان الجور فما موقفهم في التأجيل

أوالتعجيل ، ومادام سلطان الجور قائما فهل في إمكانهم أن يعجلوا الإنتخاب ، وهل في استطاعتهم أن يؤجلوا الانتخاب ، إنهم صابرون كما يصبر غيرهم على المحنة حتى تزول . وليس هذا موقف بني ميزاب فقط ، ولا هو موقف الإباضية فقط ، وإنما موقف الأُمة المسلمة جمعاء منذ بدأت تُنكب بسلاطين الجور ، لا خيار لها بين أمرين ، إما أن تخوض الدماء لقلب نظام الحكم ، وقد يتسلق الحكم من هو أسوأ من الأول ، وإما أن تصبر على مضض حتى يفرج الله .

ويقول في نفس الفصل ما يلي :

5 ـ وإباضية مأزب يعدون أنفسهم في دور الستر ، وهو الدور الذي بدأ بسقوط تاهرت عندما أعلن الإمام الإباضي يعقوب أنه لا مجال لانتخاب إمام بعده ، وكان ذلك حوالي عام 909 هـ (1503 ـ 1504م) .

تذكرني هذه الفقرة بنوادر مرت علي في بعض مطالعاتي منها : أن رجلا يتظاهر بالعلم والعقل والوقار ، سئل عن علي فقال : أليس هو أبو فاطمة ؟ قالوا : ومن كانت فاطمة؟ قال : امرأة النبيء ﷺ بنت عائشة أُخت معاوية وقد قتل علي في غزوة حنين .

ومنها أن رجلا جاء إلى الوالي يشكو أن جارا له يتزندق ، فسأله الوالي عن مذهب الرجل فقال : إنه مرجيء قدري ناصبي رافضي . فاستوضحه الوالي عن مقالته فقال : إنه يبغض معاوية بن الخطاب الذي قاتل علي بن العاص . فقال له الوالي : ما أدري على أي شيء أحسدك ؟ أعلى علمك بالمقالات ، أو على بصرك بالأنساب .

ولسنا ندري نحن والله على أي شيء نحسد الدكتور في هذا

الفصل ؟ أعلى اختياره للمراجع ؟ أم على فهمه للمصطلحات ؟ أم على معرفته لتاريخ ما يكتب عنه ، أم على تحقيقه للأحداث وأسماء الأشخاص ؟؟ ولعل الفقرة السابقة وحدها تعطينا صورة كاملة عن جميع ذلك .

وأرجو أن يفهم الدكتور هويدي وأن يعرف القاريء الكريم أن بني ميزاب خاصة ، والإباضية عامة لا يعرفون ما يشير إليه الدكتور من دور الستر هذا ، ولا يستطيع هذا الدكتور ولا أي مستشرق أو مستغرب أن يجد كلمة الستر أو السر عند الإباضية بهذا المعنى الذي يلوح إليه المؤلف ، ومن المؤسف أن يقع دكاترة مسلمون في مزالق أو مطبات يتعثر فيها المستشرقون لبعدهم عن فهم المسلمين واعتمادهم على الفهم المادي للكلمات المفردة في اللغة العربية .

ولعل السبب الذي أوقع هؤلاء الناس في هذا الخبط العشوائي يرجع الى نقطتين هما :

الأُولى : يجدون كلمة السر عند بعض فرق الشيعة في حديثها عن الأئمة المحتجبين فظنوا أن مثل هذا يكون عند الإباضية .

الثانية : أنهم يجدون كلمة الكتمان عند الإباضية ولا يفهمون المعنى الاصطلاحي الذي وضعت له ، فترجمها المستشرقون بمعناها اللغوي عندهم فلما أرادالمستغربون ترجمتها إلى اللغة العربية ترجموها بما تدل عليه تلك الكلمة في اللغات الأجنبية ، وهي السر والستر ، ثم وضعوا تحتها ما يجري في مخيلاتهم من معاني لهذه الكلمة مستوحين ولو من بعيد ما تقوم به الجمعيات أو المؤسسات السرية في بلادهم وما يشاع عن بعض فرق الشيعة في هذا المقام .

إن كلمة الكتمان عند الإباضية لا تتعلق بها أي أسرار ، وهي

ليست حالة خاصة ببني ميزاب ولا بالإباضية ، وإنما هي إحدى حالات أربع لا بد أن تكون عليها الأُمة المسملة الكاملة أو جزء منها بعد أن انقسمت إلى أجزاء ارتفعت بينها الحدود .

الحالة الأُولى :

أن تكون الدولة مسلة مسيطرة على بلادها عاملة بشريعة الله منفذة لقوانينه ، وأكمل صورة لهذا الوضع دون أي خلاف هي الحالة التي كانت عليها الأُمة الإسلامية تحت قيادة النبيء ﷺ في المدينة المنورة وفي عهود الخلافة الرشيدة ، وتسمى هذه الحالة (الظهور) .

الحالة الثانية : أن تكون الأُمة المسلة في حالة كفاح ونضال فعلي تحت قيادة دولة مؤقتة ، وأوضح مثال لهذه الحالة هي الثورة الجزائرية منذ قيامها حتى حصولها على الإستقلال ، وتسمى هذه الحالة (الدفاع) .

الحالةالثالثة :

أن تكون الأُمة المسلمة تحت سيطرة حكم غالب أجنبي أو منحرف لا تستطيع فيه الدفاع المتواصل ، ولكنه من حين إلى حين تقوم فرق من الفدائيين أو الثوار أو الشراة لمهاجمة الأنظمة الظالمة المسيطرة . وأظهر حالة لهذا في هذاالعصر هو فلسطين والجماعات التي تقوم داخل فلسطين بالأعمال الفدائية ، وتسمى هذه الحالة (الشراء)

الحالة الرابعة :

أن تغلب الأُمة المسلمة على حالها ويقضي الاستبداد وحكم الحديد والنار على أي نوع من المقاومة فيها فتبقى مشتغلة

بشعائرها الدينية فقط لا تقوى على (الدفاع) ولا على (الشراء) وهذه الحالة هي ما يسمى (بالكتمان) ، وأوضح مثال له في الماضي ، الامة الإسلامية عندما كانت بمكة والسلطان فيها لمشركي قريش ، أما في العصر الحاضر فقد كانت الأمثلة فيها كثيرة والجزائر كلها كانت في عهود كتمان في أغلب الحالات بعد الإستعمار الفرنسي ، ولو أراد المؤرخ الكبير أن يتتبع فيها أحداث التاريخ في الجزائر لا ستطاع أن يقسمها إلى ثلاثة :

قسم تكون فيه في حالة دفاع ، كما كانت في عهد ثورة الأمير عبد القادروالثورة التي أخرجتها من مسلك الدفاع إلى مسلك الظهور ، وقسم تكون فيه في حالة شراء كما كانت في بعض الانتفاضات الصغيرة التي كانت ما تنفك تثور هنا وهناك ، وقسم تكون فيه في كتمان وهي أطول الحالات التي مرت بالجزائر في عهد الإستعمار الفرنسي ، وفي نفس الظروف مرت على ليبيا وعلى غيرها من البلدان الإسلامية التي سيطر عليها الإستعمار لفترة من الزمن طالت أو قصرت . والأمة المسلمة في ليبيا في الفترة التاريخية ما بين سنتي (1930 ـ 1940) تقريبا هي في حالة كتمان أو في مسلك الكتمان على حسب ما عند الإباضية ، هذه هي الصورة الواضحة للكتمان وقد يلحق به اليوم تلك البلاد التي تقوم فيها دول لا تحكم بدين الله ولا تعمل بقانون شريعته ولا تلتزم بتنفيذ أحكامه ، وإنما تحكم بدساتير وضعها بشر من الشرق أو من الغرب ترجع إلى فلسفة الناس لا إلى شريعة الله ، فالشعوب الإسلامية التي تخضع لمثل هذه الدول هي في حكم الكتمان مهما كان مذهب الشعوب ومهما كان مذهب الحكام ، لإن أحكام الله فيها معطلة وليس في الموضوع أسرار ولا أستار ولا أدوار .

وقد ذكر الدكتور هويدي في الفقرة السابقةأن يعقوب بن أفلح أعلن عن دور الستر سنة 909 هـ (1503 ـ 1504 م)عند سقوط

تاهرت . والصحيح أن تاهرت إنما سقطت سنة (296 هـ) لاسنة (909 هـ) كما هو معروف في جميع كتب التاريخ ، ويعقوب بن أفلح لما سقطت تاهرت لم يكن في منصب حكومي ولكنه فر من تاهرت خوفا من العبيديين ، فعرض عليه بعض الناس أن يبايعوه بالإمامة فرفض ، ولما وصل وارجلان ، أُعيد عليه العرض من جديد فرفض لتقديره للظروف ولمعرفته أن ذلك لا يتم بعد أن تفرق جمعهم وخربت عاصمتهم ، ووقعت الفتنة والخلاف في بيت الإمامة نفسه فانقسم أتباعهم لذلك . فكل موقف يعقوب في هذا المقام هو امتناعه عن قبول البيعة ، ونصيحته للناس بعدم القيام بمغامرة ، الفشل فيها أقرب كثيرا من النجاح ، ومع كل ذلك فيعقوب لم يكن في ذلك الحين إماما ، وحتى لو كان إماما فإن الأئمة عند الإباضية ليسوا معصومين كأئمة الشيعة ، وأقوالهم وأعمالهم وآراؤهم وأحكامهم كلها لا منزلة لها في نفسها عند الإباضية ، وإنما منزلتها بمقدار ما انبنت عليه من أحكام الشريعة .

ء ومن هذا يتضح أن هذه الفقرة من كلام الدكتور ليست إلا نادرة أخرى مما ينبغي أن يصنف في كتب النوادر والملح ، لا في كتب التاريخ والفلسفة .

يقول في نفس الفصل ما يلي :

6 ـ «والتنظيم الذي يخضع له أهل المأزب قائم على هذا الأساس أي على أساس أنهم يمرون بدور الستر » .

هكذا ببساطة استطاع الدكتور أن يقدم مقدمات ويبني عليها نتائج : (يعقوب بن أفلح إمام الإباضية عند سقوط الدولة الرستمية في أواخر القرن الثالث أعلن عن دور الستر وذلك في القرن العاشر وخضع له أهل المأزب الذين بدأ تكونهم في القرن الخامس) ، إنها

أحداث تاريخية لا يفهمها إلا من أُوتي عقل دكتور فيلسوف .

ولكي يتضح الموقف اتضاحا كاملا للدكتور نقول له إن أهل وادي ميزاب لم يكونوا في أي يوم في دور ستر ، وأن يعقوب بن أفلح لم يعرف هذا الدور ولم يعلن عنه . وإنما كان بنو ميزاب كما كان غيرهم من الشعوب الإسلامية في فترات كثيرة من التاريخ في حالة كتمان ، وقد خرج بنو ميزاب والشعوب الإسلامية كلها من سيطرة الحكم الأجنبي وجعل الله الدول القائمة عليها عاملة بالإسلام فلا يبقى للشعوب الإسلامية جميعا إلا حالة الظهور التي يعرفها الإسلام وتعز فيه شعوبه .

7 ـ بعد الفقرات السابقة أراد الدكتور أن يتحدث عن نظام العزابة فركض وراء الخيال والأوهام ، ومزج بين ما يسمعه عن أدوار الستر عند الشيعة بما يسمعه عن أسرار وتحكم الكنيسة ، وخرج من ذلك بصورة ممسوخة جعلها لنظام العزابة . أجزاء تلك الصورة هي : أدوار الستر ، التوحد ، والإعتزال ، العزوبة وعدم الزواج ، جباية الأموال ، الاعتراف والغفران .

ولا شك أن القاريء الكريم يلحظ بوضوح ألوان الكنيسة وأصابع المستشرقين التي تغزل هذه الخيوط . والدكتور نفسه أحالنا في آخر الفصل على المستشرق الذي غزل خيوط هذا الفصل ، وكل ما قام به الدكتور من مجهود هو أنه سافر من الشرق إلى الغرب ليأخذ عن الغرب صورة لمكان في الشرق ليعرضه بمنظار الغرب في الشرق ، ولم يخطر له أن يصوره من مكانه القريب في الشرق لأن آلة الدكتور غربية ولا تسجل الصور إلا إذا وجهت من الغرب .

ويسرني في ختام هذا الفصل أن يعرف القاريء الكريم أن نظام العزابة نظام تربوي عملي لا سر فيه ولا أستار ، ولا يجبي

الأموال ، ولا يغفر الذنوب ، ولا يعتزل الناس ، ولا يشترط العزوبية ، وليست له فترة محدودة ولا هو مسلك من مسالك الدين فهو كما يكون في حالة الكتمان يكون في حالة الشراء ، وفي حالة الدفاع ، وفي حالة الظهور .

وبنو ميزاب الآن وهم في حالة ظهور والحمد لله بعد استقلال الجزائر لا يزالون يحتفظون بنظام العزابة ، ولعل أهم نشاطاته في عهد الظهور هو محاربة المعصية والقضاء على أسباب الرذيلة بمختلف أشكالها ، بالإضافة إلى القيام بمهام المسجد عموما وبشئون التعليم الديني ، وحفظ القرآن الكريم . ومن يزعم اليوم أن بني ميزاب يمرون في هذا العهد بدور سر أو ستر كما يفهم الدكتور هويدي ، أوهم في حالة كتمان ، فهو أحد رجلين : إما أنه رجل يجهل عما يتحدث ، وإما أن يكون رجل سوء يضمر الشر لبني ميزاب ، ويبغي أن يحطم المشاريع الضخمة الذاتية التي تقوم بها فيحاول أن يوهم الدولة الجزائرية اليقظة بأن هذا القسم من أبناء الشعب الجزائري البطل ، له ظاهر وباطن ، ولن يكون مثل هذا الرجل إلا جرثومة فساد يعمل لهدم الجزائر كلها بتهديم أجزائها .

ملاحظة :

من حق الدكتور هويدي علينا أن نذكر للقاريء الكريم أن الشعب الجزائري ـ بما فيه بنو مصعب ـ كان تحت الاستعمار الفرنسي حينما ألف الدكتور هويدي كتابه عن فلسفة الإسلام في شمال إفريقيا ، فبنو ميزاب كانوا ـ حينئذ ـ في حالة الكتمان كما كانت الجزائر كلها ، ورغم أن بني ميزاب تربطهم بفرنسا في ذلك الحين معاهدة حماية فهم أيضا في حالة كتمان لأنه بفرض الحماية الأجنبية على أي شعب مسلم يسقط الظهور ، وليس هناك حال وسط يجتمع فيها الظهور مع أي نوع من أنواع السيطرة ولو كانت اسمية .

وقفة مع الأُستاذ الكعاك

قال الأُستاذ عثمان الكعاك في كتابه القيم «موجز التاريخ العام للجزائر» صفحة 206 ما يلي :

أي حظ يكون للأدب العربي في بلاد سكانها بربر وملوكها عجم » .

عبارة براقة تستهوي القاريء لأول مرة ويراها حقيقة جديرة بالتصديق ، ويؤكدها في نظر الباحث أنه بالفعل لا يجد عند الإباضية ـ سواء في عهد الدولة الرستمية أو فيما بعدها ـ ما ينشده من الأدب .

فلا مقطوعات في وصف الخمر ولا مطولات في مدح الملوك ولا قصص دعارة تروى عن مجالس السمر .

فلماذا هذا؟ ألأن السكان بربر والملوك عجم ؟ وهل البربر والعجم لا يقولون الشعر ؟ وهل كانت الثروة الأدبية عند العرب أكثر منها عند العجم ؟ .

لا شك أن اللغة ـ أية لغة ومنها اللغة العربية ـ أداة تعبير تكشف عما يختلج في النفوس ، وقد امتلك ناحية اللغة العربية عجم وبربر فكتبوا بها الأدب وكتبوا بها الشعر ، وربما كان المستوى الذي بلغه فيها الأعاجم بما فيهم البربر لا يقل عن المستوى الذي بلغه العرب . والشخص الذي يتكلم العربية بطلاقة ويكتب بها بسهولة ، مهما كان جنسه لا يعجزه أن يقول بها الشعر إذا وجدت عنده الدوافع النفسية لذلك .

ولكي أُؤكد هذه الحقيقة أستطيع أن أقول إن الإباضية قد زاولوا الشعر واستخدموا اللغة العربية بل وطوعوها في بعض

محاولاتهم ، لقد قالوا شعرا جيدا في الحكم ، وقالوا شعرا جيدا في الرثاء ، واستخدموا الشعر في مجال العلم فنظموا المتون الطويلة في الشرعيات أُصولا وفروعا ، وبلغت الأراجيز عندهم إلى خمسين ألف بيت (1) ، وبلغت القصائد الأُخرى إلى ثلاثمائة بيت ، فهل يرى القاريء الكريم أن الشخص الذي طوع اللغة العربية بهذه المقدرة فنظم بها مئات الأبيات في مادة جافة جادة ومصطلحات محددة معينة يعجزه أن ينظم قصيدة في ميدان الشعر يتغزل فيها بجارية أو يصف فيها عربدة سكران إذا وجدت دوافع ذلك في نفسه ، وجرت أحاسيسها في خاطره .

إن الملوك الذين يقول عنهم إنهم عجم ، يقوَل هو نفسه عن بعضهم إنه فسر القرآن الكريم ، ويقول عن آخر أن له مؤلفات ورسائل هامة ويصف ثالثا بأنه قال شعرا رائعا في النصائح والحكم ، ويصف رابعا بأنه يحب الشعر والأدب وأخبار الماضين فهؤلاء أربعة من ستة ملوك الدولة الرستمية الأعاجم ، فهل يعجز هذه الطبقة بهذا المستوى أن تقول الشعر أو تكتب في الادب باللغة العربية إذا وجدت الدوافع في أنفسهم ؟ ولا أحسب أن شخصا يصدق أن الأعجمي إذا بلغ علمه بالعربية إلى ما بلغ إليه هؤلاء لا يستطيع أن يقول الشعر ، لا لشيء إلا لأنه لم يولد في نجد أو تهامة . والدليل على صحة هذا أن أفلح أحد هؤلاء الأعاجم عندما وجد الدوافع في نفسه قال شعرا لا يقل جودة عما قاله غيره من الفحول بشهادة الأُستاذ عثمان الكعاك نفسه .

ولا شك أن العرب أنفسهم ، العرب الحقيقيون الذين ولدوا في جزيرة العرب ، والذين كانت اللغة العربية هي أداة تعبيرهم الوحيدة وبالسليقة لم يكونوا كلهم شعراء ولم يشتغل منهم بالأدب

---

(1) من آخر من نظم في هذا الباب الشيخ الحاج يوسف بن حمو اليسجني ، فقد نظم أبواب الفقه في ثمانية وأربعين ألف بيت وهو بربري إباضي .

الا عدد يسير ، أي أنه لم يشتغل منهم بالشعر والأدب إلا أولئك الذين وجدت في أنفسهم الدوافع .

وبناء على هذا فنحن نرى أن عدم ازدهار الأدب والشعر عند الإباضية عموما ، وفي عهد الدولة الرستمية خصوصا ، لم يكن صادرا عن عجزهم عن اللغة العربية لأنهم عجم أو برابر .

بل لعل البربر والعجم من الإباضية كانوا متمكنين من اللغة العربية أكثر من غيرهم ، أو على الأقل أكثر بكثير من الذين كتبوا بها ونظموا الشعر . ولذلك فيجب أن نبحث عن أسباب عدم ازدهار الأدب عندهم في غير العجز اللغوي .

لقد قلت إنهم حين وجدت عندهم الدوافع وأرادوا أن يقولوا الشعر في الحكم والزهديات والرثاء ، قالوا وأجادوا وتركوا في هذا الباب تراثا قيما على مختلف العصور ، فهم متمكنون من الأداة التعبيرية التي هي اللغة العربية وليست هي التي تنقصهم - وإن كانوا عجما وبربرا - بل إنني أستطيع أن أزعم أن لهم في العصر الحاضر في الجزائر مجموعة من الشعراء لا يقل وزنهم عن أمثالهم في البلاد العربية .

والشاعر الجزائري الذي كان يقول منافسا لشوقي في إمارة الشعر عندما اتفق شعراء العربية عل بيعته :

نشأ الامير مع الأمير منعما ... لين الرياض يغازل الورقاء
ونشأت مقصوص الجناح معذبا ... أقضي الحياة مضاضة وشقاء
لو ذقت من كأس النعيم صبابة ... لغدوت أحمل للقريض لواء
إن الجبان على البلاد مصيبة ... عظمت فيا أرض ابلعي الجبناء

بربري إباضي إذا تحدث باللغة البربرية لم يكن أقل كفاءة فيها من أبي سهل الفارسي ، فما هذا السبب الحقيقي في فقدان الأدب

والشعر عند الدولة الرستمية خصوصا وعند الإباضية في المغرب عموما؟

إن جميع ألوان الثقافة وفنونها لها بيئات لا يمكن أن تعيش إلا فيها ولها دوافع نفسية لا يمكن أن تنبعث إلا منها ، فإذا فقدت البيئة أو فقد الدافع لم تخرج تلك الثقافة أو ذلك الفن إلى الوجود .

ولإيضاح هذه الفكرة أستطيع أن أضرب مثلا قريبا يدركه كل الناس ، لقد كان النحت والتصوير من أبرز الفنون التي ازدهرت في الدول المتحضرة وقد بلغ فيها الرومان والإغريق شأوا قصر عنه الآخرون . فإلى أي مدى استطاع العرب أن يبلغوا في هذا الميدان ؟ لقد ازدهرت الحضارة في العصر الإسلامي ولا سيما في عهد الدولتين الأموية والعباسية وبلغت مرتبة رفيعة في فن النحت والرسم ؟ أحسب أن المنصف سوف يجيب بأنه لا شيء .. وهذه هي الحقيقة . وأدوات التعبير في هذين الفنين إنما هي الإزميل والمطرقة أو الريشة واللون ، فهل كانت الدولتان العظيمتان يعوزهما الحصول على مطرقة وإزميل وقطعة من الجبس أو الحجر ؟ أو يعوزهما الحصول على ريشة ولون وسطح يصلح للرسم ، فعجزت عن النحت والتصوير لعدم وجود الأداة .

إن من يقول مثل هذا الكلام لا شك أنه يغالط البديهيات ، والواقع أن عدم ازدهار النحت والتصوير في الدولتين السابقتين إنما هو انعدام البيئة التي تتطلب النحت ويعيش فيها ، وتتطلب التصوير ويعيش فيها ، ثم عدم وجود الدافع في نفوس الفنانين وعدم إحساسهم به .

ربما أوضح لنا المثال السابق ما نقصده في الحديث .

إن الأدب والشعر بصفة خاصة لم يجد عند الإباضية بيئة صالحة

يعيش فيها ولم يجد دافعا في نفوس أهله وإحساسا به فلم يكن . ولعل القاريء الكريم يريد أن يعرف صورا من البيئات التي يعيش فيها الأدب والشعر وأمثاله للدوافع والأحاسيس التي تبعث الشعر من أفواه الشعراء ، فإلى القاريء الكريم ما يلي :

لم يتخذ الملوك العجم كما يقول الأستاذ الكعاك في الدولة الرستمية مجالس للسمر يطوف فيها الغلمان بالكؤوس المعتقة ، وتغني فيها الجواري بالأصوات الساحرة ، وتتناجى فيها العيون باللغات الصامتة ، وتهتز فيها الخصور والأرداف بالحركات الخليعة الماجنة ، وتنطلق فيها كفا الملك إذا لعبت به الخمرة وأخذته النشوة تنشر الدراهم والدنانير دون حساب ، هذه بيئة صالحة يعيش فيها الأدب والشعر والدراهم المنتثرة والخمور المعتصرة ، والخصور غير المتزرة دوافع لتحريك الشعر في نفس كل متلهف إلى المال أو إلى الجمال أو إلى الجريال ، وكل هذه الأشياء لم تكن في تلك الدولة التي ملوكها عجم وشعبها بربر ، فلم تكن البيئة ولا الدوافع .

وبيئة أخرى صالحة للأدب والشعر لم تكن عند الإباضية البربر والملوك العجم، وذلك أن المجتمع الإباضي المتزمت لم يسمح للمرأة الإباضية أن تنطلق خارج بيتها تغترف الماء من النبع أو تجني الثمار من الأجنة ، أو تقطف الزهور من الحدائق ، أو تنشق النسيم العليل بين الزنابق والورود ، فيلتقي بها شاب جميل ظريف يذكر لها أنه أحبها من أول نظرة ، وهام بها من أول خطرة ، ثم يقول وتقول ويوميء وتوميء ، وتتخلج وتتحرك ، وتتزايل وتتمايل ، ثم تتدلل وتتمنع ، وتنشأ عن ذلك قصة تحكى ، وأشعار تروى ، وغزل يستفيض ويحفظ ، هذه بيئة صالحة للأدب والشعر فيها دوافع للقول لم توجد عند الدولة الرستمية ولا المجتمعات الإباضية فلم يزدهر فيها الادب ولم ينبع فيها شعر . ولم يسمح المجتمع

الإباضي المتزمت للصبية الحسناء أن تنطلق وراء البهم تجري بها بين مشارف الأجنة وضفاف الأودية ، فيلتقي بها شاب قوي العضلات واضح القسمات يرعى قطعانا من الماشية فيلقي إليها بالكلمة الغزلة الرقيقة تستجيب لها أحاسيسها ، ويمتنع في الأول حياؤها ثم لا يزال حتى يعزف لها فتستجيب وتجلس إلى جانبه يداعبها الأمل ويربطها الغزل وتفصلها النجوى عن عوالم الناس حتى يستفيض خبرها ويبلغ إلى الأهل فتمنع الفتاة عن الخروج ويبدأ الشعر ينطلق من أصدقهما حبا وأكثرهما لوعة ، هذه بيئة ودوافع لم يكونا موجودين في المجتمع الذي وصفه الكعاك بأنه أعجمي بربري لا يستطيع أن يقول الشعر ولا أن يهتم بالأدب .

إن الملوك الذين وصفهم الأستاذ الكعاك بأنهم أعاجم والذين حكموا الإباضية في المغرب الإسلامي لم يتخذوا لأنفسهم عروشا في قصور محجبة لا يصل إليها عن طريق الحاشية إلا شاكر نعمة حقيقية أو وهمية أو شاعر متكسب يدفع البيت من الشعر بميزانه من الذهب وعلى قدر ما يزداد كذبه علي نفسه ويزداد كذبه على الملك الذي يمدحه تزداد قيمة القطعة أو القصيدة الشعرية .

هذه أيضا بيئة لم تكن ، وإنما كان أولئك الملوك العجم المساكين يجلسون على الحصر في المساجد ويتصلون بالناس جميعا ، ويتلقون مشاكلهم مشافهة ومباشرة .

وهنالك بيئة أخرى أيضا قد تكون صالحة للشعر ، وقد يكون فيها دوافع لقوله ولكنها أيضا لم تكن عند هؤلاء الناس فلم يوجد عند الإباضية أوقات من الفراغ يتجمع فيها الناس للهو البريء أو غير البريء يتخلون فيه عن الجد والوقار ساعة من ليل أو نهار ، وتنطلق فيها نفوسهم في عبث مستمر ضاحك لاعب كلعب الأطفال يجد فيه الشعر متنفسا له وتعبيرا عنه .

إنهم كانوا أكثر جدية من كل ذلك .

تلك بعض البيئات التي يزدهر فيها الأدب ويعيش ، وهي بيئات لم توجد عند الإباضية ، وحين توجد ينبت فيها الأدب ويقوى ويزدهر ، واذا رجعنا إلى تاريخ الإباضية الطويل في المغرب الإسلامي بما فيه العهد الرستمي قد نجد قصائد أو مقطوعات من الشعر الرائع ، إما في وصف الطبيعة وإما في ممازحة الإخوان وإما في الحكم والنصائح ، ومعنى هذا أنه حينما وجدت البيئة الصالحة لهذا النوع من الشعر نبت ونما ، وينتج عن كل هذا أن الأدب العربي وبخاصة الشعر لم يزدهر في الدولة الرستمية وعند الإباضية عموما ليس لأن سكان بلاده بربر ، فإن من البربرمن قال شعرا لا يقل روعة عما قاله امرؤ القيس والمتنبي وشوقي ونزار ،ولا لأن ملوكها عجم ، فإن من العجم من قال شعرا باللغة العربية يعجز عنه أبناء يعرب وقحطان . ولعل الذين اهتموا بالأدب العربي وخدموه خدمة صادقة مثمرة من الأعاجم أكثر ممن خدموه من العرب . ولكن الشعر والأدب لم يزدهرا في الدولة الرستمية وعند الإباضية عموما لأنه فقد البيئة الصالحة والدافع الحقيقي الذي يثيره في نفس الشاعر فيسيل نفثات على لسانه أو قلمه .

ولعل هذه الصورة تشبه من قريب أو من بعيد الحالة التي كان عليها الشعر في عهد الخلافة الرشيدة لا سيما في شطرها الأول .

وهذا لايمنع أن هناك ألوانا من أدب قد ازدهرت في تلك الدولة وبلغت شأوا لا يقل عن شأوه في مثيلاتها من الدول العربية ، ذلك هو الأدب الجدي الذي يتمثل في الكتب ، والرسائل ، والمواعظ ، والخطب ، والنصائح ، وفي المدائح النبوية ، وقصائد الرثاء ، والإخوانيات ، وعلى الأخص الحكم والنصائح .

مع الدكتور أحمد مختار عمر

بعد أن كتبت الفصل السابق وقع في يدي كتاب للدكتور أحمد مختار عمر تحت عنوان : «النشاط الثقافي في ليبيا» تحدث فيه عن الأدب الإباضي فرأيت أنه يقرر ما أشرت إليه في الفصل السابق استنادا إلى دراسات أجراها فأحببت أن يطلع القارىء على بعضه ، فقد جاء في الصفحة 177 ما يلي :

«يدخل تحت هذا العنوان (الأدب) نوعان من المادة ، أولهما : الانتاج الأدبي من شعر ونثر ، وثانيهما : الدراسات المتعلقة بتاريخ الأدب وتوجيهه ونقده .

أما الإنتاج الأدبي فقد كان وفيرا سواء في مادته الشعرية أوالنثرية وإن كانت في حدود المادة التى وصلتنا ـ أصغر حجما وأقل جودة من نظائره في بعض البلدان العربية الأخرى ـ ونقول في حدود المادة التي وصلتنا ـ لأن هناك أسماء وإشارات يتناقلها المؤلفون، وتحويها بطون كتب الأدب تؤكد وجود مادة كثيرة ضاع بعضها ، وطمر بعضها الآخر داخل خزائن الكتب والمخطوطات .

وحتى نبتعد عن التعميمات ما أمكن ، رأينا أن نفصل الإنتاج الأدبي للإباضيين عن غيره لما للأول من سيماء خاصة تميزه ، ولهذا قسمنا البحث الى قسمين رئيسيين وهما :

1 ـ الأدب في ظل الإباضيين .
2 ـ الأدب في سائر أنحاء ليبيا .

ويقول في صفحة 178 ما يلي :

«أما النثر بنوعيه ، والشعر عند الإباضيين فسنتناول كلا منه في

جملة واحدة ، نظرا لندرة المادة التي تحت أيدينا وعدم إسعاف المراجع لنا بقدر يسمح بالتحليل والتتبع التاريخي والمقارنة واستخلاص النتائج »

ويقول في نفس الصفحة :

«الأدب في ظل الإباضيين : معلوماتنا عن هذا الأدب جد ضئيلة لقلة المراجع التي حفظت نماذج منه من ناحية ، ولصعوبة الحصول على كثير من هذه المراجع من ناحية ثانية ، وبعدم اعتناء الإباضيين بوجه عام بتسجيل أدبهم - من ناحية ثالثة - فيما عدا ما له غرض ديني أو سياسي أو تعليمي .

ومع ذلك يمكننا أن نقول إن جانب النثر عند الإباضيين قد فاق جانب الشعر ، وإنه جاء إلينا في شكل خطب أو وصايا أو رسائل ديوانية أو أقاصيص تعليمية أو حكم أو أجوبة » .

وقد أورد المؤلف أمثلة للنثر ما يلي :

1 - خطبة أبي الخطاب المعافري في أهالى طرابلس يحثهم على الجهاد .
2 - خطبة من الخطب الجمعية في الدولة الرستمية .
3 - وصية السمح عامل الإمام عبد الوهاب حين حضرته الوفاة .
4 - وصية الجدة «تابركانت» للعزابة .
5 - وصية أبي محمد اللواتي لقومه .
6 - رسالة أبي منصور إلياس إلى أبي العباس بن طولون .
7 - رسالة الإمام أفلح إلى نفاث بن نصر .
8 - رسالة الإمام عبد الوهاب إلى أهل طرابلس .
9 - قصة أماني النسوة الثلاث .
10 - حكم لأبي عبد الله محمد بن بكر .
11 - نصيحة أبي إسحاق الاشارني .

12 - نصيحة أبي الخير ثوزين الزواغي .

وبعد أن أورد النصوص السابقة علق عليها بما يراه ، ثم انتقل إلى الحديث عن الشعر فقال في صفحة 188 ما يلي :

«على الرغم من قلة ما تحت أيدينا من الشعر الإباضي فإن الشواهد تدل على أنه كان هناك شعراء إباضيون كبار ، وأنه كان من حكام الإباضية من يتذوقون الشعر ويجازون عليه ، وأن هناك من الشعراء الأجانب من قصدوهم طلبا للعطاء ، وقد ظهر ذلك وبشكل واضح تحت حكم الدولة الرستمية التي عرف عنها احتضانها للعلم وتشجيعها للأدب ، وعرف عن حكامها الشغف بالبحث والاطلاع والتأليف ، ومن الشعر الذي وصلنا ما يلي :

1 - قصيدة الإمام أفلح وتشطير للشيخ علي بن احمد العماني لها .

2 - قصيدة أبي يعقوب يوسف بن ابراهيم في رثاء أبي سليمان أيوب بن اسماعيل .

3 - نماذج كثيرة من شعر أبي نصر ونثره .

4 - نموذج من شعر أبي طاهر إسماعيل الجيطالي .

5 - نموذج من شعر أبي عبد الله محمد بن زكرياء الباروني » .

وقد ناقش كل نص من النصوص السابقة ونقده وعلق عليه ، ومما جاء عن النص الأول : « أما قصيدة الإمام أفلح فتكشف عن شاعرية صاحبها ، وإن كان يغلب عليها الطابع التقريري الوعظي » . «فعلى الرغم من هدفه التهذيبي التعليمي ، فقد وضع

في صورة خيالية معبرة ، جعلته يقف على قدم المساواة مع أبيات الحكمة المشهورة عند العرب ويدانيه في الجودة قوله :

ولا تكن جامعا للصحف تخزنها كالعير يحمل بين العير أسفارا

ومما جاء عن النص الثاني : «وأما قصيدة أبي يعقوب يوسف بن ابراهيم في الرثاء فهي أقرب إلى الشعر الخالص من كثير من النماذج الشعرية التي عثرنا عليها .

وقال عن النص الثالث : « وأما أبيات أبي نصر فتح بن نوح فلعلها - في معظمها - أقرب ما وصلنا من شعر الإباضية إلى روح الشعر وجوهره» . «ورغم أن بقية ما وصلنا من شعره في المواعظ والحكم فأنت تحس أثناء قراءته بقوة عارضة الشاعر وحسن اختياره لألفاظه وتحس في بعضها بعاطفة صادقة وشاعرية متدفقة » . «فيه إلى جانب ذلك حديث صريح عن مفهوم الشعر عند الإباضية وصفات الفخر عندهم وهي-

الشغف بطلب العلم ، وملازمة الأخيار ، وعدم الركون الى اللذات ، أو المشاركة في مغامرات الصبا ولهو الشباب » .

ويقول عن النص الرابع ص 205 ما يلي :« وأما أبيات الجيطالي الثلاثة فهي أبيات الحكمة العادية وهي تعالج موضوعات أكثر الشعراء والحكماء في معالجته ، ولا أظن أن هناك جديدا في هذه الأبيات يستحق الوقوف عنده» .

ويقول عن النص الخامس في صفحة 205 ما يلي :

«وأما قصيدة الباروني فتعد في جزئها الأول 14 بيتا أقرب إلى الشعر منها إلى النظم ، أما سائر الأبيات فأقرب إلى منظومات العلوم وإن لم تخل من عاطفة في بعض الأحيان . وتعد الأبيات الأربعة عشر الأولى ذات أهمية خاصة لأنها تكشف في وضوح عن

موقف الإباضية من الشعر وعدم ترحيبهم الا بالنوع الجاد منه الذي يحقق غاية أو يخدم هدفا وهي تنحى باللائمة على الشعراء الذين قضوا شبابهم في اللهو واللعب ومعاقرة الخمر وملاحقة النساء ، وتعرض بالشعراء المجان ، وتهاجم أولئك الذين أفنوا عمرهم في الجري وراء حبهم وأولئك المداحين المكتسبين بالشعر أو الهجائين المقذعين ، كما تهاجم أولئك الذين اشتهروا بالفخر بأنسابهم وقبائلهم لان موضع الفخر الحقيقي هو العمل الصالح والإنتماء إلى أهل الدين والصواب ولعل هذه الأبيات تكشف لنا عن حقيقة هامة هي :

إنه لا مكان لمعظم أغراض الشعر عند الإباضيين وإنهم لم يكونوا يرتاحون للأغراض التي يجيد فيها الشعراء عادة مثل الغزل والفخر والهجاء والمدح ، ووصف مجالس الخمر ورحلات الصيد ، وإن معظم شعرهم كان من النوع الديني وشعر الحكمة بالإضافة إلى بعض الموضوعات التي لا تخدش تقاليدهم مثل الرثاء والحرب والوصف والفخر بالعمل الصالح والإخلاص في العقيدة » .

ويقول في صفحة 208 ما يلي :

إن الشعر الإباضي لم تتح له فرصة النهوض ، ولم يهيأ له الجو المناسب ليزدهر ، كما يبدو من ناحية أخرى أن اهتمام الإباضيين بتسجيل شعر شعرائهم وروايته ، وحفظه كان ضئيلا للغاية حتى تسبب في فقد كثير من نماذجه وعبثت الأيام به» .

بنو مصعب والغربة

إن بني مصعب في العهد الثالث من تاريخهم الاسلامي ، بدأوا يخرجون من القوقعة ، ويخرقون السياج الذي ضربته الطبيعة حولهم من جبال حاصرة مانعة ثم ينطلقون إلى الأنحاء المختلفة من القطر الجزائري يحترفون التجارة .

كان انطلاقهم في مبدإ الأمر على نطاق ضيق - يشبه أن يكون تلمسا لمنفذ ، واستطلاعا لمجهول - وكان يتم على سبيل الطموح الفردي ، والتجربة الشخصية . فنجحت التجربة في الميدان الاقتصادي نجاحا باهرا بالنسبة إليهم ، وبالنسبة للحركة الاقتصادية العامة للجزائر ، وبالنسبة للدولة التركية الحاكمة في ذلك الحين ، لإن مداخيلها ازدادت بنسب ملحوظة .

وأصبح مع الأيام - كل الشباب المصعبي يتطلع إلى اليوم الذي يفارق فيه المسحاة والدلو والمنجل ، ويغادر هذا المجتمع الذي يرى أنه يحيا فيه حياة رتيبة مكررة يومية ، إلى بلاد (التل) كما يسمونها ليعود بعد سنوات من الغربة منتفخ الجيوب بما كسبه من عمله في التجارة خارج وطنه ، فيجد مواطنيه قد التفوا حوله يعاملونه بكل تكريم واحترام وإعزاز .

ترمقه عيونهم بالإعجاب ، وتصغي اليه آذانهم متشوقة إلى سماع قصة مغامرته الناجحة ، وتهفو اليه قلوبهم بالمحبة والعطف والشوق .

وعندما تزايدت هذه الرغبة الجامحة في الانطلاق خارج الوطن ، وأصبح شباب كل قرية يتنافسون عليها ، ويتسللون من البلاد باستمرار فصارت الأيدي القوية الأمينة تنقص يوما عن يوم في الوطن بمقدر ما تتزايد في غيره ، فخشي المفكرون والمصلحون

أن ينتج عن ذلك عدد من المضار والمشاكل تلحق بالوطن نفسه ، فسارعوا إلى دراسة الموضوع بجملته ، وإلى التعرف على المشاكل المتوقعة التي سوف تنجم عن هذه الحركة فاتخذوا لها الحلول المناسبة قبل أن تخرج من أيديهم ، فتستعصي عليهم فلا يستطيعون وقفها ، ولا الحد من آثارها .

ولعلنا نستطيع أن نعرض بعض تلك التخوفات أو المشاكل التي كانوا يخافون منها على وطنهم وأمتهم ودينهم إذا هم أطلقوا الحبل على الغارب وسمحوا لكل راغب في الهجرة أن يهاجر ، وتركوا موضوع الاغتراب من أجل الاكتساب هكذا دون قيد أو شرط ودون رعاية أو تنظيم فيما يلي :

1 - الانحراف بسبب الفشل :

من الناس من يحمله الطموح فيغترب وينجح ، ومنهم من يحمله الطموح ويتوقع الربح الوفير بالعمل السهل فيخفق ويعز عليه أن يعود إلى وطنه بدون مال ، فيحمله الفشل على الانحراف عن الاكتساب الشريف إلى الاكتساب غير الشريف . وبذلك يكون نكبة على البلاد التي هاجر إليها ويعيش فيها كما يكون نكبة أيضا على بلده الذي سافر منه ، ويصبح وصمة عار على سمعة وطنه النقية .

2 - الإغتراب تهربا من العمل : من الناس من يمل أعمال الزراعة الشاقة ، ويضيق من شظف العيش ومن حياة التقشف التي يحياها في وطنه ، فيسعى لأن يتخلص من زراعته بأي طريق ، ثم يأخذ ما تحصل لديه وينطلق إلى مدينة من تلك المدن في (التل) وليس هؤلاء مؤهلين - طبيعيا - لممارسة التجارة فيفشل بعضهم ويضيع منهم ما جمعوه ثم يضطرون إلى العودة وهم يجرون أذيال الخيبة معهم ، فيجدون بالاضافة الى الصدمة النفسية ، أن ما كانوا

يعتمدون عليه من زراعة قد انتقل إلى أيد أُخرى حين باعوه أو سلموه لغيرهم ، وقد يحدونه في انتظارهم ولكن عوامل الاهمال في مدة الغربة قد أثرت عليه بحيث أصبح محتاجا إلى نفقات تفوق ما يغله لعدة سنوات . وهكذا تصبح مشكلة أُولئك الناس بعد رجوعهم من تجربتهم الفاشلة تساوي مشكلتهم في ديار الغربة وقد تفوقها .

3 ـ استيطان بلاد الغربة طلبا لرفاهية العيش :

قد تروق الحياة في ديار الغربة لمن نجحت أعمالهم فيها ، فيتخذون الإقامة الدائمة ويهجرون وطنهم بالتدريج ، ويكثر عدد هذا النوع من الناس حتى يصبح الاغتراب ، ثم اتخاذ وسائل الإقامة ثم الإقامة ، كأنها معاول تخريب للوطن ولن يمضي على تلك الحال وقت طويل حتى يصبح وطنهم خبرا من أخبار التاريخ ، أو قصة من قصص الأسمار . كما وقع بالفعل لبلدان كثيرة وأقرب مثل على ذلك مدينة «سدراتة» .

4 ـ تناقص الانتج بنقصان اليد العاملة :

لا شك أن الانتاج في الوطن ولا سيما الزراعي منه ينقص بمقدار الأيدي القوية العاملة التي تتخلى عنه وإذا سمح لكل يد عاملة بالهجرة فإنه يأتي يوم لايوجد فيه عامل ، وذلك معنى من معاني الخراب .

5 ـ الانحلال الديني والخلقي :

أسباب ارتكاب المعصية ـ بقسميها : الفعلي والتركي ـ وأسباب الانحلال الخلقي ميسورة ومتوفرة في المدن أكثر مما هي في الأرياف . فإذا ترك الشاب نفسه بين مغريات الحياة تورط في كثير من الرذائل . واستسهل ارتكاب المعاصي ، وربما اعتادها أو

اعتاد بعضها فأصبح لا يستطيع أن يتخلى عنها كما يقع لمن يتورط في شرب الدخان أو شرب الخمر ، أو مزاولة القمار أو غيرها .

وقد عولجت جميع التخوفات والمشاكل السابقة بنوعين من التنظيم أولهما بالعلاج الوقائي ، الغرض منه الحيلولة دون وقوع ما يخاف منه ودون حدوث المشكلة أو المشاكل المتوقعة ، وثانيهما بمثابة العلاج بالدواء والغرض منه المبادرة بالحل المعقول لأول بادرة تظهر من متخوف منه أو مشكلة واقعة . أو حسم المشكلةمهما كان حجمها .

وسوف نحاول فيما يلي أن نعرض كل واحدة منهما بإيجاز فيما يلي :

(1) خلايا النحل :

لا شك أن القاريء الكريم يستغرب هذا العنوان في هذا الموضوع من الكتاب وله الحق في ذلك ، فنحن هنا لا نتحدث عن النحل ولا عسل النحل وانما نتحدث عن البشر ، ولكنني وجدت مشابهة بين خلايا النحل وما سأتحدث عنه فاستعرت العنوان .

أقصد بخلايا النحل في هذا المقام تلك المتاجر التي تعج بالحركة في أوقات الحركة وبالهدوء في أوقات الهدوء حسب تنظيم دقيق ، والتي يوجد في كل متجر منها عدد من العمال يسمونهم (صناعا) يشرف عليه عدد من أرباب العمل تحت رئاسة واحد منهم قد يكون أكبرهم سنا ولكنه لابد أن يكون أكثرهم خبرة وأقدمهم في ميدان العمل وفي إدارة المتجر وأعلمهم بتقلبات أحوال الاقتصاد في البلد والعالم .

هذا المتجر الذي تتحرك فيه مجموعة بشرية بنظام دقيق وقيادة واعية . قد روعي أن يكون فيه جميع ما ينبغي لهذه المجموعو البشرية ليحفظ عليها دينها ودنياها . وليصلح بها وطنيها : العام والخاص . فهو في الحقيقة خلية بشرية تجمع فيها المال والدين والخلق وقد حرص مصمموها أن يحددوا لأفرادها مراتع المال ومراتع الدين ومراتع الخلق .

لقد راعى بنو مصعب أن تكون متاجرهم ومصانعهم في كل مدينة من مدن الجزائر وغيرها - خارج بلدهم - خلية من هذا النوع ومن مجموع الخلايا أو المتاجر في المدينة الواحدة بتكون المغتربون الميزابيون في ذلك البلد ، يربط بينهم جميعا تنظيم عملي يشرف عليه (كبار الحرفة) ومسجد يؤدون فيه الصلاة في ثلاثة أوقات على الأقل وهي صلاة العصر وصلاة العشاء وصلاة الفجر ويعقب هذه الصلوات أوبعضها في أحيان كثيرة دروس أو مواعظ أو نصائح وإرشادات .

وقاعة فسيحة للمداولة في مهمات القضايا .

وقد بنوا خلاياهم تلك أو متاجرهم ومصانعهم على الأسس الآتية :

☆ بناء التجارة والصناعة على المشاركة حتى يكون لكل محل ولكل خلية عدد من المالكين ، ذلك يسهل عليهم أن يتناوبوا الإشراف عليها حتى يسهل على كل منهم أن يأخذ وقتا كافيا للاستقرار في الوطن ، ففي الوقت الذي يشرف فيه بعض التجار على أعمالهم في التل تتاح الفرصة لشريكه أو شركائه أن يكونوا في إجازة يستمتعون بها في وطنهم ويشرفون فيها على أعمالهم في الوطن ، ويتخذون لها من التنظيمات ما يفي لسيرها فترة أخرى من الزمن ، على أن الفرص التي تتاح لهؤلاء الشركاء تطول أو تقصر بحسب ضخامة الأعمال وعدد الشركاء .

☆ الاستكثار من الصناع بحيث يكون في كل خلية (محل تجاري أو صناعي) فائض عن عدد العمال المحتاج إليه فعلا ، وذلك ليتمكن المحل من الاستغناء عن بعضهم في فترات من السنة حتى يستطيع بعض أولئك العمال أن يقضي إجازته في بلده ، وأغلب هؤلاء الصناع يكونون من الشباب الصغير وفيهم غيرالمتزوجين وبعضهم دون المراهقة فهم يحتاجون إلى إجازات قصيرة ولكنها متقاربة لإطفاء شوقهم وشوق أسرهم إليهم ومساعدة أسرهم في أعمالهم أثناء إجازتهم القصيرة ثم يعودون لمزاولة أعمالهم في نشاطهم التجاري وهم أكثر حيوية وأشد إقبالا عليها ، ومن كانت لهم دراسةمنهم فهو يعود ليستمر في دراسته .

☆ يحرص أغلب أصحاب المتاجر أن يصطحبوا معهم أطفالهم أو أطفال غيرهم - عندما يكونون مرتبطين بالدراسة - إلى متاجرهم في ديار الغربة وهم يقصدون بذلك ، بالاضافة إلى تغير رتابة الحياة عن أولئك الأطفال ، إلى تدريبهم على الأعمال التجارية وتنمية ملكة الاقتصاد فيهم ، وتعويدهم على حياةالمغامرة ، والحياة في الغربة ، وعلىالاعتماد على النفس في الحصول على مطالب الحياة وأهم من كل ذلك تكوين جيل واع يخلف الجيل الذي سبقه في إدارة الأعمال . وقل أن تجد مصعبيا واحدا في أي مجال من مجالات الحياة لم يزاول العمل في التجارة في مرحلة من مراحل عمره ، ولو كان ذلك في السنوات الوسطى من طفولته ، وهو أثناء عمله في التجارة لابد أن يتلقى أجرا عن عمله فيها حسبما يقدره (جماعة الحرفة) كما يقدرون أجور العمال المستديمين الكبار .

وبذلك تسلسل في أجيالهم حب التجارة والمغامرة فيها ، وأصبحت الغربة عندهم من لوازم الحياة لا تستقيم بدونها ، ولا يمكن أن يتكون الرجل على النمط الذي يريدونه لأجيالهم الا إذا

أخذ قسطه من حياة الاغتراب وجرب قدرته على الحركة في إطار أوسع من إطار بلد واحد ضيق محدود ، وبهذا الأسلوب من التربية العملية الموجهة المنظمة ، فإن الحياة لا تضيق على ميزابي وإنه كفيل أن يشق طريقا لحياة شريفة ونظيفة ثم مريحة .

(ب) النقابات المهنية :

وهو التنظيم الذي وضعوه ليضمن لهم نجاح المغتربين في أعمالهم بتهيئة ظروف مناسبة تساعد على المحافظة على الدين وعلى الاحتفاظ بالخلق القويم ، وعلى تنظيم عملية الاغتراب تنظيما يكفل للشعب مكاسبه ويجنبه المشاكل والأضرار .

هذا التنظيم الذي وضعت له (عنوان النقابات المهنية) في هذا الفصل لم يكن في واقعه نقابات ، فإن ذلك العهد لم يعرف بعد نظام النقابات .

ولكن بني مصعب حين اضطر أبناؤهم أن ينطلقوا خارج بلادهم ـ بأعداد وافرة ـ خشوا عليهم من الضياع في زحمة الحياة وحرصوا أن يكون لهم في كل بلد فيه جالية من بني مصعب ، هيئة من أهل الخبرة والرأي والصلاح تشرف على أحوال الجالية من جميع نواحيها .

ولعل أستاذنا الشيخ باكلي عبد الرحمن ـ حفظه الله ـ أعرف بالموضوع وأدق تعبيرا ، فإلى القاريء الكريم ما قاله في إحدى إجاباته عن الاسئلة في الموضوع . قال :

«وللأخذ بتلابيب هذه الحركة الواسعة كونوا في المراكز الرئيسية جماعة أو جامعة تدعى (جماعة الحرفة) لها الكلمة المسموعة لدى السلطة الحاكمة هي أشبه بالنقابة اليوم . تفض المشاكل التي تقع بين العمال ومستخدميهم ، تقدر الأجور ، توجد

العمل للعاطلين ، ترجع المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا إلى وطنهم ، وقد بلغ بها الأمر أحيانا أن تطرد الكسالى المتسكعين المتهتكين الذين يسودون وجه الأمة على يد السلطة التي لا تتردد في تسويغ ما ارتأته صالحا بهم .

اتخذوا لهم في كل بلدة تعتبر كمركز للحركة الاقتصادية من البلدان التي يكثر عليها توارد التجار الميزابيين إما دارا لنزول المسافرين الميزابيين من الإباضية مجانا يطلق عليها «دار العرش» وفيها قاعة للصلاة ومجهزة بالمرافق ووسائل الطهارة وعليها قيِّم وطباخ في آن واحد يغنيهم في أكلهم عن الاحتياج إلى الخارج . وإما مسجدا للصلاة وربما كان في عمارة ذات شقق لنزول المسافرين الميزابيين من الإباضية ، ومقبرة لدفن موتاهم (محصنة ومحروسة) فيها مكان فسيح لاجتماعاتهم العامة ، لا سيما الأعياد والمواسم ، ولقد أضافوا إلى كل ذلك في هذا العهد الأخير مدرسة بكل بلدة تكثر فيها ناشئتهم ، ولو ذهبنا نعد المساجد وديار العرش والمقابر والمدارس التي أنشأوها لبلغت العشرات ، على أنهم لم يقتصروا على الجزائر بل أبعدوا النجعة إلى القطر التونسي فكان لهم فيها مثل هذا النظام ، وإلى الغرب وحتى إلى فرنسا إذ نشطت فيها حركة التجار الميزابيين فأنشأوا مراكز تجارية معتبرة ، بله أفواج العاملين منهم في شتى الميادين الاقتصادية وسوف لا يلبثون ـ إن شاء الله ـ أن يتخذوا لهم في المغرب وفي فرنسا (1) ديارا على غرار ما لهم في الجزائر وتونس . وما ذلك على همتهم ببعيد ، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك إلى الأماكن المقدسة كجدة ، ومكة ، ومنى ، والمدينة ، فكان لهم في كل منها دار رحبة تسع المئات ، تأوي حجيجهم ، فلا يتعرضون للإهمال والإهانة كما

(1) لقد تحققت هذه الأمنية فأصبحت لهم في باريس دار رحيبة فيها قاعة فسيحة للصلاة والاجتماعات وعدد من الغرف لنزول الأضياف مجهزة جميعا بكل المرافق .

يتعرض كثير غيرهم في مواسم الحج ، تامة المرافق التي تيسر العبادة وتضمن الراحة .

ولقد أكبر جيرانهم فيهم هذه الهمة العالية والنظام المحكم الذي أكسبهم - بل أكسب الجزائر جمعاء - إعجاب الطوائف الإسلامية بأسرها . وما كانوا يستطيعون بلوغ هذه الأهداف لولا تعاونهم وتضامنهم وبذل محسنهم بسخاء في هذه الميادين المشرفة . الهم اللهم الأمة المحافظة على دينها ووحدتها وشرفها .

هذا وقد كان للإباضيين في عاصمة الجزائر - على الأخص التي أخذوا يهاجرون إليها أول الأمر للاكتساب والاحتراف مكانة لا تنكر ، ونظرا لمكانتهم في عين الدولة التركية فقد خيرتهم (1) في المهن التي يودون احترافها فاختاروا أسلمها تبعة وإن كان لها خطرها في نظر الدين كالقصابة مثلا ، لهذا أعطي لهم امتياز مذبحة العاصمة يشرفون عليها ويتولون تعيين الذباحين فيها ورفض من لا يليق منهم لذلك ودام لهم هذا الامتياز إلى عهدنا الأخير .

(جـ) تحديد مجالات العمل :

كان من أهم نقاط التنظيم الحرفي الذي اتبعه بنو مصعب في توجيه أبنائهم في بلاد الغربة هو تحديد مجالات العمل ، فلم يسمحوا للإباضي المغترب أن يزاول في ديار الغربة عملا يدر عليه كسبا كيفما كان ، وإنما حددوا مجالات العمل بناء على فلسفة انبنى عليه كل تخطيطهم لحياتهم في ديار الغربة فحرصوا أن تكون تلك المجالات مما يتسير فيه العمل الجماعي ، أي أنه يقوم على تعاون مجموعة من الناس تسيرهم أنظمة ثابتة ، وبأن تتوفر

(1) عندما نسفوا (برج بوليلة) الذي أقامه الأسبان لضرب مدينة الجزائر أراد الداي او الوالي مكافأتهم على عملهم البطولي فخيرهم في المهن التي يرغبون أن تكون لهم بالأولوية فطلبوا منه استمرار تأمين تجارتهم حسب المعاهدة التي بينهم وطلبوا احتكار قصابة الجزائر لهم وأولوية إنشاء الحمامات . راجع إن شئت زيادة في التفصيل فصل «الإباضية والجهاد في سبيل الله»

في ذلك المجال صورة للبيئة التي كانوا يعيشون عليها في بلدانهم وأن تكون تحت الإشراف المستديم ، وأن تكون بعيدة عن تناول ما يحرم ، وأن تكون من طبيعتها تدعو إلى التجمع والتكتل ، وأن تكون مما يتيسر فيه تنظيم الوقت . فحددوا العمل عندهم في ثلاث مجالات : التجارة بالدرجة الاولى ، ثم الصناعة ، ثم الحمامات . واحتكروا لإنفسهم القصابة المركزية في الجزائر العاصمة ، ولم يسمحوا لأبنائهم بالعمل في الزارعة خارج وطنهم سواء أكانت بامتلاك المزارع أو بالعمل عند المزارعين أو المعمرين ، ولم يسمحوا لهم أيضا أن يقوموا بالأعمال البدنية في المنشآت أو الموانى أو غير ذلك من المجالات الكثيرة التي يجد فيها الأفراد مجالا للكسب ونظرتهم في هذا - رغم سوء فهم بعض الناس لها واعتقادهم أن الإباضية يحتقرون أنواعا من العمل البدني - لأنهم يحرصون بالدرجة الأولى على دينهم وبالدرجة الثانية على وطنهم ولا يسمحون أبدا لأي فرد أو أي عمل أن يؤثر على أحدهما ولو أطلق العنان للناس يشتغلون كما يشاءون - وأنى يجدون العمل - لصعب الاتصال بهم وتجميعهم فانفرط عقدهم وتورطوا في سلوك يبعدهم عن أوطانهم فيهجروها فانفرط عقدهم وتورط في سلوك يبعدهم عن أوطانهم فهجروها ، ولو سمح - لاسيما لأغنيائهم - بالاشتغال بالزراعة لاستطاعوا أن يملكوا خارج بلادهم وينجحوا في ذلك ثم ينتقلون إليها ويكون ذلك من أسباب القضاء على وطنهم ، وهكذا استعرضوا جميع مجالات العمل فلم يجدوا في تلك المجالات كلها ما يوافقهم غير تلك المجالات التي يستطيعون أن يكوِّنوا فيها خلايا خاضعة للتنظيم فيوجه الشاب منهم إلى التجارة ، فإذا حال دون ذلك أسباب وجه إلى الصناعة فإذا حال دون ذلك حائل - وهذا الحائل لا يكون إلا من قبل الشخص نفسه بأن كان في مستواه الفكري لا يساعده على احتراف التجارة والصناعة ويكون ممن ليس له مورد كاف في وطنه - فيوجه إلى

العمل في حمام وذلك لأن الحمام لا يحتاج إلا إلى صحة وطاعة وانضباط . والحمام نفسه يسير بنظام دور التجارة أي أنه على نمط الخلايا في التجارة أو الصناعة . يتعاون فيه على العمل مجموعة من الناس منهم شركاء يتعاقبون على إدارة المحل ، ومنهم عمال يتناوبون القيام بأعماله ومهامه ، ويقوم كل حمام مقام متجر كبير يحتوي على عدد من الصناع ، فهو لا يختلف من وجهة نظرهم عن المتجر أو المصنع إلا في التوقيت .

أما الحصول على امتياز قصابة الجزائر أو احتكارهم لها دون غيرهم فالدافع إليها دافع ديني محض ، فهم قد لاحظوا أن بعض القصابين لا يحسنون الذبح أو هم يستخفون بعملية الذبح فخشوا أن يُطعموا عن غير قصد ما حرم الله بسب الذكاة ، فطلبوا احتكارهم لها وتم لهم ذلك ، وهم لا يتولون بيع اللحوم وإنما كل ما لديهم هو الإشراف على المركز الرئيسي وتسييره وإسناد عملية الذبح لمن يحسنها منهم أو من غيرهم ، وتعتبر هذه المجموعة من الناس أيضا خلية كخلايا التجارة والصناعة والحمامات تتوفر فيها جميع الشروط المطلوبة لهم مما أشرنا إليه من قبل .

(د) ملء الفراغ :

يخاف بنو مصعب على أبنائهم من الفراغ أكثر مما يخافون من أي شيء آخر ولذلك فقد كانوا يحرصون أن يملأوا أوقات أبنائهم بتنظيمات يسلم بعضها إلى بعض ، وأي فراغ من أحدهم يعني إخلالا باحدى تلك التنظيمات ، وتبدأ تنظيماتهم بوجوب الاستيقاظ مبكرا لأداء صلاة الفجر في وقتها مع الجماعة في الغالب ، ثم تحضير مواد الإفطار ثم الإفطار ثم تفتح أبواب المحال للعمل إلى وقت الظهر حيث تبدأ فترة الغذاء ، ثم صلاة الظهر ثم الراحة ثم القيلولة وهي إجبارية ، وقد تقدم راحة القيلولة على صلاة الظهر ، ولا يشترط في صلاة الظهر أن تكون في المسجد

وإنما لمن شاء منهم أن يصليها في محله صلاة جماعة أو صلاة فذ . وقبل العصر يستأنف النشاط ويستمر العمل إلى قرابة وقت العشاء لا يتخلل ذلك غير صلاة العصر وصلاة المغرب ، وقبل صلاة العشاء يبدأ الاستعداد للصلاة ثم تصلى صلاة العشاء في المسجد وقد يعقبها درس أو موعظة أو نصيحة من أحد الناس يفترق الناس بعدها إلى محالهم لتناول العشاء ومناقشة نتائج العمل في اليوم الماضي وعرض مطالب اليوم المقبل ، يشترك في المناقشة رب العمل الذي يدبره وأكثر العمال الموجودين في المحل ، وقد تأخذ المناقشة جزءا كبيرا من الوقت يجدأفراد الخلية أنفسهم بعدها تميل إلى النوم فيأوون إلى مضاجعهم ليقوموا مبكرين لاستئناف نشاطهم ، هذه هي الصورة الغالبة عليهم وقد تختلف الطريقة في بعض البلدان ولكنها كلها تخطط على عدم تمكين الفراغ من نفوس أبنائهم فأوقاتهم مقسمة بين نشاط في مجال الحرفة ، أو في العبادة أو في مجال الاستفادة ، أو في مجال الاستراحة البدنية المنظمة والمقدرة بالأسلوب الذي يتناسب مع المطالب الجسدية للراحة .

(هـ) التوجيه والرقابة والمتابعة :

التوجيه والرقابة والمتابعة ثلاثة خيوط يرتبط بها أي فرد من بني مصعب في أي بلد من بلدان عملهم داخل وطنهم وخارج وطنهم ، وفي خارج وطنهم فإنه بمجرد ما يصل أي فرد من أفرادهم إلى أي بلد ليعمل فيه فإن أول ما يُقدم إليه إنما هو توضيح خط السير ثم النصائح والتوجيهات ، تتولى ذلك هيئة (كبار الحرفة) أو صاحب المحل ، بعد ذلك تستمر مراقبته ومتابعته في مسيرتهالطويلة ، فإذا خيف عليه انحراف أو بدرت منه بوادر تدل على ذلك استدعته هيئة (كبار الحرفة) وحاسبته على تصرفاته وقدمت له التوجيهات اللازمة فإن لم تفد فيه هذه المواقف وانحرف

فعلا بأن ارتكب بعض ما لا ينبغي له جاءت مواقف أُخرى سوف نعرض لها في فقرة تالية .

قد يظن بعض الناس أن تأثير مجلس العزابة لايتجاوز حدود الوطن ، وأن أُولئك الميزابيين المغتربين الذين ابتعدوا عنه مئات الأميال قد خرجوا عن نطاق تصرفه أو على الأقل بعدواعن إمكانية مراقبته ، وهذا الظن ليس صحيحا لأن مجلس العزابة يعتبر نفسه مسئولا عن حماية المجتمع ـ دينيا وخلقيا واجتماعيا ـ وأن المجتمع يتكون من مجموع أفراد سواء أكان أُولئك الأفراد في وطنهم ، أو كانوا خارجه ، وأن سلوك أُولئك الأفراد ـ سواء أكان خيرا أم شرا ـ ينعكس على مجتمعهم، ولذلك فإن مجلس العزابة يتابع بوسائله الخاصة جميع الأفراد أينما كانوا ، وعندما يتأكد لديه أن أحدا من أُولئك الأفراد يخشى منه الإنحراف فإنه يهتم بتوجيهه فإن تجاوز الفرد ذلك إلى المقارفة فإن المجلس يتخذ قرارا آخر سوف نعرض له في فقرة تالية .

ثم إن مجلس العزابة لا يقتصر على هذه التوجيهات من بعيد أو على التوجيهات الفردية ، وإنما يحرص أن يرسل بأُناس ذوي كفاءة لإلقاء الدروس والمواعظ والفتاوى في المشاكل من حين إلى حين ، إما للقيام بجولة استقصائية أو جولة جهوية أو جولة إلى مدن محدودة ثم يتعاقب المرشدون على هذه الحالات فيرجعون بحصيلة من المعلومات والبيانات والتوصيات . كما أنهم يطلعون على سلوك الناس وأُسلوبهم في المعاملة ، فيعالجون منها ما يقوون على علاجه ويحملون غيره ليعرضوه على مجلس العزابة .

ثانيا : العلاج بالدواء ويتضح في الخطوات الآتية :

(ا) التسفير :

عندما لا تفيد جميع الجهود في تقويم أحد أبنائهم عن

الانحراف ويبدأُ في التورط في أعمال تضر بمصلحته وبسمعة أمته ووطنه فان أيسر موقف تتخذه معه (جماعة الحرفة) هو إرجاعه الى وطنه على يد السلطة . وهذا النوع من أنواع الدواء الذي يجرعونه لمن تبدؤه الأمراض الاجتماعية وعندما يعود فإن البيئة والمؤسسات الموجودة هناك كفيلة بشفائه شفاء كاملا .

(ب) التأديب :

إذا ما ارتكب أحد أفراد الخلية خصلة من خصال الانحراف ، كشرب الدخان أو الخمر أو سُمع عنه أنه ارتاد دارا من دور اللهو المحرم أو ما يشبه ذلك فان رئيس المحل أو الخليفة يقيم له جلسة تأديب قد تقتصر على التوبيخ والتقريع لمن وقع منه ذلك أول مرة وأبدى ندمه واستعداده للتوبة والرجوع إلى التزام المسلك القويم ، وقد تصل الى عقوبة بدنية من الضرب الخفيف ، فاذا لم يُجد هذا رفع أمره إلى (جماعة الحرفة) التي قد تحكم عليه بالتعزير فيضرب (19) جلدة فاذا لم يرتدع بذلك رفع أمره إلى مجلس العزابة في قريته الأصلية .

(جـ) البراءة والهجران :

مجلس العزابة من مكانه في القرية يتابع جميع أفراد القرية في أماكن عملهم بوسائله المعتمدة وتصله أنباؤهم تباعا ، فإذا ما ثبت لديه أن أحدهم قد ارتكب ما يخالف الله ونهيه أو خرق ما اتفق عليه المسلمون فإنهم يعلنون البراءة منه ويأُمرون بهجرانه وذلك لأن البراءة منه هي العقوبة الوحيدة التي يمكن أن تصل إليه على بعد المسافة وتحدث فيه الأثر المطلوب منها .

وبمجرد ما يعلن مجلس العزابة في مسجد القرية هذا الحكم عن شخص ما فإنه سرعان ما يبلغه الحكم القاسي في مهجره فتتغير معاملة الناس له ، ويحس بالجفاء والغلظة والإعراض عنه فيلحقه

في ذلك الألم الكبير والندم الكثير ، ولا يجد له مناصا في غير تصحيح وضعه الاجتماعي بإعلان التوبة مما ارتكب والرجوع إلى الجادة التي ينبغي للمسلم الشريف أن لا يخرج منها ، والتعهد بذلك .

وهكذا تجد الفرد منهم وهو في ديار الغربة قد يكون في الجزائر أو في وهران أو في عنابة ، أو في تونس ، أو في فرنسا ، أو غيرها ، فتحدثه نفسه بأن يلم بما يلم به أمثاله في المجتمعات الأخرى معتمدا على سعة رحمة الله وعفوه حتى إذا استسلم للشيطان فأضعف في قلبه الخوف من الله ، وتغلب على تردده وترجح لديه تحت الإغراء الإقدام على المعصية ، لاح له شبح مجلس العزابة يهدده بحكمه القاسي الذي سوف يصدر عليه متى علم بصدور المعصية عنه ، فينفلت من مخالب الغريزة ، ويتحرر من براثن الشهوة ، ويفر من المعصية ناجيا بنفسه تاركا شيطانه يعض بنان الندم على خسارته في صفقة كاد يكسبها ، فإن غلبه الشيطان وسدر في الغي وأصر على موقفه ولم يبادر إلى إصلاح وضعه فإن مجلس العزابة لا يقف مكتوف الأيدي وإنما له وسائل وأساليب أخرى رادعة ليس هذا مكان تفصيلها .

(د) الفروق الفردية :

طبائع الناس وأخلاقهم ومشاعرهم الدينية تختلف ، ومواقفهم من الخطإ ومن الرجوع عنه أيضا تختلف ، ولذلك فإن أنواع العلاج السابق لم تكن تطبق هكذا على الجميع كمواد قانونية جافة لا تصرف فيها ولا فهم .

وإنما كانت تنفذ لا سيما من (كبار الحرفة) في ديار الغربة بعد دراسة وفهم لنفسية الفرد وظروفه وبيئته ، ومقدار الصلاح والإصلاح الذي ينتج عنها أو مقدار الضرر الذي قد يحدث بسببها

وكذلك درجة استحقاق العقوبة ومقدار تحملها ، ولذلك فأنواع العلاج الذي يقرر للشخص الحيي الخجول الحساس غير العلاج الذي يستعمل للوقح الجافي الغليظ الطبع .

وحتى عندما تتشابه المخالفة بأن يرتكب شخصان نوعا واحدا من المعصية وفي ظرف واحد فإنه ليس من الضرورة أن يطبق عليهما نوع واحد من العلاج ، فقد يكتفى بتوبيخ أحدهما توبيخا طفيفا في زاوية منفردة ، ويلقى على الثاني درس قاس من التوبيخ والتقريع أمام الخلية كلها أو أمام الجالية في مسجد الصلاة ، وذلك تبعا لأخلاق وسلوك كل منهما وتبعا أيضا لما يتمتع به كلاهما من رقة الطبع أو غلظته ، وشفافية الحس أو قتامته ، ودقة الإحساس أو بلادته ، وحدة الذكاء أو بطئه .

(هـ) الآثار والنتائج :

بمراجعة بسيطة لكلام أستاذنا باكلي - حفظه الله - ولما عرضنا من الفقرات السابقة في هذا الفصل يتضح لنا ما يلي :

أن الإباضي الجزائري عندما يجمع ما لديه ثم ينطلق إلى مدينة من مدن الجزائر أو تونس أو حتى فرنسا - بحثا عن العمل - لا تستقبله الفنادق يأوي إليها ولا تستقبله الشوارع يتسكع فيها يتصفح وجوه الرائحات والغاديات ، ولا تستقبله الفئات الضائعة التائهة عن المجتمع تلهث وراء المتعة الرخيصة ، ولا حتى الأصدقاء والأقارب من العمال الكادحين يأوي إليهم في حجرة ضيقة عديمة المرافق ريثما يجد لنفسه عملا ، فيضيق عليهم في مسكنهم وفي معيشتهم ، ويتحمل من أجل ذلك منة طول عمره .

وإنما تستقبله دار نظيفة أعدت خصيصا لسكناه وسكنى أمثاله بها قاعة لإقامة الصلاة تذكره خمس مرات في اليوم بواجبه نحو ربه ، وهي مزودة بكل المرافق وقد حرص المجتمع أن يكون في

تلك الدارقَيِّم يسهل على الطاريء الجديد مؤون الطبخ وجلب مواد الغذاء ، ويتولى مساعدته في جميع ما يحتاج إليه حتى يستقر في عمل أو ينتقل إلى بلد آخر ، ثم إن هذا الطاريء الجديد على المدينةلايترك لنفسه ، مهملا يطرق الأبواب بحثا عن العمل تتقاذفه ظروف الحياة بين الناس ، وإنما تستلمه منذ وصوله هيئة شبه مسؤولة فتعرف منه اتجاهه وخبرته في أنواع العمل واستعداده لإدائها ومقدار رأس المال إن كان له رأس مال . فإن كان صاحب مال ويريد افتتاح تجارة ، أو مشاركة فيها ، يسرت له ذلك وساعدته عليه وأرشدته إلى النوع الذي يتوقع نجاحه .

وأما إن كان يريد العمل بجده وجهده ، فإن الهيئة تبحث له عن مكان مناسب في بعض المجالات المحددة حسبما سبق ، والهيئة بطبيعة وجودها ومعايشتها للأوضاع الإقتصادية في تلك المدينةتعرف جميع الأماكن الشاغرة ونوعية العمال المطلوبين لكل منها فإذا رأت المكان المناسب له وضعته فيه وقدرت له الأجرة المناسبة ـ فرضا عليه وعلى رب العمل ـ وكلما تقدم في إدراك أسرار المهنة والإجادة فيها تقدم أجره ثم يضاف الزائد من أجره على نفقاته فيضاف إلى رأس مال المحل حتى يصبح بعد فترة معقولة شريكا في تجارة ذلك المحل وقد يُفتتح له فرع جديد في جهة أخرى يتولى هو وبعض الشركاء الآخرين أدارته .

وإذا لم يتسع له في تلك المدينة مجال للعمل اتصلت تلك الهيئة بهيئة أخرى في بلد آخر حتى ينفتح له مكان في إحدى المدن فينصح بالذهاب إليه لتستقبله نفس الظروف ، فينزل في البيت المعد وتتولاه الأيدي الحانية حتى يلتحق بعمله الجديد وأجره المقرر .

فإذا كان الرجل ممن لا يحتمل الغربة ، أو من لا يقدر على العمل لأسباب بدنية أو أسباب فكرية ، أو ممن يريد أن يتهرب

من مجتمعه المحافظ ليدخل في المحيط الواسع فيذوب في الكثرة ، ويشذ عن الأخلاق الفاضلة التي يحرصون عليها ، اتخذوا موقفهم لإرجاعه إلى بلده ولو كان كارها ، خوفا أن يضيع منهم فرد ـ مجتمعهم في حاجة إليه ـ وخوفا أن تتشوه الصورةالجميلة التي يحافظون عليها لشعبهم ، فإذا التحق أحدهم بعمل سواء أكان عملا في محل بأجر أو افتتح لنفسه محلا جديدا فإنه يكون قد دخل تحت نظامهم العام ، ونظامهم العام لا يتيح للفرد فرصة لارتكاب المخالفات أو حتى للتفكير فيها ، وذلك أنهم يعيشون في مجموعات صغيرة لكل مجموعة في متجر أو مصنع بيتا يسكنون فيه أ وفي بيت ملحق به تحت رعاية رئيس المحل يمثل نظام الأسرة التى لا توجد بها الأم أو الزوجة وعلى بقية الأفراد أن يقوموا بأعمالها في إدارة البيت ، فرئيس المحل بمثابة الأب في سلطته وفي حنانه ، وشركاؤه يمثلون إخوة كبار له ، أما العمال فهم بمثابة الأبناء ، ويتعاون المجتمع على إنجاز مهمات البيت حسب تنظيم دقيق يرسمه رب العمل ، ولكل محل أو خلية نظام ثابت روتيني ينتظم به سير العمل ويقسم فيه الوقت تنظيما دقيقا : أوقات محددة للصلاة ، أوقات محددة للأكل ، أوقات محددة للنوم ، أوقات محددة للتنظيف ، أوقات محددة لترتيب البضاعة ووضعها في أماكن العرض ، أو تحت تناول الأيدي للإستعمال ، أوقات محددة للتعامل مع الجمهور ، هذه السلسلة من التنظيمات الموضوعة بترتيب محكم يسلم بعضها إلى بعض ، لا يجد معها الفرد فراغا لارتكاب المعصية أو حتى للتفكير فيها .

وفي نهاية هذا البحث يمكننا أن نلخص ما سميناه بالعلاج الوقائي فيما يأتي :

1 ـ إيجاد بيئة اجتماعية لكل مغترب لا تختلف عن البيئة التي نشأ فيها ، مع ملاحظة تكوين علاقة متينة بين مجموعة متعاونة تشبه إلى حد كبير العلاقات الأسرية .

2 ـ دقة التنظيم في استغلال الوقت بحيث يشتمل على العناصر التي يحتاج إليها الإنسان في صرف الطاقة من جهة وفي راحة النفس والجسم من جهة أخرى في الحدود التي تجمع بين مراعاة الفطرة ومراعاة الشريعة .

3 ـ ربط الحياة بجانبيها الديني والمدني ، أو التوفيق بين المادة والروح دون إخلال بمتطلبات أحدهما .

4 ـ تغليب فكرة بناء الأعمال على التعاون مهما كانت بسيطة ، وإيجاب إنجاز المشاريع الضخمة على الجهود المشتركة من الجميع .

5 ـ إشعار العمال بكرامتهم وآدميتهم وذلك بتقرير حقوقهم وأجرتهم من لجنة عليا يخضع لها العمال وأرباب العمل وتولي تلك اللجنة لمحاسبة الجميع مع شيء من الشدة ودقة المحاسبة على أداء الأعمال في إجادة وأمانة .

6 ـ الإهتمام بالجانب العاطفي بتقرير إجازة يُسمح فيها للعامل ولرب العمل بالرجوع إلى وطنه وبقائه فيه مدة معقولة .

7 ـ تدريب الاطفال على التجارة والإغتراب منذ الصغر لربطهم بعجلة العمل والاعتماد على النفس في الحياة .

8 ـ إيجاد العمل المناسب الذي يحفظ على الإنسان كرامته .

9 ـ منع الاستغلال بتقرير الأُجرة من هيئة أعلى فلا يستطيع رب العمل أن يستغل العامل ولا العكس .

10 ـ عدم السماح بوجود جماعات من الناس لا عمل لهم في أية مدينة حتى لا تتكون مجموعات من المتسولين أو المنحرفين

وذلك بإرجاع كل من ليس مؤهلا للعمل في النطاق المحدود ، وكل من يريد أن ينطلق دون قيود ، إلى أوطانهم ولو بالإكراه .

11 ـ إغلاق أبواب الفسادبعدم إتاحة فرصة لذلك .

12 ـ إعداد أماكن فسيحة للصلاة والاجتماعات وسماع الدروس والمواعظ ومناقشة المشاكل العامة أو الخاصة .

13 ـ إيجاد مدارس في أغلب المدن لمن يزال في سن الدراسة تدرس له فيه نفس المناهج التي تدرس في وطنه وهي مع ذلك تفتح صدرها للكبار الذين يريدون أن يزيدوا في ثقافتهم فهي تجمع بين أنظمة المدارس العادية والمدارس المسائية ومدارس تعليم الكبار .

14 ـ الإبتعاد عن الأعمال والمهن المنفرة والمرهقة والمفرقة .

15 ـ استمرارية التوجيه بالنصائح والدروس في الميدانين العملى والعلمي .

16 ـ الشعور بالرقابة والمتابعة في جميع الأحوال .

17 ـ الحرص على حياة الضمير وحياة العقيدة ومراقبة الله في السر والعلن ، وغرس الخوف من الله في كل تقصير وفي كل معصية .

18 ـ الحرص الشديد على الحافظة على الأمانة بحيث كانت أبرز الأخلاق التي يتحلى بها الفرد عندهم ، وقد يفرط في كل شيء ما عدا الأمانة ، وقد عرفت فيهم هذا جميع المجتمعات التي عرفتهم وتعاملت معهم .

هذه بعض التنظيمات التي اتخذت للحيلولة دون الأضرار أو

المساويء التي تحدث بسبب الغربة ، وهي كما ترى كلها أدوية وقائية مبنية على دراسة للنفس البشرية وإن كان الذين فكروا فيها ووضعوها تدريجيا ـ وغالبا لمعالجة مشاكل ـ لم يكونوا من حملة الشهادات ولا من علماء النفس المعروفين ، وإنما كانوا يتقون شرور الحياة على وطنهم ومجتمعهم بحذر الفطرة وحرص الدين على السلامة .

أما التنظيمات التي جعلت لعلاج المشكلة بعد وقوعها ، ونعني بالمشكلة في هذا الصدد الإنحراف في الخلق والاستهانة بأحكام الدين ، أو التفريط في الجانب من العمل مما تختل به الثقة والأمانة ، فتتلخص في المواقف الآتية :

1 ـ ترحيل كل من لا يصلح للعمل في الغربة أو من يرتكب ما يخالف النظام العام الذي يحرصون عليه مع الإصرار وعدم التوبة والندم .

2 ـ إجراءات تأديبية مشددة يقوم بها هيئة رئيس المحل بمحضر من العمال .

3 ـ إجراءات تأديبية مشددة تقوم بها هيئة (كبار الحرفة) إما في جلسة خاصة أو في اجتماع عام حسب نوع الجريمة وموقف المنحرف من الموضوع .

4 ـ إعلان البراءة من المنحرف المصر يصدر من مجلس العزابة في قريته .

5 ـ يضاف إلى هذا بعض المواقف التي تتخذها الزوجة في بعض هذه المقامات ، وسوف نشير إلى ذلك بتفصيل في الفصل التالي .

المرأة الميزابية والغربة

انطلق بنو مصعب خارج بلادهم سعيا وراء التحسين الإقتصادي ، ولكنهم كانوا يتخوفون من آثار هذا الإنطلاق خارج البلاد ، فكانوا يفكرون في وضع حلول للمشاكل الناجمة أو التي يتوقعون أنها سوف تنجم ، وقد عرضنا بعض ذلك في الفصل السابق . وهناك جانب آخر على غاية من الأهمية كان المفكرون المصلحون يخشونه أكثر مما يخشون جميع المشاكل الأُخرى ، وذلك أنهم كانوايتساءلون عما يضمن لهم رجوع الميزابي الذي خرج من وطنه إلى ذلك الوطن نفسه ، ويضمن ارتباطه به ، اذا ساغت له الحياة في مهجره وطابت له فيه المعيشة ، وهم حين نجحوا في إرجاع المغترب الفاشل والمنحرف بالتعاون مع السلطة يعرفون بالتأكيد أن هذا الأُسلوب لا يجدي مع الجميع .

فالتاجر الناجح الذي ازدهرت أعماله ، وازدادت مكاسبه ، وتوسعت تجارته ، واستطاع أن يحصل على أملاك وعقارات في كبريات المدن ، ليس من صالحهم ولا من صالحه ، ولا من صالح المجتمع ، ولا من صالح الدولة أن يقطع عن أعماله ، ويُلزم بالقبوع في وادي ميزاب مكتوف اليدين ، بينما كانت يداه ـ في دار الغربة ـ تغزلان الحرير وتصوغان الذهب ، فما الذي يضمن رجوع هذا التاجر إلى منطقة صحراوية ، ويحول دون أن يعيش في رفاهية ورغد في وطنه الجديد ، إنه لو ترك وشأنه يتصرف في حياته كما يريد لأمكن أن يتسرب بأهله ، وهكذا يتسرب سكان الوادي إلى الخارج دون إحساس بالتسرب ولا بالخطر الذي يتهدد وطنهم الأصلي ، ولا يلبث ذلك الوطن إلا فترة قصيرة حتى يصبح خرابا ينعق فيه البوم كما وقع لكثير من بلدان الجنوب التي تسرب منها أهلها لسهولة العيش ورغده . فما هو القيد الذي يستطيعون أن يضعوه في رجل كل مغترب حتى يرتبط بوطنه ارتباطا لا ينقطع ، لقد فكروا في هذا كثيرا حتى اهتدوا إلى ذلك القيد

فصاغوه من أشرطة العاطفة الناعمة وأوثقوه إلى قاعدة من الحب المكين ، مماجعل الميزابي وهو يغادر بلده لا يكف عن الالتفات إليه لأنه مرتبط فيه بنياط قلبه ، وموثوق إليه بجميع مشاعره وأحاسيسه مما يجعله لا يفكر إلا فيه ، ولا ينفق إلا عليه حتى يجعله جنة مزدهرة ، وارفة الظلال ، جنية الثمار ، جميلة المظهر والمخبر .

ورأوا أنه لا يربط الرجل شيء ما في مكان ما غير المرأة فهي وحدها القادرة على إمساكه وعلى جلبه ، وبناء على هذه النظرية فقد تولى مجلس العزابة إصدار قرار ينص على أنه لا يجوز للمرأة الميزابية أن تخرج من وطنها لغير الحج والعلاج ، وكانت فلسفتهم في اتخاذ هذا القرار مبنية على عدة اعتبارات لها قيمتها في بناء المجتمعات منها ما يلي :

☆ المرأة ربة البيت ، وهي مرتكز الأسرة ، وعليها تتجمع ، وبقاؤها في الوطن يحفظ للوطن كل مطالبه من الأسرة وفي مقدمتها الجوانب الاقتصادية .

☆ بقاء المرأة في الوطن يجعل رب الأسرة مرتبطا - عاطفيا - بوطنه فهو يعمل بكل وسيلة للرجوع إليه متى سنحت الفرصة ، كما أنه ينفق عليه وفيه بسخاء لتوفير وسائل الراحة له ولأسرته ، بما في ذلك الاستغلال الزراعي لما يملكه .

☆ بقاء المرأة في الوطن يجعل أبناء الأسرة ينشأون على المثاليات المعروفة عندهم ويحافظون على السلوك الذي اعتاده المجتمع هناك وهو سلوك أقرب إلى الفطرة وألصق بالدين وأقوم منهجا من سلوك مجتمعات المدن لا سيما تلك التي اقتبست حضارتها من الغرب .

☆ السماح للرجل باصطحاب زوجته وأطفاله إلى مقر عمله

التجاري قد يكون سببا أن تروق لهم الحياة هناك فيقل شوقهم إلى الوطن ويتطور ذلك إلى استحباب البقاء هناك فيكون لونا من ألوان الهجرة وهو ما يخشونه .

☆ السماح للمرأة بالانتقال مع زوجها إلى أماكن عمله ينتج لها أن تتصل ببيئات أخرى وبطبيعة الجوار والمعاشرة وطول الحياة تقتبس أنواعا من السلوك وأخلاقا وعادات مخالفة لما اعتادته في وطنها وتدريجيا تألف تلك الأخلاق والعادات فإذا رجعت - في زيارة - إلى وطنها كان سلوكها الجديد مثارا للنقد فتتضايق من ذلك وتحمل زوجها على الإسراع في العودة إلى مكان الغربة وتكون هذه الحالات بداءات للهجرة الكاملة .

تنقل المرأة والأطفال في حياتهم بين بيئة وأخرى يجعلهم يعيشون بين أنماط مختلفة من السلوك ، فتؤثر تلك الازدواجية السلوكية على أخلاقهم وعلى سلوكهم .

☆ وجود الأسرة مع الرجل في بلاد الغربة يقلل من اهتمامه بالوطن وبالتالي يقلل من الخدمات والنفقات التي يقدمها له لو لم تكن معه أسرته .

☆ عندما يجد الرجل وهو في الغربة زوجته وأطفاله إلى جانبه يغلب عليه حب الاستقرار هناك ، ويضعف حنينه إلى وطنه الأصيل وتقل رعايته له . ولذلك فنظرا للاعتبارات السابقة ولغيرها ، وربطا للرجل بوطنه حفاظا على هذا الوطن ، وحرصا على دينهم وأخلاقهم وعاداتهم ، ومحافظة على مجتمعهم بما له من مميزات وخصائص ، اتخذوا هذا القرار ، وهم يعلمون الجوانب السلبية فيه وما ينتج عنها من مشاكل لخصها أحد الشباب الذين تحدثت معهم في هذا الموضوع في أضرار ينتج عنها نوعان من الأمراض وخسارة اقتصادية ، وفي الإمكان عرضها في إيجاز كما يلي :

1ـ أمراض نفسية : أو كما عبر هو عنها : اختلال في الصحة النفسية وهي ناتجة عن نوعين من الحرمان :

حرمان العاطفة من الإشباع بالمحبة الأُسرية .

حرمان الغريزة من الإشباع الجنسي .

وحرمان كل منهما من الإشباع يؤدي إما إلى عقد الكبت ، وإما إلى انطلاقة الانحراف .

والانحراف في الحرمان العاطفي ينتج عنه برود في العلاقات الأُسرية ، وتفكك في رابطتها وعدم انسجام في سلوكها ، ثم تحول عاطفة الحب في النفس إلى كراهية وحقد على المجتمع أجمع ، ثم طغيان الفردية على الشخصية حتى تذوب منها جميع الاعتبارات إلا ما فرضته القوة ، والإنحراف في الحرمان الغريزي ينتج عنه البحث عن إشباع الغريزة بطرق غير مشروعة كالشذوذ بأنواعه والبحث عن البغاء السري أو العلني .

2 ـ أمراض اجتماعية : وهي ناتجة عن نوعين من الحرمان أيضا : حرمان الأُسرة من الإشراف الدائم على أفرادها ، والكون معهم ، والحياة بينهم ، وحرمان المجتمع الأُسري إلا ذوي الرحم والقرابة من رعاية حقوقها ومداومة الاتصال بها ، وإحكام المودة بينها ، وينتج من الحرمان الأول نوع من التشرد والاستقلالية الجبرية التي أحدثتها الظروف ، ولم تكونها التربية الواعية .

وينتج عن الحرمان الثاني نوع من التفكك والتباعد بين الأقارب وضياع كثير من الحقوق دون شعور من أحد ، أو مسؤولية عليها .

3 ـ خسارة اقتصادية : وذلك أن الرجل وهو يكافح في بلاد الغربة يضطر إلى الإنفاق على نفسه هناك وعلى الأُسرة في الوطن

فهو من الناحية الاقتصادية كأنما ينفق على أُسرتين ، يضاف إلى ذلك أن المرأة غالبا لا تحسن التصرف المالي في غير اللباس والزينة فيتسرب كثير مما يرسله الزوج الى أُسرته ـ لكي تعيش حياة سعيدة ـ من بين أنامل الزوجة إلى هذا الجانب ويبقى أفراد الأُسرة في حرمان من بعض ما يريدون وهم في ذلك ينسبون التقصير والمسؤولية إلى رب الأُسرة الموجودة في ديار الغربة .

والآن نستطيع أن نجمل الأضرار التي يخافها البعض ويحذر منها فيما يلي :

☆ الحرمان من إشباع العاطفة ينتج عنه برود العلاقات بين أفراد الأُسرة الواحدة .

☆ عدم الإشراف إشرافا مباشرا على الأفراد في الأُسرة ينشأ عنه تشرد أُولئك الأفراد وعدم انضباطهم .

☆ الغياب عن المجتمع ينشأ عنه التفكك في العلاقات والخلاف بين ذوي الأرحام .

☆ بقاء الأُسرة بعيدة عن ربها والإنفاق عليها يتسبب في مزيد من الإسراف دون تغطية المطالب لأفراد الأُسرة .

حدثني بهذه المخاوف بعض الشباب الميزابي المثقف بثقافة هذا العصر والذي درس الآراء والنظريات الجديدة في علم النفس وعلم الإجتماع وكنا في اجتماعات خاصة نتحدث عن المرأة الميزابية ومزاياها ونقارن المضار والمنافع الناتجة عن هجرة المرأة الميزابية مع زوجها ، فحاولت أن ألخص ما يراه بعض الشباب في هذه الفقرات بإيجاز شديد حتى يعرف القاريء الكريم كل جوانب الموضوع .

أنا ـ في الحقيقة ـ لا أعرف أول من اتخذ هذا القرار ، ولا

كيف اتخذه ، ولا لما ذا اتخذه ، والقرار بالنظرة السطحية لا ينسجم مع الفطرة وهو تحكم في شأن خاص من شؤون الأسرة لم تقيده الشريعة الإسلامية السمحة إلا على ضرب من التأويل يمكن أن يستند إليه إذا رجحته المصلحة العامة .

وأنا أعتقد ـ دون أن تكون لي شواهد ـ أن أهل الوادي لم يصدروا هذا القرار إلا لأن وقائع معينة ، أو أحداثا بارزة دفعتهم إليه . وكانت السبب في وضع هذه المادة القاسية كما يرى بعض الإخوان ، وقد تقبلها سكان هذه المنطقة واعتادوها وأصبحت عندهم عادة لا تبعث على التساؤل والنقاش ، كما أن مجلس العزابة ، ولا بد أن يكون ناقشها من الوجهة الشرعية مناقشة مستفيضة كان يقف فيها موقفا صارما لا يسمح لأي إنسان مهما كان مركزه أن يأخذ معه امرأة خارج وادي ميزاب لغير الحج والعلاج . وإلا لكان معرضا للحكم بالبراءة عليه ، وكانت المرأة أيضا معرضة مثل ذلك من مجلس العزابة النسوي . وإذا أجاز رجل لنفسه أن يقف هذا الموقف فيتقبل الحكم بالبراءة ، فإنه لا توجد امرأة واحدة تضع نفسها في هذا المأزق الحرج وتعرض نفسها لغضب الله وغضب المجتمع وهجرانه .

وقد انبنى على قرار منع المرأة من الخروج من ميزاب تصرف آخر قصد منه الحد من الأضرار التي قد تلحق بسبب غربة الزوج وما يتعرض له من إغراءات الإنحراف ، وتتعرض هي له من ألوان الحرمان فأعطى لها حق اشتراط عدد من الشروط في العقد عند الزواج تكفل بها حق إبعاد الضرر عنها وعن بيتها إذا توقعته أو أحست به ، وقد أصبحت تلك الشروط عرفا عاما عند بني مصعب لا يُسأل الرجل عند العقد عن قبولها أو عدم قبولها كأنما ليس له حق الرفض ، أما الشروط فتتلخص فيما يلي :(1)

(1) خصصوا الكبائر المذكورة هنا دون غيرها لأن لهذه الكبائر آثارا سيئة مباشرة على المرأة والأسرة .

1 ـ أن لا يغيب عنها أكثر من ثلاث سنوات .

2 ـ أن لا يتزوج عليها .

3 ـ أن لا يشرب الخمر .

4 ـ أن لا يرتكب جريمة الزنى .

5 ـ أن لايلعب القمار .

6 ـ أن لا يرتكب جريمة قتل النفس التي حرم الله .

ويضيفون إلى هذه الشروط فقرة شارحة تقول : فإذا ارتكب إحدى هذه المخالفات صار أمر طلاقها بيدها ولا يضرها الانتظار .

ويقصدون بذلك أن الرجل إذا ارتكب مخالفة أحد هذه الشروط فإن من حق المرأة أن تطلق نفسها إذا شاءت ، فإذا لم تبادر إلى تطليقها فإن عدم المبادرة لا يفقدها حقها في التخلص منه ، وهذه الملاحظة الأخيرة البسيطة التي حفظت للمرأة حقها في الطلاق إذا خولف الشرط من شأنها أن تجعل المرأة غير متسرعة خوفا أن يضيع منها الحق فتتخذ قرار انفصال بمجرد الهفوة الأولى ، وإنما تتريث وتتصبر ما دامت تأمل الصلاح من زوجها ، وترجو منه التوبة عن انحرافاته ، فإذا يئست منه وتحققت المضرة لها في نفسها أو في بيتها لجأت إلى القرار واستعملت الحق ، وأعلنت الحكم بالفراق بقولها : أخذت بشرطي وطلقت نفسي ، فإذا أردنا ـ الآن ـ أن نعود إلى الموضوع فنجمل ما فيه من سلبيات وإيجابيات فإننا نستطيع أن نلخصه كما يلي :

الإغتراب عن وادي ميزاب ـ للاكتساب ـ ضرورة اقتصادية مسلم بها وغير خاضعة للنقاش ، ولتجنب ما ينتج عنها من أضرار اتخذ عدد من التنظيمات تكفل الضمانات الآتية :

1 ـ قصرت أعمال بني مصعب على التجارة (إلا شواذ لا حساب لها) وقد روعي في تلك التجارة أن تكون على أسلوب المشاركة ـ غالبا ـ ولوحظ على القائمين بها الاستكثار من العمال ، حتى يتمكن أصحاب رؤوس الأموال المتشاركون في التجارة من الإشراف على تجارتهم على طريقة المناوبة ، فيستطيع بعضهم أن يقيم في بلده وشريكه يشرف على التجارة ، ثم يحدث العكس . وحتى يستطيع كل عامل أن يعود إلى بلده في فترات محدودة ويقوم بعمله بديلا من زملائه .

2 ـ وضعت أمام المغترب نفس البيئة التي كان يعيش عليها في جميع نظم الحياة ، في أسلوب العمل ، في تنظيم الإشراف والمتابعة ، في المحافظة على الصلاة ، في حضور الصلاة في المساجد أو الأماكن المعدة لذلك ، في موالاة الإرشاد والوعظ ، في إعداد وسائل الطهارة ، في جمع الصدقات وتوزيعها ، بل حتى أنواع الأكل وطريقة إعداده وتقديمه ، بحيث أن الواحد منهم في ديار الغربة لا يفتقد شيئا اللهم إلا بعض الوجوه أو بعض المناظر أو الشؤون الشخصية جدا ، فهو يعيش في مجتمع هو نفس المجتمع الذي نشأ فيه بكل ألوانه وظلاله ، وهو بذلك لا يحس أبدا أنه في غربة ، ولا يجد أبدا ما يجده المغترب ـ عادة من الوحشة ـ وفي هذه العادة التي تنقل البيئة نفسها إلى مكان العمل من الاستقرار النفسي والاطمئنان الروحي ما يساعد على الاستمرار في العمل والاجادة فيه .

3 ـ نظمت أوقات العمل والراحة والعبادة بحيث لا تترك فراغا يدعو إلى الاحساس بالغربة أو الافتقار إلى قتل الوقت (لأنه لم يبق لهم وقت زائد أو فارغ يستحق القتل)

4 ـ عدم وجود فراغ في الوقت مع شدة المراقبة والمتابعة من ثلاث جهات متعاونة هي مجلس العزابة ، وجماعة الحرفة ،

وشروط عقد الزواج . لكل منها حق فرض عقوبة مناسبة ، كان عاملا هاما في عدم التفكير في الانحراف بجميع أنواعه وعدم التفكير في شيء يجعل الشخص لا يشعر بالحرمان منه .

5 ـ التهديد بفقدان الزوجة ، وتشريد الأطفال إن هو فكر في إحدى الموبقات السابقة ، أو فكر في إطالة الغربة أكثر مما حدده القرار ، أو اتخذحلا مؤقتا بزواج ثان جعله لا يقدم على أي خطوة من تلك الخطوات لئلا يتهدم مستقبله كله ،ونستطيع الآن أن نقول :

☆ إن المغترب لا يحس بالفراغ العاطفي طالما هو موجود في مجتمع وبيئة شبيهة بالبيئة التي كان يعيش فيها ، وطالما في إمكانه أن يرجع إلى بلده في مناسبات معقولة ، فلا يخشى عليه من العقد ، ولا يخشى منه ولا عليه برود العلاقات الأسرية .

☆ ولا يخشى عليه من سيطرة الغريزة ،لأن وقته مملوء بعمل منتج ، ولأنه لا يجد فرصة للتسكع فيرى ما يثير فيه أنواع الغريزة ، ولأنه يعرف سلفا أنه لا يستطيع أن يشبع غريزته بطريقة غير مشروعة فهو لا يفكر في الانحراف بتاتا وإنما يحصر تفكيره في الجانب المشروع ، وذلك إذا دعاه داعي الفطرة الذي حدد تقريبا بالأوقات التي يسمح فيها بالرجوع إلى البلد . وأحب هنا أن يدرك القاريء الكريم ذلك الفرق الكبير بين داعي الفطرة وداعي الغريزة ، فدواعي الفطرة وسيلة للقيام بوظيفة حيوية يتوقف عليها استمرارالخليقة ، أما دواعي الغريزة فوسيلة للاستجابة والخضوع لسلطان شهوة غالبة أثارها إحساس أو نظر أو لمس . وقد يكون المثير مشروعا عندما يكون مع من تربطها علاقة شرعية ، وقد يكون غير شرعي عندما يكون عند من لا تربطهما علاقة شرعية . ولعل الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي تختلط عنده مطالب الغريزة بمطالب الفطرة ، وهو مطالب ـ باعتباره عاقلا

مكلفا ـ بالتفريق بينهما ووضع كل واحدة منهما في مكانها الصحيح أما غيره من المخالوقات فتوجهها الفطرة توجيها سليما ولذلك فأنت ترى القطيع من الحيوان بذكوره وإناثه يعيش سنة كاملة معا لا يرتكب الخطأ الذي يرتكبه الإنسان ، فاذا جاء الموسم الذي تدعوه فيه الفطرة للقيام بمهمة استمرار الحياة استجاب لها بذكوره وإناثه حتى إذا تمت عملية الإخصاب بجميع الحوامل هدأت الحركة وتوقفت العملية إلى موسم مقبل ، فعملية اللقاء والإغراء في غير الإنسان لا تستثير الغريزة ولا تدفع الشهوة إلى الغلبة والسيطرة إلا في الأحوال والأفراد الشاذين ، والشاذ لا حكم له ، أما اللقاء والإثارة والإغراء في الإنسان فهي شديدة الخطورة ولا تتحكم فيها الفطرة وإنما تتحكم فيها الغريزة ، والغريزة مطية الشهوة ، ولذلك كان من تشريع الله للإنسان إبعاد المثيرات عنه بالفصل بين حركة الرجل والمرأة وجعله لكل منهما مدارا في الحياة يدور فيه ولا يتم اللقاء بينهما إلا بترتيب وتنظيم .

وهذا ما أدركه المفكرون من بني مصعب ، فكانوا لا يخشون على المغترب منهم من الانحراف لأن ضمانات عديدة نفسية وعقلية ودينية وعملية تحول دون ذلك، ولا يخشى عليه من العقد لأن العقد لا تنتج إلا من الإحساس بالحرمان المبني على القهر مع التفكير الدائم في إمكان الحصول على المرغوب لولا وسائل التسلط ، أما النفس التي لا تحصل على مرغوب مشتهى من دواعي الغريزة لأنها مقتنعة ـ داخليا ـ بأن ذلك ليس من حقها فلا تتعقد أبدا ، فإذا كان المغترب ممن تكون عنده دواعي الغريزة لأنها مقتنعة ـداخليا ـ بأن ذلك ليس من حقها فلا تتعقد أبدا ، فإذا كان المغترب ممن تكون عنده دواعي الفطرة بطيئة ، وتغلبت عليه ظروف جمع المال في ديار الغربة ، وأحب أن يستمرفيها بعد أن بلغ الحد الأقصى للمدة المقررة أو المسموح بها ، فإنه يكون عرضة لأن تنفصل عنه زوجته وتتشرد أسرته فيبادر إلى الرجوع إلى

وطنه ولولم يكن شديد الرغبة في ذلك ، وذلك لأن واضعي التنظيم راعوا ظروف المرأة ، فان للمرأة في باب الفطرة حقا مثل حق الرجل ، وقد مكنت من الحصول على هذا الحق بالقوة إذا لم تغن العاطفة .

☆ موضوع تربية الأسرة والإشراف عليها وافتقاد منزلة الأب المغترب في ذلك موضوع هام في الحقيقة ، غير أن بني مصعب وهم يرون أن الإغتراب ضرورة اقتصادية تحتمها مصلحة الوطن والمجتمع والفرد ـ قد اتخذوا عددا من الترتيبات والتنظيمات التي تخفف ـ إلى أقصى حد مساويء اغتراب رب الأسرة عن الأسرة ،وذلك إنه بالإضافة إلى من يتركهم المغترب من كبار الأسرة ليشرفوا على كل الجوانب من أسرهم ، فإن مجلس العشيرة يعتبر المشرف الحقيقي علي جميع أسر العشيرة ، وهو الذي يتولى رعاية شئون كل أسرة بالتفصيل وبالتدقيق حتى مع وجود رب الأسرة ومع ذلك فإن القرية في وادي ميزاب تعتبرأسرة واحدة يتولى الإشراف عليها من جميع جوانبها مجلس العزابة يساعده على مشاكل دخائل البيوت والمجتمع النسوي (مجلس العزابة النسوي) وعين هذا المجلس الساهرة على مصلحة المجتمع تدخل كل بيت ، وتتبع كل أسرة وتعرف المشاكل ، وتوجه كل طفل لما ينبغي له وتتيح لجميع أبناء القرية فرصا متساوية من التعليم والتهذيب والرعاية والتعويد على المحافظة على العبادات لاسيما أداء الصلاة في المساجد ، والحصول على أنصبتهم من الأوقاف التي توزع كل يوم أو في المناسبات ، وتعويدهم على المحافظة على مكارم الأخلاق ويساعد مجلس العزابة والعشيرة (مجلس المكاريس) الذي يحافظ على النظام والآداب العامة في القرية ويتولى حراسة القرية حراسة دقيقة في كل ما يعكر جو الأمن أو الدين أوالخلق ، سواء كان ذلك المعكر وافدا من الخارج ـ وهو أكثر الحالات ـ أو كان نابعا من داخل القرية وهو نادر جدا .

وبهذا فإن الأُسرة لا تفقد بغياب الأب أو الأخ شيئا غير شخصه الذي يجعل غيابه عنهم محبته تزداد في قلوبهم ، وتعلقهم به يتضاعف بتضاعف شوقهم إليه ، ويجعله هو في نفس الموقف لأنه مطمئن على استقامة أُمورهم جميعا لوجود من يتولاها في أمانة وإخلاص ، ولا يحن إلى رؤيتهم إلا من باب الشوق والمحبة .

والواقع أن هذا الوضع يقوي الترابط الأُسري ويبعد عنه ما تثيره التصرفات المباشرة ، وتعارض الرغبات من آثار في النفوس .

وبفضل هذه التنظيمات وأمثالها لم يعرف التشرد في المجتمع الإباضي في أي دور من أدوار التاريخ حتى في أشدها قسوة عليهم رغم ما انصبت عليهم من النكبات في أي بلد من بلدان الإباضية ، وكان هذا يمثل ظاهرة غريبة في الدراسات الاجتماعية لبعض المهتمين بهذا الموضوع ، فقد كان بعضهم يلاحظ ـ مع الاهتمام والاستقصاء والحرص ـ أنه لا يوجد أي شحاذ أو متسول أو متشرد إباضي ، بينما يوجد من غيرهم أعداد وافرة .

وقد أشار الأُستاذ توفيق المدني ببراعة إلى هذه الظاهرة عندما تكلم عن إباضية وارجلان ، أما الأُستاذ حسن حسني عبد الوهاب فقد لاحظ هذه الظاهرة بعمق في إباضية جربة وتحدث عنها بشيء من الإسهاب وحاول أن يعللها ويبحث عن أسبابها فوفق في بعض التعليقات وفاته التوفيق في بعضها . وحسبه أنه أدرك ما لم يشعر به أو تغافل عنه غيره وكتب عنه بصدق وصراحة ، وحاول أن يفهم أسبابه .

☆ ولا خوف أبدا من التفكك الأُسرى المبني على طول الغياب الذي يسبب ضعف العلاقات مع الأقارب والتقصير في أداء حقوقهم ، فإن هذه الفكرة غير واردة أساسا ، لأن حقوق الأقارب وزياراتهم ليست واجبا يوميا ، وإنما هي مرتبطة غالبا بالمناسبات

والمواسم ، وتتفاوت هذه الحقوق بتفاوت درجة القرابة ، ولا شك أن الغياب فترة من الزمن يجيء بعدها القريب مشتاقا إليه ـ وربما كان محملا بالهدايا ـ كفيل بنسف كل المخاوف في هذا الباب ، ولعل غياب بعضهم عن بعض فترات معقولة من الزمان أدعى لأن لا تثور بينهم المشاكل بسبب احتكاك المعاشرة وأن يتغلب على صغائر الأُمور فتغلب المحبة عليهم وتزداد أواصرهم توثقا ومتانة .

☆ أما نقطة الخسارة الاقتصادية فلعلها ليست من الأهمية بحيث تستدعي الدراسة والبحث ، والأموال التي تصرف على الأُسرة وعلى الوطن ليست خسارة وإن كان فيها بعض المبالغة ، المرأة التى تتولى إدارة البيت في غياب زوجها تتعود على حسن الإدارة وربما تجيد إدارة الجانب المالي فيه أكثر من إدارة الزوج له .

خاتمة الفصل :

بقي لي في نهاية هذا الفصل أن أقول : إن هذه الأنواع من التنظيمات والإجراءات أو الأعراف ليست وليدة يوم ، ولا منبثقة عن تفكير فلسفي في برج عاجي ، أو نبعت بين أُناس من ذوي الكراسي الدوارة والمكاتب العريضة ، الذين يتصورون مشاكل المجتمع بآذانهم ويتخذون لها الحلول بأخيلتهم ، وإنما هي نبعت من تجارب غنية متواصلة ، وملاحظات مستمرة متتابعة ومناقشات في اختيار أنسب الحلول وأسلمها ، وقد تدوم تلك الملاحظات والمناقشات شهورا وأعواما حتى تبلغ إلى الصيغ النهائية التي نفذت كأعراف أو تقاليد ، أو كأنظمة وقوانين .

فما هي الآثار التي نتجت عن مجموع تلك القرارات والتنظيمات والأعراف والتقاليد؟

وللإجابة عن هذا السؤال أستطيع أن ألخص أهم تلك الآثار في النقاط التالية :

1 ـ اعتمـــدوا في بنـــاء وطنهم على أنفسهم ، واعتبروا غربتهم تضحيـة في سبيل الوطن يرجون عليهـا الثـواب من اللـه وجعلـوهـا وسيلة لخدمته ، ولذلك فهم ينفقون بسخـاء على تعميره ممـا جعلـه يمتـاز على غيره من الـواحـات بـالعمران والازدهـار ووسـائـل الحضارةويسر المرافق ، وقد جعلهم حبهم لهـذا الوطن واغترابهم من أجله يتصرفون خلاف ما هو متعارف عليه في العالم أجمع . وذلـك أن أكثر الناس إذا أرادوا التخفف من المسؤوليـات وقضـاء وقت في الراحة والاستجمام ، يأخذون مبالغ من المال وينطلقون بها خـارج بلادهم ينفقونهـا هنـاك في حريـة ودون مسئوليـة، أمـا بنو مصعب فـإنهم إذا أرادوا التخفف من مسئـوليـاتهم وقضـاء وقت في الراحـة والاستجمـام فـإنهم يـأخـذون مـا معهم من مـال في دار غربتهم ثم ينطلقون من بلـدان عملهم إلى بلـدان وطنهم الأصلي حيث يقضون فترة من الراحـة والاستجمـام بين أفراد أسرهم وفي ربـوع وطنهم وتعود نفقاتهم على بلادهم وشعبهم بالخير والرغد والازدهار .

2 ـ ارتبطوا مصيريـا بوطنهم الأصلي فهم مشغولون ـ على كـل النطاقـات ـ بـالتفكير فيـه ، والعمل لـه ، والكفـاح من أجلـه وقـد كلفهم ذلك أثمانا بـاهظـة ، قـديمـا في رد عـدوان هجمـات النهب والسرقة والقتل ، وحديثـا في كفـاحهم للإستعمـار الفرنسي ورفضهم للخضوع له ، ولفروضـه التي كـان يفرضهـا على الشعوب الـداخلـة تحت سيطرته كالتجنيد الاجباري .

3 ـ عنـــد اغتراب الرجـل بقيت المرأة هي ركيـزة العمـل الاجتماعي فقد توفرت لهـا التربيـة الـدينيـة ، وارتبطت بـالمسجـد يوميا تحضر الصلاة ، وتسمع الدروس ، وكفل لهـا المجتمع حصـانـة دائمـة لا تتعرض فيهـا لأي هزة أو إثـارة ولم تنفتح لهـا أبواب الشر والفساد كما انفتحت لغيرها ، وألقيت عليهـا مسئوليـة الاستقرار في الوطن والمحافظة على مثاليات الأسرة التي يوجهها الـدين ويقرهـا

العرف الحسن ، فثبتت في مكـانهـا كقـاعـدة تـدور حـولهـا شئـون الأسرة جميعا ، ينشأ تحت رعايتها الأطفال ، ويساعدها الأجـداد ، ويشترك معها الزوج في رسم المسيرة عنـدمـا يحضر ، أو يتم ذلـك بالمراسلـة في المشـاكل الطـارئـة ومنع غير المحـارم من لقـائهـاولو كانوا من أقاربها فاستغنت واستقلت بإدارة البيت ورعاية شئونه مما أكسبهـا قوة الشخصيـة واعتـدادا بـالنفس وثقـة من الزوج والأهـل ، فكانت العلاقة التي تربطهم جميعا ـ ولا سيما الزوجين ـ مبنية على المحبة والاحترام المتبادلين .

4 ـ اعتاد الميزابيون مشقـات السفر والاغتراب وتمرسوا بخـدمـة أنفسهم دون اللجوء إلى غيرهم ، وعودوا أبناءهم على ذلـك من عهود الطفولة فتكونت فيهم صفـات رجوليـة قويـة معتمـدة على النفس ، وسلموا من عواقب التدليل الذي يورث الوهن ، ومن مظـاهر الحب والحنان الذي يتجاوز حـدوده فينقلب إلى مرض نفسي ، فكـانوا إذا طلبوا من طفل في السابعة أن يرحل إلى بلد بعيد يقيم فيـه السنـة والسنتين دون أحد من أقاربه استعد لحمل أمتعته وساعدته أمه على ذلـك دون أن تقوم منـاحـة في البيت بسبب الفراق ودون أن تتبلل دسته من المناديل بالدمع في لحظـات الوداع ، ودون أن يحس هو بـأنـه في حـالـة حرمـان المفطـوم أو تحس هي بـأنهـا في موقف الثكلى .

5 ـ كان من أهم آثار تلك التنظيمات عليهم أن ربطتهم بوحـدة متميـزة في السلـوك والعـادات ، وجعلتهم حراصـا على الاستمسـاك بالدين والاحتفاظ بالاستقامة في الخلق ، وقويت الرابطة بينهم في ديـار الغربـة وفي داخل بـلادهم وعـودتهم على التفكير الجـدي في المصالح العامة والتعاون عليها حتى أصبح القيام بها والاتفاق عليهـا والتبرع لمشاريع الخير ـ كيفما كـانت ـ ملكـة فيهم يستجيبون لهـا بالنداء الداخلي الـذي يحسونـه في أنفسهم أكثر ممـا يستجيبون لـه

بالدعوة إليه وكان من نتائج ذلك أنه ما قام داع يدعو إلى مشروع خيري لمصلحة الجماعة الا وجد النفوس مقبلة عليه مقتنعة بوجوب الإنفاق فيه ، لأن تلك النفوس ريضت على أعمال الخير واقتنعت بها قبل أن تدعى إليها .

6 ـ ربما كانت رابطة الأُسرة عندهم ـ ولا سيماعلاقة الزوجين والأبناء ـ أقوى منها في أي بلد أو شعب آخر ، لأنها عندهم تعتمد على ثلاثة ركائز هي :

المحبة والمصلحة والشوق . بينما لا تتركز علاقة الأُسر عند غيرهم إلا على المحبة والمصلحة في قليل من الأحيان وعلى المحبة فقط أو المصلحة فقط في أكثرها .

وقد يكون سبب الإرتباط بين الزوجين هو المحبة ثم تنشأُ عنه المصلحة ، وقد يكون المصلحة ، ثم تنشأُ عنه المحبة .

ومهما كانت في سائر الشعوب فإنها في هذا الشعب تزيد قوة وارتباطا بعامل الشوق الذي تتهذب به العواطف وتسمو به الأحاسيس وترق به المشاعر فيصطبغ السلوك المبني على كل ذلك بالحنو والحنان والإحسان .

ويبدو لي أن هذه المزايا كلها كانت نتيجة لقرار منع المرأة من الخروج خارج وادي ميزاب ،فاستقرت في وطنها وباستقرارها استقر الشعب كله ، وبذلك كان لها الفضل في حفظ الأُسرة ، وحفظ الدين ، وحفظ الأخلاق والعادات ، وحفظ الرجل من الفساد الخلقي وحفظت نفسها من الوقوع بين مغريات الحياة ، وحفظت الوطن مزدهرا عامرا محبوبا متشوقا إليه باستمرار .

وبفضل ازدهاره الذي كان السبب الحقيقي فيه هو تضحية المرأة الكبرى من أجله ولزومها له ، وأصبح اليوم مفخرة للجزائر

الحرة ومرتاداسياحيا من الدرجة الأُولى يحرص السواح على زيارته ، وتحرص أجهزة السياحة من الدولة أن تريه لهم وكان قبل ذلك جنة من جنات الله في الأرض لا يحس بنو مصعب بالسعادة والهناء ، والاستقرار والأمن إلا عندما يكونون بين ربوعه بقراه اللامعة وغاباته الخضراء التي تحيط بها كما يحيط هلال العلم بنجمته الزاهرة .

فإذا أراد الإباضية في الجزائر أن يبقى وطنهم ـ واسطة العقد ـ لواحات الصحراء جميعا ومفخرة للجزائر كاملة ، وحصنا لهم محتفظا بخصائصه ومزاياه ، فليحافظوا على القرار الذي يمنع المرأة من الخروج من وادي ميزاب ، وإذا أرادوا أن يتساهلوا فيما ورثوه من تنظيم وأعراف فليتساهلوا فيما شاءوا وليغيروا نظام اقتصادهم وحياتهم كما يشاءون وليحتفظوا بثلاثة أشياء فقط هي مجلس العزابة ، ومجلس العشيرة ، وعدم السماح بخروج المرأة لغير العلاج والحج ،وليتأكدوا أنهم إذا تساهلوا في موضوع العزابة فإن الجانب الديني قد اضمحل ، وأنهم إن تساهلوا في مجلس العشيرة فإن الجانب الإجتماعي لهم قد اختل ، وأنهم إن تساهلوا في رحيل المرأة عن الوادي فإن الشعب الميزابي كله قد رحل . ولن يبقى في ذلك الوادي غير مياه من حين إلى حين تسيل ، وجذوع مهترئة كانت فيما سبق جذوع نخيل .

هذا ما تحققناه عن خبرة ، وعرفناه عن تجربة ، وشاهدناه بالعين ، وحضرنا بعض مأساته ـ ولا أبقانا الله حتى نرى نهايتها ـ فليسألوا إن شاءوا تلك الآثار الصامتة ما بين جربة ووارجلان ، وليسألوا إن شاءوا تلك الآثار الناطقة ما بين غدامس وغريان .

ولله عاقبة الأُمور في كل مكان .

الباب السادس

المؤسستان : الثانية والثالثة

جميع شئون الإباضية في الجزائر ـ مجتمعا وأفرادا ـ بعد انقراض الدولة الرستمية ولا سيما في العصور الوسيطة من أوائل القرن الخامس الهجري فما بعد إنما كانت تقوم على إحدى مؤسسات ثلاث أو عليها جميعا . وهذه المؤسسات الثلاث هي : مجلس العزابة ، ومجلس العشيرة ، ومجلس المكاريس (إيمسوردان)

1 ـ مجلس العزابة :قد تحدثنا عنه في الأجزاء السابقة من هذا الكتاب وفي هذا الجزء أيضا بما يكفي لإعطاء صورة واضحة عنه .

2 ـ مجلس العشيرة :

لا نستطيع أن نعطي صورة مفصلة كاملة ـ في هذا الفصل ـ عن هذه المؤسسة ، ولكن في إمكاننا ـ استيفاء للأقسام ـ أن نضع بين يدي القاريء الكريم باختصار شديد بعض الملامح التي تتكون منها تلك الصورة .

العشيرة تتكون من مجموعة من الأسر تربط بينها أواصر القرابة وعلاقة الرحم ، ولكل عشيرة مجلس غير محدد العدد من زعماء العشيرة وذوي الرأي والفضل منهم ، وللمجلس رئيس يختارونه من بينهم ، ومن مجموع العشائر تتكون القرية أو المدينة ، ومن رؤساء المجالس يتكون مجلس الضمان ، ورئيس الضمان يمثل الحاكم المدني للقرية .

ومجلس العشيرة هو الساعد القوي لمجلس العزابة من جهة ، ولمجلس المكاريس من جهة أخرى ، وأبرز مهمات مجلس العشيرة تتلخص فيما يلي :

1 ـ دراسة جميع أحوال العشيرة ودخائلها .

2 ـ دراسة جميع المشاكل التي تحدث داخل العشيرة واتخاذ الحلول لها .

3 ـ معالجة الانحرافات التي تقع من بعض أفراد العشيرة .

4 ـ التعاون مع مجلس العزابة وإبلاغ الحالات المستعصية إليه ليتخذ فيها قرارا من العزابة .

5 ـ التعاون مع المكاريس وتشجيع ذوي الكفاءة إلى الانضمام إليه .

6 ـ جمع ما يفرض على العشيرة من اتاوات أو ضرائب أو غرامات أو التزامات بأساليب تتفق والمستوى الإقتصادي لكل أسرة ثم إيصال ذلك الى الجهة المختصة .

ولعل أفضل صورة تعطى عن هذه المؤسسة هي الصورة التي تعاون على رسمها العالمان الجليلان الشيخ أبو اليقظان ـ رحمه الله ـ والشيخ توفيق المدني أمد الله في عمره .

قال أستاذنا الشيخ أبو اليقظان رحمه الله ما يلي :

«وقد علق الله بنظام العشائر حقوقا لليتامى والأرامل والسفهاء والمجانين والغياب ، وحفظ به نظام الأسر والعائلات بحفظ الأنساب وإلزام النفقات وإيصال حقوق الميراث لأصحابها وخفف به ثقل الدية في الخطإ على القاتل بتوزيعها على أفراد العشيرة» انتهى

وقال الأُستاذ توفيق المدني في كتاب «الجزائر» صفحة 121 ما يلي :

«بما أن العشيرة تتركب من بيوتات ، والبيت يتركب من عائلات ، فهي بمجموعها تعتبر كوحدة عائلية لا انفكاك بين أجزائها ، ومن حيث إنها مكلفة شرعا حسبما هو منصوص في الفقه الإسلامي بالسهر على مصالح القصر من اليتامى والمجانين والأرامل والغياب منها ، وأنها مسئولة عن جناتها في غير العمد فهي متماسكة بلحام الدين وبأوشاج الأرحام ، ولهذه الميزة كان لها الأثر الفعال في كثير من المصالح العمومية من ردع المفسد وإرشاد الضال وإيواء العاجز وإصلاح ذات البين ودفع عادية المعتدين ...الخ .

فهي تعقد جلساتها عادة من رؤساء العائلات كلما همهم أمر ، وعند كل شهر تقريبا، وجلساتها العامة مرتين في العام في الغالب ، هذا هو النظام المتبع منذ القديم وقد تطرق الخلل لبعض فأهمل .

وبفضل ما تقدم لايوجد في بلاد ميزاب على الإطلاق زاوية ولا حانة ولا دار خناء - إلا ما أوجده الفرنسيون خارج غرداية - كما لا يرى على الإطلاق متسول من الميزابيين في أي طريق من طرق ميزاب .

ولماذا يوجد وعشائرهم كجمعيات خيرية تكفل فقيرهم وعاجزهم بإلزام وليه بنفقته وإلا حوكم أمام القضاء أو مجلس العزابة انتهى .

ونحب - قبل أن نختم هذه الفقرة - أن ننقل للقارىء الكريم مقتطفات من كتاب (نهضة الجزائر الحديثة) لمؤلفه الأخ العزيز الأُستاذ محمد علي دبوز قال :

فهم - أي أعضاء مجلس العشيرة - العين البصيرة الساهرة ، تراقب كل أفراد العشيرة ، وتعمل لصالحهم وتقدمهم وهنائهم ، إنهم يراقبون سير العشيرة في ميدان العلم والمال والصلاح » انتهى .

ويقول : «ولكل عشيرة في ميزاب دار هي ملك لها من إنشائها تعقد فيها مجالس إدراتها وحفلات أعراسها ، وتستعملها المدينة أيضا في حفلاتها واجتماعاتها إذا احتاجتها .

«ولكل دار أوقاف من أبناء العشيرة أو صندوق من تبرعاتهم لإصلاح الدار وتجهيزها بالأثاث الذي يحتاجه أبناء العشيرة » .

«ترى أن الفقير يجد لعرسه أو ضيفه في درا عشيرته ما يحتاجه فيستعيره » .

«وينظر المجلس في مشاكل العشيرة ، فيفض الخصومات بين أهلها ولا يترك خصومة تصل القضاء ، ويراقب سلوك أبناء العشيرة فإذا شذ أحد عن الدين وزاغ عن الصراط المستقيم يستدعيه المجلس إلى دار العشيرة فيعظه ويوبخه ويحاول إصلاحه باللين فإن أصر اجتمع أبناء العشيرة وقرروا تعزيره بالجلد ، فإن تمادى رفع أمره إلى العزابة » .

نقلت هذه الفقرة بقليل من التصرف .

وقال : «والعشيرة هي التي تهتم بالأيامى واليتامى في العشيرة ، فإذا مات أحد وترك أبناء صغارا دون وصي ، عينت له العشيرة وصيا وراقبته وحاسبته في مال اليتامى وتربيتهم وتعليمهم ، وإذا لم يكن للأيم أقرباء ينفقون عليها فإن مجلس العشيرة يتولى كفالتها وصيانتها» .

«وإذا تعطل أحد عن العمل أوجد له مجلس العشيرة عملا . إن

البطالة محرمة في ميزاب ولذلك ترى التاجر أو الفلاح الذي لا يسع عمله إلا عاملين يستخدم ثلاثة وأكثر ، فزالت البطالة من وادي ميزاب بفضل الإسلام» .

«وإذا اختلت تجارة أحد ووقع في أزمة لجأ إلى مجلس العشيرة فيعينه ويقرضه ويأخذ بيده حتى ينهض» .

هذه مقتطفات من كتاب (نهضة الجزائر الحديثة) نقلت بعضها بالنص وبعضها بتصرف قليل وهي في جملتها لا تخرج عن إطار الصورة التي وضعها أستاذنا الفاضل الشيخ أبو اليقظان رحمه الله وإن كانت تزيدها لمعانا وإشراقا» .

3 ـ مجلس أمسطوردان :

كلمة أمسطوردان كما هو واضح ، كلمة بربرية ، ويختلف الناس في نطقها اختلافات بسيطة لا تتغير بها بنية الكلمة تغيرا كبيرا وإنما توضع فيها بعض الحروف مكان بعض ، أو قد تحذف بعض الحروف منها وهذه الصيغة هي أكمل الصيغ وهي بلهجة أهل غرداية .

وكما اختلف الناس في نطقها اختلفوا أيضا في معناها وترجمتها إلى اللغة العربية أي في مدلولها اللغوي ، فقد ترجمها بعضهم (بجمعية الشباب) وترجمها بعضهم بجماعة الحراسة ، وسماها بعضهم جمعية المكاريس ، والكلمتان الأخيرتان متقاربتان ، فيما يبدو، في مبناهما وفي معناهما ، فكلمة مكاريس على ما يظهر محرفة عن كلمة محاريس جمع محراس وهي تدل على المبالغة في القيام بالحراسة كقولهم مطعان لكثير الطعن ومطعام لكثير الإطعام وجمعها جميعا : مطاعين ، مطاعيم ، محاريس ، ولها نظائر في اللغة العربية وإن لم تحفظ بهذه الصيغة . وهذا التعليل وإن كان بعيدا فإنه أقرب ما تعلل به هذه الكلمة .

وأبعد من هذا ما ذهب إليه بعض من تناقشت معهم في أصل هذه الكلمة فقال :لعلها مأخوذة من كلمة (كرس) ومعناها الجماعة من الناس وجمعها (أكراس) وجمع الجمع (أكاريس) ثم حرفت الهمزة إلى الميم وأطلقت على هذه المؤسسة أو ترجمت بها كلمة (إمسطوردان) لأنها تتكون من جماعات متعددة وقال بعض من ناقش الكلمة أن كلمة (مكروس) و(مكاريس) كلمة دارجة في اللهجة الجزائرية لا أصل لها في اللغة العربية وهي تعني الشخص القوي الفطن اللبق ، ولما كان أفراد هذه المؤسسة يتمتعون غالبا بهذه الصفات فقد ترجمت به كلمة (أمسطوردان)

أما كلمة (أمسطوردان) فقد اطلعت على تحليل لها في بحث لم يذكر صاحبه قدمه إلي الأخ العزيز الشيخ فخار حمو بن عمر ، وصاحب البحث يرى أن كلمة (أمسطوردان) محرفة عن كلمة(تام أوتسان) وكلمة تام أوتسان تعني ثمانية أيام وهي المدة التي تدرس فيها طلبات الالتحاق بالمؤسسة ، يقرر في آخر يوم منها قبول أو رفض الطلب ، فسميت المؤسسة بها ، ومهما كان الأمر فنحن نعود إلى القاعدة العامة المعروفة إذا فهم المعنى فلا مشاحة في الألفاظ والأسماء لا تعلل وإن كانت أسماء المؤسسات ، فيستوي أن نطلق عليه اسم (المكاريس ، أوجماعة الحراسة ، أو أمسطوردان ، أو أمسوردان)

يؤسفني أن أقول إنني لا أعرف بالتدقيق متى أنشئت هذه المؤسسة ولا من أنشأها أول مرة، أو من وضع خطوطها العريضة ، وإنما عرفت هكذا أحيانا باسمها ، وأحيانا بآثارها لعدة قرون مضت .

وربما لو حاول الباحث أن يستنطق الأحداث لوجد جذورها الأولى قد نبتت بعد انقراض الدولة الرستمية مباشرة أو بفترة قصيرة وربما وجد من الأحداث ما يدل أنها كانت مصاحبة لنشأة

فكرة العزابة ، وإنما انفصل نظام العزابة عنها لطبيعة النشاط الذي تزاوله كل منهما ويدل لذلك أن تنظيما شبيها بهذا التنظيم كان يوجد بجبل نفوسة تتضح بعض آثاره منذ القرن الخامس الهجري ، بل قبل ذلك كما تفيده مواقف أبي يوسف وجدليش اليجلاني وأضرابه .

ولم يختف هذا التنظيم من بعض قرى الجبل ـ كمؤسسة لها نظم وتقاليد ـ إلا بعد احتلال الطليان للجبل ، وكانت هذه المؤسسة تسمى (إعمارن) أي العمّارة ، وتتكون عادة من أربعين شخصا لا يقلون إلا عند الضرورة ، أما اختيارهم فيتم عن طريق العشائر أو فروع القبائل ، ومجلس العمار في اجتماعه العام يتولى اختيار الرئيس من بينهم ، أما عملهم فيجمع صلاحيات متعددة فهم يتولون حراسة البلد وحراسة الغابة من السرقة ولهم في ذلك أنظمة وتقاليد متبعة وأساليب تختلف حسب الفصول والمحاصيل .

وهم أيضا يقومون بما قام به رجال الحسبة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومراعاة الأسواق والإشراف على العمليات والمعاملات التي تقوم بين الناس .

وإلى هذا يقومون بما يقوم به شرطة الآداب من اعتقال المنحرفين وتأديبهم أو تقديمهم إلى من يقوم بتأديبهم .

ومن أهم أعمالهم رد العدوان المفاجيء فيتصدون له ريثما تتهيأ الأسباب لدفعه والاستراحة منه .

فلما جاء الاستعمار الإيطالي وسيطر على كل شيء بهتت تلك الصورة الرائعة للعمار وحرفتها السياسة الاستعمارية من مؤسسة عتيدة لها أعراف وتقاليد ونظم ، إلى صورة مصغرة باهتة لها الاسم دون الصلاحيات فكانت تكلف مشائخ القبائل أن يختاروا عددا قليلا من الناس في حدود موسم واحد لحراسة غلة ذلك الموسم لقاء

أجر محدود يجمع من أصحاب الغلة ، ولم تزل هذه المؤسسة العتيدة ـ في ليبيا ـ تتضاءل حتى انتهت في أواخر العهد الإنجليزي واستغنى الناس عن تلك المؤسسات جملة وتفصيلا ، ثم ذاب ذلك النظام وتلاشى وحل محله نظام الشرطة في المدن والقرى وحرس الغابات في الرياض والمزارع .

لعل القاريء الكريم يرى كثيرا من ملامح هذا النظام في ملامح مؤسسة (أمسطوردان) أو ربما يرى الخطوط العريضة لكلاالتنظيمين واحدة مما يدل أنها انبثقت من منبع واحد ، ولكي أضع بين يديه صورة لهذه المؤسسة العتيدة سوف أعتمد على البحث الذي قدمه اليَّ الأخ الكريم الشيخ فخار حمو بن عمر ـ وإن كنت لا أعرف واضع البحث ـ مستعينا بما كتبه المؤرخان الكبيران : أبو اليقظان والمدني في الموضوع ومن كتابات محمد علي دبوز ومن أحاديث ومناقشات متناثرة أثناء لقاءات خاصة وعامة .

1 ـ يستمد نظام حراسة (أمسطوردان) من روح النظام العسكري عند الدول وهو مستقل تمام الإستقلال عن هيئة العزابة من حيث الإدراة والتصرفات ولكنه يرتبط بالعزابة شرفيا ، فهو من العزابة بمثابة السلطة العسكرية من السلطة المدنية ، وهيئة (أمسطوردان) عبارة عن مؤسسة معترف بها رسميا من العزابة ومن نظام العشائر ، ومخولة تلقائيا باتخاذ الإجراءات الكاملة في جميع مجالات عملها دون اعتراض من أحد .

2 ـ يتلخص عملها فيما يلي : السهر على الأمن العام ، والإشراف على الأشغال العامة ، وتنظيم الأعمال التطوعية وتوزيع الصدقات في مواعيدها وحماية المجتمع من شرور المنحرفين والمحافظة على قداسة مجلس العزابة وحمايته مما يتهدده من داخل أو خارج .

فهي تقوم بمزيج من أعمال السلطة العسكرية وأعمال شرطة الأمن وشرطة الآداب ، وأعمال رجال الحسبة ، وأعمال شرطة النجدة والمطافيء ، وأعمال المنظمات الكشفية .

3 ـ نظام المؤسسة :

للمؤسسة نظام مضبوط محفوظ يتلقاه رؤساؤها كابرا عن كابر منذ أقدم العهود ويتلخص فيما يلي :

تنقسم المؤسسة إلى ثلاث طبقات وهي :

طبقة الصغار ، وطبقة المتوسطين ، وطبقة الكبار .

وهذه الطبقات لا يراعى فيها عامل السن وإنما يراعى فيها زمن الإنضمام إلى المؤسسة وإجادة القيام بأعمالها فالداخل إليها حديثا يعتبر من الصغار ولو كان متقدما في العمر .

ومهمة طبقة الصغار تنحصر في الإنقياد التام والطاعة الكاملة والقيام بكل الواجبات التي تكلف بها عند اللزوم دون تردد ، ولها رئيس من أفرادها ومستشارون .

والرئيس هو الحلقة التي تربط الطبقة الصغرى بالطبقة الوسطى وعليه أن يبلغ رغائب وطلبات طبقته إلى رئيس الطبقة الوسطى ، وعليه أيضا أن يتلقى التعليمات والتوجيهات من رئيس الطبقة الوسطى لتبليغها إلى طبقته لتنفيذها والعمل بها .

ومهمة طبقة المتوسطين تنحصر في تنفيذ الخطط التي ترسم لهم من طبقة الكبار ، وعلى طبقة المتوسطين المعول والإعتماد الكلي في الحراسة وفي جميع الأعمال الشاقة التي تستدعي مزيدا من الجهد والحذر والسرية .

ولهذه الطبقة أيضا رئيس منهم ومستشارون ومن اختصاصات هذا الرئيس الاتصال المباشر برئيس طبقة الكبار والتلقي عنه أو التبليغ إليه في جميع ما يتعلق بشؤون المؤسسة .

أما طبقة الكبار فتشبه أ ن تكون مجلس إدارة موسعة للمؤسسة وعليها وضع الخطط ، وترتيب الحراسة ، وتنظيم الأعمال ، وتفقد الحراس حال الحراسة ، واستكشاف نقاط الضعف منهم لملافاتها ، والحضور لدى هيئة العزابة للمفاوضات والمراجعات في القضايا التي تهم الهيئتين معا .

ورئاسة المجلس العام بطبقاته الثلاث ، ولا يجتمع على صورته الكاملة إلا نادرا بسبب أحداث جسام ، وعندما تقتضي اجتماعه ظروف ملحة ، ويكون الاجتماع تحت رئاسة أكمل طبقة الكبار كفاءة وأقدمهم وجودا في المنظمة .

4 ـ شروط القبول في المؤسسة :

يشترط لقبول عضو جديد في المؤسسة عدة شروط أهمها ما يلي :

(1) أن يكون العضو قادرا على حفظ الأسرار محافظة كاملة ومهما كانت الظروف .

(2) أن يكون حسن السيرة والسلوك وأن يشهد بذلك من يتوفر فيه هذا الشرط .

(3) أن يكون العضو متزوجا لأن الزواج يحصن الانسان .

(4) أن يكون مقداما شجاعا لا يهاب الموت في سبيل الواجب ولكنه في نفس الوقت لا يترامى على الموت بدون مبرر .

5) أن يكون موفور الصحة يتمتع بالقوة والصلابة ليس به أي مرض ظاهر .

6) أن يكون ذكياً لبقاً يعرف كيف يتصرف .

5 ـ كيفية الانضمام إلى المؤسسة :

عندما يريد شخص أن ينضم إلى هذه المؤسسة فعلية أن يقدم طلباً بواسطة أحد أفراد الهيئة . وعلى ذلك القرد أن يقدم الطلب إلى رئيسه قبل أول جلسة مقبلة . وفي تلك الجلسة يعلن الرئيس اسم الطالب الجديد للأعضاء ويطالبهم بإعطاء الرأي فيه . وبعد مناقشة تطول أو تقصر يكلف الأعضاء بدراسة سلوك الشخص والمساءلة عنه لمدة ثمانية أيام يجتمعون بعدها للبت في الموضوع ويعبرون عن هذه الفترة بقولهم (أَكْلِينْتْ السُّوقْ) وترجمها الحرفية (رموه في السوق) ويعنون بذلك أنهم وضعوه تحت الدراسة . فإذا اجتمعوا بعد الأيام الثمانية طرح الموضوع للمناقشة الدقيقة يشترك فيها جميع الأعضاء ، ويحددون صلاحيته للمؤسسة أو عدمها ويقررون بناء على ذلك ـ رفضه أو قبوله . وإذا كان القرار بالرفض كلف مقدم الطلب الأول بإبلاغ القرار إليه وإذا كان القرار بالقبول كلف ـ أيضا ـ بإبلاغ القبول إليه وبطلب منه الحضور في موعد يحدد له وفي الموعد المحدد ينعقد الاجتماع للمرة الأخيرة . ويبقى العضو الجديد ورفيقه في معزل عن مكان الاجتماع . وتعاد مناقشة الموضوع مناقشة خفيفة فإذا لم يجد في الموضوع ما يغير القرار بالقبول يدعى العضو الجديد ورفيقه للحضور ويعلن له أنه قبل في المؤسسة ثم يشرح له الرئيس واجبات العضو وأخلاقيات المؤسسة وخطوات العمل فيها والمشاق التي سوف تصادفه كما يشرح له أسباب ترقي العضو من هيئة إلى هيئة ، ثم يطلب منه إعلان موافقته وقبوله لكل ذلك علناً وصراحة . فإذا أعلن ذلك أخذ عليه عهد بكل ذلك . وبعد ذلك

يصبح عضواً في المؤسسة يعتبر أصغر الأعضاء الموجودين ولو كان أكبر منهم سناً وعليه واجبات أصغر الأعضاء وله حقوقهم وكذلك مجلس العزابة ودار التلاميذ يعتبر أصغر الأعضاء آخرهم دخولا وعليه خدمتهم وعليه أن يطيع من سبقه مهما كان سنه وعليه أن يجلس بعده في المجالس الرسمية فللأقدمية في هذه التنظيمات حقوق مراعاة .

6 ـ مقر المؤسسة :

التنظيم الداخلي لهذه المؤسسة يختلف من قرية إلى قرية ولعل الصورة الكاملة له هي المتبعة في غارداية .

في غارداية تعتبر المحاضر (وهي المدارس القرآنية المركزية) مراكز .

لهذه المؤسسة وفي هذه المحاضر تعقد الاجتماعات وتصدر جميع التنظيمات الخاصة بالمؤسسة ومنها تنبعث جميع ألوان النشاط الذي تقوم به ، ولنعطي صورة عن الحركة التي تقوم بها المؤسسة يمكن لنا أن نوضحها في الخطوط الآتية :

تجتمع طبقة الكبار فتناقش موضوعا من مواضيع النشاط الذي تقوم به المؤسسة كالحراسة ، أو منشآت تطوعية جماعية ، أو توزيع صدقات موسمية ، أو غير ذلك من ألوان نشاطها ، فتتخذ في ذلك قرارا أو تنظيما معينا ثم يبلغ للمراكز للتنفيذ ، ولكي نوضح للقارىء الكريم أسلوب العمل في هذه المؤسسة ينبغي أن نأخذ لونا من ألوان نشاطها كمثل على بقية الأنشطة ، وقد أخذنا نشاط الحراسة كمثل لبقية الأنشطة نعرضه في هذا الفصل للإيضاح والبيان .

تجتمع إدارة المؤسسة فتقسم المدينة إلى منطقتين أو أكثر وكذلك تقسم الغابة إلى منطقتين أو عدد من المناطق وتسند كل منطقة أو عدد من المناطق إلى مركز من مراكز المؤسسة ويحدد كذلك عدد الفرق التي تتولى الحراسة ومجال تحرك كل فرقة بدقة ، والفرقة التي تتولى الحراسة ينبغي أن تكون من ثلاثة أفراد أحدهم رئيس لها . وكل مركز من المراكز الفرعية يعين الأفراد الذين يقع اختيارهم للقيام بالحراسة فيدعون إلى اجتماع خاص في مكان يحدد لهم ، وقد اصطلح أن تسمى هذه المجموعة (فرقة الحراسة) وتسمى كل مجموعة تكلف بلون من ألوان النشاط الأخرى (بفرقة ....) أي منسوبة إلى لون النشاط فيقال (فرقة ربط السدود) ، أو (فرقة جلب الصخور) أو (فرقة توزيع الصدقات) أو (فرقة إطفاء الحرائق) أو (فرقة إغاثة الملهوفين) أو (فرقة الاحتياط العام أوالخاص) الخ...أما الأشخاص الثلاثة الذين يكلفون بالحراسة معا فيطلق عليهم كلمة (رفقة) وكذلك كل مجموعة صغيرة تكلف بجزء من نشاط تسمى (رفقة) ومعنى هذا أن الفرقة تتكون من عدد من الرفقات وعدد الرفقات المحتاج إليها يختلف تبعا لفصول السنة ولظروف الحياة ولعدد أنواع النشاط المحتاج إليه في وقت واحد ولعدد الأعضاء الكامل للمؤسسة ورئيس كل رفقة مسئول عن رفقته أمام رئيس الفرقة ورئيس الفرقة مسئول أمام رئيس المركز الفرعي ، ورئيس المركز الفرعي مسئول أمام رئيس المؤسسة الأعلى .

يجتمع العدد المكلف بحراسةالمدينة (فرقةالحراسة) كل ليلة بعد صلاة العصر وقبل غروب الشمس ، أما الفرقة المكلفة بحراسة الغابة فتجتمع كل ليلة بعد صلاة العشاء كل فرقة في مكان خاص يحدد لها ، فيلقي عليها رئيس الفرقة التعليمات اللازمة ويحددلها المناطق التي تلزمها حراستها في تلك الليلة ويوزع الرفقات عليها ويزود الجميع بكلمة السر التي يتعرف بها بعضهم على بعض إذا

دعت الضرورة ، فينطلقون إلى القيام بمهماتهم وعند الصباح الباكر يعودون إلى الاجتماع في مكان يعينه لهم رئيس الرفقة من أول الليل فيتبادلون الأخبار والأحداث والملاحظات عن وقائع ليلتهم فيستمع إليها رئيس فرقتهم ليتخذ الإجراءات المناسبة في الليلة القادمة .

فإذا حدث حادث في الليل كوقوع سرقة أو عدوان على مال أو عرض أو ماشابه ذلك فعلى الرفقة التي وقع الحادث في منطقتها أن تعتقل الجاني فيمسكه اثنان ويذهب الثالث لإبلاغ رئيس الفرقة بالحادث . أما إذا كان الحادث يستدعي مجموعة أكبر من الحراس فإن اثنين يشتغلان بالحادث ويذهب الثالث إلى الاستنجاد بالرفقات المتجاورة مستعملا كلمة السر التي لا يعرفها غيرهم وعندما يتم القبض على الجاني أو الجناة إذا كانوا عصابة مثلا يتم تسليمهم إلى المؤسسة حيث تتخذ الإجراء اللازم حالا ، والمهم أن الأمن يسود كامل المنطقة وينام الناس في دعة وسلام تحت عيونهم الساهرة.

وأعضاء الرفقات حين ينطلقون إلى أعمالهم في الحراسة لابد أن يخرجوا متنكرين في لباسهم ، مقنعين وجوههم بحيث لا تعرف أشخاصهم ولا يميزهم لبعضهم إلا كلمة السر التي يحفظونها فقط ولا يعرفها غيرهم أبدا .

المحاكمات :

عندما تعتقل رفقة من الرفقات مجرما متلبسا أو عددا من المجرمين متلبسين أو في محاولة فإنها تقدمهم إلى المجلس عن طريق رئيسها وفي أسرع وقت ينعقد المجلس للنظر في القضيةولا ينفض حتى يتخذ القرار بالحكم وينفذ الحكم دون تردد ، ودون الرجوع إلى أي جهة أخرى .

مجلس التأديب :

إذا اتهم أي عضو في المؤسسة بأنه قام بعمل مخل بالشرف شرف الفرد نفسه أو شرف المؤسسة ، فإن فرقته تعقد له في مقرها مجلس تحقيق دقيق ، وتجري معه بحثا نزيها مجردا من العواطف والاعتبارات وعلى نتيجة ذلك التحقيق يتوقف الحكم فقد يحكم عليه بالبراءة إذا ثبتت براءته في التحقيق وقد يحكم عليه بالعقوبة ، والحكم بالعقوبة يختلف باختلاف الجرائم فقد تكون العقوبة لوما وتأديبا ، وقد تكون توبيخا وتقريعا وقد تكون بالضرب غير المبرح ، وقد تكون بالإيقاف المؤقت ، وقد تكون بالفصل من المؤسسة .

والمحاكمة والحكم يجري على جميع أفراد المؤسسة بما فيهم الرئيس وهم في تحقيقهم ومحاكمتهم وحكمهم وتنفيذهم له مستقلون كامل الإستقلال لا يرجعون إلى أية جهة حتى مجلس العزابة .

إقرار النظام :

مجلس العزابة يمثل أعلى سلطة عند إباضية المغرب وهو الذي يرعى شئون المجتمع ويقوده إلى الخير فاذا وقع الخلل في هذا المجلس نفسه وتطرق إليه الفساد وانقسم أعضاء المجلس إلى حزبين متطاحنين أو أحزاب وتدهور الوضع إلى حالة يخشى منها على مصلحة الأمة ، فمن يستطيع أن يصلح هذا الفساد بالقوة إذا لم تجد أساليب المنطق والعقل والحكمة؟

في هذه الحالة يتحرك مجلس (أمسطوردان) مجلس الحراسة على كل شيء فيحاول إصلاح الوضع بالحسنى ويتصل اتصالا مباشرا بأعضاء مجلس العزابة ويحاول إقناع المخطىء والمتطرف وإرجاعهم إلى السبيل ، فإذا تعذر ذلك فإنهم يعقدون مجلسهم في

مركز من مراكزهم ويبحثون موضوع قلب المجلس ، فإذا اتفق على اتخاذ هذا القرار سبعون منهم فإن قرار قلب النظام يكون نافذا .

وأول خطوة يقومون بها بعد اتخاذ القرار بموافقة سبعين منهم على الأقل هو تعيين أعضاء جدد لمجلس العزابة يعين كل فرد منهم للقيام بعمل عضو من أعضاء القدامى وفي الليلة التي يريدون فيها تنفيذ العملية يطوقون المسجد بحراسة مشددة ثم يحضرون العزابة الجدد فيسلمون لكل واحد منهم عمله وذلك كله قبل الفجر ويمنعون العزابة القدامى من الدخول إلى المسجد لمدة ثلاثة أيام ، فاذا استقر الأمر وهدأت الاحوال وخضع الأولون للحركة فإنهم يتركون المسجد ويعودون إلى مزاولة نشاطهم أعني أنه بعد أن يتم تنصيب المجلس الجديد ويباشر كل عضو مهامه تنسحب المؤسسة بعد أن أدت أعظم وأشق وأخطر مسئولياتها لتواصل نشاطاتها العادية في ميادينها المختلفة .أحسب أن هذا يكفي لإعطاء صورة عن المؤسسة الثالثة عند إباضية الجزائر ، ربما اختلفت بعض النظم من قرية إلى قرية ، أما هذه الصورة فقد أخذت لمنظمة (أمسطوردان) في غرداية وقد قيل لي إنها في هذه المدينة أكمل منها في بقية المدن والقرى جميعا وربما اختلفت غرداية عن بقية القرى حتى في التسمية فبينما تنطق في غرداية (أمسطوردان) تنطق في مدن أخرى (أمسوردان) أو (أمصوردان) مما جعلني في بعض التعاليق ألاحظ قرب هذه الكلمة من كلمة (أمسيردان) أي المطهرون أو المنظفون أو الغسالون ، وكنت حين كتبت ذلك التعليق لم أعرف عنها ما عرفته الآن في رحلتي الأخيرة ، ولا شك أن هذه المؤسسة تنظف الجميع من كل الشرور .

وأستبعد كل الاستبعاد أن تكون مشتقة من غسل الموتى وإن كان العزابة قد يوكلون إليهم غسل بعض الموتى لأن غسل الموتى ليس من نشاطهم العادي ، وقد يقومون به لأسباب وظروف خاصة .

الإباضية والجهاد في سبيل الله

لا شك أن الجهاد المسلح - في سبيل الله - واجب من أوكد الواجبات على المسلمين - أُمة ودولا ، وأفرادا ، وأن عملية الجهاد هي النبض الحقيقي الذي يدل على الحياة ، ويبرهن على الوجود ، ويثبت الاستمرار في أداء الرسالة ، وأن توقف الجهاد من أُمة ذات رسالة يعني توقف الحياة فيها ، وانتكاسها ، وارتدادها عن مكانة القيادة ومطالع الريادة إلى وهدة الجمود والتقوقع ،والتخلي عن تحمل ألامانة التي أوكلت إليها ، أو تعهدت بأدائها .

وذلك أن الأُمة ذات الرسالة لا تخلو عن أحد موقفين :

الأول : موقف تحمل فيه رسالتها ، وتنشر حضارتها ، وتمضي مندفعة لتبلغها في جميع آفاق الأرض ، مسلولة السيوف ، مشرعة الرماح لتأمين الدعوة ، وحفظ صوت البلاغ ، وفتح الطرق أمام كلمة الحق حتى تبلغ كل أُذن ، ويعيها كل قلب وتتضح لكل عقل .

فإن هي أغمدت سيوفها ارتدت إليها سيوف أعداء الدعوة ، وتناوشتها رماح المقاومة المضادة .

الثاني : موقف تكون فيه في موقع الهجوم ، ولكنها تقف ثابتة في مكانها مستعدة لكل الطوارىء ، متحفزة لرد أي عدوان مضاد ، حتى تستكمل أداتها إن كانت محتاجة لأداة ، أو راحتها إن وقفت للاستجمام ، أو موعدها إن توقفت لعهد أو هدنة .

وقد حمل المسلمون رسالتهم وحضارتهم إلى آفاق العالم في صدق وثبات ينشرونها - وسيوفهم مسلولة ، ورماحهم مشرعة - فلما توقفوا عن الجهاد ، وأغمدوا سيوفهم ، ارتدت إليهم سهام أعدائهم ووجهت إليهم طعنات سيوفهم ، وانقلبت المعركة ، فبعد أن كان

المسلمون - وهم في حماية الدعوة - مهاجمين ، أصبحوا وهم في حماية أنفسهم وكراسيهم - مدافعين ثم أصبحوا على تلك الكراسي متنازعين.

وبنظرة بسيطة إلى التاريخ الإسلامي منذ ابتداء الفتوح وامتدادها إلى جميع الجهات حتى تغلب الاستعمار وشمول احتلاله ، يتضح لك أن المسلمين كانوا في انتصار متواصل وتقدم مستمر حين كانوا يحملون دعوتهم منطلقين بها وأسلحتهم موجهة إلى صدور عدوهم ، فنشروا الإسلام في جميع أنحاء العالم ، وبلغوا الحضارة إلى كل أطراف المعمورة ، ونعم بالحرية والعدالة كل من عمهم ظل حكمهم، وكانت الدينا تتسع لهم ، وتنفسح أمامهم وتنفتح تحت ضربات أقدامهم باستمرار ، فلما توقفوا عن الجهاد ووضعوا سيوفهم في أغمادها عادوا بنظرهم إلى الداخل ، وفكروا تفكيرا ماديا صرفا ، فأرادوا تقسيم ما بأيديهم . تولد فيهم النزاع على الكرسي ، وتهارشوا على سلطة الحكم فأصبح السلاح الذي كان يوجه إلى الفتوح يقوم بتجزئة الصفوف ، والجيش الذي كان يضرب العدو ، منقسما على نفسه يضرب بعضه بعضا ، فتوقف تقدمهم الحضاري ، ونشرهم للإسلام ، ثم اشتبكت أسلحتهم فيما بينهم ولم يزالوا يجزئون وطنهم حتى صار أجزاء صغيرة ضعيفة متحاربة لا يقوى أي منها على رد عدو ، ولا يطمئن إلى مساعدة تأتي من الأجزاء الأخرى ، فتقدم إليهم العدو يلتهم تلك الدويلات الضعيفة بكراسيها المتداعية قطعة قطعة ، ولم ينتصف القرن التاسع عشر الميلادي حتى صار أغلب العالم الإسلامي بدوله الكثيرة الصغيرة محكوما للإستعمار إما حكما كاملا ، وإما حكما قريبا من الكامل .

وفي هذه الأثناء ، أي منذ توقف الجهاد في سبيل الله انقلب حال المسلمين بدولهم الصغيرة إلى حالتين :

الحالة الأُولى :

تتمثل في دفاعاهم للعدو المهاجم بما أمكن من القوى ، وقد كانت مواقف الناس ، والدول التي تتصدى للقيام بهذا الدفاع تختلف تبعا للظروف المختلفة ، كالموقع ونظام الحكم ونوع العلاقة مع العدو المهاجم وعلاقة الدولة المدافعة بالدويلات الإسلامية المجاورة ، ثم مقدار ما تشعر به من الأمن في داخلها وهي مشتبكة مع العدو ، يضاف كل هذا إلى الاستعداد الـ والمادي للجهاد في سبيل الله وما يلحق بهذا من المؤثرات .

الحالة الثانية :

تتمثل في انشغال بعض الدويلات بتأمين نفسها ، أو اشتغا ـا باستغلال ظروف جاراتها المنهمكة في اشتباك مع العدو للحصول على مكاسب بشرية وترابيةتضيفها إلى رقعتها الضيقة ،هذا مع العلم بأن علماء المسلمين وصادقي المؤمنين لم ينفكوا في أي لحظةعن الصراخ برجال السياسة والحكم لكي ينبذوا مطامحهم ومطامعهم الشخصية ، وإن يتحدوا في نظام واحد يستطيعون فيه أن يوجهوا أسلحتهم ـ بكل جدارة ـ إلى أعداء الله وأعدائهم الحقيقيين ، ولكن تلك الصرخات كانت تتحطم على رغبات ومطامح الحكام الأقزام الذين أعمى تشبثهم بالكراسي أبصارهم وصرفهم عن معرفة حقيقتهم في ميزان الحقائق والقوى .

وموقف الإباضية ـ في عمومه ـ لا يختلف عن موقف بقية الأُمة الإسلامية ، وبالنسبة إلى إباضية الجزائر يمكن لنا أن نرسم لموقفهم في الجهادصورتين توضحان هذا الموقف وتبرزان أهم ملامحه وأبرز سماته .

الصورة الأُولى :

عندما كان لإباضية الجزائر دولة قائمة في تاهرت هي الدولة الرستمية ، ونحن حين ننظر إلى خريطة الجزائر الجغرافية للبحث عن موقع الدولة الرستمية التي كان أئمتها على المذهب الإباضي ـ لنرى مبلغ جهادهافي سبيل الله لإعداء الإسلام ـ يتضح لنا أن موقع تلك الدولة كان في داخل البلاد ، أي أنها ليست مواجهة لأعداء الإسلام في أي جانب من جوانبها .

أي أنها ليست من دول المواجهة بتعبير اليوم ، فبينها وبين عداء الإسلام ـ من كل جهة ـ بلاد واسعة تقوم عليها دول إسلامية مختلفة الأسماء والنزعات .

وتلك الدول ـ فيما بينها ـ على وفاق حينا وعلى خلاف وخصام أحيانا كثيرة ، وليس للدولة الرستمية منفذا إلى العدو إلا بالمرور على أرض إحدى تلك الدول ، وتلك الدول هي ذات كيان مستقل أو شبه مستقل لا تسمح أبدا ومهما كانت الأسباب والظروف بمرور قوات عسكرية داخل أراضيها ، ولذلك لم يذكر لنا التاريخ ـ فيما أعلم ـ أن الدولة الرستمية قد اشتبكت أو اشتركت في جهاد فعلي ضد أعدا الإسلام (1) .

يضاف إلى هذا أن الأُمة الإسلامية ـ في عمومها ـ في تلك الفترة كانت قد بدأت تبتعد عن الجهاد ضد العدو الخارجي وصارت أسلحتها تتجه إلى الداخل يضرب بعضها بعضا ، وأحسنها حالا تلك التي كانت تقف في صمود ومصابرة لرد العدوان المتكرر من أعداء الله سواء كان أُولئك الأعداء تحت راية الشرك أوتحت راية أهل الكتاب من نصارى ويهود .

(1) يرى المؤرخ البحاثة الشيخ سليمان بن الحاج داود غير هذا الرأي . ولعله اطلع في مصادر التاريخ على ما لم أطلع عليه من قيام الدولة الرستمية منفردة أو مشتركة بحروب ضد أعداء الإسلام والجهاد في سبيله .

وعلى كل حال فإنه يبدو لنا أن الدولة الرستمية لم تتح لها فرصة للقيام بواجب الجهاد المقدس استمرارا بالفتح ، والله وحده يعلم ما كانت هذه الدولة فاعلة لو أن موقعها كان في مواجهة العدو الحقيقي ، ولو أن مجال الإستمرار بحمل الرسالة والانطلاق بها كان مفتوحا لها .

الصورةالثانية :

هي موقف الإباضية - ضد أعداء الإسلام - في هذا المدى التاريخي الطويل الذي مر بالجزائر وليس للإباضية بها دولة، وليس لهم فيها سلطان ، وإنما هم يكونون مجتمعا مستقلا أو شبه مستقل يسكن في بعض الواحات من جنوب الجزائر ، يتولى جميع شؤونها مجلس منتخب يسمى (مجلس العزابة) أو هم يعيشون أسرا قليلة متناثرة أو فرادى في جهات مختلفة من أنحاء الجزائر .

ولمدى معرفة جهاد الإباضية للعدو الخارجي - وكله في نطاق الدفاع في هذه الفترة التاريخية الطويلة يمكن أن نتناولها من ثلاثة جوانب :

الجانب الأول : عمل فردي : وذلك أن أعدادا كبيرة من الإباضية في الجزائر يعيشون في مختلف المدن - لاسيما مدن الشمال والشواطيء - يعملون في التجارة أو غيرها هنا أو هناك . وهم حين يفتحون متاجرهم هناك في تلك المدن والقرى يستقرون فيها لمدة طويلة كأنهم من سكانها وعندما يحاول أي عدو من أعداء الجزائر الإعتداء على إحدى تلك المدن فإنه يجد سكانها ومن ضمنهم الإباضية الذين يشتغلون بالتجارة فيها ، قد استعدوا للدفاع عنها ، وطبيعة الدفاع تقتضي أن يهب الجميع مشتركين متداخلين لصد العدوان فيدخل الإباضية - أفرادا - ضمن المجموعات الأخرى من بقية السكان وأحيانا تقتضي طريقة الدفاع وأسلوب تنظيم

المقاومة أن يقسم المدافعون إلى فرق أو مجموعات تحت أي مبرر ، ليسند إلى كل فرقة منها مهمة الدفاع إما في جانب من الجوانب أو جهة معينة ، أو للقيام بعمل محدد ، وقد كان موقف الإباضية في جميع هذه الأحوال مشرفا (1)

فقد صفعوا اسبانايا الاستعمارية في عهد طاغيتها شارل الخامس صفعة مؤلمة تلقاها قائده لأعمال القرصنة في برج (بوليلة) سنة 948 هـ - 1541 م ، ومنذ تلك الصفعة لم تقم لأسبانيا الاستعمارية قائمة وبدا نجمها في الأفول .

وعندما انتصبت نيران الإستعمار الفرنسي على الجزائر وقف الإباضية مواقف مشرفة في كل مكان ، وكانت لهم مواقف بطولية يضرب بها المثل كما وقع في قسنطينة والحراش وغيرها .

قال أستاذنا الفاضل الشيخ ابو اليقظان - رحمه الله - في رسالته المخطوطة «الإباضية في شمال إفريقيا»ما يلي :

«ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى موقف بني ميزاب - وهم مسلمون طبعا - مع فرنسا عندما هجمت على الجزائر سنة 1830 فقد تطوع بنو ميزاب بألف جندي من الشبان - جهد المقل - في الدفاع عن الجزائر وإن موقفهم البطولي بين جدران قسنطينة ضد الغزو الفرنسي معروف يثير الإعجاب حتى من القواد الفرنسين أنفسهم» انتهى .

وقد اشتركوا في جميع الثورات والانتفاضات التي قامت في

(1) يذكر المؤرخ البحاثة الشيخ سليمان بن الحاج داود أن هناك وقائع كثيرة من الجهاد في سبيل الله قام بها إباضية الجزائر واشتركوا فيها عبر البحر الأبيض المتوسط ، وبما أنه ليست لدي مصادر موثوق بها نثبت بها ذلك الآن ، وأنني في هذا الفصل لا أريد إلا أن أقدم للقاريء صورة مصغرة عن هذا الموضوع فقد اكتفيت بما أوردته كخطوط عريضة للموضوع أو طرقات علي باب ينبغي للشباب المؤهل أن يفتحه .

الجزائر ضد المحاولات الاستعمارية سواء كانت تلك المحاولات من إسبانيا أو من فرنسا بجهود تختلف قوة وضعفا حسب ظروف الحال وحسب طبيعة الدفاع .

الجانب الثاني : عمل جماعي تنظيمي وله صور كثيرة ، كموقفهم في الحراش وفي قسنطينة وكإرسالهم ألف متطوع من وادي ميزاب نفسها إلى من عندهم في المدن الجزائرية المختلفة ولعل أهم هذه الصور وأوضحها الموقف الفدائي لطرد الأسبان بعد أن ركزوا أقدامهم في الشاطيءالجزائري وخلاصة الموقف كما يلي (1)

«إنها تعود الى سنة 1541 م والى الحملة الرهيبة التي وجهها شارل الخامس (شارلكان) ضد مدينة الجزائر التي بدأ القراصنة البرابرة لتحصينها لجعلها مصدر الرعب للمسيحية .

وجد الأمبراطور بعد الاستطلاع ان الربوات التي تشرف على مدينة الجزائر من جهة الجنوب هي موقع مناسب لتثبيت قطع المدفعية ، وأعطى الأوامر لكي يشيد - برج أو مركز هجوم - في أسرع وقت لأن هذا المركز يشكل نقطة هامة بالنسبة لجيشه ،وإن الأحجار والمواد الضرورية وقع اختيارها في ناحية من (دريوط) سهل مصطفى باشا (ميدان المناورات) وقف صفان من جنود المشاة

(1) أخذت هذه الصورة بنصها من كتاب (أخلاق وعادات الجزائر) لمؤلفه الجنرال دوماس مستشار الدولة ومدير شئون الجزائر بوزارة الحرب نشرة هاشيت سنة 1853 .

وقد ترجم لي هذا النص خصيصا الأخ المؤلف البحاثة الشيخ سليمان بن الحاج داود كما عثرت على نفس الحادثة تحمل نفس الصورة مستقاة من مصادر أخرى فيها خلاف طفيف عن هذه الصورة في بعض التفاصيل الجانبية ، وكلتا الصورتين تفيد أن الذين قاموا بهذه العملية الجريئة هم من الإباضية فقط ، وأنهم كانوا مصممين على القيام بها مع يقينهم بعدم نجاتهم من الموت ، فهي عملية فدائية من أروع عمليات الفداء وقد تمت بنسف البرج ، حسبما تقوله المصادر الأخرى لا باحتلاله كما يقول دوماس ثم فرار من نجا من جند شارلكان ، وشارلكان نفسه .

تحمل مواد البناء من السهل إلى المرتفعات أحدهما يمد القفف الملآى والآخر يرجعها فارغة ، وفي ليلة واحدة شيد برج منيع محاط بالخنادق وسلحه بقطع المدفعية ذات العيار الكبير ، وسماه العرب برج (بوليلة) تخليدا للسرعة الهائلة التي بني بها .

من الصعب جدا الاستيلاء على موقع كهذا على درجة كبيرة من الحصانة والمناعة ، والمدينة بعد أن ضعفت لا يمكن أن تصمد أكثر .

في هذه الظروف الحرجة قرر بنو ميزاب - الذين يوجد منهم عدد كبير منذ ذلك الوقت في الجزائر - أن يضحوا بأنفسهم لإنقاذ المدينة فعرضوا خطتهم على الباشا ، فما كان من هذا الأخير إلا أن وافق كما هو متوقع .

والحيلة التي استعملها بنو ميزاب للوصول دون خطر الى الموقع هي كما يلي :

لبسوا ملابس النساء ، وغطوا وجوههم باللحاف حسب العادة المحلية حتى لا تظهر لحاهم وشواربهم ، وأخفوا تحت حوائكهم مسدسات ملأى بالذخيرة وخناجر مشحذة - فخرجوا من المدينة من جهة (الباب الجديد) وتوجهوا نحو الموقع عند ظهورهم توقف الأسبان الموجودون في الخنادق عن إطلاق النار ظنا منهم أن سكان المدينة قد استسلموا معبرين عن ذلك بهذه القافلة من النساء حسب الطريقة المتبعة عند المسلمين (1)

(1) ليس من عادة المسلمين إذا اضطروا الى التسليم في معركة ما أن يعبروا عن ذلك بإرسال وفود النساء الى عدوهم ، وليست هذه الطريقة طريقتهم وإنما هم قد يرفعون أعلاما بيضاء دلالة على وقف القتال ثم يفاوضون عدوهم - ولو كان منتصرا في معركة - بجباه مرفوعة لا مكان للذلة فيها . أما المرأة عندهم فتبقى مكرمة مصونة لا تعرض لمثل هذا الموقف ابدا ما بقي من المسلمين رجل يستطيع أن يرفع السلاح .

ولعل غيرهم ممن اعتاد أن يتاجر بالمرأة في جميع الميادين ، ويبذل بسخاء مقابل أي مكسب هو الذي يفعل هذا ، والتاريخ العام يذكر عددا من النساء اللواتي تاجر بهن أقوامهن واتخذوا منهن بضاعة رخيصة فاكتسبوا على أعراضهن وجمالهن مكاسب مادية أو سياسية ، ولكن ليس بينهن - والحمد لله - نساء المسلمين .

وهكـذا دخـل هـؤلاء المهـاجمـون المـاكرون الحصن دون عرقلـة ،ومـا إن دخـل آخرهم حتى كشفـوا عن دورهم الحقيقي فـأفرغوا أسلحتهم في هؤلاء الأسبـان المغرورين ، وسلـوا خنـاجرهم فـاحتـدمت معركـة عنيفـة ورهيبـة لم تنتـه إلا بموت آخر مـدافعي الحصن ، ورغم المفـاجـأة لم يكن الـدفـاع أقـل عنفـا وضراوة ممـا تسبب في هلاك كثير من بني ميزاب ، ومـا إن سيطر هـؤلاء على الحصن وبعد الإشارة المتفق عليها من قبل ، أسرعت قافلة من جند المشاة كانت قد أعدت من قبل وراء الباب الجديد فأخذت مواقعها داخل برج (أبو ليلة) » انتهى .

هذا موقف من مواقف الجهاد في سبيل الله كما صوره مستشار دولـة معـاديـة يتولى إدارة شئـون الحرب في الجـزائر يفيض قلبـه مرارة من فشل الإسبـان ، وحقـدا على المسلمين . ولا شـك لو أنـا أخذنا الصورة عن مؤرخ نزيه لكانت أجمل وأروع من هذا بكثير .

وقد نتج عن هذه العملية الفدائية التي قـام بهـا بعض الإبـاضيـة المقيمين في عـاصمـة الجزائر ـ كتجـار ـ إعجـاب وتقـدير في نفس البـاشـا التركي وأراد أن يكـافئهم على ذلـك المجهـود العظيم والتضحية الغالية فرغب إليهم أن يقدموا إليه ما يشاءون من مطالب فطلبوا منه ما يلي :

1 ـ أن تبقى الإتفاقية السابقة بينهم وبين الدولة التركية سارية المفعول مع الاهتمام بتأمين طرقهم .

2 ـ أن يعطى لهم امتيـاز الإشراف على مـذبحـة الجـزائر حتى يضمنوا صحة الذكاة وحلية اللحوم .

3 ـ أن يؤخـذ رأي أمين جمـاعـة الحرفـة ، وتنفـذ لـه الجهـات الرسمية طلباته فيما يتعلق بإرجـاع بعض الأفراد من الإبـاضيـة إلى واحاتهم إذا خيف عليهم الإنحراف .

4 ـ أن تعطى لهم أولوية فتح الحمامات وإدارتها .

فـوافـق البـاشـا على جميـع مطـالبهم وهي مطـالب كمـا يرى القاريء الكريم بسيطة ، وربما سخر منها من لا يعرف أو لا يقـدر النظرة العميقة التي بنيت عليها .

الجـانب الثـالث : ويتنـاول الكفـاح المـزدوج في النـاحيتين السيـاسيـة والعسكريـة لمـدى طويل ونستطيع أن نـوضـح معـالمـه ـ بإيجـاز ـ في كفـاح بني مصعب للاستعمـار الفرنسي منـذ احتلال فرنسـا للجـزائر الى أن طردت منهـا وذلـك على نطـاقين : نطـاق خاص ، ونطاق عام .

☆ في النطـاق الخـاص : ونعني بـه كفـاحهم في سبيل حريـة واستقلال وطنهم (وادي ميزاب) خاصة

ولكي نبني هـذه النقطـة على أسـاس سليم من التـاريخ ينبغي أن يعرف القاريء الكريم أن الميزابيين قد اتفقوا مع الدولة التركيـة في مبدإ أمرها أن يعترفوا بسيادتها ، وأن يدفعوا لها ضريبـة معينـة قدرت بما يساوي (...،45) فرنك فرنسي ، وأن لا يساعدوا أو يأووا أي قائم عليها أو منـاهض لحكمهـا ، ولهم مقـابل ذلـك أن يتعـاطوا تجارتهم في أي بلـد خـاضع لسيـادتهـا ، بكـامل الحريـة وأن تؤمن طرقهم ومواصلاتهم (1) ، وقد وفوا لهـا بمـا اشترطت عليهم ، ووفت لهم ببعض مااشترطوا عليها وقد بقي الوضع على هذه الحـال إلى أن خرجت الدولة التركية من الجزائر واستولت الدولـة الفرنسيـة عليهـا سنة 1830 فاتخذ جهاد الإباضية منعطفا ثانيا .

---

(1) الوثـائق الآن ليست تحت يـدي ولـذلـك فقـد تركت التحـديـد ، وأحسب أن هـذه الاتفاقية إنما عقـدهـا وفـد بني مصعب مع خير الـدين في أواخر الربع الأول من القرن العاشر الهجري ، ربما قبل أو أثناء الحركة التي قام بهـا أحمـد بن القـاضي وقـارة حسن فاضطر خير الدين أن يخمدها بنفسه.

لقد وقف بنو مصعب لحماية مدنهم موقف الشعب الحر الشريف ، ولم يتمكن الفرنسيون أبدا من احتلالها واتخاذها مستعمرة ، وعندما سقطت مدن الجزائر كلها شرقيها وغربيها وجنوبيها ولم يبق إلا مدنهم اضطر الإباضية إلى نوع من التساهل كما اضطرت فرنسا أن تتنازل عن كبريائها الإستعماري ، وأن تقتصر على مد نفوذها الإسمي على تلك المدن ، وقبل بنو مصعب ـ بعد كفاح مرير (سياسيا وعسكريا) استمر اثنين وعشرين سنة وزيادة ـ أن يعقدوا معها معاهدة حماية شبيهة بالاتفاقية التي كانت لهم مع تركيا .

من سنة 1830 إلى سنة 1853 بقيت هذه المنطقة حرة مستقلة لا تخضع لأحد ، وفي سنة 1853 عقدت معاهدة الحماية بين فرنسا وبني مصعب على أن يعترف بنو مصعب بسيادة الدولة الفرنسية وأن يدفعوا لها نفس الضريبة التي كانوا يدفعونها للدولة التركية ، وأن لا يساندوا أو يؤووا إليهم من يثور عليها ، ولهم عليها أن لا تدخل بلادهم ، وأن لا تتدخل في شؤونهم ، وحتى الضريبة المتفق عليها يقومون بدفعها هم أنفسهم بجمعها ثم يحملها وفد منهم إلى مدينة الاغواط التي لفرنسا فيها مركز لأن مدن الإباضية الي ذلك الحين ليس فيها أي مركز حكومي ، ولا أي حاكم فرنسي والتي تنص المعاهدة أن تبقى كذلك أيضا .

على أن الاستعمار كالمرض الخبيث قد يستكن ولكنه لا يشفى ، ويتحرك حين تواتيه الظروف الملائمة ، ففي سنة 1882 أعلنت فرنسا أنها ألحقت بلاد بني ميزاب بأملاك فرنسا ، وبصورة شبه مفاجئة ، ودون أن يعرف الميزابيون أنفسهم شيئا عن الموضوع تحركت حامية عسكرية من الأغواط وانتصبت في غرداية دون أي مقدمات ؛ فلم يتعرض لها السكان بالقوة ظنا منهم أن المطالبة باحترام نصوص المعاهدة كفيلة بإرجاع الأمور إلى نصابها ،

لاعتقادهم أن هذه المغامرة ليست من الدولة نفسها وإنما هي حركة من بعض القواد العسكريين في الجنوب ، وعندما احتج الميزابيون على هذه الحركة لدى الحكومة الفرنسية أجابتهم ـ بأسلوب المراوغات السياسية المعروفة ـ أنها متقيدة بنصوص المعاهدة وأنها حريصة على تنفيذها والمحافظة عليها . ولكن الاستعمار لا يعرف الصدق ولا الوفاء ولم تخرج الحامية الفرنسية من غرداية الى أن خرجت فرنسا من الجزائر . وقد جابه بنو مصعب هذا التصرف من الدولة الفرنسية من جهة بسلسلة من الاحتجاجات والمقاومة الدبلوماسية المبنية على احترام القوانين والمعاهدات والأعراف الدولية ـ لا سيما وأن فرنسا حينئذ كانت تدعي أنها حامية القانون وحارسة الحضارة ـ فكانت تود أن لا يذاع عنها في الأوساط العالمية ما يناقض دعواها ويكشفها على حقيقتها .

ومن جهة أخرى نظموا مقاطعة سلبية (1) ضد كل ما يتصل بالفرنسيين ولا سيما فيما يتعلق بمساعدتها على إدراة الأعمال ، وقد أرادت بناء على استيلائها على المنطقة أن توظف كل مجموعة من الإداريين لمساعدتها فعرضت وظيف (قائد) على كل مدينة ولكن أحدا من أهل البلد لم يتقدم لهذا الوظيف ، ووقف المسلمون المجاورون ـ احتراما لإخوانهم نفس الموقف فلم يتقدم منهم أحد لشغل ذلك الوظيف المغري مع حرص الحامية على شغله بعنصر وطني يكون بمثابة فتح ثغرة في الصفوف وإحداث صدع فيها ، فلما لم يتقدم أحد من المسلمين تقدم له يهودي من الأغواط وجاء

(1) قال الأخ الأستاذ إبراهيم قرادى في رسالته إلى ما يلي : «وما كاد الاحتلال العسكري يتم حتى نظم الميزابيون المقاطعة السلبية ضد كل ما يتصل بالفرنسيين سيما الوظيف الذي يمنحون بموجبه اليد المطلقة في كل بلدة وهو وظيف القيادة وقد رفض الميزابيون هذه المسئولية مع مافيها من نفوذ ولم يقبلوه حتى عينوا يهوديا يسمى (يتح بشاغة) حاكما بأمره ولكن الفدائيين أعدموه في وادي مليكة أي خارج القرى . وعبثا حاول الفرنسيون العثور على قاتله فطالبوا الميزابيين بدفع ديته » .

فاستلم عمله في مركز غرداية ـ وبدأ عمله بنوع من التوقح والغلظة والكبرياء ـ وبينما كان يسير ذات يوم بين القرى في انتفاخ وزهو امتدت إليه يد فاغتالته . وقامت قيامة الدولة الفرنسية وارتكبت من وسائل التعذيب والتنكيل ما ترتكبه الدول الاستعمارية عادة في مثل هذه المواقف .

كما أن المقاومة السلبية لم تقف عند حد الرجال ، وإنما تقدمت المرأة إلى اتخاذ موقف رائع ، فقد ذكر الأخ الأستاذ إبراهيم قرادي في رسالته : «إن الجماعات الدينية للنساء نظمن مؤتمرا تحت رئاسة رئيسة الجماعة الدينية النسائية بغرداية وهي المسماة (مامة بنت سليمان) وقررن إصدار أوامر بمقاطعة كل ما يتصل بالفرنسيين من لباس ومواد وغيرها وكان هذا الموقف المشرف من هذه المرأة المؤمنة من المواقف التي رفعتها إلى مصاف زعيمات النساء المسلمات في العصر الحديث ، فقد اعتبرها صاحب كتاب (ثورات النساء في الإسلام) واحدة من اثنتي عشرة امرأة اشتهرن بمواقف بطولية في العالم .

ورغم أن الحكومة الفرنسية أعلنت ـ عندما احتلت حاميتها العسكرية غرداية فاحتج مواطنو المنطقة على هذا التصرف المخالف لنصوص المعاهدة المبرمة بينهم وبينها ـ أنها ستحافظ على نصوص تلك المعاهدة وأنها ستفي بالتزاماتها ، ولكنها لم تفعل ذلك بل إنها في سنة (1912) م وشبح الحرب العالمية الأولى يطل عليها ، والدمار يهددها ، وكانت تتشبث بكل ما تعتقد أنه يزيد في قوتها كما يتشبث الغريق بذنب الأفعى ، فرضت التجنيد الإجباري على الإباضية باعتبارهم خاضعين لسيادتها ، فقاموا لذلك وقعدوا ، ووقفوا في الرفض موقفا مصمما لا يتزحزحون عنه ، وبعد صراع عنيف اقترح بعض ساسة فرنسا حلا وسطا وذلك بأن يدفعوا للدولة الفرنسية مبالغ من المال يمكن لها أن تستأجر بها

مرتزقة بالعدد الذي فرضته عليهم بدلا من أبنائها ، فلم يقبلوا هذا الحل ، وكان مما استندوا إليه في رفضهم للتجنيد الإجباري بالإضافة إلى تمسكهم بنصوص المعاهدة وعدم اعترافهم بأن لفرنسا هذا الحق ، وأن ذلك الأمر ليس له أساس من الشرعية مهما كان مصدرها ، ما يلي : (1)

«والآن نبين هنا بإيجاز منافاة الجندية لحالة ميزاب الدينية ونلخصها فيما يلي :

أولا : إن الجندية تجعل الجندي مجرما إزاء دينه حيث تضطره لقتل أناس لا موجب لقتلهم وقد قال الله تعالى : ﴿ **ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما** ﴾ (2)

ثانيا : تلزمه في صورة التعويض أن يستأجر بماله من يقتل ـ كذلك ـ أحدا بدون موجب شرعي ، والقاتل بنفسه أو بماله سواء .

ثالثا : تضطره لترك ركن عظيم من أركان دينه وهو الصلاة وليس بين العبد والكفر إلا تركه الصلاة .

رابعا : تجبره على أكل ما لا يحل له دينه أكله وإلى شرب ما لا يحل له شربه .

خامسا : تفسد له أخلاقه التي يوجب عليه دينه أن يتصف بها .

---

(1) منقول بالنص من كتاب (بيان حقيقة) لمؤلفه عمر بن عيسى بن ابراهيم طبعة سنة 1350 هـ .

(2) النساء 93 .

هذا مجمل ما في الجندية من منافاة للدين الإسلامي ولذلك قال ذلك الرجل الحر : (م.برونيل) إنه يستحيل إجراء الخدمة العسكرية على بني ميزاب بدون اعتداء على الفرائض الدينية بمقتضى المذهب الإباضي الذي يوجب خمس صلوات في اليوم والليلة مع وضوءاتها » .

وقد أخذت قضية التجنيد الإجباري من إباضية الجزائر حجما ضخما شغل المحافل السياسية والعسكرية والقانونية والقضائية فترة طويلة من الزمان إذ استمر الصدام فيها الى سنة 1945 حين اعترفت فرنسا بخطئها وألغت قرارها ذلك ، بعد أن تورطت في مواقف لم تكن تحب أن تتورط فيها وعرّاها موقف الميزابيين الذي احتمى بالقانون والعرف الدولي أمام أنظار العالم ديبلوماسيا وأظهرها على حقيقتها دولة استعمارية شرسة بعيدة عن معاني الحضارة والإنسانية .

وليست قضية التجنيدهي القضية الوحيدة التي شغلت الرأي العام الفرنسي والجزائري من كفاح إباضية الجزائر . بل هناك قضايا كثيرة منها قضية مقبرة قسنطينة التي شغلت الرأي العام عشر سنوات كاملة وكانت من القضايا الهامة التي تضاربت فيها رغبات السياسة والإدراة من جهة وآراء القضاء والقانون من جهة أخرى وبعد معارك طاحنة على الساحات الجزائرية ثم على الساحات الفرنسية في باريس نفسها استطاعت دور العدالة أن تقف في مواجهة السياسة والإدراة وأن تكبح جماحها ، وثبت الحق الذي دافع عنه هذا الشعب الإباضي الصغير بصمود واستماتة حتى ظفر به .

إن الإباضية حينما انتهكت فرنسا حرمة المعاهدة وعلموا أنهم لا يستطيعون مجابهتها بالقوة العسكرية التجأوا إلى ميدان السياسة والقانون وكانوا يرفعون قضية في كل جزئية تنتج عن انتهاك فرنسا لحرمة المعاهدة فأصبحت دور العدالة في كل من الجزائر

وفرنسا مشغولة بالقضايا ضد الحكومة نفسها وكانت بعض الجرائد الحرة وبعض الجرائد المحلية لا سيما جرائد الشيخ أبي اليقظان - رحمه الله - شيخ الصحافة في ذلك الوقت تتناول تلك القضايا بتعاليق تشجب فيها مواقف فرنسا وتحذر العدالة - وهي القيمة الوحيدة الباقية لفرنسا الاستعمارية - من الزيغ والانتكاس والوقوع في أحضان السياسة أو الخضوع لإجراءات الإدارة .

وقد أيدهم ووقف إلى جانبهم بعض أحرار الفرنسيين من المحامين والقضاة ورجال الصحافة ورجال السياسة ، وهكذا لم تستطع فرنسا بما أتيت من قوة أن ترغم أولئك الناس - مع قلة عددهم - على الخضوع لها فبقي الإباضية في تلك البقعة الصغيرة متميزين عن بقية السكان بأنهم تحت حماية وليسوا تحت نفوذ احتلال استعمارى . مما غل الأيدي الاستعمارية وحال دونها ودون التغلغل فيما بينهم ، وبقيت مجالس العزابة ، ومجالس العشائر ، ومجالس الحراسة ، تتولى هي بنفسها جميع شئونهم الدينية والاجتماعية والاقتصادية ورغم محاولة فرنسا وبطشها لم يزد تأثيرها عليهم عن مبلغ من المال تأخذه منهم بمقتضى الاتفاقية ، وحامية عسكرية صغيرة منتصبة في غرداية ليس لها من حقائق الحكم إلا رايةترفع على مركزها عند الصبح وتنزلها عند المساء .

ولعل مما يوضح هذا الموقف أن نقتطف صورا مما قاله المؤرخون فقد جاء في كتاب (موجز التاريخ العام للجزائر) للأستاذ عثمان الكعاك ص 455 ما يلي :

«ولا تزال بلادهم إلى الآن متمتعة باستقلالها الداخلي لا تربطها بفرنسا إلا روابط خفيفة » .

وقال الأستاذ احمد توفيق المدني في (كتاب الجزائر) ص 184 ما يلي :

«واستمر الميزابيون يديرون بلادهم باستقلال حسب مذهبهم الإباضي وكان لهم بها نظام جمهوري متقن بديع ، وكانوا يخضعون اسما للدولة التركية وقد تطوعوا عندما استنفرهم حسين باشا للدفاع عن الجزائر بألف رجل ، ثم اعترفت لهم فرنسا بذلك الاستقلال الداخلي المطلق بمعاهدة سنة 1853 م وأخيرا نقضتها برسالة سنة 1882 بدعوى أن الميزابيين آووا إليهم الثائرين على فرنسا وأمدوهم بالسلاح» .

وقال في صفحة 226 ما يلي :

«ولما أعلنت فرنسا تجنيس سائر اليهود في الجزائر لم يشمل يهود ميزاب ذلك الأمر ، لأن بلادهم ليست تابعة لفرنسا بل هي بلد حماية» .

وقال في صفحة 65 ما يلي :

«ثم لما أعلنت فرنسا قانون فصل الدين عن الدولة سنة 1301 ضبطت كافة الأوقاف الإسلامية التي كانت تقوم بحياة المسجد ورجال الدين والقضاء الإسلامي ، وأدخلت كل ذلك ضمن أملاك الدولة ، ووزعت الأرض على الاستعمار فلم تبق بأرض الجزائر من أوقاف عامة إسلامية إلا ببلاد ميزاب وحدها نسأل الله أن يقي هذه الأوقاف عاودي الحدثان » .

أحسب أن هذه المقتطفات كافية لإيضاح الكفاح الطويل الذي قام به اليزابيون - لحماية أنفسهم / في ميدان السياسة والقانون ، وأنهم استطاعوا أن يحفظوا عليهم استقلالهم رغم محاولات الاستعمار وحنق الجهات العسكرية .

وهكذا بقيت معاهدة الحماية نافذة المفعول رغم أن السلطة العسكرية ألغتها بقرار ، ولكن ذلك القرار بقي حبرا على ورق ،

إذا استثنينا تلك الحامية التي انتصبت بالقوة في غرداية واستطاعت في الفترة الأخيرة وبعد اغتيال اليهودي (يتّح) وما قامت به من تنكيل وتعذيب للمواطنين أن تجد شخصا - ربما كان قصدهم حماية وطنهم من أمثال (يتّح) فتحت لهم هناك مكاتب وأسندت إليهم وظائف دون أن يكون لهم مع الجمهور شغل ، لأن الجمهور بقي بمشاكله كلها إلى الجهات التي ألفها منذ قرون واطمأن الى كفاءتها ونزاهتها ومراعاتها للحق والمصلحة .

وإذا ما استثنينا سنتي 1920 - 1921 من الكفاح الميزابي ضد التجنيد الإجباري التي أرغم فيها الشباب الميزابي - ولهاتين السنتين فقط - على الخدمة العسكرية ، فقد استطاع الشعب الميزابي من قبل ومن بعد أن يرفض هذا الأمر حتى اضطرت فرنسا أن تتنازل عن كبريائها وتعترف بخطئها وتلغي ذلك القرار في سنة 1945 ، .

ولعله مما يفيد القاريء الكريم أن أنقل له مقتطفات مماجاء في كتاب (بيان حقيقة) الذي يصور جزءا من الصراع العنيف بين هذا الشعب الصغير القوي وقوى الشر في فرنسا الاستعمارية واحتماء هذا الشعب بالمباديء والقانون والأعراف الدولية .

جاء في هذا الكتاب ما يلي :

«ولكن الاتفاق الواقع في 29 إبريل سنة 1853 بينهم وبين الوالي العام للجزائر الكونت (راندون) جعلهم تحت حماية فرنسا والتزموا لها مقابل ذلك بدفع خراج سنوي قدره (45) ألف فرنك قيمة ما كانوا يؤدونه خراجا للترك .

وقد كان الميزابيون يتولون جمع ذلك الخراج بأنفسهم ويبلغونه إلى مركز الحكومة بالأغواط بواسطة وفد منهم يشكل لهذا الغرض وهكذا كانت حالة ميزاب من سنة 1853 إلى سنة

1882 . وفي هذه السنة أتى الجنرال دولاتور دوفيرنيو» إلى ميزاب بدون مقاومة وبدون هراق قطرة دم ونصب في غرداية حامية عسكرية» «وصدر أمر في 21 ديسمبر من سنة 1882 وطد العلائق الموجودة بين فرنسا وميزاب بدون أن ينزع منه استقلاله الداخلي ، ولم يخرج ميزاب عن دائرة الحماية المنتصبة في سنة 1853 » .

«وفي سنة 1919 أجبر ميزاب على الخدمة العسكرية» .

«ومن ذلك التاريخ يحتج الميزابيون بدون فتور على التجنيد ويعتبرونه غير قانوني » .

«ولكن ذلك الاحتلال لا يكون له نفس ذلك التأثير على بني ميزاب الذين كانوا يدفعون خراجا فقط للترك كما شاهدناه وكانت بلاده غير داخلة سياسيا في عموم الجزائر التي كانت خاضعة للداي حسين ، وهذا الأخير لم يكن له الحق الشرعي في التخلي لفرنسا إلا على الحقوق التي كانت له في ميزاب أعني الحقوق المنجرة من الاتفاق السابق الذكر » .

«إن احتلال الجزائر لم ينشأ عنه جعل بني ميزاب رعية لفرنسا خلافا لما تراه الحكومة الفرنسية ... وليت شعري كيف يمكن ذلك وكيف يصبح قبول هذا الأمر التشريعي بكونه ألحق ميزاب بالجزائر وجعل أهاليه رعايا فرنسيين لمجرد كونه تضمن أن الممالك الفرنسية بافريقيا الشمالية تجعل تحت رعاية وال عام . وهل أن ميزاب كان إذ ذاك مملكة فرنسية مع أن الفرنسيين لم تكن لهم أدنى علاقة بميزاب؟ » .

إننا رأينا أنه لم يكن سوى بلاد تدفع خراجا وبهذه الصفة لم تكن أرضا فرنسية البتة » .

«وما زالوا يعيدون القول بأن هذا الإتفاق المؤرخ في 1853 قد

جعلهم في الحالة العدلية التي كانوا عليها في زمن احتلال الجزائر » .

«إن فرنسا التزمت لهم بعدم التدخل في شئونهم الداخلية بل صرحت لهم بمكتوب الكومندان ديبراي في 22 ابريل 1853 بما يأتي : (إنهم يحافظون على عوائدهم القديمة ويحكمون أنفسهم كما يظهر لهم ، وأن الأعوان الفرنسيين لا يذهبون إليهم ».

«لكن هل ميزاب وقع إلحاقه بفرنسا؟ لقد ارتكب من ظن ذلك غلطا فاحشا لأن الأمر المؤرخ في 21 ديسمبر 1882 وإن كان استعمل كلمة إلحاق إلا أن ذلك الأمر لم يصادق عليه إلا رئيس الجمهورية المعروض عليه من طرف وزير الداخلية والحربية في شأن ميزاب وهذا التقرير يتضمن ما يأتي : إن ميزاب هو عبارة عن قطعة أرض عائشة في حرية غير محدودة وقد حان الوقت لإدخال الميزابيين تحت القاعدة العامة» .

«وهاته العبارة التي وقع استعمالها في الأمر المؤرخ في 1882 تدل دلالة واضحة بلا نزاع أن هذه البلاد لم يقع إلحاقها قط بمقتضى الإتفاق المؤرخ في 29 أبريل 1853 ، وفي الحقيقة لم يقع إلحاق ميزاب أيضا بمقتضى الأمر المؤرخ في 21 ديسمبر 1882 » .

على أننا من حسن حظنا قد اطلعنا على تقرير مؤرخ في 14 ماي 1923 وجهه والى عموم الجزائر (م.ستيق) الى مجلس الدولة وكتب ما يأتي :

(إن الإلحاق المزعوم في 21 ديسمبر 1882 لا علاقة له بالعملية التي يقتضي القانون الدولي العام أن يتكون منها إلحاق ترابي) فان السيد الوالي العام للجزائر على تمام الوفاق مع الميزابيين الذين يحققون أن بلادهم لم يقع إلحاقها في سنة 1853ولا في سنة 1882 وإن العلماء الذين وقع استفتاؤهم عن حالة ميزاب الشرعية وهم

السادة هانري روبير ومرنا روبيلي قد أيدوا بفتواهم أن ميزاب لم يقع إلحاقه قط وذلك أنهم بينوا جميع الصور التي بمقتضى القانون الدولي العام يتكون منها إلحاق ترابي حسبما يأتي :

أولا : فرض إلحاق بمجرد الفعل وهو الاحتلال أوالغزو وهذا الفرض ليس بصحيح إذ لا يسوغ احتلال الأراضي إلا إذا كانت خالية من الولاية أو من السكان أو تسكنها أمم خارجة عن حدود التمدن وهذه الصورة لا تنطبق على ميزاب الذي حافظ على تأسيساته القديمة رغما عن جعل قوة عسكرية بغرداية .

ثانيا : فرض عملية الإلحاق بين فرنسا وميزاب .

ولنفرض أن الأمر المؤرخ في 21 ديسمبر 1882 ألحق ميزاب ولكن لنا الحق أن نبحث بتأمل ، هل هذا الأمر يترتب عليه عملية الإلحاق ،وبعبارة أخرى إن الموجبات اللازمة لاعمال من هذا النوع قد وقع إتمامها . الجواب لا شك بالنفي، لأن ما يجب إجراؤه لصحة عملية الإلحاق قد وقع بيانه في الفصل الثامن من القانون الأساسي الدولي المؤرخ في 16 جويلية سنة 1876 القاضي : (بإنه لا تقع حالة أو إبدال أو إلحاق أرض إلا بمقتضى قانون)

كيف وأن الأمر المؤرخ في 21 ديسمبر 1882 لم يقع عرضه قط على مجلسي الأمة الفرنسية ولا الموافقة عليه منهما وقد بقي هذا الأمر مجرد مشروع وأن إلحاق ميزاب المزعوم لا يوجد بصفة قانونية . الفرض الثالث : في الإلحاق الضمني بميزاب بمعنى خارج النطاق الاعتيادي من القانون وهو غير مقبول أيضا ، وذلك أنه لم يوجد قط بين فرنسا وميزاب علائق متواصلة حتى يثبتوا الاتحاد النهائي بإلحاق تلك البلاد لفرنسا» .

«الفرض الرابع : وهو الإلحاق تحت عنوان الاحتلال والإدارة

وهذا وقع في جزيرة قبرص والبوسنة والهرسك ، وأما ميزاب فولاة الأمور ليسوا فرنسيين فيه وإنما الأمة هي التي تحكم نفسها بنفسها وتقوم بالوظائف التي تخص المحتل أو المدير وأما من جهة الوجهة العدلية فالميزابيون يتفاوضون لدى قضاتهم الإباضية وينفذون أحكامهم بدون احتياج للسلطات الفرنسية ، وهذه صفة خاصة بهيئة الحماية » .

«فالمركز العسكري بغرداية لا يتعاطى النظر إلا في النوازل بين الميزابيين والفرنسيين» .

«وأما من جهة الإدارة فان بلدان ميزاب خاضعة لسلطة عماله ، وهؤلاء هم الذين يشخصون النفوذ التام ،وأن فرنسا تراقب حقيقة هذه الإدراة ولكن هذا النفوذ في المراقبة هو من قبيل الحماية» .

«وهذا الشكل في الإدراة يخالف تماما غيره المعمول به في الواحات المجاورة لميزاب التي هي بتمامها خاضعة لنفوذ فرنسا» .

«وهذه الفروض كلها تدل وتثبت أن ميزاب لم يقع إلحاقه قط وأن فقه القضاء كان مؤيدا لهاته الفكرة وأن الميزابيين في نظرها أجانب أحباب» .

«وبذلك يتبين أن الميزابيين ليسوا برعايا فرنسيين وغير ملزمين والحالة ما ذكر بالخدمة العسكرية وأن جميع التدابير الإدراية التي اتخذت بعد القانون المؤرخ في 3 فيفري 1912 بشأن التجنيد بميزاب غير قانونية » .

«ولنختم فصلنا هذا بما طرز به ، رونيل كتابه (تجنيد الأهالي) الجزائريين حيث يقول : «إن الأمة المستقلة التي تدفع خراجا لا تجب عليها الخدمة العسكرية إلا إذا التزمت بمقتضى اتفاق على ذلك مع الدولة الأخرى التي تعاقدت معها ، وهذه ليس هي حالة ميزاب ومن الظلم ادخالهم في الجندية » .

أخي القاريء الكريم ، لقد نقلت لك المقتطفات السابقة بشيء من التصرف من كتاب (بيان حقيقة) لمؤلفه عمر بن عيسى أحد وكلاء الأُمة الميزابية في قضيتها الوطنية ما بين صفحتي 42 ـ 58 ، أرجو أنني بذلك وضعت بين يديك ملامح لصورة الصراع الذي تسلح فيه إباضية الجزائر بقوة القانون والقضاء والسياسة الدولية أمام دولة استعمارية غاشمة ترى نفسها في ذلك الحين ثاني دولة في العالم قوة وأول دولة فيه علما وحضارة فاستطاعوا أن يحرزوا عليها الفوز وأن يقفوا في اليمدان في شموخ تمر بهم الزوابع والأعاصير وهم يزدادون ثباتا ورسوخا .

2 ـ في النطاق العام :

ونعني به كفاح بني مصعب السياسي والمسلح في سبيل الله من أجل حرية واستقلال وطنهم العام (الجزائر) ، لكي نضع صورة واضحة ومختصرة من ذلك الكفاح أمام القاريء الكريم يمكن لنا أن نقسمه إلى فترتين :

الفترة الأُولى : وتمتد من ابتداء استعداد فرنسا لغزو الجزائر وتمام احتلالها إلى اندلاع ثورة التحرير الجزائرية .

الفترة الثانية وتمتد من اندلاع الثورة الجزائرية إلى تحرر كامل القطر الجزائري وخروج فرنسا منها نهائيا .

(1) وفي الفترة الأُولى : كان الإباضية على المدى الطويل للكفاح في طرد الاستعمار الفرنسي ظاهرين في الميدان ، وقد كان منهم شخصيات واضحة في جميع الثورات والمؤسسات والجمعيات والأحزاب التي قاومت الاستعمار .

ولعل مما يفيد القاريء الكريم أن أقتبس فقرات من رسالة الأخ الأُستاذ إبراهمي قرادي في توضيح مواقفهم في هذه الفترة قال ما يلي :

«ولقد اعتبروا الجهاد ضدالمشركين واجبا دينيا قبل أن يكون واجبا وطنيا» .

وقال :

أما مشاركتهم (1) مع الأمير عبد القادر في نظم المقاومة في الغرب الجزائري فأمر معروف ودليلا على ذلك أذكر أن أحد المفاوضين باسم الامير عبد القادر في معاهدة تافنة المعروفة كان ميزابيا من بني يزقن وكذا أمين الخزانة وإن كان سكان وادي ميزاب لم يدخلوا تحت طاعة الأمير لأسباب أُخرى لا مجال لذكرها هنا .

أما مشاركتهم في ثورة المقراني وابن الحداد فقد كانت لهم فيها مواقف مشهودة ويكفي أن تعلم أن بولنعاش أحمد بن صالح قد

---

(1) يبدو أنهم اشتركوا معه في مقاومة فرنسا ولكنهم رفضوا الخضوع لحكمه فغضب بسبب ذلك فكانت هذه الصورة التي نعرضها عليك نقلا عن أُستاذنا بكلي وقد ترجمها عن كتاب (الصحراء الجزائرية) قال ما يلي :

«لما حاصر الأمير عبد القادر (عين ماضي) كتب للأمة الميزابية أن تعترف بحكومته وتدخل تحت علمه لأنه كما قال : « قد أيدني الله بالنصر واختارني فالواجب على كل مسلم أن يعترف بي » ثم ختم رسالته بهذا التهديد : «فإن رفضتم الخضوع لسلطاني فسأعاقبكم معاقبة أليمة أقطع رأس كل ميزابي يقع بين يدي» . فأجابته الأمة الميزابية بما صورته : «نحن لا نحيد عن طريقة أجدادنا ولا نبغي سواها مسلكا ، نعم تدفع إليك تجارنا ومسافرونا الغرامة في بلدانك التي يقطعونها أو يمكثون فيها مثل ما كانوا يفعلون مع الاتراك ، أما تسليم مدننا إليك فلا يقع ولن يقع ونقسم لك أننا عندما تزحف بجيوشك ومدافعك نهدم أسوار بلداننا حتى لا يبقى بين صدر شبابنا وجيوشك حاجز ، فإن هددتنا أن تقطع عنا الحبوب التي ترد علينا من التل فقد فاتك أن لدينا من الذخيرة ـ بارودا وتمرا ـ ما يكفينا لمدة عشرين سنة وأننا نزرع في بلادنا من القمح ما يموننا تقريبا . وإن توعدتنا بقتل كل ميزابي يقع بين يديك فلا يضعفنا ذلك ، لأن الذين بارحوا بلادنا لا نعدهم من جيشنا ، وإن شئت فاذبحهم ذبحا ، فإذا احتجت الي كمية من الملح لدبغ جلودهم فنحن مستعدون أن نرسل إليك منه قناطير ، إن كانت لك قوة فأت بها » .

وقال أُستاذنا بكلي حفظه الله :« فلما وصل ـ أي الأمير عبد القادر ـ (تاكدمت) مركز حكمه أمر بإلقاءالقبض حالا على بني ميزاب الموجودين في المدن الآتية : المدية ، المليانة ، تازا ، بوغار ، معسكر ، تاكدمت ، وغيرها ، ثم ضرب عليهم غرامات فادحة أصبح كلهم بها فقراء » . انتهى باختصار وقليل من التصرف .

استشهد أمام دار المقراني ، وقد صادرت فرنسا جميع ممتلكاته مع ماصادرت من أملاك الذين قاموا بدور فعال في هذه الثورات » .

وقال:

«واستمر الميزابيون بعدها في مد المقاومة التي كانت منتظمة بالصحراء بقيادة السيد محمد بن الأعلى بنواحي متليلي ، كما ساندوا ثورة أولاد سيدي الشيخ لما كان بينهم وبين الميزابيين من علاقات حسن الجوار ، وحين تنبه الفرنسيون إلى تأييد الميزابيين لكل جيوب المقاومة سيما بالسلاح والعتاد والإيواء قرروا احتلال ميزاب في سنة 1882 ولعل الرسالة التي بعث بها الجنرال مرغريت قائد الحملة في احتلال ميزاب في نوفمبر سنة 1882 إلى رئيسه الأعلى بالجزائر والتي يذكر فيها الأسباب التي دعته إلى الزحف والإحتلال العسكري لمنطقة من المفروض فيها أن لا تحتل لوجود اتفاقية ، خير دليل على ما قام به الميزابيون من تأييد فعال لجميع جبهات المقاومة في الصحراء ، وقد قال في الرسالة ما معناه :

(لقد قررت الزحف على غرداية لأن جميع المقاومة التي تعرضنا لهجماتها في الصحراء تستمد سلاحها من ميزاب ، ومن المعلوم لدى جميع سكان الصحراء أن ميزاب يسمى (دار البارود) وذلك لأن الميزابيين يأتون بملح البارود والرصاص من تونس ويصنعونه عندهم ، ويمدون به الثوار ، ولقد رأيت هؤلاء الناس يمسكوننا باليد اليمنى ، ويمدون الثوار باليد اليسرى ، ثم إن الكثير من معاونينا قد لقوا حتفهم في ميزاب ولم نعثر على قاتليهم . ولعل أشد عداء لنا هم الطلبة الذين يسمون العزابة وقد كان أول عمل قمت به هو سجن شيخهم طفيش الذي أعلن الجهاد ضدنا وعرفتهم بهذا العمل أنه لا يستطيع أن يصنع معجزة ولا أن يفلت من سلطاننا) انتهى ما بقي عالقا بذهني من هذه الرسالة ، ولعل لها نظائر كما يشير إلى ذلك البيان الذي أصدره جول

تيرمان الى الجماعات الميزابية في مبررات احتلال الفرنسيين لميزاب رغم وجود اتفاقية » .

وقال :

أما مشاركة الميزابيين في جميع الحركات الوطنية والسياسية منها والثقافية والدينية فهو أمر اعترف به الجميع ، فقد ساندوا الكفاح السياسي الذي قام به الشيخ أبو اليقظان في ميدان الصحافة وقام ببعث الوعي السياسي ما بين الحربين العالميتين في كل من البلاد التي تصل إليها الجرائد ، ولم يهادنه الاستعمار لحظة من الزمن وسقطت جرائده الثمانية واحدة تلو الأخرى وكانت آخر جريدة هي جريدة الفرقان ، التي أقفلت قبل الحرب العالمية الثانية بشهرين .

وقام الميزابيون بدور فعال في تأسيس جمعيةالعلماء ومناقشة قانونها الأساسي وكان الشيوخ بيوض وأبو اليقظان عضوين بارزين من أعضاء إدارتها ، كما كان الشيخ باكلي عبد الرحمن والشيخ ابن يوسف سليمان من جملة المؤسسين ، وشارك الميزابيون مشاركة فعالة في حركة حزب النواب الجزائري الذي تزعمه الدكتور ابن جلول ، وكذلك حزب الشعب الذي تزعمه مصالي الحاج .

ولعله من المهم أن نذكر أول مجموعة من الجزائريين أُلقي عليهم القبض في سنة 1937 من أجل المطالبة بالاستقلال كان فيها غرافة ابراهيم ومفدي زكرياء مع مصالي الحاج والأحول الحسين وخليفة بن عمار .

ومن الجدير بالذكر أن جريدة (الأمة) التي كان يصدرها الشيخ أبواليقظان هي الجريدة الوحيدة التي احتجت ضد اعتقال هذه المجموعة من المواطنين رغم وجود جرائد عديدة » .

وقال :

«وقد شارك الميزابيون في حركة بوراس التي كانت محاولة جريئة رغم ظروف الحرب كما شاركوا في حركة العقيد ابن داود وكانت هي الأخرى حركة لنيل الاستقلال على يد الحلفاء بعد نزولهم بالجزائر » .

وقال :

كل هذه الأعمال السياسية مضافة إلى ما قام به إخواننا من نشاط في ميدان الإصلاح الديني والاجتماعي قد لا يعد اليوم شيئا مذكورا ولكننا إذا جعلناه في إطاره التاريخي ودرسنا الظروف التي تجتازها هذه الحركات تحت الحكم الفرنسي والنسبة العددية لإباضية الجزائر يتضح لنا مقدار ما بذله هذا الشعب الصغير من تضحيات وما قام به من نضال في سبيل الله » .

وقال :

«لم يقتصر جهادهم على الأرض الجزائرية بل تعدى إلى كثير من المناطق » .

وقال :

«ولقد بذل الميزابيون بعد الحرب العالمية الأولى مجهودا جبارا في مناصرة الحركات السياسية في شمال إفريقيا ، وإليكم ما رويناه عن شيوخنا الذين لا يزال بقية منهم على قيد الحياة :

1 ـ تأييدهم للجهاد الليبي ضد الغزو الإيطالي بالمال والتموين وإيواء المهاجرين منهم .

2 ـ تأييدهم لحرب عبد الكريم بالريف بالعون المادي كما

يذكر ذلك الشيخ حسن البغدادي وهو لا يزال حيا وكان كاتبا للأمير عبد الكريم .

3 ـ مناصرتهم أو احتضانهم لحركة الزعيم الجزائري الأمير خالد حفيد أمير عبد القادر وقد كانت أول حركة سياسية في الجزائر .

4 ـ تأييدهم لحركة بعث الخلافة الاسلامية بعد سقوطها .

5 ـ العمل الجدي الجريء في تأسيس الحزب الدستوري بتونس ، فقد كانوا أول المناصرين للشيخ عبد العزيز الثعالبي في تكوين أول وفد إلى باريس لعرض القضية التونسية ، وطبع كتاب (تونس الشهيدة)

ولعلكم تعلمون أن نفي الشيخ أبي إسحاق إلى مصر كان بسبب الدور الفعال الذي قام به في ميدان السياسة وكان من أبرز أنصاره الشيخ أبو اليقظان والشيخ صالح بن يحي والشيخ محمد الثميني والسيد صالح سيوسيو ، ومن أطرف ما نذكره من اعتراف الحكومة التونسية الحالية بجهاد إخواننا أن الرئيس بورقيبة حافظ على زيارة مكتبة الاستقامة بتونس كل ليلة السابع والعشرين من رمضان بعد الخروج من الحفل الرسمي الذي يقام في جامع الزيتونة .

ولم يقطع هذه العادة الا بعد وفاة صاحب المكتبة الشيخ محمد الثميني رحمه الله .

ونحن حين نستعرض كفاح الميزابيين في كل الميادين التي يقفون فيها ضد الكفر والشرك نستخلص أن جهادهم نابع من إيمان راسخ بأن الوطن الإسلامي كله ميدان جهاد المؤمنين حيثما وجدوا من بلاد الإسلام وهذا ما يدفع في صدور الذين يرمونهم بالانعزالية والانطواء » .

أحسب أن هذه المقتطفات التي نقلتها عن رسالة الأخ الأُستاذ ابراهيم القرادي كافية في إيضاح الصورة التي أردت عرضها من كفاح الإباضية في الجزائر ضد الإستعمار ، وجهادهم في سبيل الله طيلة الفترة التي تمتد ما بين سنة 1830 التي بدأ فيها احتلال فرنسا للجزائر إلى سنة 1954 التي اندلعت فيها نيران الثورة الجزائرية المباركة .

2 ـ الفترة الثانية

هي التي هبَّ فيها الشعب الجزائري بجميع عناصره لتحرير بلاده من الإستعمار الفرنسي سنة 1954 م إلى أن طردت فرنسا الطرد النهائي إلى غير رجعة .

عندما اندلعت الثورة الجزائرية المسلحة كان الإباضية من أشد وأهم العناصر الذين اشتغلوا في هذا النضال ومن أصدق من أعدوا له وأثبت من كافحوا بجد وإخلاص وتضحية في بعث الثورة والاستمرار فيها والسير بها إلى قمة النجاح ، ولو أُتيح لمؤرخ سياسي أن يستلهم الفن والأدب وقام بدراسة للأناشيد التي كان يتغنى بها الأطفال والشباب الإباضي في مدارسهم ومعاهدهم منذ الأربعينات لتكشف له الروح النضالية العالية التي أعدت للثورة ورافقتها وتغنت بنجاحها .

ففي أواخر الأربعينات ـ وهم يعدون للثورة ـ كان الشباب الإباضي يتغنى بأمثال قولهم :

إن أُضرمت نار الوغى قدّم لها الوقود
لا ترتج أن تبلغا بدونها الأمال

وفي الخمسينات والشباب الجزائري مشتبك في النضال الفعلي

المسلح مع قوات الإستعمار الفرنسي كان الشباب الإباضي يتغنى بأمثال قولهم :

ياشباب المسلمين قد جنود الفاتحين
وتقدم لاتهن
إنما المجد الحروب ولدى السلم الكروب والمعالي لاتؤوب
بسوى الحرب الزبون

وربما كانت هذه الأناشيد التي تغنت بها المدارس والمعاهد الإباضية في هذه الفترة النضالية تبلغ المئات وكلها تدعو إلى التضحية والفداء والاستمرار في النضال وهي ولا شك تعطي صورة كاملة عن نفسية هذا الشعب الصغير .

ولا شك أن السطحيين الذين ينظرون إلي الظواهر قد تخدعهم قلة الأسماء في جبهات القتال غافلا عن النسبة العددية . ومع ذلك فقد لمعت لهم هناك أسماء وذهب لهم شهداء . ورجع من جبهات القتال بعد الإنتصار مناضلون شرفاء ، لم يمتنوا على الجزائر بنضالهم ، ولم يطلبوا من الدولة ثمنا لوطنيتهم بمنحهم ألقابا أو سلطة ، وإنما رجعوا في تواضع إلى أعمالهم الحرة في الميادين الحرة دون ضجيج ولا صخب .

وهؤلاء جميعا يعرفهم زملاؤهم من رفقة السلاح ، أو من قادة النضال ومن مسيري الإحصاءات الرسمية ، التي ثبتت للتاريخ وللأجيال القادمة ـ ذلك الرصيد الغالي الذي دفعته الجزائر ثمنا للحرية إذا تولته أقلام صادقة ومخلصة .

أما الدور الذي قام به الإباضية في هذا النضال ـ وأغلبهم تجار موزعون على جميع الانحاء القطر الجزائري ـ فلعله يتلخص في الخطوات الهامة الآتية :

1 ـ في جبهات القتال :

لاشك أن الوجه الواضح لثورة التحرير الجزائرية إنما يظهر في العمل البطولي الرائع الذي قام به المناضلون والفدائيون لمجابهة القوات الاستعمارية بمختلف تشكيلاتها في ساحات القتال وفي الأودية ورؤوس الجبال ، وبين الغابات والأدغال .

وقد أخذ الإباضية في هذا المجال قسطهم الذي يتناسب مع حجمهم وربما كان أكبر قليلا من الحجم الذي يقدر لهم ، ومن الامثلة على ذلك أن الإباضية في الجزائر عند اندلاع الثورة كان عددهم يتراوح بين الستين والسبعين ألفا .

وقد التحقت أعداد من شبابهم بمعاقل الثوار على كل المستويات بل إن الشباب الإباضي على أرفع المستويات كان في مقدمة من التحق بالثورة في الجبال ، ومن ذلك أنه لم يكن للإباضية في ذلك الحين إلا ثلاثة أطباء وقد التحقوا كلهم جميعا بمعاقل الثورة فاستشهد اثنان ، وتستطيع أن تقيس بقية الجوانب على هذا النمط وتحسب النسب .

2 ـ التمويل :

لا شك أن تمويل الثورة لا يقل أهمية عن حمل السلاح فيها ، وقد اعتمدت الثورة الجزائرية ضد الإستعمار اعتمادا كاملا على المتاجر الإباضية ، فقد كانت جميع الطلبات التي تقدمها العناصر المسئولة في الثورة إلى أي متجر من متاجر الإباضية تحقق في الحال وفي صمت وفي هدوء كأنها عملية من عمليات البيع والشراء ولكنها دون مساومة .

ثم إن القيادة قد اتفقت مع شخصيات معينة منهم على أن تكون بعض متاجرهم في كل مكان مصدرا للتمويل ومركزا لتزويد جبهات القتال بما تحتاج إليه .

وقد كان تجار الإباضية في مختلف المدن الجزائرية يعدون كل ما تحتاج إليه الثورة الجزائرية تحت أيدي أمينة لتصل إلى أماكنها عند الحاجة ، وإلا بقيت محفوظة أو مخزونة حتى يأتيها الطلب ، ولعل ما دفعه إباضية الجزائر لتمويل الثورة في مرحلتها الطويلة يفوق كل ما دفعه غيرهم .

وهكذا قام الإباضية بجانب ثان هام من جوانب جهاد العدو ، ولو لم يوقوموا هم به على هذه الجدارة وبهذا الاستحقاق لما استطاعت الثورة أن تصمد أمام التحدي الاستعماري العنيف .

وقيادة الثورة الجزائرية تعرف هذا حق المعرفة وتقدره حق التقدير ، ولا يقلل من أهمية النضال أن بعض المناضلين ، لا يعرفون هذا ، ولا يعرفون الأسس السرية التي انبنى عليها النضال ، لالانهم يمرون وسط شوارع المدن فيرون المتاجر مفتوحة ، والأعمال جارية في روتينية واضحة ، وأصحاب المتاجر يواصلون أعمالهم فيها في هدوء ونشاط ، فيعتقدون أن أولئك التجار غير مهتمين بالثورة ، فهم إما سلبيون ، وإما خونة ، وإما عملاءللاستعمار فيشيعون عنهم الأراجيف التي ليست من الحق في شيء والتي ربما سببت في إيذاء ناس كان إخلاصهم للثورة وبذلهم في الجهاد ، وعملهم في سبيل الله لا يقل عن اولئك الذين عرَّضوا أنفسهم للموت في ميادين القتال .

والجهاد بالمال في سبيل الله قرين الجهاد بالنفس في جميع مراحل الجهاد ، وكثيرا ما قدم القرآن الكريم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس ليشعر المؤمنين بأهمية البذل في سبيل الله .

3 ـ تأمين الأشخاص : لا تخلو مدينة من مدن الجزائر من عدد من المتاجر أصحابها من الإباضية ، ولعل تسخير الإباضية لأعمال التجارة في جميع أنحاء الجزائر كان وفق مشيئة الله تعالى لحكم

يعلمها وعرف الناس بعضها في هذه الظروف وهو تأمين المجاهدين في سبيل الله لإخراج المستعمرين من بلاد الإسلام .

بمجرد ما يحس أحد رجال الثورة - عند دخوله للمدن أو القرى للقيام بأعمال تقتضيها مصلحة الثورة - برقابة السلطة الاستعمارية أو بتتبعها له فإن أول متجر للإباضية يقع في طريقه يكون صالحا لأن يكون مخبأ أمينا له ، فيلجأ إليه في الحال لإنه يعرف أن لهم وسائل في إخفاء من يلجأ إليهم لا يمكن لشيطان الاستعمار أن يكشفها ، وهو أيضا على يقين أن ذمم أولئك الناس لا تخفر مهما كانت النتائج ، وهو يعرف أيضا أن مجرد التجائه إليهم يجعلهم يحسون بمقدار الخطر الذي يتهدده ولذلك فهم حريون أن يوفروا له الحماية والأمن حتى ينجز المهمات التي جاء من أجلها .

وهم يعرفون فوق ذلك أن انكشافه عندهم يعرضهم ويعرضه لكثير من الأذى ويضعهم تحت الرقابةالمستمرة .

وتروى في هذا الباب قصص ونوادر (1) وبطولات تعتمد أولا على صدق النية في الجهاد بكل الوسائل ، ثم على الذكاء واللباقة وحضور البديهة واتساع الحيلة وحسن التصرف ، وهي في مجموعها تكشف عن المعاناة الحقيقية لركائز الجهاد المجهولة التي كانت تعمل وهي لا تحتسب من أحد من الناس شكرا أو أجرا أو فخرا .

---

(1) ذكر لي أحد أولئك التجار أنه أعد في متجره أنواعا من الألبسة التنكرية واللحى والشعور المستعارة والعمائم الجاهزة وألبسة كالتي يلبسها عمال الإباضية في متجرهم . وعندما يدخل إليهم ملتجيء من متابعة العدو سرعان ما توضع على وجهه لحية وعلى رأسه عمامة وعلى ظهره ثوب من ثياب العمل ثم يبدأ في العمل من الجوانب الواضحة من المحل فإذا جاء المطاردون لم يخطر لهم أن طريدهم هو أحد العاملين في واجهة المحل واندفعوا - بغطرستهم - إلى الداخل يبحثون يقلبون المحل تفتيشا ولكنهم لا يعثرون على من يطلبون وهو قد يكون في ذلك الحين بين أيديهم وأعينهم يمد قطعة قماش الى زبون أو يقشر البصل في المطبخ .

4 - تأمين المواصلات :

بحكم اشتغال الإباضية بالتجارة في جميع أنحاء الجزائر فان الحركة والتنقل من مكان إلى مكان وشحن السيارات بالبضائع من بلد إلى بلد مظهر طبيعي من مظاهر نشاطهم لا يثير - في عمومه - شكوك الاستعمار ، ولا يستدعي المراقبة والتتبع والتحقيق ، ولذلك فقد كانت مطالب الثورة تنتقل على أيديهم من بلد إلى بلد في صورة بضائع تجارية مطلوبة ، وتستقر تلك المطالب (في صورة بضائع) في متجر من متاجرهم لتصل بالتدريج حسب الخطط التي تضعها قيادة الثورة إلى أماكنها من جبهات القتال ، في بطون الأودية ورؤوس الجبال ولربما كان أشد الطرق أمنا وأكثرها نشاطا وحركة لإمداد الثورة بما تحتاجه من مؤن إلى أقصى مواقع الثورة إنما هي التي كانت تمر على متاجر الإباضية ، ويتولون هم أنفسهم ترحيلها واستقبالها ثم ايصالها الى أماكنها التي ينبغي أن تكون فيها في مواعيدها المحددة حيث تكون تحت تصرف المناضلين .

5 - تأمين المخابرات :

إن الإباضية في الجزائر بطبيعة أعمالهم التجارية وتنقلهم بسببها بين جميع أطراف البلاد وخارج أطراف البلاد قاموا بأروع الأعمال في تأمين مخابرات الثورة سواء كان ذلك في إيصال مخابرات الثورة إلى الشعب أو في إبلاغ مخابرات الشعب إلى الثورة ، فقد ربطوا بين عناصر الثورة في كل مكان ، وأمنوا مخابراتها بحيث أصبحت الاتصالات بين أعضاءالثورة تتم في سرعة وسرية ودقة تستدعي الإعجاب والتقدير . فما تريد جهة من جهات الثورة تبليغ أمر أو خبر إلى جهة أخرى بعيدة حتى ينطلق تاجر إباضي إلى تلك الجهة البعيدة ليعقد صفقة تجارية في الظاهر قد تتم أو لا تتم ولكن المهم من تلك الرحلة التجارية أن يتم فيها

للثورة ما شاءت من مخابرات تصل في حينها ، وقد قام التجار الإباضية في تونس وأفراد البعثة العلمية هناك بربط جميع الحلقات بين الحكومة الجزائرية المؤقتة في تونس وقيادة النضال في داخل الجزائر بل أي فرع من فروع القيادة في الأطراف ، فعندما تفكر الحكومة الجزائرية في تونس في إبلاغ شيء إلى الثوار أو الحصول على شيء منهم ينطلق فرد أو أفراد من الإباضية ـ تجار او طلبة ـ لزيارة وطنهم إما لعمل تجاري أو لإطفاء لواعج الشوق ، وفي حركتهم تلك يتم المقصود من الإبلاغ أو الحصول ، وهكذا تتم المخابرات بين أعين وآنف الاستعمار وأجهزته المتجسسة ولكنه لا يسمع ولا يرى ولا يشم .

وقد كانت بعض متاجر الإباضية في أغلب المدن الجزائرية بمثابة دور البريد أو مراكز المخابرات للثورة فهي مستودعات للرسائل والنشرات والبلاغات وكانت تلك المراكز معروفة عند عناصر القيادة . فيتردد عليها حملة البريد السري للثورة أو توصل إليهم إذا خيف من التتبع والمطاردة. وفي أكثر الأحيان يودع هناك ما يراد نقله أو توزيعه إلى جهات فيصلها في أمان ودقة . وكانت تلك المتاجر تسلم وتستلم ما يمر بها إما لشخص معروف لديها وإما بكلمة سر هي مفتاح التعامل .

ولقد نال تجار الإباضية بسبب هذه الأعمال كلها كثير من الشر والأذى كالسجن والضرب والتعذيب بأنواعه المختلفة ومصادرة الأموال .

ولكن الإستعمار في جميع حالاته تلك ، لم يستطع بجهازه التعذيبي الجهنمي وبطاقمه الوحشي أن ينتزع سرا واحدا من إباضي واحد ممن أوقعهم سوء حظهم تحت براثنه ، وإنما كان الواحد منهم يتلقى ما ينزل عليه في ألم وصبر ومحتسبا ذلك في الله ولم يذكر عن واحد منهم أنه أشار لا من قريب أو بعيد إلى ما يضر بالثورة

أو برجال الثورة ، ولقد لقي بعضهم حتفه تحت التعذيب دون أن تنفرج شفتاه عن أي سر من أسرار الثورة وعنده منها مخبآت سلمها خلفاؤه إلى رجال الثورة كاملة سليمة .

هذا الموقف البطولي نفسه كان مدعاة للحيرة والاندهاش بالنسبة إلى الجانبين ، فهو من جانب تكذيب لتحريات رجال المباحث الاستعمارية فيما يعتقدون أنهم وضعوا عليه اليد وأمسكوه من كل أطرافه ، وهو من جهة أخرى قلل من الشائعات والأخبار عما يقومون به من أعمال في صمت وإتقان حتى ظن السطحيون أن جهودهم في مكافحة الاستعمار ضئيلة ، وكانت نتيجة هذا الموقف البطولي من تحمل العذاب وكتمان السر أنه لن يستطيع أحد أن يقف يوما فيزعم ـ أن ضررا ما لحق به أو بشخص ما أو بمرفق مرافق الثورة بسبب اعتراف إباضي عليه بعملية الترغيب أو الترهيب أو التعذيب ، والسبب في هذا الموقف أن الإباضية لا يجيزون ـ شرعا ـ لأي شخص أن يخفف عن نفسه العذاب بتوريط غيره ، ولعل مما يوضح هذه الصورة أن أنقل فقرات من رسالة الأخ الأستاذ إبراهيم قرادي ، قال

«ولا يفوتنا أن نشير في ختام هذه الرسالة (1) إلى الدور الفعال الذي أسهم به الميزابيون في الثورة التحريرية ما بين سنة 1954 الى سنة 1962 و لايسعنا في هذا المقام أن نطيل بذكر كل التفاصيل ولكننا سنشير إلى بعض النقاط :

1 ـ اندلعت الثورة في فاتح نوفمبر 1954 وكان نشيد الثورة الرسمي هو النشيد الرسمي للدولة الجزائرية حتى اليوم وهو من

(1) كتب الأستاذ إبراهيم قرادي تلك الرسالة بما تضمنها من معلومات بموافقة المؤرخ البحاثة الشيخ سليمان بن الحاج داود . وقد أكد لي الشيخ سليمان بأنه يملك مصادر موثوقا بها ووثائق رسمية في جميع ما جاء برسالة الأخ الأستاذ إبراهيم قرادي .

إنشاء شاعر الثورة الجزائرية مفدي زكرياء ، مثل نشيد فداء الجزائر الذي كان النشيد الرسمي لحزب الشعب الجزائري ومعنى هذا أن الشعراء الإباضية استطاعوا أن يعبروا عن المشاعر الوطنية للشعب الجزائري بأحر وأصدق مما يعبر غيرهم ، وأنهم يحسون بالقضية الوطنية في كل أدوارها ومراحلها بأعمق مما يحسه غيرهم من الشعراء » .

ولعله لم يرتفع فى إذاعة صوت العرب بالقاهرة - طيلة سني النضال المسلح للثورة الجزائرية - صوت شاعر جزائري كما ارتفع صوت صالح خرفي (وهو ميزابي إباضي) معبرا عن وجدان الثورة الجزائرية وأحاسيسها ، وصارخا بصوتها القوي يهز مشاعر الأفراد والجماعات ، حتى خيل لكثير من متابعي صوت العرب أن صالحا الخرفي كان هو الصوت الرسمي للثورة الجزائريةفي القاهرة ، وقد استطاع صالح أن يدخل الثورة إلى أبراج الادباء والشعراء في العالم العربي ، وقد استطاع هو أيضا أن يعبر على الشعر الثوري العاطفي الي مكانة في الإدب العربي ما كان ليبلغها بالمقاييس الأدبية المجردة .

ولو جاز لمسلم أن يستشهد لقضية الجهاد حتى بالأعمال التي تخالف شريعة الله لقلت - حسب روايات الأصدقاء - إن شياطين الإباضية أيضا قد اشتركوا في قضية تحرير الجزائر بمجهود واضح لدى الجماهير فقد تعاون شيطان الشعر عند الخرفي مع شيطان الغناء عند وردة الجزائرية وجوقتها وقدموا عددا من الأناشيد والأغاني الوطنية ، فكان أولئك الشياطين يحركون عواطف الناس بكلمات صالح وصوت وردة ، ولكنني لا أعلم في الحقيقة الى أي اتجاه كانت تتحرك تلك العواطف (1)

---

(1) الفقرة السابقة التي تحدثت عن شعر صالح الخرفي لم يكن مصدرها رسالة قرادي .

2 - كان أول ثلاثة الاطباء انضوا إلى صفوف الجيش في أول يوم من الميزابين ، استشهد منهم اثنان وهما : تيريشين ابراهيم في نواحي الونشريس قرب الأصنام ، وقضي بكير في جبال سوق أهراس ، وقد سمي باسمه مستشفى غرداية ، أما الدكتور الثالث فهو لا يزال حيا ، وهو الدكتور باباعمر عبد الر[illegible] ولم يكن من أبناء الميزابيين طبيب غيرهم ، ومعنى هذا أنهم بعثوا بكل أطبائهم إلى صفوف الجيش الذي حرر الجزائر فاستشهد الثلثان في جبهة القتال .

3 - أدرا السيد بن خدة والعربي بن المهيدي معركة الجزائر العاصمة من ثمانية عشر مركزا كانت كلها للميزابين ، قام فيها رجال الثورة بأدوار بطولية نادرة لم تكتشف الا بعد إضراب الثمانية أيام ، وكل هذه المراكز كانت للميزابيين في الأحياء الاوروبيةمن عاصمة الجزائر .

4 - تكونت الولاية السادسة تحت قيادة العقيد أحمدبن عبد الرزاق في مركزها الأول وهو غابة الحاجب التي هي ملك لآل الخبزي وانضم كل أبنائه الى صفوف الثورة فكان منهم من صعد إلى الجبال ومنهم من قام بالعمل السياسي وتركيزه في منطقة الصحراء » .

وقال :

«وقد توقف إطلاق النار في سنة 1962 ومركز قيادة المنطقة الخامسة من الولاية السادسة في العطف بوادي ميزاب ، وكانت مساحة هذه المنطقة تمتد ما بين الحدود التونسية بوادي سوف شرقا إلى الأغواط غربا ، إلى تمنراست جنوبا ، وغني عن الذكر أن اختيار القيادة الرشيدة لمركز هذه المنطقة لم يكن عبثا ولا مصادفة » .

أحسب أن هذه المنطقة كافية لإيضاح الصورة التي أردنا عرضها على القاريء الكريم بإيجاز شديد ، أما الصورة الكاملة فهي لا تزال مستترة حتى ينتدب لها أحد الشباب المثقف من أبنائهم فيتولى عرضها بأسلوب علمي يضع كل حقيقة في مكانها ويبني كل لبنة فيها على أساس متين .

وبعد كل هذا ... فإن الاباضية جزء من الأمة الجزائرية قاموا بواجبهم في جهاد العدو واستجابة لأمر الله تعالى لا منة لهم على أحد ، وليس لأحد عليهم منة ، فإن شذ فيهم أفراد ـ كما يشذ من كل قوم ـ فلم يصدقوا في الجهاد في سبيل الله ، أو قصروا في جنب الله ، فإن ذلك ليس بدعا في الأمم والشعوب ، وإن كنا لم تبلغنا أية حالة من هذا النوع في هذا الشعب الكريم ، ولم أسمع من أحد أن أحدا منهم (ايّ احد) اتهم بخيانة أو عمالة أو جوسسة أو تواطؤ مع العدو .

هذه صورة مختصرة جدا عن جهاد إباضية الجزائر في سبيل الله ـ وهم يحرصون شديد الحرص على عدم التحدث عما قاموا به لأنهم قاموا به لله ومنه وحده ينتظرون الجزاء .

عسى الله تبارك وتعالى أن يوحد بين جميع المسلمين في نظام حكم واحد عامل بدين الله متجه إلى محاربة أعداء الله ، مجاهد في سبيل الله ـ حسب أمره تعالى ـ بالمال والنفس حتى يتم تبليغ رسالة الإسلام التي أوقف تقدمها اشتغال ساسة المسلمين بالنزاع على ما في أيديهم وإعارضهم عن السير قدما في الطريق الذي سار فيه أبو عبيدة وسعد وخالد وعمرو وعقبة وموسى وطارق .

كلمة أخيرة

عزيزي القاريء ،

في سنة 1966 رسمت الخطوط العريضة لهذه الحلقة من الكتاب ، ثم بدأت في كتابة الفصول، وقد تناو أغلبها ، منها ما كتبته في صورة نهائية ، ومنها ما يشبه أن يكون رموزا أو علامات على مواضيع ، واستمر البحث والمراجعة في المصادر المكتوبة والمصادر المصورة ، والمصادر الحية المتحدثة ـ وكنت كثيرا ما أعود على ما كتبت بالتغيير والتصحيح حتى خيل الي أنني وضعت الكتاب على شبه الصيغة النهائية ، ولم يبق عليّ إلاّ أن أعرضه أو بعض فصول منه على أحد شيوخي لأطمئن إلى عملي ، وركنته في زاوية انتظارا لفرصة لقاء ، وعندما أعلن استاذنا الفاضل الإمام بيوض إبراهيم بن عمر عزمه على زيارة ليبيا في صيف 1392 هـ ، توقعت أن تتاح لي فرصة معه ، ولكن تلك الفرصة لم تسنح لي أبدا ، فقد كان وقته ـ طيلة الأسبوعين ـ مزدحما مشغولا ، فلم يتم لي ما رجوت وكان ضياع هذه الفرصة مني داعيا أن أعيد النظر فيها نظرة أخيرة فيما حسبت . وقد فعلت .

وفي صيف 1396 هـ أتيح لي أن أزور الجزائر وأن أبقى في الواحات لمدة أسبوعين وأن ألتقي بعدد من العلماء والمشائخ وأتيحت لي فرص لقراءة بعض الفصول على بعضهم واستفدت كثيرا من نصائحهم وتوجيهاتهم وتصحيحاتهم ، فقد قرأت كل ما يتعلق بالدولة الرستمية على كل من الشيخين الفاضلين الإمام بيوض ابراهيم ، والشيخ باكلي عبد الرحمن ، حفظهما الله ورعاهما ، وقرأت أكثر الفصول على الشيخ باكلي عبد الرحمن وقرأت الفصول المتعلقة بوارجلان على الأستاذ الشيخ أبي معقل عمر بن داود وعلى الأخ المؤرخ البحاثة الشيخ سليمان بن الحاج داود ، وقرأت

مسودة فصل الجهاد على الشيوخ الثلاثة أفلح وابن يوسف وباكلي كما قرأته على الأخ الشيخ إبراهيم قرادي .

أما الفصول : ميزاب في نظر مستغرب ، بنو مصعب والغربة ، المرأة الميزابية والغربة ، المؤسستان الثانية والثالثة ، هذه الفصول لم يطلع عليها أحد منهم لأنني كتبتها بعد رجوعي من الرحلة .

ولا شك أن القاريءالكريم يعرف أنني بعد زيارتي أعدت صياغة بعض الفصول وصححت بعض الآراء وحققت بعض المعلومات ، ولكنني مع ذلك لم أستطع أن أبلغ به ما في نفسي ، وكل ما أستطيع أن أعتذر به في هذا المقام أن أقول : أني بذلت جهدا غير قليل في إخراج هذا العمل إلى حيز الوجود . ولو لم يكن فيه من جهد غير نقله عددا من المرات لكان عملا مضنيا ، وقد بقي بين يدي نيفا وعشر سنوات وكنت كلما تناولته أو تناولت بعضه بالصقل ظننت أنه صار أفضل وأحسب الآن أنه على وضعه الموجود هو أفضل مما كان قبل ذلك ، ولو تناولته بالتحقيق والتصحيح من جديد لوجدت فيه ما يستحق التغيير ولصار بعد ذلك أفضل مما هو عليه الآن . ولكننا لو سرنا على هذا الأسلوب نشتغل بالتصحيح والتحقيق حتى نصل الى اللحظة التي نبلغ فيها الكمال ، ونحوز الرضا التام فيما نقدمه من عمل ، لما وصلنا الى تلك اللحظة أبدا ، ولما أنجز لنا عمل أبدا .

وإذا وجد من يقول عن نفسه : إنه بلغ مرتبة الكمال ، في عمل من الأعمال ، فذلك أحد الرجلين : إما رجل يعرف عن نفسه القصور فهو ينفخ فيها بالشجاعة خوف الإحجام ، وإما رجل لا يعرف معنى الكمال ولا يقدره ، وقد عرفت أناسا يريدون أن يخرجوا أعمالا يصلون فيها إلى الكمال فأمضوا زيادة عن عشرين سنة يجمعون الحقائق حتى ذهب نور أبصارهم ولم يخرج عملهم ذلك الى النور ، ولو أتيح له أن يخرج لكان صاحبه أول من يحس بالنقص فيه .

وإذا وجدنا من الكتّاب من يدعي الكمال ويزعم الوصول الى عين اليقين ، في كل ما يقول ، فأنا لا أملك هذه الجرأة ولا أحسن هذه الدعوى ، وأعترف بصراحة صادقة أن في عملي هذا كثيراً من النقص منه ما أعرفه ولم أتمكن من إتمامه ، ومنه ما لا أعرفه وقد يعرفه القاريء ، ومنه ما قد يخفى عني وعن القاريء الى حين .

وعلى جميع الأحوال فهو محاولة أرجو أن يستفيد منها من يقتنع منهم بالبسيط وأن يجد فيه حملة الأقلام ما يستعينون به على شق طرق جديدة في منهج جديد لدراسة اجتماعية متكاملة مبنية على أحداث تاريخية في جانب من المجتمع الإسلامي لم يجد بعد العناية الكافية من أقلام صادقة تكتب بالحق وتسعى وراء الحق ، رغم ما كتبت عنه وفيه ...فإذا لم يجد فيه القراء وحملة الأقلام جدوى ولو قليلة فهو ليس أول عمل تافه يقدمه إنسان وهو يعتز به وإنني - على شدة الخجل من التصريح بالاعتزاز بعمل من أعمالي - لأعتز به على ما فيه ، وأرجو أن يكون من حسناتي عند الله .

كلمة الختام

عزيزي القاريء :

إني أحمد الله تبارك وتعالى الذي ساعدني حتى أنجزت هذا العمل وقدمته إليك كما هو الآن . . .

وإن كل ما أطلبه منك - وقد قرأته - اذا لم يعجبك ، ولم يحز رضاك ، أن تدعو الله لي مخلصا حتى يوفقني إلى تقديم ما يرضيه ويرضيك عني مستقبلا . فانني قد عزمت أن لا أتركك أيها القاريء الكريم ما دمت أقوى على الكتابة .

وما دمت لاتستطيع أن تتخلص من هذا العبء الثقيل الذي ألقيته على عنقك فما عليك إلا أن تتجه إلى من بيده الأمور ليجعله عبئا يسيرا تقبل عليه نفسك ويرتاح إليه مزاجك وتحصل منه على بعض الفائدة .

وأخيرا أضرع إليه تبارك وتعالى كما يسَّر لي إنجاز هذا العمل الضئيل أن يفيد به ، ويجعله دعوة إلى توحيد الصف ، وإلى الاقتداء بخير السلف ، وإلى الاهتداء برسول الله ، وإلى الاعتزاز - فقط - بالله ، وأرجو منه تعالى أن يتقبله منى خالصا لوجهه الكريم ، فإنه نعم المولى ونعم النصير ، وهو حسبي وكفى به وكيلا .

تنبيه ورجاء

نعتذر إلى إخواننا القراء الاعزاء حيث أنه وقع خطأ في كتابة الآية الكريمة التي صدرنا بها مقدمة الجزء الأول من الكتاب وهي قوله تعالى : ﴿**قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون**﴾ فقدمت الميم على اللام وهو خطأ مطبعي حيث أن الفعل هو يعلمون بتقديم اللام الذي هو من العلم وليس يعملون بتقديم الميم الذي هو من العمل . نرجو من المولى الكريم أن لا يؤاخذنا به كما نرجو من كل من اتصل بنسخة من الجزء المذكور أن يصحح هذا الخطأ مشكورا والله لا يضيع أجر المحسنين .

(المطبعة)

المراجع مرتبة حسب الحروف الهجائية

الاباضية في شمال افريقيا (مخطوط)	أبو اليقظان ابراهيم
أخبار وتعاليق (مخطوط)	سلامة بن يوسف الجناوني
ازهاق الباطل	قطب الأئمة
الأزهار الرياضية	سليمان باشا الباروني
تاريخ ابن خلدون	عبد الرحمن بن خلدون
تاريخ أئمة الدولة الرستمية	ابن الصغير المالكي
تاريخ الطبرى	أبو جعفر الطبرى
تاريخ علماء الجزيرة (مخطوط)	سعيد بن تعاريت
تاريخ المغرب الكبير	محمد علي دبوز
تراجم الأئمة (مخطوط)	أبو اليقظان ابراهيم
تقاييد (مخطوط)	أبو الحسن علي بن بيان
الجواهر المنتقاة	أبو العباس البرادي
حوادث الجزيرة	ابراهيم بن ثابت
الدعاية الى سبيل المؤمنين	أبو اسحاق طفيش
الرد على الصفرية والأزارقة (مخطوط)	قطب الأئمة
الرد على العقبى	قطب الأئمة
رسائل المصعبى مجموعة رسائل (مخطوطة)	أبو يعقوب يوسف المصعبي
رسالة في التاريخ (مخطوطة)	أبو اسحاق طفيش
رسالة طبقات العلماء (مخطوطة)	محمد بن زكرياء الباروني
رسالة اجابة عن أسئلة (مخطوطة)	باكلى عبد الرحمن
السير	أبو العباس الشماخي
السير	أبو الربيع المزاتي
سير الأئمة (نسخة مصورة)	أبو الربيع الوسياني
سلم العامة والمبتدئين	عبد الله بن يحيى الباروني
شرح تحريض الطلبة	محمد بن يوسف المصعبي

صحراء الجزائر	العقيد توماس
طبقات المشائخ	أبو العباس الدرجيني
عقيدة التوحيد وشروحها	مجموعة من المؤلفين
غصن البان (مخطوط)	ابراهيم أعزام
قابس جنة الدنيا	محمد المرزوقي
القول المتين في الرد على المخالفين	سعيد بن قاسم الشماخي
كتاب الجزائر	أحمد توفيق المدني
اللقط	عامر بن موسى الشماخي
اللمعة المرضية	نور الدين السالمي
مؤنس الأحبة في أخبار جربة	أبو عبد الله محمد أبو راس
مختصر تاريخ الاباضية	أبو الربيع سليمان الباروني
مروج الذهب	أبو الحسن المسعودي
المعلقات «مؤلفها مجهول»	رتبها قطب الأئمة
مقتطفات من الأخبار والأحداث (مخطوط)	أبو الربيع الحيلاتي
ملحق السير (مخطوط)	أبو اليقظان ابراهيم بن عيسى
موجز التاريخ العام للجزائر	عثمان الكعاك
الموجز في تاريخ الجزائر	يحيى أبو عزيز
نماذج امرات الدفاع (مخطوط)	أبو اليقظان ابراهيم
النقد الجليل	أبو اسحاق طفيش
نهضة الجزائر الحديثة	محمد علي دبوز

وهناك مجموعة أخرى من الوثائق فاتتني عند ترتيب المراجع منها «بيان حقيقة» للسيد وكيل الأمة الميزابية في قضية التجنيد الاجباري ، ومنها رسالة الأخ الأستاذ ابراهيم قرادي في موضوع الجهاد في سبيل الله ، ومنها البحث الذي قدمه الى الأخ الأستاذ فخار حمو في منظمة امسطوردان ، ومنها رسالة مطبوعة لقطب الأئمة سقطت منها الصفحة الأولى فلم أعرف اسمها ، ومنها بعض المراسلات

التي كانت تجري بين العلماء التي تتناول موضوعنا من طرف جانبي أو تشير الى أحداث معينة كان لها أثر في مجرى التاريخ وبالتالي في الرأي الذي كونته أو انتهيت اليه في بعض القضايا .

فهرس الأعلام

أ

ابراهيم صالح الأمين : 356
ابراهيم محمد بن بكر النفوسي : 435 ـ 436
ابراهيم بن معاذ : 366
ابراهيم بيحمان : 354 ـ 355 ـ 360
ابراهيم قرادي (الأستاذ) : 583 ـ 584 ـ 594 ـ 599 ـ 607 ـ 612
ابن الأثير : 414
ابن الخير : 300
ابن الحاج معيزة : 419 ـ 420
ابن القابلة : 343
ابن جلاب : 384
ابن خلدون : 391 ـ 402 ـ 405 ـ 443
ابن الحداد : 595
ابن داود (العقيد) : 598
ابن غانية (انظر الميورقي)
ابن ماطوس سليمان : 285
ابن يوسف (الشيخ) : 597 ـ 612
أبو إسحاق اطفيش : 336 ـ 370 ـ 374 ـ 473 ـ 599
أبو إسحاق الأشارني : 514
أبو اسماعيل مهدي بن اسماعيل المليكي : 332
أبو محمد اليزقني : 482
أبو الحسن علي بن خزر الوسياني النفوسي : 294 ـ 321
أبو الخطاب عبد الاعلى المعافري (الإمام) : 377 ـ 393 ـ 394 ـ 513
أبو الخير توزين الزواغي : 294 ـ 308 ـ 515

أبو الخير الونزريفي : 295
أبو الربيع سليمان بن يخلف : 286 ـ 322 ـ 342 ـ 344
أبو الربيع سليمان بن شاكر : 373 ـ 374 ـ 375
أبو العباس أحمد بن محمد بن بكر : 320 ـ 341 ـ 342 ـ 368 ـ 404
أبو العباس أحمد بن أبي عبد الله بن بكر : 368
أبو العباس الدرجيني (انظر الدرجيني)
أبو العباس الوليلي : 293 ـ 342
أبو العباس بن طولون : 514
أبو القاسم البغطوري : 295 ـ 298
أبو القاسم يزيد بن مخلد : 300 ـ 301 ـ 347
أبـو اليقظـان ابراهيم (الشيـخ) : 304 ـ 305 ـ 324 ـ 325 ـ 331 ـ 333 ـ 349 ـ 354 ـ 371 ـ 373 ـ 416 ـ 418 ـ 423 ـ 434 ـ 473 ـ 557 ـ 560 ـ 563 ـ 577 ـ 587 ـ 597 ـ 599
أبو الياجراني : 400
أبو صالح اليهراسني : 249 ـ 301
أبو صالح جنون بن يمريان : 293 ـ 423
أبو طاهر إسماعيل بن أبي زكرياء : 319
أبو طاهر اسماعيل الجيطالي : 515 ـ 516
أبو عبد الرحمان الكرثي المصعبي : 289
أبو عبد الله الحجاني : 439
أبو عبد الله النفوسي : 294
أبو عبد الله محمد بن الخير : 344
أبو عبد الله محمد بن بكر النفوسي : 284 ـ 285 ـ 286 ـ 287 ـ 293 ـ 295 ـ 301 ـ 302 ـ 312 ـ 333 ـ 365 ـ 396 ـ 397 ـ 426 ـ 429 ـ 433 ـ 434 ـ 435 ـ 436 ـ 437 ـ 448 ـ 454 ـ 514
أبو عبد الله محمد بن زكرياء الباروني : 332 ـ 515
أبو عبد الله محمد بن سليمان النفوسي : 314

أبو عبيدة (ابن الجراح) : 610
ابو عبيدة وشق : 314
أبو عزيز بن خواجة : 419 ـ 420
أبو عبد الكافي بن أبي يعقوب : 435
أبو محمد الونزريفي : 298
أبو محمد عبد العزيز اليزقني : 482
أبو محمد عبد الله اللنتي : 344 ـ 367
أبو محمد عبد الله بن عيسى : 318
أبو عبد الله بن محمد اللواتي : 294 ـ 514
أبو محمد ماكسن بن الخير (انظر ماكسن)
أبو باديس (أبحث بن باديس اليشكني) : 306
أبو بكر بن يحي : 285
أبو بكر عبد الله بن بكر : 452
أبو بلال مرداس : 445
أبو جعفر الوسلاتي : 239
أبو حاتم الملزوزي : 298 ـ 394
أبو حاتم يوسف بن محمد : 439
أبو خزر يغلا بن أيوب : 347 ـ 348
أبو رحمة اليشكني : 382
أبو زكرياء السمومني : 348
أبو زكرياء فصيل : 284 ـ 285 ـ 286 ـ 396
أبو زكرياء يحي بن أبي بكر : 367
أبو زكرياء يحي بن أبي زكرياء : 335
أبـو زكريـاء يحي بن صـالـح الأفضلي : 463 ـ 472 ـ 478 ـ 479 ـ 481 ـ 482 ـ 483 ـ 484
أبو سهل الفارسي : 294 ـ 508
أبو صالح : 322 ـ 382

أبو محمد ويسلان بن ابي صالح : 301
أبو مساكن عامر بن علي الشماخي : 335
أبو مسور يسجا : 284 ـ 321 ـ 322
أبو معروف : 284 ـ 321
أبو معقل عمر بن داود (الاستاذ) : 387 ـ 611
أبو منصور إلياس : 514
أبو مهدي عيسى بن اسماعيل المليكي (المصعبي) : 465 ـ 466 ـ 468 ـ 479 ـ 482
أبو موسى عيسى بن يرصو كسن : 343
أبو نصر فتح بن نوح : 515 ـ 516
أبو نوح سعيد بن زنغيل : 497
أبو هارون موسى بن علي : 367
أبو يزيد اليفرني : 294
أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم : 382 ـ 402 ـ 515 ـ 516
أبو يعقوب يوسف بن محمد المصعبي : 362 ـ 479 ـ 482
أبو يعقوب يوسف بن موسى : 318
أبو يعقوب يوسف بن يعقوب : 375
أبو يوسف وجد ليش : 562
أبو يوسف يعقوب بن أفلح : 299 ـ 382
أحمد بن القاضي : 581
أحمد توفيق المدني (الاستاذ) : 292 ـ 353 ـ 376 ـ 377 ـ 388 ـ 423 ـ 429 ـ 430 ـ 550 ـ 557 ـ 558 ـ 587
أحمد بن عبد الرزاق (العقيد) : 609
أحمد مختار عمر (الاستاذ) : 513
الأحول بن الحسين : 597
اسماعيل بن العباس : 319
أعزام ابراهيم بن صالح : 389 ـ 390 ـ 391 ـ 392 ـ 395 ـ 397 ـ 402 ـ 412 ـ 413 ـ 414 ـ 416 ـ 418 ـ 419

أفلح : 507 ـ 514 ـ 515 ـ 612
أم ماطوس : 370
امرؤ القيس : 512
أولاد أبي مسور : 428
أولاد عبد الله : 428
أيوب بن أبي طاهر اسماعيل : 319
أيوب بن أبي عمران : 374

ب

بابا عمر عبد الرحمان (الدكتور) : 609
باعيسى العلواني : 428
الباروني (سليمان باشا) : 331 ـ 334 ـ 469
باكلي عبد الرحمان (الاستاذ) : 280 ـ 282 ـ 304 ـ 305 ـ 309 ـ 312 ـ 316 ـ 324 ـ 325 ـ 326 ـ 327 ـ 331 ـ 333 ـ 336 ـ 337 ـ 340 ـ 354 ـ 360 ـ 364 ـ 371 ـ 377 ـ 433 ـ 436 ـ 463 ـ 486 ـ 489 ـ 491 ـ 524 ـ 533 ـ 595 ـ 597 ـ 611 ـ 612
بالحاج محمد بن سعيد : 333 ـ 336
بني إبراهيم : 420
بني جلاب : 416 ـ 417 ـ 418 ـ 419
بني زيان : 416
بني سيسين : 404 ـ 406 ـ 420
بني مدرار : 424
بني وكين : 406 ـ 419 ـ 420
بني يروتن : 344
البغطوري : 284 ـ 300
البكري : 391

بكر بن ابي بكر النفوسي الفرسطاني : 285
بن خدة (الرئيس) 609
م. برونيل : 593
بوراس : 598
بورقيبة (الرئيس) : 599
بوالنعاش أحمد بن صالح : 595
بيرم التونسي : 391
بيلي : 592
بيوض ابراهيم (الشيخ) : 336 ـ 442 ـ 443 ـ 473 ـ 486 ـ 487 ـ 488 ـ 597 ـ 611

ت

تابركانت : 514
توزين : 344
توماس (العقيد) : 489 ـ 493
تيبغورين الملشوطي : 294 ـ 319 ـ 368
تيرشين ابراهيم : 609

ح

حسين البغدادي (الشيخ) : 599
حسن الدولاتلي : 355
حسن حسني عبد الوهاب (الاستاذ) : 550
حسين باشا (الداي) : 588 ـ 590
حماد بن بلقين : 344 ـ 345
حمود بن باحمد باكلي : 348 ـ 419
الحموي : 391

خ

خالد (الأمير) : 599
خالد بن الوليد : 610
الخبزي : 609
خلف بن أحمد : 284
خلف بن السمح : 284
خليفة بن أبغور : 429
خليفة بن عمار : 597
خير الدين : 581

د

داود بن سهل : 321
الدبوز (الاستاذ محمد علي الدبوز) : 280 ـ 424 ـ 426 ـ 430 ـ 432 ـ 438 ـ 441 ـ 477 ـ 478 ـ 479 ـ 480 ـ 481 ـ 482 ـ 483 ـ 484 ـ 485 ـ 486 ـ 488 ـ 558 ـ 563
دحمان (الشيخ) : 333 ـ 336
الدرجيني (أبو العباس أحمد بن سعيد الدرجيني) : 284 ـ 285 ـ 293 ـ 301 ـ 317 ـ 322 ـ 341 ـ 342 ـ 343 ـ 344 ـ 413 ـ 440
دوسرا : 437
دوق دالماس (المارشال) : 489
دولاتور دو فيرنيو (الجنرال) : 590
دو پيراي (الكومندان) : 590

ر

روندون (الكونت) : 589
روبيل : 593

س

السالمي : 391
سعد بن أبي وقاص : 610
سعد بن ييفاو : 321
سعيد التعاريتي الجربي : 325
سعيد بن علي الخيري الجربي (عمي سعيد) : 289 ـ 332 ـ 333 ـ 336 ـ 428 ـ 466 ـ 468 ـ 469 ـ 479 ـ 481 ـ 482
سليمان بن الحاج داود (الشيخ) : 575 ـ 577 ـ 578 ـ 607 ـ 611
سليمان بن عبد الله بن بكر : 319
سليمان عيسى اليزقني : 348
السمح بن أبي الخطاب : 514
سمداسن : 320
سي حواس (العقيد احمد بن عبد الرزاق) 609
سيدي الشيخ : 596

ش

شارل الخامس (شارلكان) : 578
الشريف الإدريسي : 314
الشماخي أبـو العبـــاس : 285 ـ 306 ـ 314 ـ 332 ـ 341 ـ 366 ـ 371 ـ 372 ـ 373
شوقي (أحمد شوقي) : 508 ـ 512

ص

صالح (الشيخ) : 318
صالح باي : 353 ـ 354 ـ 355
صالح بن يحي : 599

صالح الخرفي : 608
صالح سيوسيو : 599
صباح المزاتي : 494
صقر فارس (انظر عبد الرحمان بن رستم)
صقر قريش (انظر عبد الرحمان الداخل)

ض

ضياء الدين الثيني : 463 ـ 472 ـ 482

ط

طارق بن زياد : 610
طباخ داود بن ابراهيم : 348
طفيش (الشيخ طفيش انظر قطب الأيمة)

ع

عائشة بنت معاذ : 366 ـ 367 ـ 368 ـ 369
عاد : 386
عاصم السدراتي : 294 ـ 393 ـ 394
عبد السلام بن وزجون : 320
عبد العزيز (الشيخ الثيني) : 356
عبد العزيز الثيني : 355 ـ 486
عبد العزيز الثعالبي : 599
عبد الغفار بن مولاي محمد بن مولاي اعلاهم : 404 ـ 406
عبد القادر (الأمير) : 502 ـ 595
عبد الكريم (الأمير) : 589 ـ 599
عبد الله الباروني : 331

عبد الله الدمري : 342
عبد الله بن الأمير : 322
عبد الله بن منصور الورزاماري : 345
عبد الله بن جابر : 307
عبد الوهاب الرستمي : 514
عثمان باشا : 353
عبود بن منار المزاتي : 294 ـ 343
عثمان الكعاك (الاستاذ : انظر الكعاك)
العربي بن المهيدي : 609
عقبة بن نافع : 610
علي بن أبي طالب (ابو الحسن) : 497 ـ 499
علي بن أحمد العماني : 515
علي بن عبد اللطيف (الشيخ) : 356
عمر العوام : 334
عمر بن الخطاب : 307
عمر عبد العزيز : 346 ـ 359
عمرو بن عيسى التندميرتي النفوسي : 294
عمر عيسى بن ابراهيم : 363 ـ 585 ـ 594
عمرو بن العاص : 610
عمرو (كاتب الميورقي) : 343
عمي سعيد (انظر سعيد بن علي الخيري الجربي)
عثمان بن ديلم الطرفي : 341 ـ 342
العياشي : 391
عمي عيسى : 428
عيسى بن حمو الواهج : 335
عيسى بن قاسم : 325
عيسى بن يرصو كسن : 342 ـ 343

غ

غرافة ابراهيم : 597

ف

فخار حمو : 561 ـ 563
فرحات الجعبيري (الدكتور) : 296
فلفل بن فلنار : 342

ق

قارة حسن : 581
قاسم بن بالحاج : 331
قاسم الشماخي : 325
قحطان :512
قضي بكير : 609
قطب الأئمـــة (الشيـخ طفيش) : 325 ـ 331 ـ 336 ـ 417 ـ 428 ـ 431 ـ 433 ـ 445 ـ 451 ـ 469 ـ 473 ـ 482 ـ 596
قطفان بن سلمة الزواغي : 294

ك

الكعـاك (الاستـاذ عثمان الكعـاك) 391 ـ 415 ـ 428 ـ 431 ـ 432 ـ 506 ـ 507 ـ 510 ـ 511 ـ 587

ل

لقمان (عليه السلام) : 342
اللالوتيون : 428

م

م .برونيل : 586
م . ستيف : 591
مارغريت فان برشايم : 377
مامة بنت سليمان : 584
ماكسن بن الخير : 342 ـ 413
مالك (الامام) : 444
المتنبي : 512
محمد رسول الله ﷺ : 299 ـ 315 ـ 329
محمد المصعبي : 468
محمد ببانو (الشيخ) : 381
محمد بن الأعلى : 596
محمد بن بكر : 285
محمد بوشوشة : 348 ـ 349 ـ 418 ـ 419 ـ 420
محمد الثيني (الشيخ) : 599
محمد علي الدبوز (الاستاذ) انظر الدبوز . مرغريت (الجنرال) : 596
مرنار : 592
مسعود بن منصور الورزماري : 345
مصالي الحاج : 597
مصعب بن سدمان : 431 ـ 432 ـ 433
مطهر بن نفاض : 344
مغراوة : 320 ـ 345
معاذ بن أبي علي : 365 ـ 366
المعز بن باديس الصنهاجي :306 ـ 308
المعز لدين الله الفاطمي : 300 ـ 301 ـ 312 ـ 347
مفدي زكرياء : 597 ـ 608
المقراني ـ 595

منصور بن مليك : 344
موسى بن أحمد الغرداوي : 335
موسى بن نصير : 610
الميورقي (ابن غانية يحي بن اسحاق) : 307 ـ 342 ـ 390 ـ 399 ـ 404 ـ 413 ـ 414 ـ 495 ـ 462

ن

نزار (نزار قباني) : 512
نفاث بن النصر : 514
نيلنو : 496

هـ

هانري روبير : 592
هود (عليه السلام) : 386
هويدي : (انظر يحي هويدي)

و

وردة الجزائرية : 608
وارسفلاس بن مهدي النفوسي : 375
الونزيرفي : 284
ورتيزلن (بني ورتيزلن) : 342

ي

يحي بن صالح : 334
يحي بن اسحاق (انظر الميورقي)
يحي بن ويجمين : 320

يحي هويدي (الدكتور) : 495 ـ 497 ـ 500 ـ 502 ـ 505
يتح : 583 ـ 589
يزيد بن يخلف الزواغي : 294
يعقوب بن أفلح : 428 ـ 437 ـ 438 ـ 439 ـ 440 ـ 497 ـ 499
ـ 502 ـ 503 ـ 504
يعرب : 512
يعقوب بن المنصور : 390
يوسف اللواتي : 294
يوسف المصعبي : 335 ـ 468 ـ 469
يوسف بن حمو اليسجني : 507
يوسف بن زيري : 312
يوسف بن محمد : 472
يونس : 285
يونس بن أبي الحسن : 320

فهرس البلدان

أ

آجلو : 280 ـ 295 ـ 341 ـ 364 ـ 365 ـ 366 ـ 371 ـ 376
ـ 378 ـ 434 ـ 454 ـ 462
أرض الشبكة (انظر الشبكة)
أريغ (وادي أريغ) : 280 ـ 282 ـ 285 ـ 286 ـ 295 ـ 312 ـ 315
ـ 319 ـ 321 ـ 342 ـ 343 ـ 344 ـ 465 ـ 371 ـ 376 ـ 378
ـ 414 ـ 416 ـ 417 ـ 423 ـ 426 ـ 433 ـ 434 ـ 437 ـ 445
ـ 454 ـ 456 ـ 459 ـ 462
إمصراتن : 287
إين ونودي : 343
أسبانيا : 408 ـ 409 ـ 577 ـ 578
الأصنام : 609
أفريقيـــا : 380 ـ 381 ـ 391 ـ 408 ـ 411 ـ 413 ـ 432 ـ 434
ـ 443 ـ 496 ـ 497 ـ 505 ـ 590 ـ 598
أنقوسة (أنقوصة) : 378 ـ 414 ـ 417 ـ 430
الأغواط : 281 ـ 353 ـ 378 ـ 430 ـ 582 ـ 589 ـ 609
الأندلس : 281 ـ 384 ـ 413 ـ 416
أودية زناتة : 441
أوراس (أنظر جبال أوراس)
أوروبا : 358 ـ 384
إيفران (افران) : 378

ب

بـاديـة بني مصعب : 422 ـ 424 ـ 427 ـ 430 ـ 431 ـ 432 ـ 434 ـ 435 ـ 436 ـ 440 ـ 442 ـ 446 ـ 449 ـ 450 ـ 452 ـ 454 ـ 455 ـ 456 ـ 459 ـ 462 ـ 463 ـ 467

باريس : 489 ـ 495 ـ 526 ـ 586 ـ 599

باغاي : 280 ـ 282

بجاية : 410

البحرين : 445

برج بوليلة : 464 ـ 526 ـ 577 ـ 578 ـ 580

بريان : 289 ـ 429 ـ 430 ـ 469

بسكرة : 437

البصرة : 393

بغاي : 376

بلدة عمر : 364

البندقية : 409

بنورة : 333 ـ 336 ـ 427 ـ 429 ـ 430 ـ 456

البوسنة : 593

بوغار ـ 595

بونة ـ 306

ت

تاجديت (تجديت) : 280 ـ 295 ـ 315 ـ 319 ـ 364 ـ 371 ـ 372 ـ 374 ـ 378

تاماست : 320 ـ 462

تازا : 595

تافنة : 595

تاكدمت : 371 ـ 595

تـــاهرت (تيهرت) 281 ـ 292 ـ 299 ـ 300 ـ 346 ـ 371 ـ 376 ـ 377 ـ 394 ـ 424 ـ 428 ـ 433 ـ 434 ـ 438 ـ 439 ـ 440 ـ 441 ـ 444 ـ 445 ـ 451 ـ 497 ـ 499 ـ 503 ـ 575

تقبوس : 285

تقرت : 348 ـ 364 ـ 376 ـ 377 ـ 387 ـ 416 ـ 417 ـ 418

تكسينت : 344

تلمسان : 292 ـ 410

تهامة : 507

توزر : 343

تـونس : 280 ـ 281 ـ 288 ـ 292 ـ 300 ـ 304 ـ 326 ـ 392 ـ 394 ـ 402 ـ 414 ـ 428 ـ 437 ـ 472 ـ 525 ـ 532 ـ 533 ـ 596 ـ 599 ـ 606 .

تونين : 318

تيمراست : : 609

تين زارين : 344

تينوال : 319

ث

ثالا عيسى : 343

ج

جادو : 287

جامعة : 371

جبال أوراس : 280 ـ 282 ـ 393

جبال بني راشد : 435

جبـال بني مصعب : 281 ـ 312 ـ 315 ـ 316 ـ 378 ـ 424 ـ 443 ـ (وانظر ميزاب)

جبال دمر : 312 ـ 335
جبال سوق اهراس : 609
جبال عمور : 355
الجبـــل : 287 ـ 289 ـ 295 ـ 298 ـ 321 ـ 327 ـ 335 ـ 382 ـ 437 ـ 445 ـ 463 ـ 469 ـ 562
جبل الاباظ : 429
جبل العباد : 378 ـ 383 ـ 385 ـ 414
جبل الكريمة : 414
جبل نفوسة (انظر نفوسة)
جدة : 525
جربـــــة : 284 ـ 285 ـ 287 ـ 288 ـ 290 ـ 295 ـ 302 ـ 312 ـ 331 ـ 332 ـ 333 ـ 334 ـ 335 ـ 336 ـ 348 ـ 377 ـ 394 ـ 396 ـ 397 ـ 407 ـ 425 ـ 428 ـ 437 ـ 463 ـ 466 ـ 468 ـ 550 ـ 555 ـ 578
الجريد : 295 ـ 376
الجزائر : 279 ـ 280 ـ 281 ـ 292 ـ 295 ـ 298 ـ 300 ـ 303 ـ 304 ـ 305 ـ 312 ـ 316 ـ 324 ـ 327 ـ 331 ـ 332 ـ 333 ـ 346 ـ 352 ـ 353 ـ 354 ـ 355 ـ 356 ـ 359 ـ 360 ـ 361 ـ 362 ـ 363 ـ 370 ـ 376 ـ 377 ـ 379 ـ 380 ـ 392 ـ 393 ـ 394 ـ 402 ـ 407 ـ 409 ـ 410 ـ 414 ـ 423 ـ 424 ـ 428 ـ 429 ـ 430 ـ 432 ـ 433 ـ 437 ـ 440 ـ 242 ـ 450 ـ 452 ـ 464 ـ 470 ـ 472 ـ 475 ـ 477 ـ 485 ـ 487 ـ 489 ـ 495 ـ 497 ـ 502 ـ 505 ـ 506 ـ 508 ـ 518 ـ 522 ـ 525 ـ 526 ـ 527 ـ 528 ـ 532 ـ 533 ـ 554 ـ 555 ـ 556 ـ 558 ـ 571 ـ 574 ـ 575 ـ 576 ـ 577 ـ 578 ـ 579 ـ 580 ـ 581 ـ 582 ـ 583 ـ 586 ـ 587 ـ 588 ـ 589 ـ 590 ـ 591 ـ 593 ـ 596 ـ 598 ـ 599 ـ 600 ـ 601 ـ 602 ـ 603 ـ 605 ـ 606 ـ 608 ـ 609 ـ 610 ـ 611

جزيرة العرب : 609
جعراف : 365
الجنوب التونسي : 284
الجنوب الجزائري : 358

ح

الحامة : 301 ـ 347
الحراش : 577 ـ 578

د

دريوط : 578

ر

راس الوادي : 342
الرحيبات : 335
الرمال : 281 ـ 315 ـ 378
الريف : 598

ز

الزاب : 280 ـ 292 ـ 312 ـ 315 ـ 344 ـ 378
زريق : 344
زنجبار : 445
زواعة : 285

س

سدراتة (صـدراتـة) : 282 ـ 308 ـ 315 ـ 378 ـ 383 ـ 384 ـ 385
ـ 386 ـ 389 ـ 390 ـ 394 ـ 399 ـ 404 ـ 414 ـ 422 ـ 424
ـ 425 ـ 426 ـ 429 ـ 434 ـ 436 ـ 437 ـ 438 ـ 439 ـ 440
ـ 441 ـ 456 ـ 459 ـ 462 ـ 495 ـ 496 ـ 497
سوف : 462
سجلماسة : 424
سهل مصطفى باشا : 578
السودان : 314 ـ 401
سـوف (وادي سـوف) : 280 ـ 281 ـ 282 ـ 312 ـ 315 ـ 341
ـ 344 ـ 376 ـ 378 ـ 414 ـ 609

ش

الشبكـة (أرض الشبكـة) : 429 ـ 430 ـ 431 ـ 432 ـ 446 ـ 448
ـ 449 ـ 456 ـ 463 ـ 467 ـ 470
شروس : 284 ـ 321

ص

صدراتة (انظر سدراتة)
الصحراء : 380 ـ 381 ـ 392 ـ 412 ـ 414 ـ 420 ـ 429 ـ 430
ـ 470 ـ 476 ـ 489 ـ 596 ـ 609
الصحراء الكبرى : 430

ط

طبنة : 403
طرابلس : 312 ـ 377 ـ 393 ـ 428 ـ 514

ع

العطف : 426 ـ 428 ـ 429 ـ 430 ـ 433 ـ 434 ـ 435 ـ 436
ـ 441 ـ 454 ـ 456 ـ 457 ـ 609
عمان : 445
عنابة : 410 ـ 532
عين الصفا : 414
عين ماضي : 595

غ

غابة الحاجب : 609
غردايـــة : 331 ـ 333 ـ 336 ـ 378 ـ 428 ـ 429 ـ 430 ـ 456
ـ 558 ـ 560 ـ 566 ـ 571 ـ 582 ـ 583 ـ 584 ـ 587 ـ 589
ـ 590 ـ 592 ـ 593 ـ 596
غانة : 314
غدامس : 381 ـ 555
غريان : 555

ف

فرسطاء : 284
فرنســـا : 353 ـ 409 ـ 505 ـ 525 ـ 532 ـ 533 ـ 577 ـ 578
ـ 581 ـ 582 ـ 583 ـ 585 ـ 586 ـ 587 ـ 588 ـ 589 ـ 590
ـ 591 ـ 592 ـ 593 ـ 594 ـ 595 ـ 596 ـ 600
فساطو : 428
فلسطين : 501

ق

قابس : 307
القاهرة : 312 ـ 402 ـ 608
قبرص : 593
القرارة : 289 ـ 429 ـ 430 ـ 467 ـ 468 ـ 487
قسنطينة : 340 ـ 348 ـ 376 ـ 437 ـ 577 ـ 586
قصر بني وليل : 365
قصطالية (قصطيلية) : 282 ـ 312 ـ 341 ـ 344 ـ 376
القيروان : 285 ـ 394
قنطرار : 344

ك

كدية مغراوة : 345
كريمة (الكريمة) : 378 ـ 429 ـ 495 ـ 497

ل

ليبيا : 280 ـ 295 ـ 297 ـ 298 ـ 333 ـ 346 ـ 362 ـ 370 ـ 392
ـ 394 ـ 402 ـ 459 ـ 472 ـ 502 ـ 513 ـ 563 ـ 611

م

مانو : 295 ـ 298 ـ 302
متليلي : 281 ـ 378 ـ 596
المدينة المنورة : 525
المدية : 595
مراكش : 406
المسيلة : 403

مسعد : 443
مصر : 599
مصعب : 427 ـ 431 ـ 432 ـ (وانظر ميزاب)
معسكر : 595
المغرب : 281 ـ 284 ـ 286 ـ 289 ـ 293 ـ 294 ـ 295 ـ 297
ـ 302 ـ 312 ـ 331 ـ 333 ـ 335 ـ 346 ـ 348 ـ 349 ـ 362
ـ 380 ـ 385 ـ 386 ـ 389 ـ 391 ـ 393 ـ 394 ـ 402 ـ 403
ـ 407 ـ 413 ـ 424 ـ 428 ـ 437 ـ 444 ـ 449 ـ 452 ـ 472
ـ 473 ـ 484 ـ 496 ـ 512 ـ 525 ـ 570
المغرب الأدنى : 441
المغرب الأقصى : 441
مكة : 502 ـ 525
المليانة : 595
مليكـــة (وادي مليكـــة) : 331 ـ 332 ـ 333 ـ 429 ـ 430 ـ 455
ـ 461 ـ 583
منى : 525
المنيعة : 281 ـ 378
ميزاب (وادي ميزاب) : 280 ـ 282 ـ 286 ـ 289 ـ 290 ـ 295
ـ 303 ـ 304 ـ 305 ـ 308 ـ 324 ـ 330 ـ 332 ـ 334 ـ 335
ـ 336 ـ 337 ـ 338 ـ 340 ـ 345 ـ 348 ـ 350 ـ 352 ـ 353
ـ 354 ـ 355 ـ 357 ـ 358 ـ 359 ـ 360 ـ 363 ـ 364 ـ 377
ـ 878 ـ 380 ـ 390 ـ 414 ـ 417 ـ 422 ـ 423 ـ 424 ـ 425
ـ 426 ـ 427 ـ 428 ـ 429 ـ 430 ـ 431 ـ 432 ـ 433 ـ 438
ـ 440 ـ 441 ـ 442 ـ 443 ـ 444 ـ 446 ـ 454 ـ 456 ـ 458
ـ 459 ـ 460 ـ 461 ـ 462 ـ 467 ـ 472 ـ 477 ـ 478 ـ 479
ـ 481 ـ 482 ـ 483 ـ 484 ـ 485 ـ 489 ـ 490 ـ 491 ـ 494
ـ 497 ـ 498 ـ 499 ـ 500 ـ 501 ـ 504 ـ 505 ـ 539 ـ 544

- 545 - 549 - 555 - 558 - 559 - 560 - 577 - 578 - 579
- 580 - 581 - 582 - 586 - 588 - 589 - 590 - 591 - 592
- 593 - 595 - 596 - 597 - 609 - 611
ميورقة : 413

ن

نالوت : 340
نجد : 507
نفطة : 376
نفوسة (جبل نفوسة) : 287 - 289 - 290 - 295 - 298 - 300
- 202 - 212 - 331 - 332 - 333 - 334 - 335 - 383 - 407
- 414 - 423 - 425 - 428 - 431 - 437 - 452 - 466 - 468
- 562
نقارة : 314
نيلي : 430

هـ

الهركس : 593
هكارة : 314

و

الواحات : 282 - 304 - 324 - 327 - 341 - 345 - 350 - 380
- 411 - 412 - 455 - 459 - 464 - 593
وادي أريغ (انظر أريغ)
وادي إيغارغار : 376
وادي زقرير : 461 - 463 - 467

وادي سوف (انظر سوف)
وادي مصاب : 443 - (وانظر ميزاب)
وادي ملوية : 390 - 414
وادي مليكة (انظر مليكة)
وادي مينة : 429 - 438
وادي النساء : 461 - 463 - 467
وارجلان : 280 - 282 - 286 - 291 - 293 - 299 - 303 - 304
- 305 - 308 - 312 - 314 - 315 - 316 - 320 - 324 - 330
- 335 - 341 - 343 - 344 - 345 - 348 - 350 - 352 - 356
- 357 - 359 - 361 - 364 - 376 - 377 - 378 - 380 - 381
- 382 - 383 - 384 - 386 - 387 - 388 - 389 - 390 - 391
- 392 - 393 - 394 - 395 - 396 - 397 - 399 - 400 - 401
- 402 - 404 - 405 - 406 - 407 - 408 - 409 - 410 - 411
- 412 - 413 - 414 - 416 - 417 - 418 - 419 - 420 - 422
- 423 - 424 - 425 - 426 - 428 - 429 - 430 - 433 - 434
- 435 - 436 - 437 - 438 - 439 - 440 - 441 - 445 - 454
- 456 - 459 - 462 - 495 - 496 - 497 - 503 - 550 - 555
- 611
واغلانت : 376 - 462
ورقلة : 314 - 331 - 334 - 376 - 388 - 390 - 391 - 392
الونشريس : 609
وهران : 353 - 410 - 444 - 532

ي

يزڤن : 331 - 333 - 429 - 430 - 455 - 461
يسجن (يسڤن) : 336 - 356 - 428
يفرن : 335 - 414
اليمن : 445

محتويات الجزء الثاني من الكتاب

الباب الثالث :
صور مختلفات عن مشهد واحد (279 ـ 363)

الاباضية في الجزائر 279
تجمعات إباضية في الجزائر 292
تجنب إباضية المغرب للنزاع على السلطة 297
انتشار الإباضية ثم انحصارهم 304
صور مصغرة لحياة الاباضية في الجزائر 312
البراءة والهجران 317
الاباضية مع جيرانهم 324
العلاقة الاباضية في المغرب الاسلامي 331
مواقف العزابة في كفاح الباطل 337
فتن متوالية 341
إمارات الدفاع 346
إباضية الجزائر تحت الحكم العثماني 352

الباب الرابع :
صورة عن مدن وبلدان (364 ـ 474)

آجلو 364
تجديت 371
أراضي تقرت 376
رحلة وزيارة 360
قيل عن أهل وارجلان 388
وارجلان 389
العهد الأول 393

العهد الثاني 399
العهد الثالث 404
العهد الرابع 409
فتن ساحقة في وارجلان 412
بين وارجلان ووادي ميزاب 422
وادي ميزاب 428
من هم بنو ميزاب 443
العهود التاريخية لبني مصعب 446
العهد الأول 448
العهد الثاني 455
العهد الثالث 463

الباب الخامس :
صورة عن نقود وردود (475 ـ 555)

لا ياأخي 477
ميزاب في نظر مستشرق 489
ميزاب في نظر مستغرب 494
وقفة مع الاستاذ الكعاك 506
مع الدكتور أحمد مختار عمر 513
بنو مصعب والغربة 518
المرأة الميزابية والغربة 539

الباب السادس :
المؤسستان : الثانية والثالثة (556 ـ 614)

مجلس العزابة 556
مجلس العشيرة 556
مجلس إيمصوردان 560

الاباضية والجهاد في سبيل الله 572
كلمة أخيرة 611
كلمة الختام 614
فهرس الاعلام 619
فهرس البلدان 633
محتويات الكتاب 644

المطبعة العربية
18 ، نهج طالبي أحمد ـ غرداية
الايداع القانوني رقم **33** 6 – 86